

جامع التواريخ

تاریخ غازان خان



دراسة وترجمة
الدكتور فؤاد عبد المعطي القباد

تأليف
رشيد الدين فضل الله الهمداني

الدار الثقافية للنشر

جامع التواريخ

تاريخ غازان خان

تأليف
رشيد الدين فضل الله الهمداني

دراسة وترجمة
الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد

الدار الثقافية للنشر

Jami'e Al-Tawarikh

عنوان الكتاب: جامع التاريخ الهندي

Dr. Fouad Abdal-Mouty Al-Sayad

ترجمة ودراسة / د. فؤاد عبد المطلب السيد

17 x 24 cm. 446p

١٧×٢٤ سم. ٤٤٦ ص.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٩/٢٢٨٨

الترقيم الدولي: ISBN: 977-5875-70-6

اسم الناشر: الدار الثقافية للنشر

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م

حقوق النشر والطبع محفوظة للناشر

الدار الثقافية للنشر - القاهرة



ص.ب ١٣٤ بالقاهرة - هاتف وفاكس ٤٠٢٧١٥٧

Email: sales@thakafia.com

Website: www.thakafia.com

المقدمة والدراسة

كيفية نطق الحروف الفارسية المستعملة في هذا الكتاب

- (١) الحرف الفارسي (پ) ينطق مثل حرف (P) في اللغة الإنجليزية.
 - (٢) الحرف الفارسي (چ) ينطق مثل حرفي (CH) في اللغة الإنجليزية.
 - (٣) الحرف الفارسي (ژ) ينطق مثل حرف (J) في اللغة الإنجليزية.
 - (٤) الحرف الفارسي (گ) ينطق مثل حرف (G) في اللغة الإنجليزية.
- في مثل كلمات: Big - Gun - Garden
أو مثل الجيم المصرية في اللهجة الدارجة.

مُقَلَّمَةٌ

هذه ترجمة كاملة قمت بها لتاريخ غازان خان الذى يكون قسما مهما من كتاب جامع التواريخ، تأليف مؤرخ المغول الكبير "رشيد الدين فضل الله الهمذاني". ولا شك أن الترجمة ضرورة إنسانية وفكرية وحضارية لا غنى عنها لكل أمة حية تنشد الكمال الإنسانى أو الاقتراب منه فى الأقل. كما أن ترجمة الآثار الفكرية من أجدى أنواع الترجمة وأهمها لأنها تفسح المجال واسعا أمام أبناء مختلف أمم الأرض للاطلاع على ميراث بعضها والإفادة منه وربما التأثير به أيضا^(١).

ولن يتسنى للشعوب وفى طليعتها العرب أن تنال نصيبها من التراث الإنسانى بشقيه العلمى والثقافى إلا عن طريق الترجمة؛ فهى الجسر الوحيد الذى نعبر عليه إلى حياة علمية راقية^(٢).

وخير ما نذكره فى هذا المقام هو ما سبق أن قاله أستاذنا المرحوم الدكتور إبراهيم أمين الشواربى: "لو استطاع كل متخصص فى علم من العلوم أو فن من الفنون أن ينقل إلى العربية كتابا واحدا من أمهات الكتب المتعلقة بموضوع تخصصه، لكان للعربية من مجموع هذه الترجمات ثروة طائلة كفيلة بأن تجدد الفكر العربى واللغة العربية تجديدًا كاملاً، ينتهى بنا إلى نهضة كاملة شاملة كالتى حدثت فى أوروبا عندما نقلت إلى لغاتها الكتب العربية والشرقية فى سالف الوقت والزمان، ولاستكملنا بهذه الثروة العريضة ما نقصنا فى الفترة التى وقفنا فيه موقف الفتور والتكاسل والتخلف والتواكل"^(٣).

كان رشيد الدين مؤرخا كبيرا وكتابا موسوعيا أحاط علمه بكثير من أنواع المعارف والثقافات. ولكن شهرته كمؤرخ كانت تأتى فى المقدمة دائما. وعندما حاول المستشرقون

(١) سياست نامه أو سير الملوك، تأليف نظام الملك الطوسى، ترجمة الدكتور يوسف حسين بكار، الطبعة الثانية، ص ٥ الدوحة دولة قطر، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(٢) مجلة الثقافة: مقالة الدكتور زهير عبد الوهاب بعنوان: حاجتنا إلى الترجمة، العدد الثالث، المجلد الرابع والأربعون، ص ١٠، عدد ربيع الأول ١٤١٦هـ - يولية أغسطس ١٩٩٥م، للملكة العربية السعودية.

(٣) تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى، تأليف المستشرق الكبير إدوارد جرانفيل بسراون، نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربى، ص ٢، القاهرة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

دراسة دراسة متعمقة كان أول ما استرعى نظرهم كتابه جامع التواريخ. وكانوا على صواب فيما ذهبوا إليه، لأن كتابه التاريخي هو الذي أذاع صيته ورفع قدره وسجل اسمه بين النابغين الأفاضل من أبناء الشرق الإسلامي.

ومن المتفق عليه أيضا أن القيمة الحقيقية لهذا الكتاب إنما تتجلى في المجلد الأول المتضمن تاريخ المغول؛ فعندما تحدث رشيد الدين عن هؤلاء القوم ذكر أصلهم ونشأتهم وقبائلهم وعاداتهم وتقاليدهم وفتوحاتهم على نحو دقيق ومفصل لم نشهده في أي مصدر آخر.

ولا شك أن الباحث يهجم عندما يتناول التاريخ المبكر للإمبراطورية المغولية أن يستطيع التمييز بين الحقائق التاريخية المقبولة وبين الأساطير. ثم إن المعلومات عن المغول الأول لتبدو جوهرة للطالب الذي يريد أن يتناول بإحكام علاقتهم الخارجية فيبرز تأثيرهم في الجنس البشري خارج حدودهم. كذلك تبرز أهمية الكتاب فيما نقرؤه عن المغول في الأحداث التي كان يعايشها المؤرخ؛ فقد عاصر دولة المغول في أبعث فترات، وشاهد حصار بغداد وفتحها على يد هولاكو خان، والتحق بخدمة أعظم سلاطين الإيلخانيين وبلغ أسمى المراتب في عهد غازان وأولجايتو وفترة من حكم أبي سعيد بهادر خان، ولعب دورا هاما في سياسة دولة المغول وإدارتها. فإذا جاء هذا المؤرخ وأرخ لهذه الفترة، فإنه يؤرخ لأحداث كان يعاشرها ويشهدها بعيني رأسه، وبصفها وصف المثقف الخبير بشئون الحياة. كذلك استطاع الاطلاع على الوثائق المكتوبة والإفادة منها. وهذه ميزة كبيرة لم تتوفر لغيره ممن كتبوا عن تاريخ المغول من السابقين أو المعاصرين له.

لكل هذه الميزات لقي المجلد الأول من هذا الكتاب اهتمام المستشرقين والباحثين فخصوه بعنايتهم، وعكفوا على تحقيقه ونشره وترجمته إلى مختلف اللغات الأوروبية وجاءت هذه الترجمات مصحوبة بالشروح والتعليقات. وكان في مقدمة ما عتوا به القسم المشتمل على تاريخ الإيلخانيين "سلاطين المغول في إيران"، فهو عظيم الأهمية:

أولا: وبالذات لعرض الأحداث التي وقعت في القرنين السابع والثامن الهجريين "الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين"، وشملت إيران وجورجيا وأرمينية ووسط آسيا وغربها.

ثانيا: للحديث عن الإصلاحات المختلفة التي قام بها غازان خان.

ولم تكن اللغة العربية بمعزل عن الاستفادة من هذا الأثر الخالد أيضا؛ فقد شاركت المحرمين الأستاذين محمد صادق نشأت والدكتور محمد موسى هندلوى فى ترجمة النص المتعلق بتاريخ هولاكو خان، ونشر فى القاهرة عام ١٩٦٠م تحت عنوان: جامع التواريخ: رشيد الدين فضل الله الهمذاني: تاريخ المغول، المجلد الثانى - الجزء الأول - الإبلخانيون: تاريخ هولاكو.

وهذا القسم سبق أن حقق نصه الفارسى المستشرق الفرنسى كاترمير مع ترجمة فرنسية للمتن الفارسى، ونشر الأصل والترجمة فى باريس عام ١٨٣٦م. وقد صحب المتن كثير من الحواشى والتعليقات المستفيضة التى تدل على اطلاع واسع وعلم غزير. وصدرت هذه الطبعة بمقدمة باللغة الفرنسية ذات قيمة علمية كبيرة عن حياة رشيد الدين وآثاره. هذا وقد قام المحرم الدكتور محمد القصاص بترجمة هذه المقدمة إلى اللغة العربية، تصدرت الترجمة العربية لتاريخ هولاكو خان على النحو الذى ذكرناه سابقا.

كذلك شاركت الأستاذ محمد صادق نشأت فى ترجمة النص المتضمن تاريخ أبناء هولاكو خان من آبا قاخان إلى كيخسار توخان. وهذا النص سبق أن نشره بالفارسية المستشرق "كارل يان" فى براغ عام ١٩٤١م. وقد صدرت الترجمة العربية أيضا فى القاهرة عام ١٩٦٠م.

ثم قمت بمفردى بترجمة قسم آخر من هذا الكتاب بعنوان: "جامع التواريخ" تأليف "رشيد الدين فضل الله الهمذاني": "تاريخ خلفاء چنگيز خان من أوغشاي قاآن إلى تيمور قاآن، بيروت ١٩٨٣م. وذلك عن الطبعة التى نشرها بالفارسية المستشرق الفرنسى بلوشيه " Blochet " فى ليدن سنة ١٣٢٩هـ - ١٩١١م ضمن سلسلة جب التذكارية. وقد تم صدور هذه الأجزاء الثلاثة بإشراف أستاذنا المحرم الدكتور يحيى الخشاب ومراجعته.

وعلى هذا يبقى من تاريخ الإبلخانيين قسم هام جدا، وهو الذى يتناول تاريخ غازان خان. ولعل هذا القسم هو أهم أقسام جامع التواريخ لأنه يتضمن الإصلاحات العديدة التى قام بها غازان وتناولت كل شئون الحياة من إدارة واقتصادية وقضائية وعمرانية. وقد قدر لهذه الإصلاحات البقاء الطويل بعد ذلك فى الممالك الإسلامية. ولا شك أن هذه الجوانب تجذب أنظار الذين يؤرخون للحضارة الإسلامية. كما تحظى باهتمام الباحثين والدارسين.

وقد لوحظ أن المؤرخ رشيد الدين ذكر تاريخ "بايدو" ضمن تاريخ غازان خان لأن "بايدو" في الحقيقة تولى الحكم لفترة قصيرة جدا لا تزيد على ستة أشهر، من جمادى الأولى إلى ذى القعدة سنة ٦٩٤هـ. أبريل إلى أكتوبر سنة ١٢٩٤م، فرأى رشيد الدين أن يكتب تاريخ هذا الإيلخان كجزء لا يتفصل عن تاريخ غازان الذى حارب بايدو وانتصر عليه، وتولى الحكم بعده فى سنة ٦٩٤هـ - ١٢٩٤م، وذلك على النحو الذى يطلعه القارئ فى الترجمة.

هذا قليل من كثير مما حواه النص الفارسى لتاريخ غازان. ويرجع الفضل الكبير فى تحقيق هذا القسم أيضا إلى الأستاذ العالم المستشرق كارل يان "Karl Jhan" الذى قام بنشره بعنوان: "كتاب تأريخ مبارك غازاني: داستان غازان خان" تأليف رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبى الخير بسعى واهتمام وتصحيح أقل العباد كارل يان، هرتفورد، إنجلترا سنة ١٣٥٨ هجرى مطابق ١٩٤٠ مسيحي. وقد صدر تحقيق هذه الطبعة بمقدمة كتبها باللغة الألمانية.

وفى عصرنا الحاضر نال كتاب جامع التواريخ حظا وافرا من عناية الأفراد والحكومات، وحدثت تطورات واتجاهات مختلفة، وكلها تؤكد ضرورة دراسته كأثر من آثار الشرق التاريخي.

ونظرا للأهمية القصوى للمجلد المتعلق بتاريخ الإيلخانيين، استقر الرأى على أن يبدأ العلماء الروس بنشره اعتمادا على أوثق المخطوطات الخاصة بكتاب جامع التواريخ والمحفوظة بمكتبات العالم. ثم عهد إلى الأستاذ "عبد الكريم على أوغلى على زاده" بتحقيقه ونشره، وصدر ضمن منشورات مجمع علوم جمهورية روسيا السوفيتية الاشتراكية بآذربيجان معهد التاريخ، باكو ١٩٥٧م.

ولما كان هذا المجلد يضم قسما كبيرا يشتمل على تاريخ غازان خان، وكان لا يزال فى نصه الفارسى، عقدت العزم على ترجمته أيضا إلى اللغة العربية؛ إذ رأته أصبح وأدق بالقياس إلى غيره من الطبقات.

بقى أن نقرر أن رشيد الدين قد أنهى المجلد الأول من كتابه بتاريخه لغازان خان، وأنه لم يستكمل تاريخ الإيلخانيين؛ إذ لا يزال هناك اثنان من كبار الإيلخانيين حكما إيران بعد

أولاً : رشيد الدين وكتابه جامع التواريخ

هو رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير ابن موفق الدولة الهمداني^(١). كان جده موفق الدولة يعيش مع الخواجة نصير الدين الطوسي في قلاع الإسماعيلية بـقـهـسـتـان ثم التحق بخدمة هولاكو خان على أثر استيلائه على تلك القلاع^(٢).

ولد رشيد الدين في همدان سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م، وأمضى فترة شبابه هناك في تحصيل العلوم المختلفة وبخاصة الطب. وعن طريق مهنة الطب عمل طبيباً في بلاط آبا قاخان (٦٦٣-٦٨٠هـ/١٢٦٤-١٢٨١م) ثم صار يترقى شيئاً فشيئاً إلى أن عين وزيراً في عهد السلطان غازان خان (٦٩٤-٧٠٣هـ/١٢٩٤-١٣٠٣م)، واستمر يتقلد أعباء هذا المنصب في عهد السلطان أوجتايو (٧٠٣-٧١٦هـ/١٣٠٣-١٣١٦م) وابنه السلطان أبي سعيد بهادر خان (٧١٦-٧٣٦هـ/١٣١٦-١٣٣٥م).

كان رشيد الدين من أصل يهودي^(٣). ثم أسلم وخلص إسلامه. وكان يسير في حياته الرسمية سير المسلم الصحيح الإيمان الكامل العقيدة. وهناك علماء لا سبيل إلى الشك في حسن نيتهم وكفائتهم شهدوا بصحة عقيدته في كتاباته وفي حياته، وأن أعماله كلها كانت خيراً وبركة على الإسلام والمسلمين.

(١) انظر المزيد من التفاصيل في كتاب مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني، الطبعة الأولى تأليف الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد، القاهرة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م. أتمن كشور داري در عهد وزارت رشيد الدين فضل الله همداني، تأليف دكتور هشام رجب زاده، تهران ٢٥٣٥ شاهنشاهی.

(٢) انظر كتاب المغول في التاريخ، تأليف الدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد، ص ٢٣٢ وما بعدها، القاهرة ١٩٧٥م.

(٣) انظر فؤاد عبد المعطي الصياد: مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني، ص ٩٤ وما بعدها؛ مجموعة خطابه های تحقیقی در باره رشيد الدين فضل الله همداني: مقالة الأستاذ عباس زریاب غویی بعنوان: سه نکته در باره رشيد الدين فضل الله، ص ١٢٢-١٣٥، طهران ١٣٥٠هـ. ش؛ جامع التواريخ رشيد الدين فضل الله همداني، به تصحيح ونشره محمد روشن - مصطفی موسوی، جلد اول، ص ٧٢ وما بعدها من المقدمة، تهران ١٣٧٢هـ. ش؛ Walter J. Fischel: Jews in Economic and Political life of Mediaeval Islam, Royal Asiatic Society Monographs, Vol. XXII, PP. 118-125, London 1937, Encyclopaedia Judaica, Vol 13. P. Rec. Second Printing, p. 1566, Jerusalem, 1973.

دکتر شریع بیانی (اسلامی نشون): دین و دولت در ایران عهد مغول، حکومت ایلخانی: نبرد میان دو فرهنگ، جلد دوم، ص ٤٩٠-٤٩٣، چاپ اول، تهران ١٣٧١هـ. ش

استمر رشيد الدين يعيش معززا مكرما. لكنه في أوائل عهد أبي سعيد وقع فريسة للدهائن والمؤامرات التي كان يحكيها له زميله في الوزارة "علي شاه الجيلاني" وانتهى الأمر بقتله بغير حق بأمر أبي سعيد بالقرب من تبريز في جمادى الأولى عام ٧١٨هـ / ١٣١٨م، وهو في الثالثة والسبعين من عمره. وبذلك أنهوا حياة أحد عظماء الحكماء والأطباء والكتاب والمؤرخين والوزراء^(١). وعلى أثر مقتله نهبت جميع أمواله وممتلكاته، وخربت محلة "الربع الرشيدى" التي أقامها شرقى تبريز، وأتلفت المكتبة التي كان يضمها هذا الربع، وكانت تحوى ستين ألف مجلد^(٢).

كان رشيد الدين رجلا واسع الأفق غزير الثقافة، يعرف كثيرا من اللغات والثقافات العبرية والفارسية والعربية والتركية والمغولية. وعندما تولى غازان خان عرش المغول، وعرف في مؤرخنا النبوغ والذكاء ولمس فيه الإخلاص والوفاء، لم يكتف بتقليده منصب الوزارة فحسب، بل كلفه بعمل أدبي كبير هو تأليف كتاب جامع في تاريخ المغول. ولكي تكتمل عناصر النجاح لهذا المشروع، وضع غازان خان تحت تصرف رشيد الدين خير المصادر وأندرها في الإمبراطورية المغولية كالوثائق والسجلات التي كان على رأسها "التون ديمتر" (الكتاب الذهبي) الذي يشتمل على التاريخ الرسمى للمغول. كذلك استطاع رشيد الدين أن يحصل على الكثير من الروايات الشفوية التي كان يدور معظمها على لسان غازان نفسه والأمر "بولاد چينگ سيانگ" سفير الخاقان في بلاط غازان خان. وكان كلا الرجلين قد اشتهر بمعارفه الواسعة وإحاطته التامة بتاريخ المغول^(٣). وهكذا تهيأت الفرصة لرشيد الدين لأن يكتب كتابا مدعما بغير الوثائق، كتابا يمكن اعتباره فريدا في نوعه في تاريخ المغول منذ أقدم الأزمنة حتى عصر التأليف.

اهتم رشيد الدين بهذا التكليف غاية الاهتمام، ووضع نصب عينيه أن ينجز مهمته على الوجه الأكمل. ورغم أنه لم يكن متفرغا تماما لهذا العمل الشاق استطاع أن يقطع شوطا بعيدا في تأليف هذا الكتاب الذي أطلق عليه اسم "تاريخ غازاني". وبينما كان رشيد الدين

(١) على أكبر دمعدا: لغت نامه، شماره مسلسل ١٢٨، شماره حرف ر (بخش لول)، ص ٤٦٩، تهران، فروردین ١٣٤٦هـ.ش.

(٢) أدبيات ایران در زمان سلجوقیان و مغولان، تأليف پروفيسور "بهان ريكا"، ترجمة دكتور يعقوب آزند، ص ١٤٧، چاپ اول، تهران ١٣٦٤ هـ.ش.

(٣) انظر الترجمة العربية.

على وشك الفراغ من مهمته، مات فجأة السلطان غازان خان في شوال ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، فتولى أخوه أوجلاتيو عرش المغول، وأبقى رشيد الدين في منصبه، وكلفه بأن ينجز تاريخ المغول، وأن يستمر في إهدائه إلى غازان اعترافاً بالجميل نحو ذكرى هذا الراحل السدي بفضلته كان التفكير في تأليف هذا الكتاب. وفي الوقت نفسه، كلف السلطان أوجلاتيو وزيره رشيد الدين بمهمة جديدة هي أن يكتب مجلداً ثانياً يشتمل على تاريخ لجميع الشعوب التي اتصل بها المغول أثناء فتوحاتهم.

وفي هذه المرة أيضاً استجاب رشيد الدين لطلب السلطان، وأرخ للدول التي قامت قبل الإسلام وبعده في الشرق والغرب، ورجع في استقاء مادته العلمية إلى مصادر متخصصة. كما استطاع بمساعدة العلماء الذين كانوا يقطنون تبريز والسلطانية في ذلك الوقت وكان منهم الصينيون وأهل التبت والأويغوريون والهنود والفرنجة أن يفرغ من تأليف كتابه في سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م، وأطلق على العمل بأكمله اسم "جامع التواريخ"؛ فكان أقيم كتب التاريخ العامة. كما أن أهميته كبيرة في الكتابة التاريخية بأسرها. كذلك كان أول تاريخ عالمي معروف بالمعنى الصحيح، وأول مجموع منظم للتطور التاريخي لكل الأوطان التي تحتل قارة أوراسيا (أوروبا وآسيا) من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلسي. يقول المستشرق الروسي بارتولد: "اتخذ مصنف رشيد الدين صورة موسوعة تاريخية ضخمة لم يوجد لها مثيل عند شعب من شعوب القرون الوسيطة سواء أكان ذلك بأسيا أم بأوروبا. وإن مجرد الاضطلاع بتنفيذ مشروع ضخم كهذا يستند على مجهود علماء من مختلف الشعوب ليقف مثلاً حياً للنتائج الإيجابية التي تمخض عنها الغزو المغولي حين ربط بين شعوب باعدت بينها الشقة واختلاف الثقافات، وحين تهيأت الظروف الملائمة لظهور شار ذلك. وكان رشيد الدين على ثقة من أن الأجيال القادمة ستفيد كثيراً من مصنفاته"^(١).

(١) انظر بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، الطبعة الأولى، ص ١٢٠، الكوبت ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

أقسام كتاب جامع التواريخ:

يقع هذا الكتاب في مجلدين:

المجلد الأول: يشتمل على باين:

الباب الأول: يتوى على مقدمة وأربعة فصول فى تاريخ القبائل التركية والمغولية وأصولها مع تفاصيل مسهبة عن فروع الأتراك والمغول وأنسابهم وأساطيرهم.

الباب الثانى: تاريخ چنگيز خان وأجداده وأبنائه وأحفاده إلى غازان خان.

المجلد الثانى: يشتمل أيضا على باين:

الباب الأول: يتوى على تاريخ أولجاتيو، وهو مفقود من جميع نسخ هذا الكتاب.

الباب الثانى: ويشمل التاريخ العام للعالم، ويقع فى مقدمة وقسمين:
القسم الأول: فى ذكر ملوك الفرس، وذلك منذ عصر كجوسمرث أول ملوك الفرس الأسطوريين حتى آخر عهد يزدجرد الثالث آخر ملوك الفرس الساسانيين.

وهذا القسم يقع فى أربع طبقات:

أ - طبقة الپيشداديين.

ب - طبقة الكيانين.

ج - طبقة الإشكانين.

د - طبقة الساسانيين.

القسم الثانى: وينقسم بدوره إلى الأقسام الثلاثة الآتية:

١ - فى ذكر تاريخ النبى ﷺ وتاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسين حتى آخر عهد المستعصم.

٢ - تاريخ الدويلات التى نسات فى إيران على أثر ضعف

الخلافة العباسية. وهذه الدويلات هى: الغزنوية

السلجوقية الخوارزمية السلفورية (أتابكة فارس)

الإسماعيلية.

٣ - تاريخ الدول الأخرى مثل تاريخ "أوغوار" جد الأتراك -

تاريخ الخطا والصين - تاريخ بنى إسرائيل - تاريخ

الإفرنج والقيصرية - تاريخ الهند. وهذا القسم ينتهى

بمقالة طويلة عن الديانة البوذية^(١) ومؤسسها ساكيمونى.

وكان من المفروض أن يكتب رشيد الدين مجلدا ثالثا فى جغرافية أقاليم العالم. وقد أشار

السلطان أوجتايو على وزيره بتأليفه أيضا؛ إلا أنه لم يعثر عليه فى جميع نسخ كتاب جامع

التواريخ. ويبدو أن المؤلف لم يكتبه أو أنه كتبه، ولكنه فقد.

(١) انجسرت البوذية بدرجة كبيرة من الهند موطنها الأصلي، وانتشرت انتشارا واسعا فى اليابان وكوريا والهند الصينية

ونيبال والتبت. (انظر موجز تاريخ العلم والحضارة فى الصين، تأليف جوزيف نيندهام، ترجمة محمد غريب جودة،

ص ٤٢٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م).

أهمية كتّاب جامع التواريخ:

بعد رشيد الدين بحق أكبر المؤرخين الفرس في الدولة الإيلخانية وكان ينظر إلى كتابه على أنه أحسن وأكمل كتب التاريخ العام في الأدب الفارسي، وغير ممثل للاتجاه إلى التأليف في التاريخ العالمي الذي ساد العصر المغولي؛ إذ كثرت فيه الموسوعات، وتعدد المكثرون من درس الموضوعات التاريخية المختلفة حتى ليصح أن يطلق عليه بحق عصر الموسوعات.

وغن في الحقيقة إذا رحنا نكتب بالتفصيل عن أهمية كتاب جامع التواريخ والوقوف على قيمته الحقيقية، فسوف تشعب الآراء وتطول الصفحات. ولهذا فضلنا أن نقتصر على أبرز ما يميز هذا الكتاب بالنسبة إلى غيره من الكتب.

أولاً: تبدو عبقرية المؤرخ رشيد الدين حقاً فيما كتبه عن تاريخ المغول؛ فقد كشف عن تاريخ هذه الجماعة، وأزال ما كان يكتنفه من إبهام وغموض. ولا شك أن الفصول التي تتناول الحديث عن الأتراك والقبائل المغولية وعن چنگيز خان وأجداده، وانضواء منغوليا تحت لوائه والعبارات المنسوبة إليه، وغير ذلك من ضروب البطولة والصراع لما يعطى قصة رائعة عن الحياة البدوية التي لم تشوه بضروب المحسنات والتي تشير الرغبة الشديدة، وتلقى الأهمية الكبيرة لدى القراء الأتراك^(١).

يقول الأستاذ أحمد زكي وليدي: "اختص رشيد الدين المغول والترك لأول مرة في التاريخ بنسبتهم إلى مدينة أصيلة تجمعهم، وأفسح لهم مجالاً خاصاً بهم"^(٢).

وإذن فهذا الجزء الخاص بتاريخ المغول ممتاز ورائع؛ حقق فيه مؤلفه كل ما وعد به. ونستطيع أن نشهد بأنه الكتاب الوحيد الذي نعتز فيه على أصدق المعلومات عن حياة چنگيز خان وخلفائه وعن عهدهم^(٣).

ثانياً: كان رشيد الدين من مؤرخي البلاط، والمشهور عن هؤلاء أنهم كان يهمهم قبل كل شيء إرضاء السلاطين والأمراء ومجاراتهم بما يريدونه، وكتابة ما يوافق أغراضهم

(١) بارنولد: مجلة العالم الإسلامي ص ٩٩ Mir Islama.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، عالم الإسلام باللغة التركية، ج ٩٨، ص ٧١٠، استانبول ١٩٦٣م.

(٣) جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الأول، تاريخ هولانكو، مقدمة كاترمير، ص ١٠٠، القاهرة ١٩٦٠.

ومبولهم؛ فكان لا بد أن يظهر في تأريخهم التحيز والتملق وإخفاء الحقائق. فهل كان رشيد الدين على شاكلة هؤلاء، وهل استطاع ككتاب مسلم أن يتجرد من التعصب عندما كان يتصدى لكتابة تاريخ الأمم الوثنية واليهودية والمسيحية، والذي كان يتعارض تعارضا تاما مع نصوص القرآن ومبادئ الإسلام؟.

للإجابة عن هذا السؤال نقول: على الرغم من أن رشيد الدين كان مؤرخا للبلاد، فإنه التزم الحياد النزيه بقدر المستطاع؛ فهو معجب بالمغول، يشيد بأعمالهم، ولكن دون مبالغة ولم يمنعه قط اتصاله بالمغول من أن يقول فيهم كلمة الحق؛ فكان يحكى قسوتهم الفظيعة وإسرافهم فى القتل. يقول فى هذا الشأن: "لا يخفى على من تتبع التواريخ الصحيحة وسلك الطريق المعقول أنه لم تكن البلاد مطلقا أكثر خرابا مما كانت عليه خلال هذه السنوات، خصوصا فى المواضع التى وصلت إليها جيوش المغول؛ إذ إنه منذ ابتداء ظهور آدم حتى قيام چنگيز خان وذريته، لم يتيسر لأى ملك مثل هذه المملكة الفسيحة التى سخروها وجعلوها تحت تصرفهم، ولم يقتل أحد فى العالم من الخلق مثلما قتل هؤلاء المغول^(١)."

أما كيف أرخ رشيد الدين للأمم غير الإسلامية فهذا أيضا مما يدعو إلى الإعجاب والتقدير، فرغم أنه برهن على تسكبه بالإسلام، إلا أنه كان يتجنب الطعن والتعصب وظل واثقا من نفسه طول الوقت؛ إذ كان يعتقد أنه من الضرورى أن تعرض تقاليد كل قوم حسب الصورة التى يحفظ بها الناس هذه التقاليد. يقول فى هذا الصدد: "على المؤرخ أن يكتب تاريخ كل قوم كما يبدو فى زعمهم، وليس عليه أن يزيد فيه أو ينقص منه، فإذا كان حقا أو كان باطلا، فليقل كما هو فى اعتقاد كل طائفة؛ وذلك يلقي عبء مسئولية الزيادة والنقصان والحق والباطل فى ذلك التاريخ على أصحابه لا على المؤرخ. وإننى أعود وأكرر هذا المعنى هنا أيضا حتى لا ألأخذ على ما يبدو غير معقول وغير مستساغ، وحتى لا يمتد إلى لسان الطعن فأعذر فى هذا المعنى إن شاء الله الواحد العزيز"^(٢). وعلى ضوء هذا الاعتراف الصريح يمكننا أن نقرر أن رشيد الدين لم يكن يعرف النقد التاريخي؛ ونعنى به

(١) انظر المرجع.

(٢) جامع التواريخ: مخطوط المكتبة الأعلى ب طهران، ص ٤٣٦.

النظر في التاريخ بعين النقد وبيان ما قد يتصوره من المغالط والأوهام^(١). يقول بارتولد "حاول رشيد الدين تسجيل الروايات التاريخية كما سمعها من روايتها بدون تغيير؛ فليس كتابه من هذه الوجهة تاريخاً علمياً بالمعنى المقهوم اليوم، إلا أنه يشغل في آداب العالم مكانة متازة من حيث اتساع دائرته. ولم نر اجتماع علماء جميع الأمم المتحضرة في العالم القديم وجمعهم للروايات التاريخية المتصلة بالتاريخ العام في كتاب واحد لا قبل ذلك الزمان ولا بعده.

وقد كان علماء أوروبا حتى القرن التاسع عشر يريدون أن يفهموا من التاريخ العام تاريخ أوروبا الغربية فقط. ومن رواية أحد مساعدي رشيد الدين من كتاب المسلمين يتبين أنه منذ ابتداء القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) كان ينظر إلى تاريخ العرب والفرس كأنه "أحد الأنهر التي تصب في بحر تاريخ العالم العام"^(٢).

ثالثاً: أتبع لرشيد الدين فرصة الاطلاع على الوثائق المكتوبة واستخدامها على نطاق واسع في استقاء المادة العلمية لتأليف كتابه. أما سلفه عطا ملك الجويني^(٣) فعلى الرغم مما كان يتمتع به كتابه "جهانگشاى"^(٤) من شهرة كبيرة في التأريخ للمغول، كانت تنقصه هذه الميزة؛ إذ كان اعتماده على الرواية الشفوية. كذلك عندما أرخ رشيد الدين لشعوب العالم المختلفة، كان يستقى معلوماته من لوائح المصادر، ومن أفواه العلماء النقات والمتخصصين في تاريخ كل أمة. ومعنى هذا أن رشيد الدين اعتمد الرواية الشفوية أيضاً مصدراً من مصادر التعرف على التطورات السياسية والتاريخية. ولو لم يكن رشيد الدين ثقة

(١) انظر جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج ٣، ص ١٤٨، القاهرة ١٩٣١ م.

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، الطبعة الثالثة، ص ١٢٩ - ١٣٠، نشر دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٥٨ م.

(٣) انظر المزيد من التفصيلات عن هذا المؤرخ في المقدمة المطولة التي كتبها العلامة محمد بن عبد الوهاب الفوزي، عمق كتاب تاريخ جهانگشاى، ج ١، لندن ١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م عطا ملك الجويني وكتابه جهان گشا تأليف الدكتور السباعي محمد السباعي، ص ٧ وما بعدها، القاهرة ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م علاء الدين عطا ملك الجويني حاكم العراق بعد انقضاء الخلافة العباسية، تأليف الدكتور محمد السعيد جمال الدين، ص ٥ وما بعدها، القاهرة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

(٤) أي فاتح العالم والراد به چنگيز خان.

فى كل ما كتب لما أشاد به معاصروه ومن جاءوا بعده، ولما قلده كثير من المؤرخين بعد مماته.

رابعا: - ترد بالكتاب إشارات جغرافية هامة عن مناطق كثيرة كانت مجهولة لدينا؛ لأننا إذا لاحظنا أن الأقاليم التى استطاع رشيد الدين أن يجمع عنها المعلومات الإيجابية الصحيحة هى الأقاليم التى لم تكن معروفة لنا قط، وهى الرقعة الممتدة من بحر قزوين حتى الأطراف الشرقية، وتحتل وسط آسيا جميعه، وتذهب حتى حدود الصين. وفى هذا العهد، كانت تلك الأقاليم تكون جزءا من الإمبراطورية المغولية. وقد وصفها رشيد الدين أدق وصف وأصدق، وأضاف إلى ملاحظاته الشخصية القيمة ما استطاع أن يجمعه عن مواقع المدن وطبيعة الجو وحاصلات الأرض والعادات والتقاليد الخاصة. يقول كراتشكوفسكى: "فى العصر المغولى بلغ الأدب الجغرافى باللغة الفارسية أوجه، ويتبين لنا من خلال فحص مصنف رشيد الدين المشهور "جامع التواريخ" الذى وإن كان فى جوهره أثرًا تاريخيا صرفا، إلا أنه يمكن اعتباره بنفس القدر مصنفا فى الجغرافية التاريخية أيضا"^(١).

خامسا: - وفق رشيد الدين فى إعطائنا معلومات مفيدة فى بعض الأقسام التى يحتويها المجلد الثانى المتعلق بالتاريخ العام قد لا نجد لها فى غيره من المصادر؛ فقد أفاد فى الحديث عن طائفة الإسماعيلية، وذكر خلاصة واقعه لكتاب "سرگزشت سيدنا"^(٢) الذى يشتمل على معلومات قيمة عن تاريخ الحسن بن الصباح مؤسس هذه الجماعة. فكانت هذه الخلاصة إلى جانب الخلاصة التى كتبها عطا ملك الجوينى فى الجزء الثالث من كتابه تاريخ جهانگشای فى غاية الأهمية والقيمة^(٣). ولا غرو أن يكون القسم الذى كتبه رشيد الدين عن هذه الطائفة أحسن ما كتب عن الإسماعيلية^(٤).

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى: القسم الأول، نقلة إلى اللغة العربية صلاح الدين عثمان هاشم، ص ٣٧٥، القاهرة ١٩٦٣م.

(٢) أى "سيرة سيدنا" والمراد بسيدنا هنا الحسن بن الصباح مؤسس فرقة الشيعة الإسماعيلية فى إيران.

(٣) انظر لتاريخ جهانگشای ج ١ ص ١٢٥ من مقدمة المؤلف محمد بن عبد الوهاب القزوينى، ليدن ١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م.

(٤) انظر جامع التواريخ: قسمت اسماعيليان وفاطميان وزازيان ودايمان ورفيقان، تأليف خواجہ رشيد الدين فضل الله مہدائى بکوش محمد تقى دانش پزوه ومحمد مفرسى (زنجاني)، ص ١٢ من مقدمة المؤلفين.

كذلك أمكننا أن نعرف من هذا المجلد معلومات مفيدة يهمننا أن نخط بها؛ فهناك مثلاً إشارات عن إقليم التبت واعتناق أهله البوذية وارتفاع شأن هذا الإقليم عند المغول؛ لأن البوذية كانت تنتشر منه، وتجذبهم إليها^(١). ويقرر رشيد الدين أن كهان التبت كانوا أعظم كهان البوذية مكانة خصوصاً في عهد قوبيلاي^(٢). كذلك يذكر هذا المؤرخ معلومات مفصلة عن فن طباعة الكتب الذي كان معروفاً في إيران كما كان معروفاً في الصين منذ زمن بعيد.

وإذا انتقلنا إلى القسم الذي كتبه رشيد الدين عن الفرنج، فإننا سوف نجد أيضاً يشتمل على معلومات مفيدة ومثيرة للدهشة في ذلك الوقت. يذكر أربري Arberry أن الجوانب العديدة لثقافة رشيد الدين كانت مذهلة عميرة بالنسبة إلى دارس كان يعيش في العصور الوسطى؛ فهذا المؤرخ كان يعرف قصة الكفاح بين البابا والإمبراطور، وأن أسكتلندا تدفع الضرائب لإنجلترا، وأنه لا توجد ثعابين في أيرلندا^(٣). وأما كارل يان فيصرح قائلاً: "بالرغم من أن تاريخ الفرنج يتمتع بثراء كبير في التفاصيل الممتعة التي ذكرها رشيد الدين، يمكننا أن نقول بوجه عام من وجهة النظر التاريخية: إن ما كتبه لا يكاد يأتي بمعلومات جديدة أو غير معروفة تفيد البحث في تاريخ أوروبا في القرون الوسطى. ومع ذلك فإن هذا الكتاب في نظر المحققين، يصف بدقة الأفكار الخاصة بالعالم كما كان يتصورها المسلمون المتحضرين في القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن الهجري)، وهي صورة تدل بوضوح تام على أن وجهة نظر المسلمين في ذلك العصر في الجغرافيا والتاريخ كانت تتمتع باتساع والفتاح يفوق بكثير وجهة نظر الأوروبيين^(٤)."

كذلك عندما تحدث رشيد الدين عن تاريخ الهند بسط الحديث في جغرافية هذه البلاد، وشرح مختلف العادات والتقاليد والأديان التي كانت تسود هناك^(٥).

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الرابع، ص ٢٣٠.

(٢) انظر جامع التواريخ، جلد دوم: در تاريخ بادشاهان مغول از نوگهای قان تاتیمور قان، تحقيق بلوشيه، ص ١٤٥
الترجمة العربية لهذا القسم، ص ٢٩٨.

(٣) Classical Persian Literature, P.156 on Rashid al Din, London, 1958.

(٤) تاريخ فرنج بالفصلی از جامع التواريخ، تأليف خواجہ رشيد الدين فضل الله وزير همداني، با مقدمه وحواشي وفهرس بکوش محمد دبیر سياني، ص ١١١، مدخل "كارل يان"، تهران ١٣٣٩ هـ. ش ١٩٦٠ م
مجموعه خطابه های تحقيقي در باره رشيد الدين فضل الله همداني: مقاله کتبه "كارل يان" باللغة الإنجليزية بعنوان
Rashid ge of Europe, PP. 9 25, Tehran, 1971.

(٥) انظر نفس المصدر السابق، مقاله کتبه بالإنجليزية K.A.Nizami، بعنوان:

وعلى هذا النحو يكون رشيد الدين قد نهج في تأليف كتابه نهجا خاصا؛ إذ لم يتبع النهج الذي سار عليه بعض المؤرخين من العرب والفرس الذين كانوا يعرفون أن التاريخ العام هو التأريخ للأسم الإسلامية فقط، بل إنه كان يرى بحق أن التاريخ العام يجب أن يشمل وقائع الحياة لجميع أمم العالم المعروفة في العصر المغولي، فيكون مشتملا على تاريخ الشعوب ابتداء من الفرنج في المغرب حتى الصين في الشرق^(١). وإذن فرشيد الدين مؤرخ لا مثيل له في تعدد مصادره واتساع أفقه، ولن نلتقي بمؤلف مثله لا في هذا العصر، ولا في العصور التالية يعالج تاريخ العرب والفرس باعتباره "جدولا من الجداول العديدة التي تصب في بحر التاريخ العالمي"، ويعمل جاهدا في تيوب مادته من وجهة النظر هذه^(٢). وعلى هذا يمكننا أن نذكر دون مشقة مقدار الخدمات الجليلة التي أداها رشيد الدين للباحثين حين قدم لهم هذا السفر الضخم المشتمل على التاريخ الصحيح لجميع البلاد المعروفة في العالم حتى ذلك الحين. فهذا المؤلف يجمع بين سعة المعارف التي لا حد لها وحاسة النقد المستتيرة ويستعيز عن الأخبار الأسطورية التي كانت شرة الجهل والسذاجة بأخبار صادقة. ولذلك يجب أن يحرص على قراءته يشغف كل أولئك الذين يرغبون في تحصيل المعارف الحققة، ويفضلون ذهب الحقيقة على بريق الغرائب والأخطاء^(٣).

سادسا: عدل رشيد الدين عن التأريخ حسب نظام الحوليات، وتجنب حشد جملة من الأحداث توضع تحت كل سنة، وتتصل بدول وشخصيات مختلفة لا تجمعها رابطة، ولا تقوم بينها صلة؛ فتأتي مبعثرة مشتتة لا يحصل منها على غرض. وفي بعض التواريخ قد تغطي أخبار الوفيات على الحوادث السياسية حتى لتضاهل هذه، وتقتصر في الغالب على جمل قليلة مقتضبة؛ فيرتب على هذا أن تصبح مهمة الباحث شاقة عسيرة إذا أراد تقصى الموضوع والإلزام بأطرافه من كل جوانبه. أما رشيد الدين فقد أرخ حسب الموضوعات وتناول تاريخ كل دولة وفقا لثريتها التاريخية. وهذه الطريقة أقرب إلى الدقة وحسن التنسيق. كما أنها تساعد الباحث في الحصول على المعلومات التي يريدها في يسر

=Rashid-al-Din Fadi Allah and India, PP. 36-53.

(١) تاريخ إيران از دوران باستان تاهايان سده هجدهم ميلادي، تأليف ن. و. بيكولوسكايا وآخرون.

ترجمة كريم كشاورز، ص ٣٠٥. تهران ١٣٥٤ هـ ش.

(٢) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تأليف كراتشكوفسكى، نقله إلى اللغة العربية صلاح الدين عثمان هاشم،

القسم الأول، ص ٣٩٦، القاهرة ١٩٦٣ م.

(٣) جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الأول: تاريخ هولاندا، مقدمة كاترمير، ص ٩٦، القاهرة ١٩٦٠ م.

وسهولة. وإذا كان قد وجد قبله من المؤرخين من دونوا التاريخ فصولا متصلة، فإنه يمتاز عنهم بالوضوح والدقة في تبويب الموضوعات، ووضع الفهارس وإدراك الجزئيات إدراكا دقيقا والتوفيق في ربط الحوادث وتنسيق الوقائع التاريخية. هذا فضلا عن أن كتابه - كما سبق أن رأينا - سجل جامع لأخبار أمم الشرق والغرب، يتحدث عن الحوادث والكائنات من أول الزمان متتابعة، يتلو بعضها بعضا إلى وقت تأليفه.

سابعاً: يتميز كتاب جامع التواريخ أيضاً بسلاسة الأسلوب ووضوح العبارة وحسن التعبير والبعد عن التعقيد والغموض؛ فرشيد الدين لم يحاول أن يقحم في كتابه أساليب البيان والصنائع البديعية، تلك الآفة التي ابتلى بها التاريخ، فأخرجته في كثير من الأحيان عن الغرض الذي وضع من أجله. مثلما فعل معاصره وصديقه "وصاف الحضرة"؛ فعلى الرغم من أهمية كتابه "تاريخ الوصاف" في التأريخ للعصر المغولي في الفترة ما بين فتح بغداد وأواسط عهد السلطان أبي سعيد أي حتى سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م، نراه قد أفرط في استعمال الصناعات اللفظية وحشد كتابه بآيات الشعر وآيات القرآن واقتباسات من عبارات البلغاء والأدباء فقلل ذلك كثيراً من قيمته والانتفاع به^(١). أما من يقرأ كتاب رشيد الدين، فإنه يستطيع أن يحصل على مراده في يسر وسهولة، ولا يشعر بسأم أو ملل. هذا ويلاحظ بصفة عامة أن أسلوب جامع التواريخ يجرى على نسق واحد في أغلب أجزائه. أما عندما ينقل مؤلفه أو يقتبس من كتب المؤرخين الإسلاميين فإن الأسلوب يتأثر قليلاً، ويأتي مشابهاً لما هذه في المصادر، ولكن هذا كان يحدث في نطاق ضيق ومحدود، ويبقى بعد ذلك طابع أسلوب رشيد الدين هو الطابع الغالب. يقول المستشرق ريكا: "كتاب جامع التواريخ الذي كتب بأسلوب سهل سلس له أهمية عالمية. والمجلد الأول المشتمل على تاريخ المغول الذي يفصل جزئيات أكثر واطلاعات أوفى وأجمع، يعادل في قيمته سائر الكتب المشابهة لا سيما الكتب الصينية والمغولية"^(٢).

(١) لتلافي هذا النقص قام الأستاذ عبد الحميد آتشي في طهران بعمل يشكر عليه إذ صنف تاريخ الوصاف من كل أنواع هذا الحشو، واقتصر على الرواية التاريخية فقط، وذلك في دقة بالغة؛ فأسدى بذلك للنظم خدمة جليلة. ونشر هذا الكتاب تحت اسم: غرر تاريخ وصاف، طهران ١٣٤٦ هـ.ش.

(٢) أنيسات إيران در زمان سلجوقيان ومغولان، ترجمة دكتور يعقوب لژند، چاپ اول، ص ١٤٨.

تهران ١٣٦٤ هـ.ش.

بقي أن نقول في صراحة إذا كان كتاب جامع التواريخ قد سلم من التكلف والتعقيد فإنه قد طغى عليه سيل جارف من الألفاظ المغولية والتركية تتعلق بالإدارة ونظم الحكم وعادات المغول وتقاليدهم، شأنه شأن غيره من الكتب التاريخية التي ألقت في تلك الفترة. وفي الحقيقة بدأت تلك الألفاظ تنسرب إلى اللغة الفارسية منذ عهد السلاجقة والأتراك الغز والقراخانيين وآل أفراسياب. ولكن هذا التأثير كان محدوداً في عهود هذه الدول بالقياس إلى ما صار عليه الحال في العصر المغولي^(١). ولا شك أن هذه الألفاظ المغولية والتركية الكثيرة تحتاج من المترجم مزيداً من البقطة والدقة حتى يصل إلى تحديد معناها الدقيق باللغة العربية. وفي سبيل تحقيق ذلك، عليه أن يطلع على المزيد من الكتب والمعاجم المتخصصة.

ثامناً: لم تقتصر قيمة كتاب جامع التواريخ على الناحية التاريخية والجغرافية فحسب، بل صارت له قيمة فنية كبيرة؛ إذ أن ازدهار فن التصوير يرجع إلى حد كبير إلى هذا المؤرخ بل إن أكثر صور المدرسة المغولية توجد ممثلة في مخطوطات كتابه جامع التواريخ. وتبدو أهمية هذا الكتاب من الناحية الفنية على وجه الخصوص إذا ما لاحظنا أن أكثر مؤرخي العرب والفرس قبل رشيد الدين كانوا يعملون في تعريف أبطال التاريخ على الأوصاف المجردة من إطرء أو إعجاب، ويندر أن يسيروا إلى وصف المظاهر الطبيعية أو الصناعية أو الأبنية أو غيرها من المراتب ولا كانوا يصورون المواقع ولا الرجال لكرهية الإسلام للتصوير؛ فترتب على ذلك نقص هام في التصوير العربي لخلو كتبه من الخرائط أو الرسوم أو الصور المنقولة من الطبيعة^(٢).

أما إيران فكانت في طليعة الأمم الإسلامية التي لم يؤثر فيها تحريم التصوير تأثيراً كبيراً على الرغم من أن الفقهاء في هذا البلد، كانوا يكرهون التصوير والمصورين. ويرجع تركيز التصوير الإسلامي في إيران إلى أن الإيرانيين شعب مبال إلى الفن بفطرته، وإلى أن أكثر الإيرانيين كانوا من ذوى المحيط العقلي الواسع والأفكار الحرة والتسامح الديني؛ إذ كانوا يرون أن تحريم التصوير في فجر الإسلام إنما كان يقصد به معارضة عبادة الأوثان. أضف إلى ذلك أن الإيرانيين ورثوا عن أسلافهم أساليب فنية في النقش والتصوير. والواقع أن كتاب

(١) عباس إقبال: تاريخ مفصل إيران، جلد أول، اثر حلة چنگيز تانشكيل دولت تيموري، ص ٥١٥، طهران ١٣١٢ هـ.ش.

(٢) انظر جرجي زيدان: تاريخ أدب اللغة العربية، ج ٣، ص ١٥١، القاهرة ١٩٣١ م.

جامع التواريخ يعد من أقدم المخطوطات التي تشتمل على صور دينية. هذا إلى جانب مناظر القتال والمعارك، والمناظر التي مثل حكام المغول بين أفراد أسراتهم وحاشيتهم^(١). وأكبر دليل على اهتمام رشيد الدين بالفنون بصفة عامة والتصوير بصفة خاصة أنه أنشأ بالقرب من تبريز ضاحية جديدة أسماها "الربع الرشیدی"^(٢) أقام بها المنازل والخوانق ومصانع الورق والفنادق والمستشفيات، ومكتبة ضمت ٦٠ ألف مجلد من الكتب العلمية والفنية باللغات المختلفة. واستقدم رشيد الدين إلى ضاحيته الجديدة رجال الفن وأرباب الصناعات من مختلف الجنسيات. وأقيمت أيضًا في "أحياء أهل العلم" مساكن احتشد بها عدد يتراوح بين ستة آلاف أو سبعة آلاف نسمة من الأساتذة والطلاب. وكانت فنون الكتابة بصفة خاصة أحب الفنون إلى رشيد الدين. وعهد إلى مهرة الخطاطين والمصورين بنسخ عدد من المؤلفات المختلفة وتصويرها. وفي مقدمتها جميع مؤلفاته^(٣). هذا ويذكر صاحب تاريخ الوصاف أن رشيد الدين أنفق أكثر من ٦٠٠٠ دينار في النسخ والتحرير والزخرفة والتصوير والتجليد^(٤). ولم تقف جهود المؤرخ عند هذا الحد، بل إنه راح يوقف

(١) انظر فنون الإسلام، تأليف الدكتور زكي محمد حسن، الطبعة الأولى، ص ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، القاهرة ١٩٤٨
التصوير وأعلام المصورين في الإسلام، مقالة لنفس المؤلف، ص ٩، هدية المقتطف السنوية بعنوان نواح جديدة من الثقافة الإسلامية، القاهرة ١٩٣٨م.

(٢) للحصول على مزيد من التفاصيل عن الربع الرشیدی انظر مكاتبات رشیدی، حررها عواجم رشيد الدين فضل الله طييب، بسعي والاعتماد وتصحيح محمد شفيق، ص ٥٢-٥٦، ٢٢٥-٢٢٧، ٣١٧-٣٢١، لاهور ١٣٦٤هـ-١٩٤٥م؛ نزعة القلوب، تأليف حمد الله مستوفى قزوینی، بها مقابله وحواشي وتعليقات وفهارس بكوش محمد دبیر سیاقی، ص ٨٧، تهران ١٣٣٦هـ. في الكتاب التذکری (بإدنامه) لتخليد ذكرى "دينشاه الإيراني"، مقالة محمود عرفان بعنوان: "زورگترین بنیاد عمر در ایران"، ص ١٨-٣٠، بمبای ١٩٤٨م مجموعة خطابه های تحقیقی در باره رشید الدین فضل الله همدانی، مقالة مجید رهنما بعنوان: "رشید الدین وربع رشیدی"، ص ١١٢-١٢٢، طهران ١٣٥٠هـ. في عبد العلي کارنگس: آثار باستانی آثار بالکسان، جلد اول: آثار وأبنیه تارخی شهرستان تبریز، ص ١٦٢ وما بعدها تهران ١٣٥١ هـ.ش.

(٣) انظر كتاب فنون الإسلام، تأليف د.س ديماند، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم الدكتور أحمد فكري الطبعة الثالثة، ص ٤٧، القاهرة ١٩٨٢م.

(٤) انظر كتاب تاريخ الوصاف، تأليف أديب شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازي، المثلث بوصاف الحضرة، ص ٥٣٩، طبع بمبای.

على الربع الرشيدى الأوقاف الكثيرة من أملاكه وثوراته الطائلة للصرف على المؤسسات التي يضمها هذا الربع وعلى نزلاته من مختلف الطوائف والطبقات، وسجل كل هذا بنفسه بغاية الدقة والتفصيل فى سجل وقفية الربع الرشيدى "وقفنامة ربع رشيدى"، وذلك وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية. ولحسن الحظ سلمت هذه الوثيقة من الضياع، وأمكن تصوير نسخة منها نشرت فى طهران بإشراف عالمن فاضلين هما مجتبى مينوى والبرج افشار سنة ١٣٥٠هـ. ش ١٩٧٢م.

وفى الحقيقة لم يكن رشيد الدين مؤرخاً فحسب، بل كان كذلك عالماً أدبياً له مؤلفات عديدة امتدت إلى كثير من أنواع المعارف الإنسانية؛ فقد ألف فى الطب وفى علم الأحياء والاقتصاد الزراعى والدين والأدب، وترك فى كل ذلك آثاراً قيمة إلى جانب مؤلفه التاريخى، مما ينهض دليلاً قوياً على عظمة هذا الرجل وعمق تفكيره^(١). تقول "دوروتيا كرافولسكى": "لم يكتب رشيد الدين فى التاريخ فقط، بل ترك أعمالاً ذات طابع كلامى وفلسفى. وهو يظهر فى هذه الأعمال سبباً متشدداً"^(٢).

وإلى جانب هذا التفوق العلمى البارز - الذى كان يزينه خلق طيب كريم - عرف عن رشيد الدين براعة التخطيط وحسن الإدارة وتقديره للعلم والعلماء. ونحن لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن رشيد الدين كان آخر نجم لمع فى سماء دولة الإيلخانيين؛ فقد صارت الأمور بعد رحيله تخطى سرعة نحو الاختلال والتدهور ثم الانهيار.

بهذا نكون قد انتهينا من الحديث عن رشيد الدين وكتابه جامع التواريخ، وننتقل - فى الصفحات التالية - إلى الحديث عن رشيد الدين وتاريخ غازان خان.

(١) للحصول على معلومات مفصلة عن مؤلفات رشيد الدين الأخرى انظر: جامع التواريخ، تاريخ المغول المجلد الثامن، الجزء الأول الإيلخانيون: تاريخ هولاكسو، مقدمة كاترمير، ص ١٤٣ - ١٦٥ ترجمة الدكتور محمد القصاص، القاهرة ١٩٦٠م مؤرخ للمغول الكبير رشيد الدين فضل الله المصلانى، ص ٣٧٣ وما بعدها؛ وقفنامة ربع رشيدى، أثر رشيد الدين فضل الله بن أبى الخير بن عزال محمدانى، مشتهر به رشيد الطبيب؛ زير نظر مجتبى مينوى - برج افشار، ص ٢١-٢٢، تهران ١٣٥٠هـ.ش.

(٢) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار: دولة المماليك الأولى لابن فضل الله العسرى: دراسة وتحقيق دوروتيا كرافولسكى، المجلد ص ٣٣، الترجمة العربية.

ثانيا : رشيد الدين وتاريخ غازان

كان عصر المغول أحفل العصور بالمؤلفات التاريخية. ومن المسلم به أن جامع التواريخ هو أفضل وأجمع هذه المصادر. وقد أورد رشيد الدين معلومات قيمة بعيدة عن الغرض والهوى والتعصب بقدر المستطاع، وتابع غاية الدقة في وصف المسائل السياسية والاجتماعية. فهذا المؤرخ الذي كان يعمل في خدمة المغول لا يستطيع أن يخفي وحشية چنگيز خان وقسوته. وكان لا يتردد في الكشف عن الجوانب المظلمة والمجحفة بحق الأقوام المغلوبة على أمرها. وإذا كان يثنى على چنگيز خان وأعقابها فإنه يبدو من الواضح أن هذا لم يخرج عن مراعاة موقفه الدقيق الذي يقتضيه أحيانا أن يغمض عنه عن الحقيقة المؤلمة وفقط يبدو أن مدحه وثأاه على غازان كان نابعا من صميم قلبه وحقيقة شعوره نحو هذا العاهل المغولي^(١).

وإذا كانت عبقرية رشيد الدين كمؤرخ قد تجلت في تأريخه لچنگيز خان، فإنها لتجلى أيضا بصورة أتم وأشمل في تأريخه لغازان خان. يبدو ذلك واضحا في إحاطته الكاملة بجميع أطراف حياة هذا الرجل منذ ولادته حتى وفاته، وتتبع ما تم في عهده من إصلاحات؛ فالأقوال التي وردت في هذا الشأن لم تذكر في أي مصدر آخر على نحو ما نراه في مؤلف رشيد الدين من الإفاضة والتفصيل.

وفي الحقيقة حينما أراد رشيد الدين أن يؤرخ لغازان خان، غمض أنه قد أخذ على عاتقه تصحيح هذا السلطان؛ ورأى من واجبه الأول أن يبرز تلك الشخصية في صورة كاملة من شتى جوانبها، فكان فيما كتبه عنه موقفاً غزير المادة. ولقد مهد له منصبه الرسمي - الذي كان يشغله - أن يكون على علم تام بكل التفاصيل والتنظيمات المعمول بها في حكومة المغول. وعندما ذكر قصة إصلاحات غازان خان، كان على مقربة منها، وواقفاً على دقائقها وتفصيلاتها وشاهد عيان لكل ما تم من إنجازات، ومشيراً بالرأى السديد والتفكير والعقل الراجح كي تؤتي هذه الإصلاحات شأرها الیانة وتحقق هدفها المنشود. وهكذا كتب رشيد الدين قصة الإصلاحات هذه بدرجة تفوق المادة الغزيرة التي كتبها في الأجزاء الأخرى من كتابه، وبصورة حية صادقة قلما تصادفها في العصور الوسطى بين المؤرخين في آسيا وأوروبا^(٢).

(١) انظر مجموعة خطابه های شفیقی در باره رشید الدین فضل الله همدانی: مقالة بعنوان: بررسی موضوع اجتماعی ایران از خلال جامع التواریخ بقلم د. شیرین بیانی، ص ٦٠، طهران ١٣٥٠ هـ.ش.

(٢) بارتولد: مجلة العالم الإسلامي Mir Islama، ص ٥٨.

ونحن في الحقيقة لا نستطيع أن نأخذ على رشيد الدين ما كتبه عن غازان بتلك الصورة التي قد لا تخلو أحياناً من المبالغة، وذلك لسبب بسيط هو أن مؤرخين من "المعاصرين أو اللاحقين" قد أجمعوا على تصعيد غازان خان والإشادة بما قام به من إصلاحات وذلك من قبيل الوصاف والبناتكي وحمد الله المستوفى القزويني ومحمد ابن علي الشباتكاري ومحمد بن هندوشاه النخجواني وميرخواند وخواندمير فهؤلاء قد أثنوا على غازان خان ثناء عاطفياً وأشادوا بما قام به من إصلاحات. أما المستشرق الفرنسي جروسية^(١) "Grousset" فقد راح ينتهم رشيد الدين بالتحيز لغازان إلى أقصى حد؛ إذ زعم أن هذا المؤرخ كان يبوراً على إخفاء عيوب هذا الإبلخان، وعلى العكس راح يظري عفاسته بمبالغة تامة. ونحن لا نوافق جروسية على هذا التعميم.

أول ما نلاحظه على تاريخ غازان خان هو أن مؤلفه رشيد الدين كان يستشهد بالعديد من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وأبيات الشعر العربي والأقوال المأثورة لتأييد وجهة نظره. وكان يضع كل ذلك في موضعه المناسب. ولا غرو فقد كان رشيد الدين يجيد اللغة العربية، ويؤلف بها، وبعد من الممتازين من أصحاب اللسانين الفارسي والعربي. وإذا فليس بصحيح ما ذكره الأستاذ عباس العزاوي^(٢) من أن عربية رشيد الدين كانت ركيكة ضعيفة. ولما كان غازان خان يعرف جيداً تفوق رشيد الدين في اللغة العربية، كان يصحبه في حملاته على الشام ليحرر المنشورات بهذه اللغة، بحث فيها المدافعين عن المدن والقلاع على المبادرة بالتسليم حقناً للدماء؛ فكان هذا يحدث أثره الفعال وبحقق غازان غرضه المنشود دون قتال^(٣).

أما عن الموضوعات الرئيسية التي اشتمل عليها تاريخ غازان خان، فإنه يمكن حصرها في الأقسام الثلاثة الآتية:

-
- (١) إسماعيل صبرا نوردان، ترجمة عبد الحسين ميكده، چاپ سوم، ٦١٨، تهران ١٣٦٨ هـ.ش.
 (٢) التعريف بالمؤرخين (١) في عهد الممولى والتركمان (٦٠١ هـ - ١٢٠٤ م) : (٩٤١ هـ - ١٥٣٤ م)، ص ١٤٦، بغداد ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.
 (٣) انظر الترجمة العربية.

القسم الأول- يختص بحياة غازان خان منذ ولادته ونشأته وتربيته تحت إشراف جده أباخان خان، وإعداده للمهمة الخطيرة التي تنتظره. وقد عهد به إلى أحد كبار العلماء من الخطا يشرف على تربيته ويعلمه الخط المغولي الأويغوري والعلوم والآداب. وفي مدة خمس سنوات، استطاع أن يتقن تلك المعارف. وبعد أن حصل هذه العلوم، شرع في تعلم الفروسية والرماية، وشغف بالصيد والقتل والرمي والتنقل والترحال.

وقد شب غازان على البوذية قبل اعتناقه الإسلام، وشيّد لها عدة معابد في خراسان. وكان يسر كثيراً بمصاحبة الكهنة الذين ينتمون إلى هذا الدين والذين كانوا قد وفدوا إلى إيران في جماعات كبيرة منذ فرض المغول سلطانهم على هذه البلاد^(١).

ولما اعتلى أرغون والد غازان عرش إيران، اختار ابنه ليكون نائباً عنه في حكم إقليم خراسان، وعهد إلى "نوروز" بأن يكون ملازماً لغازان ومساعداً له في إدارة هذا الثغر الهام. ولكن بعد مدة خرج نوروز على طاعة غازان، وجهر بالتمرد والعصيان. فما كان من غازان إلا أن حاربه بشجاعة واستبسال. ولما وجد نوروز أنه لا يقوى على مقاومته، أعلن الخضوع، وقدم فروض الطاعة، فعفا عنه غازان وضمه إلى صفه، وصار واحداً من أخلص أتباعه إلى أن حقد عليه غازان بعد اعتلائه العرش وعمل على التخلص منه.

كذلك مما يسترعى النظر في هذا القسم أن رشيد الدين قد أبرز شجاعة غازان عندما وصل رسل جيخاتو خان (٦٩٠ هـ / ٦٩٤ هـ / ١٢٩١ - ١٢٩٤ م) ومعه عدة أحمال من أوراق النقد "الچاو"^(٢) والأدوات الخاصة به من الورق الأبيض والأختم وغير ذلك بقصد ترويع هذه العملة في خراسان. وكان غازان في ذلك الوقت تابعا ونائبا عن عمه جيخا توخان في إدارة هذا الإقليم، وهو نفس المنصب الذي كان يشغله في عهد أبيه أرغون، فقال غازان: إنه لا بقاء للألات الحديدية والأسلحة في مازندران وما جاورها من مناطق يسبب جوها الشديد الرطوبة، فكيف يمكن أن يبقى الورق دون أن يتلف؟! .. ثم أمر بإحراقه تماماً، وامتنع عن تنفيذ قرار السلطان جيخاتو^(٣). كذلك تضمن هذا القسم نزاع غازان مع بايدو وقبام الحرب بينهما.

(١) الدعوة إلى الإسلام، تأليف سير توماس. و. أرنولد، ترجمه إلى العربية الدكتور حسن إبراهيم حسن وآخرون، ص ٢٦٣، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٥٧ م.

(٢) انظر المزيد من التفصيلات عن هذه العملة الورقية في كتاب الشرق الإسلامي، ص ٢١١ وما بعدها.

(٣) انظر الترجمة.

ولعل أهم ما اشتمل عليه هذا القسم أيضاً هو أن رشيد الدين زوّد القارئ بتفصيلات وافية عن الحدث العظيم الذى غير مجرى حياة غازان ومن جاء بعده من حكام المغول فى إيران، ألا وهو اعتناقه الإسلام بناء على مشورة نوروز وانخاضه هذا الدين - لأول مرة - ديناً رسمياً للدولة المغول فى إيران.

والواقع أنه قبل غازان خان، كان فى الإدارة الإبلخاتية بإيران تياران يتنازعان حول الصورة التى ينبغى أن تكون عليها الدولة الناهضة. أما التيار الأول فيريد إنشاء دولة مركزية قوية المسيطر فيها الإبلخان وكبار موظفيه وضباطه. وأما التيار الآخر فإنه كان لا يزال متعلقاً بقيم الأرستقراطية البدوية المغولية إبان حركة چنگيز خان الكبرى. ولا شك أن الموظفين الإيرانيين الكبار فى الدولة كانوا من أنصار التيار الأول لما فيه من تدعيم لمكانتهم ومن محافظة على ثقافتهم المدنية ومدنهم ومجتمعهم. وقد فاز هذا التيار بالفعل بوصول غازان إلى العرش. ومع تحول غازان خان إلى الإسلام، سقطت الفواصل القائمة بين الحاكم وشعبه^(١).

وهكذا لم يكن هناك بد من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى وأطلال مجده التالذ، كما استطاع بواسطة دعائه أن يجذب أولئك الفاسقين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه. ويرجع الفضل فى ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسين قوين كانا يحاولان إحراز قصب السبق فى ذلك المضمار. وليس هناك فى تاريخ العالم نظير ذلك المشهد الغريب، وتلك المعركة الحامية التى قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام، وكل ديانة تنافس الأخرى لتكسب قلوب أولئك الفاسقين الفساة الذين داسوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين فى جميع الأقطار والأقاليم^(٢).

ونتيجة لاعتناق غازان الإسلام، كان لا بد من تغيير سلوك المغول وقواعدهم ومقرراتهم؛ إذ لم يعد هناك مفر من العدول عن العمل بقواعد الياسا التى وضعها چنگيز

(١) انظر كتاب العرب وإيران: دراسات فى التاريخ والأدب من المنظور الإيديولوجى تأليف دوروثيا كرافولسكى، ترجمه عن الألمانية الدكتور رضوان السيد، ص ١٨٨ - ١٨٩، الطبعة الأولى، بيروت ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، الترجمة العربية، ص ٢٥٠.

خان^(١)، وترك عادات المغول وتقاليدهم القديمة. وكان هذا مما دفع غازان إلى وضع ياسا جديدة عرفت بالياسا الغازانية^(٢). وليس هناك شك في أن هذه الياسا التي وضحتها وشرحها بالتفصيل المؤرخ رشيد الدين هي أرقى وأنسب للحياة الجديدة، وما ذلك إلا لأنها واقعة تحت تأثير الحضارة الإسلامية ووجود وزير مثل رشيد الدين فضل الله^(٣).

ولكن ثارت شكوك وشبهات حول إسلام غازان خان في عصره وبعد عصره؛ غير أنه لم ينهض دليل قوي في سيرة هذا الإيلخان يؤيد هذه المزاعم بل على العكس رأينا قد أخذ على عاتقه المحافظة على شعائر هذا الدين في حماسة وغيرة طوال عهده^(٤)؛ حتى أنه وهو على فراش المرض قبيل وفاته، لم ينس أن يوصي الحاضرين بالتمسك بأهلباب الدين الخفيف والمحافظة على الإصلاحات التي قام بها، والتي كانت من وحي اعتناقه الإسلام، ونتيجة مباشرة له. كما حثهم على الالتفاف حول أخيه وولي عهده "أولجياتيو". وأخيراً نصحهم بضرورة الاتحاد والتآزر ونيل الخلاف^(٥).

ورشيد الدين وزير غازان ومؤرخ عصره يؤيد بالبرهان صحة عقيدة غازان ورسوخ إيمانه فيقول: "وكان ظن أكثر الناس أن سبب إسلامه، يرجع إلى ترغيب بعض الأمراء والمشايخ وحثهم له على ذلك. ولكن بعد التفحص، علم أن ذلك الظن خطأ؛ لأنه أثناء الخلوة بي أنا العبد الضعيف مؤلف هذا الكتاب قرر أن هناك عدة ذنوب لا يغفو الله عنها أكبرها أن يسجد شخص لعصم؛ إذ إنه من المؤكد والمقطوع به أن الله لن يغفر ذلك الذنب وأن المساكين من الناس المبتلين بالجهل هم الذين يسجدون للأصنام، وأنا أيضاً كنت مثلهم. ولكن الحق تعالى وهبني النور والعلم، فنجوت وتطهرت من ذلك الإثم بهداية

(١) انظر تفصيلات عن هذه الياسا في كتاب المغول في التاريخ، تأليف الدكتور فؤاد عبد المعطي الصباد، ص ٣٣٨ وما بعدها، القاهرة ١٩٧٥م.

(٢) خلاصة تاريخ سياسي واجتماعي وفرهنگي إيران تالياهو عهد صفوي، مجموعة مقالات دكتور ذبيح الله صفا (٢)، ص ١٨٨، تهران ٢٥٣٦ شاعتشاي.

(٣) مجموعة خطابه هاي شقيقي درباره رشيد الدين فضل الله همداني. مقالة بعنوان: انعكاس لوضاع اجتماعي در آثار رشيد الدين فضل الله بقلم د. غلامحسين يوسف، ص ٤٢٢، طهران ١٣٥٠ هـ.ش.

(٤) الشرق الإسلامي، ص ٢٥٣ وما بعدها.

(٥) تاريخ وصاف، ص ٤٥٧-٤٥٨، طبع بمسايء عبد الله القاشاني: تاريخ لولجياتيو ص ١٣-١٤، طبع طهران ١٣٤٨ هـ.ش.

حضرة الحق تعالى. وتوضيح هذا الكلام أنه ليس هناك شيء قط يعمل الإنسان إلى الجحيم سوى الجهل؛ بل إن الجهل نفسه هو جحيم لا يمكن الخروج منه. فكيف يستسيغ العقل السجود أمام جماد؟! إن هذا الإقدام دليل على الجهل المخض^(١).

وفي موضع آخر من كتاب تاريخ غازان خان يؤكد رشيد الدين هذا المعنى ويبعدنا عن اللبس والإبهام يقول: "إن غازان كان صادق الشعور في اعتناقه الإسلام، ويكرر وينفى أن يكون سبب اعتناقه هذا الدين تأثير بعض الأمراء والمشايخ، بل كان يهتدى من الله؛ إذ إنه من الجرب أن المسلمين إذا أجبروا أقل الناس شأنًا على أن يكون ملكًا أو حاكمًا عليهم، فإنه حسب ميله هو نفسه يدين بعقيدتهم. فإذا وجد الفرصة ساحة في تلك الولاية أو في ولاية أخرى فإنه يرجع إلى عقيدته الأولى. وإذن فأية حاجة تضطر مثل هذا السلطان الرفيع القدر، الباطش القوى إلى الالتفات إلى كلام شخص من الأشخاص في مثل هذا الأمر الخطير، فيتحول عن مذهبه أو يختار دينًا آخر مكرها؛ لا سيما وأن آباءه قد استولوا على ممالك العالم في زمن كفرهم!"

وبناء على هذه المقدمات علم أن أجره يكون في هذا الأمر مثل أجر إبراهيم الخليل - صلوات الله عليه فقد أدرك منذ البداية بفضل نور الهداية الربانية ضلال عبادة الأوثان، فحطم صنمه وعرف الله بآيمانه الوجداني. كذلك كان إسلام السلطان على هذا المنوال. ورغم عظمة الملك وجبروته، فإنه عندما تحول عن عبادة الأصنام واعتنق دين الإسلام، حطم كل الأصنام التي كانت بلاد إيران وحرب تخريبًا تامًا كل بيوت الأوثان وحملته المعابد غير الشرعية، وأدخل في الإسلام جميع عابدي الأصنام والكفار الذين كانوا يزيدون على عدد الرمال؛ بحيث إنه لم يضطر إلى قتل أي مخلوق. ولا بد أن هذا يكون له زيادة في الأجر^(٢).

والمنصفون من الباحثين الأوربيين دافعوا عن عقيدة هذا السلطان وأثبتوا أن إسلامه كان عن صدق وإخلاص لا عن تظاهر وتفاق^(٣).

كذلك تحدث رشيد الدين في هذا القسم عن الدسائس والمؤامرات التي كانت تحاك ضد غازان وضد كبار معاونيه من القواد والساسة، وبيان ما اتصف به من حزم وشدة مجابهة هذه المشاكل والتغلب عليها. وكان يقول في هذا الصدد: إن قتل شخص من

(١) انظر الترجمة.

(٢) انظر نفس المصدر.

(٣) انظر الشرق الإسلامي، ص ٢٥٦ وما بعدها.

الأشخاص أمر صعب علىّ جداً، ولكن إذا لم تراع السياسة والحزم في المحافظة على القضايا الكلية والجزئية فإنه لا يمكن تدبير الملك^(١).

القسم الثاني: يتضمن التاريخ السياسي للفترة التي حكم فيها غازان خان، كما يتضمن شرحاً للحروب التي خاضها، والفتوحات التي تيسرت له. ولعل أهم ما اشتمل عليه هذا القسم أيضاً يمثل في نكية "نوروز" نائب غازان خان، وأكبر شخصية في عهده. فمن المعروف أنه منذ أن تصالح نوروز مع غازان، وتعهد له بألا يخالفه؛ بر بوعده. وكان له فضل كبير في حثه على اعتناق الإسلام. كما شجعه على ضرورة مقاومة بايدو وانتزاع العرش منه. والحق أن "نوروز" بذل جهوداً كبيرة في هذا السبيل حتى تم لغازان النصر على خصمه بايدو، واعتلى عرش المغول في إيران في نهاية سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م.

ولو كان نوروز يفكر في خيانة غازان وطلعه من الخلف والتخلي عنه مرة أخرى لانتهر فرصة إقامته الجبرية عند بايدو، وانضم إلى صفه بعد أن بذلت معه محاولات عديدة من وسائل التهديد والإغراء؛ وما ذلك إلا لأن "نوروز" في نظر بايدو وأتباعه هو الساعد الأيمن والعقيلة المفكرة التي ترسم لغازان الخطط وتوجهه التوجيه الصحيح، وأن استقرار البلاد منوط بالاتحاد بين نوروز وبايدو^(٢). ولكن هذه المحاولات كلها باءت بالفشل، ولم تفلح في إقناع نوروز بالتخلي عن موقفه المؤيد لغازان. وأخيراً لجأوا إلى أخيه "لغزى" الذي كان من جملة أمراء بايدو في ذلك الوقت لعله يفلح في إقناع أخيه بالتخلي عن غازان والانضمام إلى صفوفهم، ولكنه فشل في مهمته. وكان رد نوروز القاطع في هذا الشأن يتلخص في هذه الكلمات الصريحة: "ما أخى! إني منذ ثلاثة أشهر في موضع "شبورغان"^(٣) قد حلفت بعد العصيان والطغيان أيماناً مغلظة، وقطعت العهود لغازان بألا أخالفه بعد هذا ما دمت حياً، ولا أسلك معه سبيل العناد، وأن أكون صديقاً لصديقه وعدوا لعدوه. فبأى وجه أنقض العهد وأنكث الميثاق. أتريد أن أكون ملوماً ومذموماً في الدنيا ومستولاً ومعاقباً في الآخرة؟! . كما أن رابطة المحبة والمودة في ولائى وخدمتى لغازان هي بدرجة من الاستمرار والدوام والاستحكام؛ بحيث لا تنفصم إلى نهاية العمر

(١) انظر الترجمة.

(٢) انظر كتاب الشرق الإسلامي، ص ٢٣٦.

(٣) تكتب أيضاً شبورقان، وتلفظها العامة فتقول شيرقان: مدينة طيبة من الجوزجان قرب بلخ، وبينهما وبين أنبار مرحلة من جانب الجنوب وكانت عامرة لعدة أيام الغزو المغول، يقصدها التجار ويبيعون فيها الأمتعة الكثيرة. (معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٢٢، دار صادر، بيروت ١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م بلدان الحلافة الشرقية، ص ٤٦٨).

وانقضاء الحياة؛ لأنه اليوم الخالق بالاستحقاق والملك على الإطلاق، وإني أرى من واجبي أن ألتزم بطاعته في كل أمر، فليس لنوروز أمير أو ملك سواه، وليس لي شأن بالآخرين". ولما وجد لگزى أنه لن يستطيع أن يؤثر على أخيه، قال له: "يا أخي! أنت ما دمت مصراً على هذه العقيدة، ومتمسكاً بهذا الرأي؛ فلن تأمن على نفسك من هؤلاء الرهط". فرد عليه نوروز في ثبات وإيمان قائلاً: "رضينا بقضاء الله وقدره. فأى شيء صوره الزمان ولم يمح، ومن الذى عاش ولم يموت. وإذا قدر الله أجلى على هذا النحو فمن الذى يمكنه رد ذلك أو دفعه؟! . وإذا لم يقدره سبحانه، فلست أخشى مائة ألف عدو قاهر"^(١).

ولكن بعد هذه الجهود الجبارة التى بذلها نوروز فى خدمة غازان، بدأت عناصر الشر تتجمع وتدير المؤامرات ضده، فألحوا إلى غازان أنه كان يتصل سرّاً بسلطان مصر، وأنه أطمعه فى انتزاع الملك من المغول فى إيران. ولحقك هذه المؤامرة زوّرت عدة رسائل على لسان نوروز تؤيد هذا الاتهام؛ فصدر قرار الإبلخان باستئصال شأفة جميع أفراد أسرة نوروز وأتباعه، ونفذ هذا على الفور^(٢). كذلك كلف غازان قائده "قتلغ شاه" بمحاربة نوروز والقضاء عليه، ولكنه لاذ بالفرار بعد أن انقض جنوده من حوله، وسار هائماً على وجهه إلى أن لجأ إلى حماية "فخر الدين كرت" ملك هراة الذى توسم فيه نوروز خيراً إذ كانت تربطه به صلة قرابة من جهة. كما كان يطوقه بمنته وأفضاله الكثيرة من جهة أخرى. ولكن الملك فخر الدين تنكر لكل هذا، واعتقل نوروز وأرسله مكبلاً بالقيود إلى القائد المغولى قتلغ شاه^(٣).

ويتحدث رشيد الدين عن هذه الواقعة فيقول: "سأل قتلغ شاه "نوروز" لم فعلت هذا؟ .. أجاب: إن غازان يستطيع محاكمتي لا أنت. وكلما سئل بعد ذلك، لم يجب على الأسئلة الموجهة إليه. وسبب ذلك أنه لم يرتكب ذنباً قط، وأنه لا إثم عليه". ثم أمر قتلغ شاه بقتله واحتز رأسه وأرسله إلى غازان. وكان هذا فى ٢٢ من ذى القعدة سنة ٦٩٦هـ^(٤).

(١) انظر رشيد الدين: تأريخ مبارک غازانی (داستان غازان خان)، تحقيق كارل يان، ص ٧٣-٧٤.

(٢) حمد الله السعوى الفزوينى: تاريخ گزیده، باعتصام دكتر عبد الحسين نوالى، ص ٦٠٤، طهران ١٣٣٦-

١٣٣٩هـ.ش.

(٣) انظر كتاب الشرق الإسلامى، ص ٢٨٣.

(٤) انظر الترجمة.

إذن فرشيد الدين هنا يعترف اعترافاً صريحاً ببراءة نوروز من التهمة الموجهة إليه. ولكنه يعود ويتناقض مع نفسه، ويذكر في أكثر من موضع من تاريخ غازان أن نوروز عمد إلى الخيانة عدة مرات، وكان السبب في تخريب خراسان، وأنه يعمل على تهديد الأموال. وليس هذا بصحيح لأن "نوروز" استمر على إخلاصه لغازان كما سبق أن ذكرنا. ولم يبد على تصرفاته ما يؤخذ عليه.

وعلى هذا يكون رشيد الدين قد وقف إلى جانب غازان يؤيده ويبرر أفعاله بغير حق لأنه في مركز القوة والسلطة ولا ينبغي أن يقف إلى جانبه شخص آخر يمكن أن ينافسه. يقول بروكلمان: ^(١) "اصطنع غازان في فرض سلطانه على ذوى قريبه وعلى أسراء المغول أبلغ القسوة وأثقل العنف، وحتى الأمير نوروز الذى كان له الفضل فى ارتقاء العرش لم يلبث أن ذهب ضحية هذه السياسة".

والواقع أن تمتع غازان خان بالسلطة المطلقة التى لا تقف عند حد تكون أحياناً مصدراً فى إنزال النكبات والمصائب على رؤوس مرعوسيه خصوصاً أولئك الذين يقتربون منه. يقول دوسون (٢) : "لا توجد صفحة من كتاب جامع التواريخ فى الجزء الذى يتناول الحوادث التى وقعت فى عهد غازان لم يتحدث فيها المؤلف عن قتل هذه الشخصية أو تلك من الشخصيات البارزة".

ورغم كل هذا نرى رشيد الدين يدافع عن غازان ويجرده من كل عيب؛ فيصادفنا مثلاً قوله: "وإذا حلف المطلقون على بواطن الأمور بالأيمان المغلظة أن سلطان الإسلام غلده ملكه لم يقتل أحداً مطلقاً إلا ذلك الشخص السيئ الخلق، ويلزم القضاء عليه، وأن وجود الأشرار هو عين الضرر للعالمين فإن أيمانهم صحيحة لا تستلزم الكفارة"^(٣). فهذا القول لا يخلو أيضاً من مبالغة، وبخالف الحقيقة. ولنا أن نتساءل: إذا كان الشخص المعادى لغازان يستحق العقاب فما ذنب إخوته وأفراد أسرته وأنصاره وأتباعه إذا كانوا أبرياء؟. للأسف كان يقضى عليهم أيضاً. وهذا ما كان يحدث فى عهد غازان وغير غازان من ملوك المغول

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية الدكتور نيه أمين فارس ومتر العليكي، ج٢، ص٢٧٤، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٤٩م.

(2) Histoire des Mongols, IV, P.200

(٣) انظر الترجمة العربية.

السابقين. فنحن لا ننسى مثلاً نكبة الجوينيين فى عهد والده أرغون خان^(١) أو مأساة الجويانيين فى عهد أبى سعيد^(٢). ففى شريعة المغول أنه ما دام الشخص - كائناً من كان - قد نكب، ينبغي أن ينكب كذلك كل من يتصل به من قريب أو بعيد. وهذا لا شك ظلم فادح وتصرف جائر بعيد عن الحق والعدل، ولا يمكن تبريره مهما حاول رشيد الدين. وإذن فالأمر الذى لا شك فيه أن غازان خان على الرغم من أنه يعد أكفأ سلاطين المغول فى إيران، وأنه رزق القدرة الكافية على إدارة شئون الحكم، كان قاسياً ومتشدداً إلى أقصى حد، ولا يقيم وزناً لأى شخص مهما كانت منزلته، وحتى أقاربه وذووه لم ينجوا من بطشه وفتكه. روى أنه خلال شهر واحد قتل خمسة من أمراء الأسرة الحاكمة وسبعة وثلاثين من أمراء المغول الآخرين^(٣). وكما يقول هورث "Howorth"^(٤): "برهن غازان بذلك على أنه ليس أقل من أبه (أرغون) جرأة على سفك الدماء".

وفى موضع آخر جاءت كلمة الحق على لسان رشيد الدين؛ وذلك عندما أبرز - من غير قصد - النزعة الديكتاتورية السافرة فى شخصية غازان خان، إذ يقول عنه: "لم يكن يدع سبيلاً لأى أمير أو وزير كى يعترض ويتحدث عن شأن من الشؤون، ولم يكن يقيم وزناً أو اعتباراً لأى واحد يعرض فكراً أو رأياً، بل يظل الجميع منتظرين ومترقبين إشاراته لتنفيذ ما يأمر به إلى حد أنه لم يترك مجالاً لمخلوق كى يسأله حتى عن يوم الرحيل". ويبالغ رشيد الدين مبرراً هذا التصرف، فيقول: "وفى الحقيقة لم يشق ذلك على أى شخص منهم لأنهم جميعاً شاهدوا أن نفسه هى الأكمل ورأيه هو الأصوب من كل الوجوه. وكذلك حركاته وسكناته مُرتبة إلى أقصى حد، فلا جرم أن رأوا أنفسهم لا شىء بالقياس إلى كفاءته"^(٥).

كذلك من الموضوعات اللافتة للنظر والجديرة بالتأمل فى هذا القسم الثانى، الحملات التى شنها غازان على القوات المصرية والسورية فى بلاد الشام، والتى انتهت بهزيمته على يد المصريين والسوريين، وتخليص الإقليم السورى نهائياً من سيطرة المغول.

(١) الشرق الإسلامى، ص ١٥٣ - ١٦٠.

(٢) نفس المرجع، ص ٤٤٨ وما بعدها.

(٣) انظر كتاب فتوحات مغول، تأليف ج. ج. ساندروز، ترجمة "أبو القاسم حاتم"، ص ١٣٤، تهران ١٣٦٣ هـ.ش.

(٤) History of the Mongols, Vol.3, PP.404-405.

(٥) انظر الترجمة.

قام غازان خان بثلاث حملات على الشام؛ ففي المرة الأولى وجد هذا السلطان الفرصة سانحة لمحاربة المماليك بحجة الدفاع عن الإسلام والمسلمين في هذا الإقليم فتقدم الجيش المصرى يقوده السلطان الناصر محمد بن قلاوون، والتقى الجيشان عند "مرج المروج" شرقى حمص حيث دارت معركة عنيفة في ١٧ من ربيع الأول سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م أسفرت عن انتصار المغول.

وعندما أرّخ رشيد الدين لهذه الحملة لاحظنا أنه راح يكيل المدح للسلطان غازان وصار يطرئ شجاعته وبطولته؛ فيذكر أنه وقف فى القلب كأنه جبل شامخ. وكان المصريون معتمدين إلى أقصى حد على عددهم وعدتهم، غير أنهم لم يكونوا يدركون أنهم وضعوا أقدامهم على أذناب الحيات، وأيديهم على الأشواك. ولما فتح العرب الكمين على للمغول كانت القوات المغولية تقف لهم بالمرصاد، فذاهبتهم وشئت شملهم، وسمع سلطان الإسلام صوئا من الوادئ الأيمن يقول: لا تخف نجوت من القوم الظالمين^(١)، فكان لتلك البشرى أثر قوى فى نفسه المباركة، وصار يزجر كالأسد المحصور، ويخترق صفوف الأعداء، ويتجندل أبطالهم بطن السنان. ثم صاح على جنوده ففزّلوا وأمطروا الأعداء بوابل من السهام، وشتوا عليهم هجوماً كاسحا. وفى النهاية هُزم المصريون. ثم بترسل رشيد الدين فى مدحه وثائقه على غازان وإبراز تفوقه على أعدائه^(٢).

/ بعد ذلك ينتقل رشيد الدين إلى الحديث عن الحملة الثانية سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م فيتفق مع غيره من المؤرخين على عدم حدوث التحام بين المغول والمصريين نظراً لسوء الأحوال الجوية، وهطول الأمطار الغزيرة وكثرة الوحل واشتداد البرودة، بحيث إن قائدين من قواد المغول لم يستطع أحدهما أن يتصل بالآخر وهلك كثير من دوابهما بسبب الوحل والبرد. فما كان من غازان إلا أن أرسل قائداً ثالثاً على رأس عشرة آلاف جندي حتى ينقلوا المحاصرين بدوابهم. وعندما وصلوا إلى هناك، استطاعوا أن ينقذوا أنفسهم بمشقة كبيرة. ولما رأى غازان هذه الصعوبات قرر العودة من حيث أتى دون قتال^(٣).

أما عن الحملة الثالثة التى قام بها غازان على الشام، والتحمت قواته بقوات الناصر محمد ابن قلاوون فى الثانى من رمضان عام ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م عند "مرج الصفر" فقد أسفرت

(١) قرآن كريم، سورة القصص، آية ٢٥ .

(٢) انظر الترجمة العربية.

(٣) انظر نفس المصدر.

عن انتصار القوات المصرية والسورية انتصارا ساحقا على قوات المغول. وبصعوبة بالغة نجح من الهلاك القائدان المغوليان قتلغ شاه وچوپان، وقليل من الجنود. وبانتصار المصريين في هذه المعركة تكون قد فشلت ثالث محاولات المغول في إخضاع سورية، وتوكل الماليك من قهر أخطر وأشدّ عدو واجهته مصر منذ ظهور الإسلام^(١).

وهنا نلاحظ أنه عندما تحدث رشيد الدين عن هذه الحملة، اختصر الحديث وتخلّى عن صفة الحياد التي تحتم على المؤرخ أن يذكر الحقائق مجردة عن كل غرض أو هوى في حالتي النصر والهزيمة. ولا شك أن رشيد الدين سلك هذا السلوك محافظة على شعور غازان الذي يود أن يراه منتصرا دائما.

وبعد انتهاء المعركة، أسرع القائد المغولي "قتلغ شاه" في العودة حيث قابل غازان خان في "كشاف"^(٢). ومن المحتمل أن يكون هو أول من أبلغ السلطان نبأ كارثة الهزيمة. وعن رد الفعل عند غازان وسماعه هذه الأخبار المزعجة، وكيفية استقباله قتلغ شاه، لم يقل رشيد الدين كلمة واحدة^(٣). كذلك نلاحظ أن هذا المؤرخ لم يحدثنا بشيء يذكر عما تم في المجلس الذي عقده غازان في مدينة الإسلام "لوجان" في السادس من صفر سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣م للتحقيق في الأخطاء التي ارتكبتها قواد الجيش المغولي، وكانت سببا في الهزيمة النكرة التي لحقت بهم. وكل ما قاله في هذا الصدد هو أن المحققين كانوا يستجوبون المتهمين على ضوء الملاحظات التي أبدتها غازان، وأن قواعد الياسا الكبرى قد طبقت في كل الشئون الحربية^(٤). وإذا فالغول بعد إسلامهم لم يتخلوا عن التمسك بأحكام الياسا كلما وجدوا في ذلك مصلحة لهم هذا على حين أننا إذا نظرنا إلى مؤرخ آخر هو أديب شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازي الملقب بوصاف الحضرة، والذي كانت تربطه برشيد الدين علاقة ود وصداقة^(٥) فإننا نراه يسلك مسلكا آخر مختلفا لرشيد الدين؛ إذ يعطينا تفصيلات وافية عن معركة "مرج الصفر" في كتابه "تجزية الأمصار وتزجية

(١) تاريخ سورية ولبنان، تأليف الدكتور فليب حتى، ج ٢، ترجمة الدكتور كمال البارزجي، الطبعة الثانية، ص ٢٧٢.

بيروت ١٩٧٢.

(٢) كشاف: بالضم: موضع من زاب للوصول (بافوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٦١).

(3) The Cambridge History of Iran, V.5. Dynastic and Political of the Il-Khans, by Boyle. P.394, Cambridge, 1968.

(٤) انظر الترجمة العربية.

(٥) انظر مؤرخ الغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني، ص ٢٢٢.

الأعصار"، والذي اشتهر باسم "تاريخ وصاف"^(١). ومنه نعلم أن عدد قتلى المغول بلغ عشرة آلاف جندي والأسرى عشرين ألفاً^(٢).

كذلك يزودنا الوصاف بمعلومات عما تم في المجلس الذي عقده غازان لحاكمه المسئولين عن الجريمة. وكان في مقدمتهم قتلغ شاه وجويان. وقد تبادل هذان الاثنان الاتهام في حضرة غازان. وبدأ جويان بالحديث فادعى أن قتلغ شاه لم يقم بحمايته كما ينبغي، ولم تطأ قدمه أرض المعركة لمساعدة الجنود الذين كانوا معرضين للدمار. فرد عليه قتلغ شاه مدافعاً عن نفسه؛ فزعم أن الوقت لم يكن مناسباً للهجوم، وأن جويان قد خالف الأمر. ولهذا كان كارهاً لتصرفه. وبناء على هذا رأى من المصلحة تجنب غرض المعركة إلى جانب جويان في ذلك الوقت^(٣). فلما سمع غازان هذا، أمر بتوقيع العقوبة على المقصرين ومنعهم من دخول المعسكر عدة أيام. ولم يستثن من العقوبة جويان نفسه، إذ ضرب بالحرابة ثلاث ضربات^(٤).

شيء آخر يشير الإعجاب ويحمد للوصاف باعتباره مؤرخاً، هو أنه على الرغم من اشتغاله بخدمة المغول وشتته بإنعامهم وقربهم، كان لا يستطيع أن يخفي شعوره الذي ظهر

(١) يعد هذا الكتاب واحداً من أهم المصادر في تاريخ المغول في إيران، وروايته في وصف الحوادث تختلف عما جاء في كتاب معاصره رشيد الدين؛ مما يدل على أن كلا المؤلفين قد اعتمد على مصادر مستقلة عن تلك التي اعتمد عليها الآخر. هذا فضلاً عن أنه يحتوي على أخبار لا توجد في رشيد الدين. وقد أخذ عنه المؤرخون مثل ميرخوادة؛ غير أن أسلوبه رديء جداً. وقد أتم الوصاف كتاب الجويني. وبالإضافة إلى هذا يتحدث عن الأطراف مثل فارس وكرمان وشباناكاره. ولا شك أن مصادر التاريخ المحلي كذلك قد أخذت عن تاريخ الوصاف.

Spuler: Die Mongolen in Iran, P.9, Leipzig, 1939.

(٢) انظر التفصيلات في كتاب تاريخ وصاف، ص ٤٠٩ - ٤١٣، طبع بهاي.

(٣) يقول بيرس المنصوري: وأخبرونا بأنهم لما ضاق بهم الأمر، وأحاط عليهم المعسكر حوطة الحصر، جاء جويان أحد مقدميهم. إلى فتللو شاه، وقال له: أريد أن تعطيني عسكرياً أعجب به على المسلمين، فما وافقه على ذلك فعاتبه وقال له: أنت الذي عززنا وسقنا إلى هنا، وخالفنا ما رسم لك به قازان فإنه لم يأمرك بالتقدم إلى هذا المكان، بل أوصاك أن تقيم بمحصى ولا تتعداها ولا تتقدم إلى مكان سواها، وضرب فرسه وولى عنه. وجمع أصحابه، وحملوا على حمية، ونزلوا من الجبل طالين طريق الرحبة. (اختصار الأعصار: تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، ص ١٢٦، حققه دكتور عبد الحميد صالح حمدان، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).

(٤) تاريخ وصاف، ص ٤١٤، طبع بهاي.

بوضوح في أسلوبه حينما تحدث عن ملوك الأطراف البعيدة عن إيران. فقد كان كغيره من الناس لا يزال ينقم على المغول ويرى فيهم قوما طغاة جبارين سفاكين للدماء، نكبت بهم الأمم الإسلامية، فكان يتوق إلى أن يرى هذه الأمم تنهض من كبوتها وتسترد مجدها وتستطيع أن تستفل هؤلاء القوم وتغلبهم على أمرهم. وقد ظهر هذا الشعور بوضوح عندما راح الوصاف يشرح أحوال ملوك مصر من الأيوبيين والمماليك، ويصف الحروب التي اشتبك فيها المماليك مع المغول، تلك الحروب التي أسفرت عن نصر محقق للمماليك واتدحار تام للمغول^(١). تقول دوروتيا كرافولسكي: "لكن الوعي بالتناقض الذي لا يبدو واضحاً في عمل رشيد الدين التاريخي يظهر في عمل مؤرخ فارسي آخر هو شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازي (عاش بين ٦٦٣ و ٧٣٠ هـ تقريباً / ١٢٦٤ - ١٣٣٠ م) الملقب بوصاف الحضرة، والذي كان يحظى بدعم رشيد الدين وتأييده. فقد تجرأ وصاف الحضرة، فأشاد بإسلام المماليك ودولتهم وانتصاراتهم على المغول أعداء الإسلام أملاً أن يأتى اليوم الذى يستطيع فيه المسلمون التحرر من وحشية المغول وحكمهم غير الإسلامى"^(٢).

كذلك الحال عندما تحدث المؤرخون العرب^(٣) عن الحروب التي دارت رحاها بين غازان من جهة وبين الناصر محمد بن قلاوون من جهة أخرى، نلاحظ أن مؤلفيها حرصوا

(١) تاريخ وصاف، ص ٨٣ - ٨٤، طبع بباي: مؤرخ المغول رشيد الدين فضل الله المصلاني، ص ٢٣٤.

(٢) مسائل الأبحار في ممالك الأمصار: دولة المماليك لابن فضل الله العمري: دراسة وتحقيق كرافولسكي، الطبعة الأولى، ص ٣٣ - ٣٤ من المصنف المطول، الترجمة العربية، بيروت ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.

(٣) من هؤلاء المؤرخين على سبيل المثال لا الحصر، أبو الفدا المؤيد عماد الدين: المختصر في أخبار البشر، المجلد الثاني الجزء الثالث، ص ٤٢، ٤٤، ٤٨، ٤٩، نشر مكتبة المتنبي، القاهرة بدون تاريخ؛ ص ٣١٦ - ٣١٨، ٣٥١ - ٣٥٩، للملكة العربية السعودية، بدون تاريخ؛ نفس المؤلف: التحفة للملوكية في الدولة التركية: تاريخ دولة المماليك البحرية في الفترة من ٦٤٨ - ٧١١ هـ، تحقيق دكتور عبد المجيد صالح حمدان، ص ١٥٦ - ١٦١، ١٦٣ وما بعدها، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م؛ نفس المؤلف: مختار الأخبار: تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢ هـ، تحقيق دكتور عبد الحميد صالح حمدان، ص ١١١ - ١١٤، ١٢٣ - ١٢٧، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م؛ أبو بكر عبد الله بن أبيك الدواداري: كثر الدرر وجامع الفرر، الجزء التاسع، وهو الدرر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت رويسر، ص ١٥ - ٢٠، ٤٥، ٤٧، ٥٨ - ٨٨ =

على أن يزودونا بمعلومات صحيحة، ولم يحاولوا إخفاء الحقائق وراحوا يكشفون عن الثغرات التي وجدت في صفوف المصريين والسوريين وكانت سبباً في هزيمتهم أمام قوات المغول في موقعة مرج المروج. وهكذا جاءت رواياتهم صادقة وبعيدة عن الغرض والهوى. وكان من الطبيعي أن تتحدث هذه المصادر عن معركة النصر الحاسمة في موقعة مرج الصفر، وتشيد بكفاءة الجنود المصريين والسوريين.

والواقع أن الجهاد الذي أدى إلى هذا النصر المؤزر على المغول ليمثل جانباً مهماً من تاريخنا القومي الذي نفخر ونعتز به على الدوام. وهناك حقيقة يجب أن نقرها، وهي أن المواجهة الطويلة نسبياً بين المغول والمماليك، كانت حدثاً تاريخياً ترك آثاره الواضحة في أذهان الناس ونمت لديهم إحساساً عميقاً بالقومية العربية والإسلامية، وشعوراً قِيَّاساً بالفخر والزهو بالانتصارات الرائعة التي أحرزها المصريون والسوريون في مصر والشام اعتماداً على كفاح الشعوب في هذه المنطقة وخارجها. كما أبرز فعالية الأبطال ودورهم اللامع المشرق في التاريخ^(١).

هذا وقد شك بعض المؤرخين في إسلام غازان مستندين إلى أنه كان في حروب مستمرة مع المماليك الذين كانوا يعدون في ذلك الوقت حماة الدين الإسلامي، والذين كانوا يحملون لواء الرعامة للبلاد الإسلامية. هذا من جهة ومن جهة أخرى كان غازان يرحب بتعاون المسيحيين معه ضد هؤلاء المماليك. وعلى هذا لم يتردد في التحالف مع المسيحيين الأوربيين في سبيل القضاء على عدوهم المشترك^(٢). ولكن خاب ظن هؤلاء وهؤلاء بانتصار المماليك انتصاراً حاسماً في موقعة مرج الصفر على النحو الذي ذكرناه سابقاً.

- القاهرة ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م) تقي الدين أحمد بن علي القرعزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق الدكتور محمد مصطفى زبادة ج ١، ٣، ص ٨٨٧، ٨٩٥، ٩٣٣، ٩٣٨، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٧٠م) محمد بن أحمد إياس الحنفى: بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الأول - القسم الأول، تحقيق الدكتور محمد مصطفى، ص ٤٠٣، ٤٠٥، ٤١٢، ٤١٦، الطبعة الثانية، القبة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(١) انظر ملك الأبحر في ملك الأنصار - دولة المماليك الأولى لابن فضل الله العمري (٧٠٠ - ٧٤٩هـ / ١٣٠١ - ١٣٤٩م): دراسة وتحقيق كركورلسكي، الطبعة الأولى، ص ١٢ - ١٣ من التمهيد للقول، ترجمة الدكتور رضوان السيد، بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

(٢) انظر دكتور حبيب لوى: لتاريخ يهود إسرائيل، جلد سوم، ١٠٦، شهران ١٣٣٩هـ - ش ١٩٦٠م ستيفن رنيسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور السيد الباز العريضي، ج ٣، ص ٧٣٦ - ٧٣٧، بيروت ١٩٦٩.

وردنا على هذا الادعاء نقول إن غازان كان مسلماً مخلصاً في إسلامه ما في ذلك من شك. وإذا كان قد حارب المماليك المسلمين فما ذلك إلا استجابة للطبيعة البشرية التي جبلت على حب العظمة والظهور والميل إلى السيطرة والتوسع والرغبة في الغزو والفتح. كذلك أقدم غازان على اتخاذ هذه الخطوة تحقيقاً لسياسة جرى عليها أسلافه من قبل لمدة طويلة دون أن يحققوا أهدافهم إذ لحقت بهم المزاليم المتكررة، ويريد هو أن ينتقم لهم. وها نحن في العصر الحديث مثلاً نجد الأوروبيين رغم اتحادهم في الدين قد اضطرتهم المتنافسات السياسية والعوامل الاقتصادية إلى شن الحروب بعضهم ضد البعض، فجزوا العالم إلى حريين عالميتين، عانى العالم من وبلاهما مدة طويلة. وإذا كان غازان قد اتحد مع المسيحيين ضد المسلمين، فما ذلك إلا لأنه وجد نفسه في حاجة إلى مساعدتهم. وأن التحالف معهم إنما هو وسيلة أملت عليها السياسة فحسب، وليس للدين دخل فيها لا من قريب ولا من بعيد^(١).

القسم الثالث: فيه يتحدث رشيد الدين بالتفصيل عن أربعين حكاية: الحكايات الست الأولى منها تتضمن مختلف المعارف والثقافات التي اطلع عليها غازان خان، والجحرف والصناعات التي مارسها ممارسة فعلية، وبيان ما انتصف به من خلق طيب كريم وما تميز به من فصاحة وبلاغة وصبر وجلد وسخاء وكرم. غير أن قيمة هذا القسم تبلغ الذروة عندما يتحدث المؤرخ بالتفصيل عن إصلاحات غازان خان؛ تلك التي تشمل جوانب الحياة المختلفة من إدارية واقتصادية وعمرانية واجتماعية. وهذه النواحي هي التي يهتم بها مؤرخو الحضارة. كما تغطي بعناية الباحثين والدارسين؛ خصوصاً من يدرس العصر المغولي الذي ذاع عنه أنه عصر تخريب وتدمير وتحطيم للحضارة والمدنية وتشريد للعلماء والأدباء.

وفي الحقيقة عندما اعتلى غازان عرش المغول في إيران، وأعلن الإسلام ديناً رسمياً للدولة قضى على الهوة السحيقة التي كانت تفصل بين الحكام والمحكومين. بسبب اختلاف الدين، ونعم الجميع بأخوة الإسلام، فأزيلت الحواجز الجنسية والطبقية التي كانت تفصل بين هؤلاء، مما ساعد على اندماج المغول في المجتمع الإسلامي، واشتد تأثرهم بالبيئة الحضارية الإسلامية. وفي الحقيقة كان إسلام غازان خان نعمة كبيرة، وسعادة لا حد لها بالنسبة إلى إيران؛ ذلك أن الحكومة الباطشة العنيفة القاسية، تصير محنة بل كارثة تحمل

(١) انظر المجتمع العربي، تأليف مجموعة من أساتذة كلية الآداب بجامعة عين شمس، الطبعة الأولى، ص ١٧٦ ١٧٧، القاهرة ١٩٦٦م.

بالرعاية المظلومين. ولا شك أن النكبة تكون أشد وأتكي إذا كان دين الحكام يخالف دين المحكومين؛ خصوصاً إذا علمنا أن الكثيرين من أفراد هؤلاء الحكام كانوا بضمرون عداة صريحاً وحققاً دقيقاً للمسلمين. ومن هنا عدت حكومة المغول في إيران - قبل غازان خان- أقسى وأعنف الحكومات، غير أن كل هذا قد تغير تغيراً كاملاً بفضل إسلام غازان خان^(١). كذلك في عهد هذا الحاكم المغولي تحدد موقف الدولة من الأقليات غير المسلمة التي كانت تحظى منهم بالكثير من العطف والرعاية على حساب المسلمين؛ فقد انتهت هذه السياسة إلى غير رجعة، وفرضت على هذه الطوائف الجزية بصورة منتظمة، وحددت مكانتهم في المجتمع الإسلامي كأهل ذمة لا يرقون إلى مستوى المسلمين^(٢).

ومما هو جدير بالذكر أيضاً هو أن حكم غازان قد هباً للمغول فترة هدوء كفوا فيها أيديهم إلى حد ملموس عن القتل والغارة، وعادوا إلى الحالة الطبيعية فراد تأثرهم بحضارة المغلوبين، وجدوا في إصلاح ما أحدثه آباؤهم وأجدادهم من تخريب وتدمير وصاروا أكثر استعداداً للمساهمة بنصيبهم في إنهاء الحضارة الإسلامية من كبوتها. وفي الحقيقة لم يكتف غازان بصيغ حياته الخاصة بالصيغة الإسلامية، بل تعدى ذلك إلى رفع المظالم عن طبقات الشعب الكادحة، ومعالجة ضروب الفساد في مختلف شئون الحياة، وذلك كله طبقاً لما تنص عليه الشريعة الإسلامية^(٣).

لقد كان هدف غازان هو استقرار الأمور السياسية الداخلية ووضع علاج حاسم للجراح الدامية التي كانت قد وجدت قبله في الجسد العليل بل المستهلك لبلاد إيران. وفي الحقيقة كانت تسود البلاد كلها حالة من القوضى والفساد؛ فكان لا بد من القيام بسلسلة من الإصلاحات الواسعة التي تهدف إلى الترفيع عن الرعية والعمل على استئصال الداء من جذوره. ولقد رأى ثاقب فكره أن يستعين بالكتاب وأرباب القلم ورجال السياسة المحنكين من الإيرانيين؛ وذلك من أجل تنفيذ برنامج الإصلاح الشامل، فنصب رشيد الدين الذي

(١) انظر برون: تاريخ أدبي إيران لقرن خمسة قرن هفتم تا آخر قرن نهم هجری (از سعدي تاجامي) ترجمة علي أصغر حكمت، ص ٤٧، تهران ١٣٢٧هـ. ش / ١٩٤٨م.

(٢) الدكتور محمد صالح القزاز: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، ص ٢٩٤ - ٢٩٥، السيف ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

(٣) انظر الدكتور مصطفي طه بدر: مغول إيران بين المسيحية والإسلام، ص ٣٧، القاهرة بدون تاريخ.

كان طبيعياً ومن أبرز أهل القلم، ومن كبار العلماء والمتقنين، نصّبه وزيراً لكل الممالك التي يحكمها غازان؛ فعمل هذا الوزير مع من شاركه في منصب الوزارة على إيجاد حكومة قوية ثابتة ومقتدرة في ظل السيطرة الكاملة والنفوذ المطلق للسلطان غازان وذلك بهدف تقوية أساس دولة الإيلخانيين، فكان رشيد الدين بذلك، العامل الرئيسي في تنفيذ كل الإصلاحات التي نصت في هذا العهد.

وهكذا بفضل مساعدة رشيد الدين وجهوده ورأيه الصائب أنجزت جميع الإصلاحات التي كان يتوق غازان إلى تحقيقها في مختلف شئون دولته^(١). ونتيجة هذه الجهود المثمرة أصلح الجهاز الإداري الذي كان يشمل الدواوين المختلفة. كما أدخلت تعديلات جوهرية على جهاز القضاء، وأصبح يسير شاملاً وفق أحكام الشريعة الإسلامية. كذلك أحدث غازان نظاماً جديدة في الجيش. ولم تقف جهوده عند هذا الحد، بل إنه سعى سعياً جدياً في تثبيت حقوق الملاك والمزارعين، وعمل على اتساع رقعة الأراضي المزروعة، وذلك بشق الطرق والقنوات، مما أدى إلى ازدهار الزراعة^(٢) وإصلاح الحالة الاقتصادية في البلاد وتحسين أوضاع الناس. ومن الإنصاف أن نذكر أن غازان خان أعاد كذلك النظام والأمن والأمان إلى مختلف المناطق التي تعرضت لكثير من القلاقل والحزات العنيفة. كما أنه بذل جهوداً جبارة في سبيل أوضاع الطبقات الفقيرة، والقضاء على المظالم التي تعرضوا لها في عهد أسلافه من حكام المغول.

وهكذا رأينا غازان خان بمجرد أن اعتلى العرش، أخذ يسعى سعياً جدياً في أن يحبر النقص الذي حدث في كل أجهزة الدولة نتيجة لأخطاء السالفين؛ وذلك بما كان يبذله من طاقة جبارة وعزيمة قوية، وبمساعدة وزرائه الأكفاء، وفي مقدمتهم رشيد الدين. وفي الحقيقة سعى غازان بإخلاص في تغيير معالم الحياة المختلفة المليئة بالعيوب إلى معالم أخرى

(١) آئين كشور داري در عهد وزارت رشيد الدين فضل الله همداني، تأليف دكتور هاشم رجب زاده، ص ٧ - ٨.

تهران ٢٥٣٥ شاهنشاهی.

(٢) عن الإصلاح القرامي انظر الترجمة العربية للحكايتين السادسة والثلاثين والسابعة والثلاثين وللحصول على مزيد من

التفصيلات انظر كتاب كشاورزی و مناسبات ارضی در ایران عهد مغول، تأليف إلهيا باولو مع بطروشفسكي، ترجمة كريم كشاورز، جلد اول، چاپ دوم، ص ١٥٢ وما بعدها، تهران ٢٥٣٥ شاهنشاهی.

مشقة تعيد الأمن والاستقرار للناس، وتؤمنهم على حياتهم وأرواحهم وأعراضهم وممتلكاتهم. ومن البديهي أن غازان ظل طوال فترة حكمه يتمتع بعزيمة قوية لا تفتر. ولم يتخل عن عزمه على تحقيق مآربه. وعندما يرى العقبات تقف في طريقه، وتحول دون الوصول إلى أهدافه، كان لا يتردد في اللجوء إلى الشدة التي تبلغ حد القسوة يستدل على ذلك بأحداث القتل التي لا أول لها ولا آخر؛ وذلك على العكس من عمه غيخاتو خان (٦٩٠ - ٦٩٤ هـ / ١٢٩١ - ١٢٩٤ م) الذي كان تنقصه الشجاعة والجرأة؛ إذ كان في أغلب الأحيان يمتنع عن تنفيذ أوامر القتل والإعدام. وفي عهد غازان بأكمله بذلت جهود كبيرة مرهقة، وشنت حملات متعددة. ورغم الجهود المضنية التي بذلها غازان في سبيل الإصلاح، لم تنجح له الفرصة كي تخرج أفكاره كلها إلى حيز التنفيذ؛ فسرعان ما لبست فترة حكمه القصيرة ثوبا حزينا ووضع موته المبكر حدا فاصلا لهذه الجهود الجبارة التي قام بها والماسعى المتواصلة التي بذلها في سبيل إصلاح دولته. فالخزن عليه، وقبل هذا على مصير بلده الذي كان في أمس الحاجة إلى حاكم قوى مثله^(١).

وإن الروايات التي ذكرها رشيد الدين في كتابه، وشملت الأحداث المعاصرة له لتدل بوضوح تام على أن هذا المؤرخ لم يكن متفرجا غريبا عن هذه الحوادث، أو على أنه المؤرخ الذي يؤرخ فقط، ولكن تدل أيضا على أنه هو الذي يلعب دورا هاما في هذه الأحداث ويشير على غازان بالرأى السديد، ويساعده على تنفيذ مشروعاته وإصلاحاته، مما يثبت أنه الرجل الذي يهتم بكل التفاصيل التي تتعلق بشئون الدولة. ولا شك أن هذه الإصلاحات هي بمثابة مرآة تبدو عليها حياة الناس ووقائع عصرهم، وتعتبر أسنادا تاريخية قيمة جذبرة بالدراسة والبحث. ولقد تنبه الباحثون إلى أهمية دراسة النواحي الحضارية في حياة الشعوب لأنها النتائج الحقيقية الواقعية لمسيرة التاريخ البشري. ونحن إذا عرفنا أن المصادر التاريخية غالبا ما تهتم بالجوانب السياسية والحربية في حياة الشعوب، فإنه ينبغي أن نقدر تمام التقدير ما كتبه رشيد الدين عن غازان خان الذي استطاع في سنوات قليلة أن يعيد الحياة والازدهار إلى ربوع البلاد التي كان يحكمها.

(١) شيورل : تاريخ مغول در ایران: سیاست، حکومت و فرهنگ دورة ایلخانات، ترجمة دكتور محمود تقيان، ص ٩٧ - ٩٨، تهران ١٣٥١ هـ.ش.

والواقع أن حديث رشيد الدين عن الإصلاحات التي تمت في عهد غازان والتي سجلها بقلمه أروع تسجيل في كتابه جامع التواريخ، لا تصادف مثله - على هذا النحو من التفصيل والوضوح - في كتابة أى مؤرخ آخر. وفي الحقيقة عندما أراد هذا المؤرخ الرسمى أن يكتب شيئاً عن السلطان الذى كان يحكم فى ذلك الوقت اعتبر رفع شأنه واجبه الأول. وهو فى الحقيقة جدير بأن ينال هذه الدرجة الرفيعة عند مؤرخه رشيد الدين.

ما نلاحظه على هذا القسم الثالث هو أن رشيد الدين عندما تحدث فى الحكاية الأولى منه، والتي كتبها بعنوان: "فى فنون كمالات سلطان الإسلام وعلومه ومعرفته الصناعات المختلفة، ووقوفه على أسرارها" نراه قد تناول الصفات التي اتصف بها غازان، والصناعات التي عرفها ومارسها؛ فذكر أن هذا العاهل كان يحب صحبة الأدباء والحكماء والفضلاء والعقلاء المتنازين وبجالسهم ويطرح الأسئلة عليهم ولا يترك مجالاً لأى محال أو مزور يتحدث فى حضرته بكلام فيه خداع ورياء. وكان على اطلاع تام على الأدب والمثل والنحل، وواقفاً على معتقدات كل طائفة بحيث إنه عندما كان يتباحث مع أئمة تلك المذاهب، يعجزون عن الإجابة عن واحد من عشرة أسئلة يوجهها إليهم. وأما عن اللغات المختلفة؛ فكانت المغولية لغته الأم. وكان يلم بالعربية والفارسية والهندية والكشميرية والتبتية والخطائية والفرنجية وسائر اللغات^(١).

وكان يعرف أيضاً تاريخ السلاطين المتقدمين والمتأخرين، ويقف على آدابهم وعاداتهم ونظمهم. وأما عن الحرف المختلفة فإنه لا توجد حرفة قط لم يمارسها بيده؛ وذلك من قبيل الصباغة والحدادة والتجارة والنقش وصب المعادن والخراطة. كذلك مارس صنعة الكيمياء ووقف على طريقتها فى مدة وجيزة، وأحاط أيضاً علماً بالصناعات الدقيقة الظرفية. وقد اطلع على علم الطب وعرف الأدوية ووقف على أكثر خواصها، واكتشف الأعشاب الطبية، وعرف فوائدها. كذلك امتد نشاطه إلى المعادن وكيفية استخراجها وصهرها، وصار يحيط بما يحويه منها كل موضع من الجبال والصحارى التي يراها. وأما التعاويذ فإنه يعرف

(١) يقول ابن حجر العسقلاني: "كان غازان يتكلم بالفارسية مع خواصه، ويفهم أكثر ما يقال باللسان العربى".
(الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ج ٣، ص ٢١٢، نشر دار الجليل، بيروت ١٣٥٠هـ).

منها ما يقرأ لكل أمة. وأخيرا وليس آخرا فإنه كان يحيط أيضا بأسرار علم النجوم والهيئة. وبهذا يكون غازان قد حصل نصيبا من كل علم يتصور. وقد صرح فى النهاية بأن خلاصة العلوم علم الإلهيات. وإلى الآن ما زال غازان يشغل نفسه دائما بالتعليم والتعلم.

وإننا لتساءل حقا: هل يمكن لفرد واحد مهما أوتى من ذكاء وعقوبة أن يحيط علما بكل هذه المعارف والثقافات والصناعات؟! ولم لا يكون رشيد الدين قد قال هذا على سبيل التملق والتزلف والمبالغة؟!^(١)

فى الحقيقة نرى رشيد الدين نفسه يشعر بهذا الحرج، فيسرع بالدفاع عن وجهة نظره دفاعا منطقيا مستشهدا بالمعاصرين له والقريين من مسرح الأحداث فيقول: "وأهل هذا العهد واقفون على تلك الحقائق، وهم شهود على أن الحال يجرى على هذا المنوال، وذلك حتى لا يظعن القراء فى كلامى قائلين: لقد حدثت مبالغة فيما كتبت"^(٢).

بعد ذلك تنتقل إلى الحديث عن أهم الإصلاحات التى قام بها غازان، والتى كانت صادرة من وحى إسلامه وصفاء نيته. وكان مهتدبا فيها بتعاليم الإسلام السمحة ومبادئه القومية؛ فدفعه هذا إلى القيام بهذه الإصلاحات التى رفعت منزلته إلى مقام كبار المصلحين والمشرعين، على أن نبين بوضوح إلى أى حد وفق رشيد الدين فى عرض هذه الموضوعات بعيدا عن المبالغة والتفاق والرياء؟!^(٣)

فى الحكاية السابعة بعنوان "فى إبطال الديانة الوثنية وتخريب معابد الوثنيين" نعلم أنه عندما اعتنق غازان الإسلام، أمر بتحطيم كل الأصنام ومعابدها، وهدم بيوت النار والمعابد الأخرى التى لا يجوز وجودها شرعا فى ديار المسلمين. كذلك أجبر غازان البوذيين على الدخول فى الإسلام، وهدم المتأفكين منهم الذين يتظاهرون باعتناق هذا الدين، وخيرهم بين أمرين: إما أن يرحلوا إلى بلادهم وإما أن يظلوا ثابتين على ما فى قلوبهم وضمائرهم بشرط ألا يحاولوا تلويث الدين الإسلامى بنفاقهم. وهددهم بأنه سوف يجعل المخالفين منهم طعمة للسيف. ويعلق رشيد الدين على هذا الموقف الحازم من جانب غازان خان قائلا: "وفى وقتنا هذا فإن القليلين منهم الذين بقوا فى إيران لا يجدون فرصة مواتية لإظهار عقيدتهم

(١) انظر الترجمة.

أو مذهبهم، وذلك مثل أقوام الجوس والملاحدة الذين يستوطنون هذه البلاد منذ زمن قديم، ولكنهم يخفون معتقداتهم".

وفي الحكاية التاسعة بعنوان: " في شجاعة السلطان وإعداد الجند للحرب " نرى المؤرخ رشيد الدين يطرئ شجاعة غازان ويبرز قدرته الفائقة في قيادة الجيوش ويثني على مهارته في خوض غمار المعارك، ويصوره على أنه قائد محنك يرسم لجنوده الخطط الكفيلة بالصمود أمام أعدائهم والانتصار عليهم. كذلك يؤكد ضرورة إرسال الجواسيس بصفة مستمرة لتقصي الحقائق عن العدو والاطلاع على أحواله وجمع المعلومات عنه. وبعد جمع هذه المعلومات توضع كل الأفكار والخطط والأعمال موضع التنفيذ وإلا فإن التصرف الذي يقوم على غير هذا الأساس يكون كالملاكمة في الظلام.

إلى جانب هذه التعبئة المادية لا ينسى غازان التعبئة الروحية، وهي الأخرى ضرورة لازمة للثبات أمام العدو، وإلحاق الهزيمة به؛ ففي حالة مغادرة الجنود قواعدهم، عليهم أن يتوجهوا دائما بنية طيبة، وأن يشتغلوا بذكر الله تعالى، وأن يطهروا أنفسهم فلا يرتكبوا أفعالا سيئة، وأن يكونوا محبين لمواطنيهم ووطنهم، وعليهم ألا يظلموا أحدا حتى يثق الناس بهم، ويذلوا همهم الطيبة في سبيلهم، ويدعوا لهم بتضرع فيستجاب لهم؛ إذ إنه ليس للجنند ذخيرة قط أفضل من دعاء الخير والهمة الطيبة.

وفي ختام هذه الحكاية يعلق رشيد الدين على مضمونها بقوله: "وعلى هذا المنوال كان السلطان ينصح جماعة الأمراء والجنود، وظل ينصحهم، بل إنه تحدث إليهم بكلام كثير أدق من هذا لم يبق في الذاكرة. وإننا لو رحنا نشرح كل ما قاله لأدنى ذلك إلى التطويل. وحيث إن المقصود هو إبراد شواهد وأمثلة، يكون هذا القدر كافيا خاصة وأن الزوائد والإضافات معلومة ومحققة للجميع.

وأما الحكاية الحادية عشرة، فقد جاءت بعنوان " في منع سلطان الإسلام الجنود وغيرهم من التفوه بكلمات الكفر؛ إذ لاحظ غازان خان أن بعض الأمراء والجنود وغيرهم يطلقون ألسنتهم بالفخر والتباهي بآرائهم الصائبة كما دأبوا على التلطف بالفاظ قد تؤدي إلى الكفر. وكان يلاحظ على الجند بصفة خاصة أنهم إذا ما تم لهم النصر على العدو ووقفوا في حياتهم، نسبوا كل هذا إلى أنفسهم، وأطروا شجاعتهم. أما إذا هزموا في إحدى المعارك أو أنهم لم يوقفوا في عمل من الأعمال، قالوا: "إن هذا قضاء الله وقدره، وإلا فقد سعيننا وبذلنا الجهود الجبارة".

وللحيلولة دون الوقوع في هذا الخطأ أصدر غازان مرسوما نص فيه على أن من يتفوه بهذا الكلام يكون مذنباً، وعليه أن يثق أن الحسنة من فضل الله وأن السيئة إنسا هي نتيجة الأفعال المستهجنة التي يقدم عليها الإنسان. وغازان في إجرائه هذا إنسا يسترشد بما جاء في القرآن الكريم: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا﴾^(١).

الحكاية الثالثة عشرة: "في أبواب البر التي أنشأها سلطان الإسلام في تبريز وهمدان والبلاد الأخرى، والأوقاف التي وقفها، وتنظيم المنشآت".

هذه الحكاية تتضمن أعمالا بارزة قام بها غازان. وهي أيضا من وحى الإسلام ومتفقة مع تعاليمه السامية؛ لأنها تحث على فعل الخير، وتدعو إلى العطف على الطبقات الفقيرة التي هي في أمس الحاجة إلى المساعدة والأخذ بيدها حتى تنهض من كبوتها، وتستطيع أن تسير ركب الحياة في المجتمع بطريقة سليمة كريمة بعيدا عن الانحراف والسلوك المشين.

هذه الجهود تتمثل في الأوقاف^(٢) الكثيرة التي وقفها غازان على المؤسسات الخيرية القائمة في الولايات المختلفة للقيام بأعمال البر والإحسان. ويتضح ذلك في الإنفاق على المساجد والمدارس والمؤسسات الخيرية والمستشفيات ودور الكتب والقضاء والحمامات والجربيات والأيتام والأرامل والمسنين وذوي العاهات، وإغاثة الغرومين والمستحقين. وكذلك في سبيل الإشراف على تربية الأطفال اللقطاء الذين يلقي بهم في عرض الطريق فهؤلاء يجدون العناية والرعاية، ويعهد بهم إلى الممرضات اللاتي يوفرن كل ما يحتاجن إليه حتى يبلغ الأطفال سن الرشد والتميز. وهذه العناية تشمل أيضا الإنفاق على دفن الموتى من الغرباء الذين يموتون في تبريز، ولم يكونوا يملكون مالا يفي بإجراءات دفنهم. وفي صراحة وتواضع راح غازان يقول: "ومع أنه ليست لنا مرتبة الصالحين، لكن تشبها بهم عمدنا إلى إنشاء أبواب البر كي تكون مثوى لآخرتنا. وبذلك نصير لنا خيرات وصدقات جارية، وبركات تلك الخيرات، تأخذ بيدنا رحمة الله تعالى، ويدخر لنا ثواب دائم. وإنه من

(١) سورة النساء، آية ٧٩.

(٢) انظر مقالة بعنوان "الوقف صورة مشرفة في التاريخ الإنساني للحضارة الإسلامية" كتبها إبراهيم توبري في مجلة الثقافة الصادرة في شوال ١٤١٨ هـ. يناير فبراير ١٩٩٨م، العدد العاشر المجلد السادس والأربعون، ص ٢٠٣، الدمام، المملكة العربية السعودية.

المفضل إلى أقصى حد أن نسرع في إنجاز هذه المؤسسات في الوقت الذي منحنا الحق تعالى القدرة، وهياً لنا الفرصة حتى تتم هذه الأعمال بيمين التوفيق^(١).

ومما يذكر أيضاً بالخير والثناء على غازان هو أنه لم يقتصر على تقديم مساعداته للإنسان، بل امتدت رعايته إلى الحيوان؛ فقد أمر بأن تشر الحبوب فوق أسطح المنازل في أشهر الشتاء الستة الباردة في إيران عندما تشتد البرودة وينزل الثلج، فتلتقط الطيور هذه الحبوب آمنة مطمئنة، ولا يحاول أحد قط اصطيادها. وكل من يقصدها بسوء تحل عليه لعنة الحق تعالى وسخطه، وعلى الثور وسكان تلك البقاع أن يمتنعوا المعتدين ويردعوهم وإلا يكونوا آثمين.

كذلك شمل غازان بعطفه الفئات المغلوبة على أمرها من الغلمان والجواري والأطفال الذين يكلفون بنقل الماء، وتنكسر أوانيهم والكيزان التي يعملونها أثناء نقل الماء إلى المنازل، ويتحشون عقاب ساداتهم، فإن الثور يعرضهم عنها لواتي جديدة، وذلك بعد أن يتحرى الحقيقة.

ونتيجة لإيمان غازان العميق واعتماده على الله وطلب المعونة منه، أنه في كل ولاية حل بها، وراوده أمل، وعن له مراد ومست حاجة مسترة لجأ إلى حضرة الحق تعالى، وأفضى إليه بسر، والتزم نذراً وأدى صدقة.

وهكذا ملأ الإيمان قلب غازان، فكان يسر دائماً إلى الحق تعالى بمحاجاته، وهو متأكد - دون أدنى شك - من أنها مقضية لدى الحضرة الإلهية بفضل الخيرات والصدقات والنذور، ولا يضيع أجر ذلك أبداً.

وفي النهاية يعلق رشيد الدين على أعمال الخير والبر التي قام بها غازان ورصد لها المبالغ الطائلة، ووقف عليها الأوقاف الكثيرة، فيقول على سبيل المبالغة "ولا شك أن أى مخلوق لم يسر في أى عصر ومن أى سلطان مثل هذه الخيرات الكثيرة والمبرات والإنعامات والصدقات الجارية". وأخيراً يدعو رشيد الدين لغازان قائلاً: "فليمنح الحق جل وعلا هذا السلطان العادل الكريم مزيداً من التوفيق على هذه الخيرات، وليوصل بركاتهما ومثوباتها إلى أبامه المباركة"^(٢).

(١) انظر الترجمة.

(٢) انظر نفس المصدر.

خصوصاً بما تم في هذا المجال في عهد ملكشاه ووزيره الكبير نظام الملك الطوسي، فغازان مقتنع تماماً بأن ما صنعه هو عين الصواب؛ ولذلك رأى أن يسير على منوالهم.

ولما كان رشيد الدين هو المستشار المخلص الأمين لغازان، والذي يساهم بقله وتفكيره فيما يقوم به العامل المغولي من إصلاحات، نلاحظ أن هذا المؤرخ كان معجباً بالسلاجقة مشيداً بجهودهم البارزة في شتى المجالات، لا سيما في مجال القضاء؛ إذ كان يرى فيهم المثل الأعلى في تحقيق العدالة بين الناس، وإصدار الأحكام وفقاً لتعليمات الشريعة الإسلامية. وعلى هذا راح رشيد الدين يذكر صراحة أن غازان اقتدى بالسلاجقة في عدم النظر في القضايا التي مضى عليها أكثر من ثلاثين سنة. كما اقتدى بهم فيما يتعلق بالأوقاف وضرورة مراعاة شروط الواقفين وعدم إتاحة الفرصة للتلاعب والتزوير، وتوقيع العقوبة على المخالفين. والدليل على إعجاب رشيد الدين بالسلاجقة أنه عندما أرخ لهم في المجلد الثاني من كتابه جامع التواريخ المشتمل على التاريخ العام، راح يمدحهم ويذكرهم بالخير. يقول: "لم يكن من هؤلاء السلاطين أعظم، وعلى الرعية أشفق، ولرعاية الخلق أجدر من ملوك السلاجقة رحم الله الماضين منهم ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء﴾^(١). وقال جل ذكره: ﴿ووبك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم من الخيرة﴾^(٢). وما ذلك إلا أنه قد ظهرت في عهدهم خيرات ومبركات كثيرة من إحياء معالم الدين، وتشيد قواعد الإسلام وإن مآثرهم التي أقاموها من بناء وإنشاء المساجد والمدارس والأربطة والقناطر والأسبلة والأوقاف والخيرات، وما أنفقوه من أموال على العلماء والصالحين والقضاة والسادات والزهاد والعباد والأخيار والأبرار، لم يوجد مثلهما في أي عصر، ولا تزال آثارها باقية إلى الآن في المسالك الإسلامية.

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار^(٣).

(١) قرآن كريم: سورة البقرة، آية ٢٤٧.

(٢) قرآن كريم: سورة القصص، آية ٦٨.

(٣) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ، جلد ٢ جزء ٥: ذكر تاريخ آل سلجوق، يسعى وانصام أحمد تاش،

ص ٣ ٤، أنقرة ١٩٦٠م.

كذلك رأى غازان ضرورة تحرى الدقة فى اختيار القضاة نظراً لعظم المسؤولية التى يتحملونها، وحتى يضمن القيام بواجبهم على الوجه الأكمل. وبذلك تتحقق العدالة على أيديهم أثناء نظر القضايا التى تعرض عليهم. وفى نظير ذلك قرر منح القضاة امتيازات خاصة من قبيل إعفائهم من الضرائب، وإعطائهم مرتبات مجزية حتى لا يمدوا أيديهم إلى غيرهم فيقبلون الرشا والهدايا. وكان يحافظ على كرامة القضاة وتوفير الحماية الكافية لهم فى قاعة الجلسة. وفى سبيل تحقيق ذلك، كان يعهد إلى الشحنة بتوقيع العقوبة على من يرفع صوته للتشويش على القاضى أثناء انعقاد الجلسة أو محاولة التأثير عليه. كما ألزم القضاة بتنفيذ أحكام الشرع بكل دقة، وعليهم أن يمتنعوا النظر فى المخاضر المزورة والصكوك والسجلات الموهمة، ومحاولة تقصى حقائق الأمور والأحوال حتى يصلوا إلى غورها.

* وبالإضافة إلى ما سبق، ألزم غازان القضاة بضرورة مراعاة الدقة المتناهية وشدة الاحتياط فى الاستماع إلى شهادة الشهود التى يترتب عليها صدور الحكم فى القضايا المختلفة؛ فقد رأى غازان بشاقب فكره أن القضاة يبدون تساهلاً فى هذا الشأن ولا يجتهدون فى تحرى الحقيقة، ودون أن يتطرق اطمئنان إلى نفوسهم أو يغلب الظن ويغطي الشك فى صحة الشهادة وسلامتها؛ فيترتب على هذا الإهمال ضياع حقوق الأبرياء من المتقاضين. ومن المعروف أن شهادة الزور فى الدين الإسلامى تعد من أكبر الكبائر؛ فقد ورد فى الحديث الشريف عن أنس: "أكبر الكبائر الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وشهادة الزور". وعلى هذا يقف القضاة عاجزين أمام شاهدين، ولا يتحشون مغبة هذا الإهمال. ومن المعروف أن ثبوت الحق شرعاً، ولو أنه متوقف على شهادة شاهدين؛ إلا أن الشهادة مقيدة بشرط توافر العدالة. والعدالة أمر عظيم لا تتوافر إلا فى أفراد البشر وعلى سبيل النادرة؛ إذ إن هوى النفس يستولى على أكثر الخلق. إذن يجب على القاضى أن يفكر دائماً فى أن شهادة زيد أو عمرو لا تخلو من هوى النفس أو انحياز إلى إحدى الجهات أو مراعاة شخص من الأشخاص، ولا يجوز أن ينخدع هذا القاضى بمجرد أن الشاهد يبدو فى سمت الرجال الصالحين، ويزين ظاهره بزخرف القول.

وما دام الأمر على هذا النحو، كان على القاضى أن يستعين بسلامة التفكير ولطائف الحيل وصفاء الذهن؛ فيسأل كلا من الشاهدين على انفراد كى يبين التناقض فى أقوالهما

ويستمر في سؤال كل منها عدة مرات حتى تتضح الحقيقة، فإما الصحة التي يمكن الاعتماد عليها وإصدار الحكم بموجبها، وإما الشبهة التي توجب التوقف عن إصدار الحكم؛ فيكون ذلك سبباً في النجاة من ورطة الحكم بالباطل. ونتيجة لهذه الإصلاحات البناءة صارت الأمور الشرعية والقضائية الدينية ترم وفقاً لأوامر الله تعالى ورسوله عليه السلام. وبذلك استقرت حقوق الخلق في مواضعها الصحيحة.

وأخيراً بين رشيد الدين على لسان غازان الهدف الذي يهدف إليه من وراء إصلاحه القضاء فيقول: "إنه لا يخفى على الجميع أن غايتنا من تنفيذ هذه الأوامر ليست إلا رعاية جانب الحق جل وعلا وتقوية الشرع الإسلامي لا زال معظماً وبسط العدل وراحة الرعية. كما أن من التنبيه هو أن يقتضى القضاء آثار الحق والعدل. وإن غرضنا من تكرار التحذير والتخويف هو جبر لخال الإنسان وليس تحطيمه، ورفع قدر القضاء لا الحط من شأنهم، وتكريمهم لا إهانتهم. وإذن فالأول أن يستمع القضاء لهذه التعليمات طامعين وأن ينتفعوا بما جاء فيها وأن يتأكدوا من أن كل من يعمل بها ويرجع جانب الحق ويصون منصب الشرع الشريف من شئ^(١) التليس، ويتخذ الاحتياط التام في الفصل في القضايا سوف يكون مشمولاً بعطفنا إلى جانب الأجر الجزيل الجميل^(٢).

وفي الحكاية السابعة عشرة بعنوان: "في المحافظة على الرعايا ورعايتهم ودفع الظلم عنهم" نلاحظ أن غازان خان سعى سعياً جدياً في سبيل أن يعيش الناس دائماً في راحة تامة. وقد صرح بأن الفائدة من حاصل عمر المرء في الدنيا إنما تكون في تحقيق الصالح للناس. وعلى هذا ألزم نفسه أن يجد ويجتهد إلى أقصى حد في هذا المجال لتدارك العيوب. ومن الإنصاف أن نذكر أن هذا المعامل قد نجح نجاحاً باهراً في إعادة الأمن والنظام إلى ربوع هذه البلاد التي تعرضت للفلاقل والمهزات. كما أنه بذل جهوداً جبارة في سبيل تحسين أوضاع الطبقات الفقيرة والأخذ بيد العناصر المغلوبة على أمرها والقضاء على المظالم التي تعرضوا لها في عهد أسلافه من حكام المغول، ويريد ألا تتكرر هذه المآسي في عهده. ولهذا يتوجه بكلام صريح وواضح إلى أفراد الهيئة الحاكمة من أسرته، ويطلعهم على

(١) الشين: العيب والقيح وخلاف الزين. يقال شانه شتاه: شوهه وعابه (المعجم الوسيط، ج ١ ص ٤٠٤).

(٢) انظر الترجمة.

سياستهم التي تقوم على التعالي والغطرسة اعتمادًا على أنهم هم السادة المسيطرون، وأما غيرهم فهم العبيد المطيعون.

يقول هؤلاء مهذبًا وعذرا: "أنا لا أحيي التازيك (السكان من الإيرانيين) وإذا كانت هناك مصلحة لأن أغير على الجميع، فليس هناك من هو أقدر مني على القيام بهذه المهمة. ولكن إذا توقعتم مني بعد ذلك زادا أو طعاما، أو التمستم هذا أو ذاك، فسوف أغلظ لكم في القول، وأخذكم بالشدة والعنف. وينبغي أن تفكروا جيدا في أنكم لو أنقلتم على الرعية، وأكلتم لحوم أبقارهم، واستوليتهم على بذورهم وغلاتهم فما عساكم تفعلون بعد ذلك؟^{١٩} . كما أنكم إذا ضربتم نساءهم وأطفالهم وأذيتموهم؛ فإن عليكم أن تفكروا: كيف أن نساءنا وأبنائنا أعزاء علينا، وأن حال فلذات أكبادهم تكون هي نفس حال أطفالنا، وهم أيضا آدميون مثلنا تماما. وقد قوّض الحق تعالى أمرهم إلينا، وسوف يُسأل عما يصيبهم من خير أو شر. فكيف نجيب؟ ونحن عندما نؤذيهم نكون جميعا شيعي ولن يعود علينا ضرر نتيجة وجودهم. فما الداعي إذن إلى إيذائهم وإلحاق الضرر بهم وأبة عظمة وشهامة تحصل لنا من وراء ذلك؟^{٢٠} .. وماذا نجني غير الشؤم الذي سوف يحقق بنا نتيجة سوء عملنا، ولن ننجح في أي عمل نقوم به. يجب أن يظهر فرق واضح بين المطيع والعاصي من الرعية. والفرق بين الخائنين هو أن الرعايا المطيعين في أمان من الحاكم والعصاة غير آمنين. وإذا فكيف يجوز ألا نؤمن المطيعين فيكونون منا في عذاب ونصب؟^{٢١} . لا بد أن تستجاب دعوتهم بلعننا والدعاء بالسوء علينا. وعلى هذا ينبغي التفكير في هذه الأمور. وأنا دائما أسدى إليكم هذه النصائح وأنتم عنها غافلون".

وهكذا نتيجة لأمثال هذه النصائح بقي واحد من ألف من تلك المتعصب التي كانت تلحق بالرعايا قبل هذا؛ فلا غرو أن ازداد جمهورهم في مختلف الممالك توجهاً بالدعاء للدولة. فليكن هذا الدعاء مقرونا بالاستجابة بحق الحق وعزته^(١).

ولا شك أن ما جاء على لسان غازان من نصائح غالبية لأبناء قومه وتحذيرهم من مغبة سوء معاملتهم الرعايا لما ينادى به الإسلام الذي يدعو إلى المساواة ويحث على فعل الخير دائما.

(١) انظر الترجمة.

وفى الحكاية السادسة والعشرين بعنوان: "فى منع إقراض المال بالربا والقضاء على التعامل بالربح الفاحش" تحدث رشيد الدين عن الأضرار التى لحقت بالمجتمع نتيجة التعامل بالربا، وكشف عما جرت به العادة المذمومة من متاعب ومشكلات على مختلف الطبقات، وما سببته من إفساد الذمم وتخريب الضمائر، الأمر الذى أدى إلى تنحية الكبار المخلصين من مناصبهم وإجبارهم على ترك أعمالهم حتى يفسحوا المجال للعابثين والنهائزين للفرض فى الاستغلال والإفساد، وحتى لا يكونوا عقبة أمام هؤلاء الضالين المضلين. فكانت النتيجة المتوقعة أن عمت الفوضى وكثر النصب والاحتيال، وأدى الأمر إلى إفلاس الكثيرين. وصدق الحكماء الذين قالوا: "إن الملك يثقل ويزول عندما ينحى الأشخاص الأكفاء عن مزاوله الأعمال المناسبة لهم وتسند إلى غير الأكفاء".

فطن السلطان غازان ببعد نظره وثاقب فكره إلى أن أس كل هذه المفاسد هو التعامل بالربا؛ فإذا منع ذلك؛ فإنه يكون قد قوى الشرع الإسلامى من جهة وأخرج الخلق من ورطة الضلال إلى جادة الهداية من جهة أخرى.

ولما اقتنع غازان بأنه لا بد من وجود علاج حاسم لهذا الوضع الذى أدى إلى الإفلاس والحسران، أصدر مرسوما فى شعبان سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م يقضى بتحريم التعامل بالربا. ولكن وجدت معارضات فى بادئ الأمر، فلم يصغ إليها وأصر على رأيه. وكان يرد على المعارضين قائلا: "إن الله تعالى والرسول عليه السلام يعلمان مصالح العالم أفضل منا. وهذا ما أمر به الله^(١) ورسوله ولن أسمع قط كلاما يخالف ذلك".

ونتيجة لهذا الموقف الحازم والإصرار على رأى الصحيح، زالت كل الأضرار التى كانت تحدث، واستقامت المعاملات، وعم الإنصاف كافة الطبقات. ثم بحثا رشيد الدين للأمر حتى لا يتهم بالمبالغة فيصرح قائلا: "ولا شك أن أهل هذا الزمان يدركون قيمة هذه الأمور؛ إذ إنهم شاهدوا هذه المفاسد. أما الذين يعيشون بعد هذا ولم يروا حقيقة ما حدث فأنى لهم أن يدرکوا فائدة هذا القانون؟"

(١) إشارة إلى قوله تعالى فى القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فانقلب أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿ (سورة البقرة، آية ٢٧٥).

وأخيراً يدعو رشيد الدين لغازان بقوله: "قليوبك الحق تعالى هذا السلطان كى يقضى دائماً على هذه الرسوم المذمومة، وحتى يجعل قواعد الشرع الشريف ممهدة وراسخة".

وفي الحكاية السابعة والعشرين بعنوان: "فى منع المغالاة فى صداق الزواج" يبين رشيد الدين كيف عالج غازان خان موضوعاً اجتماعياً مهماً يتعلق بالعلاقة بين الرجل وزوجته. ومعنى هذا أنه كان للأسرة أيضاً نصيب كبير من عنايته فهو يرى بحق أن الحكمة الإلهية فى تشريع الزواج أن يكون هناك تناسل وتوالد بين الأدميين للحفاظ على النوع البشرى واستمرار الحياة. وعلى هذا لم يدخر غازان وسعاً فى اتخاذ الوسيلة الكفيلة بالمحافظة على الأسرة، والعمل على ترابط أفرادها.

ومن هذا المنطلق حرص غازان على أن تقوم العلاقات الإنسانية بين الرجل وزوجته على أسس سليمة من التفاهم والمحبة. فإذا تعرضت هذه العلاقات لخطر الخلاف والنزاع، وتعذر التوفيق بين الطرفين، فإنه من الأفضل أن يفترق الزوجان. ولكن غازان رأى بحق أنه فى هذه الحالة قد يقف الصداق المغالى فيه عقبة كأداء تحول دون الفراق فتحول الحياة الزوجية إلى جحيم لا يطاق.

والواقع أنه إذا روعيت بين الزوجين طرق المحبة والوفاء فإنه لا يستطيع أحد أن يفصلهما الواحد عن الآخر. وإذن لا يكون للزوجة نفع من المغالاة فى الصداق ولا بتصور أن يقع ضرر على الزوج من هذا الإجراء. أما إذا لم يحدث بين الجانبين اتفاق واتحاد، فإنه عندما يكون الصداق كبيراً، لا يستطيع الزوج أن يطلق زوجته لأن ذلك يتطلب المزيد من المال؛ وهذا من شأنه يؤدي إلى استمرار الخصام والنزاع بين الزوجين، ويجر فى النهاية إلى زيادة الكراهية والحق والغضب، فيقضى كل منهما حياته فى ضجر ومحنة. أما إذا كان الصداق قليلاً، فإنه بالنطق بلفظ الطلاق تنتهى المرافعة بالمقارعة، ويتخلص كل من الزوجين من شر النزاع والجدال، ويبحث كل منهما عن زوج آخر يناسبه^(١). والله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ تَفَرَّقَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾^(٢).

(١) غوثامير: حبيب السر، ٢٢، ج ١، ص ١٦٨.

(٢) قرآن كريم، سورة النساء، آية ١٣٠.

تبه غازان إلى تلك المغالاة في الصداق، ورأى أنها لا تتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية التي تقول على لسان النبي صلى الله عليه وسلم: "خير النكاح أسره وخير النكاح أقله كلفة"^(١). وما دام الرسول صلى الله عليه وسلم قد استحسّن المهر القليل في الزواج، ينبغي أن يخفف الناس الصداق إلى أقصى حد؛ بحيث إنه لا تجب عليه الزكاة.

بناء على هذا أصدر غازان أمره بتقليل الصداق، فجعل حده الأقصى تسعة عشر ديناراً ونصف، وكلف القضاة بالآلا يصدقوا على عقود الزواج إذا زاد على هذا المبلغ. ولا شك أن مسألة تحديد الصداق هي من شئون الحياة الموكولة لمعظمها إلى اجتهاد المفكرين والمصلحين. ومتى رأى الحاكم تحديد ذلك بقدر معلوم يتلاءم مع مصلحة جميع الناس، فإنه جائز قطعاً، وليس في الشرع ما يمنعه إذ هو من المصالح التي تتفق مع مقاصد الشارع كما جاء في الحديث الشريف: "يسروا ولا تعسروا"^(٢).

وفي الحكاية التاسعة والعشرين بعنوان: "في منع الناس من احتساء الشراب" يتحدث رشيد الدين عن تحريم غازان خان على الناس احتساء الخمر في الطرقات والأسواق بسبب ما كان يحدث من عريضة ومشاجرة بين السكارى، وإلحاق الأذى والضرر بالناس، غير أن غازان لم يمنع شرب الخمر منعاً تاماً؛ لأنه على حد قوله: إذا فعل ذلك فلن ينفذه أحد. وللمحافظة على حرمة المساكن أصدر أمراً بالآلا يدخل أى مخلوق منازل الناس للبحث عن السكارى حتى لا يسلك العسس سلوكاً يتجاوز حد الاعتدال، وحتى لا تحل المتاعب والمشقات بالخلق. وعلى سبيل الاحتياط قرر أن تعرض عليه الموضوعات المهمة التي تتعلق بشئون الدولة في حالة صحوه وبقظته. وقد اتبع هذه القاعدة داخل إيران وخارجها فنحن نعلم أنه بعد أن انتصر غازان على قوات الناصر محمد بن قلاوون في موقعة مرج المروج سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م واحتلاله مدينة دمشق، خرج إليه ابن تيمية في "مرج راهط" ليشكو له ما جرى من التار بعد أمانه، فلم يمكنه الاجتماع به لشغله بالسكّر، فاجتمع بالوزيرين سعد الدين ورشيد الدين فقالا: "لا بد من المال". فانصرف^(٣).

(١) الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود: قضية تحديد الصداق، ص ١٠، دولة قطر، النوحة ١٣٩٦هـ.

(٢) نفس المرجع، ص ١٩.

(٣) السلوك: ج ١ ص ٣، ٨٩٢، الطبعة الثانية، تحقيق الدكتور محمد مصطفى زلده، القاهرة ١٩٧٠م.

ورغم هذا ترى رشيد الدين يدافع عن غازان. وفي مبالغة واضحة راح ينفي عنه نقیصة غیابه عن وعیه أثناء تناوله الشراب؛ بحيث إنه لا يستطيع أى مخلوق أن یموه علیه على سبیل التحایل والتلیس والمغالطة^(١).

والواقع أن شرب الخمر حرام ومنهى عنه فی الإسلام سواء أكان هذا فی الأسواق أم فی غیرها. قال تعالى: ﴿لَهَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾. إنما يريد الشيطان أن یوقع بینکم العداءة والبغضاء فی الخمر والمیسر ویصدکم عن ذکر الله وعن الصلاة فهل أنتم متتهون؟^(٢).

وفی الحکایة الثامنة والثلاثین بعنوان: "صلور الفرمان بإقامة دور خاصة للرسل فی البلاد ومنع الشحن والحکام من التزول فی منازل الناس" يتحدث رشید الدین عن جانب آخر من الجهود التي كان یبذلها غازان خان فی سبیل راحة الناس والقضاء على أسباب شکواهم، وذلك بالمحافظة على ممتلكاتهم وأعراضهم وإعادة الطمأنیة إلى نفوسهم. وهذا مبدأ قویم يدعو إليه الإسلام، ویمرص على ضرورة مراعاته والتمسك به. وكانت العادة قد جرت فی عهد المغول أن یوفد الحکام وكبار رجال الدولة الرسل مزودین بالأخبار الهامة إلى الإبلخان وكبار الشخصیات. ولكن قبل غازان، خرجت المسألة عن هذا المهدف إلى ضروب من سوء الاستغلال إلى أن وصل الأمر إلى حد الاعتداء على حرمة المساكن؛ إذ كان الشحن والحکام یزولون هؤلاء الرسل فی بیوت الناس، وذلك عن طریق الأدلاء الذین كانوا یصحبونهم إلى بیوت الرعايا قائلین لأصحابها: "إن هؤلاء الرسل ینزلون ضیوفا علیکم". وفی مقابل ذلك كانوا يأخذون من هؤلاء الرسل نقودا نظیر تأدیه هذه الخدمات. وكان هؤلاء الأدلاء لا یکتفون بذلك، بل يأخذون أیضا السجاجید وملابس النوم وأدوات المطبخ. وأكثر هذه الأدوات كان یستولی علیها إما الرسل وأتباعهم، وإما الأدلاء؛ بحجة أن الرسل قد استولوا علیها ولم یردوها. ولو فرض وأعید بعضها فأیة قيمة لها بعد أن ظل الرسل یستعملونها مدة طويلة. ولقد كانت المنازل التي ینزل فیها الرسل أحسن المنازل وأقمحها. وفی الیوم الذی یغادر فیہ رسول أحد المنازل، كانوا یحملون آخر محله، وما ذلك إلا لأن الرسل كانوا دائما یصلون تباعا ولا ینقطعون.

(١) انظر الترجمة العربیة.

(٢) قرآن کریم: سورة المائدة، آیه ٩٠، ٩١.

وقصارى القول أنه عندما ينزل رسول في إحدى المحلات، كان السكان هناك يقعون في عذاب ومشقة؛ إذ إن غلمان هؤلاء الرسل وخدمهم يدخلون منازل الجيران عن طريق أسطحها، ويستولون على الأشياء التي تصادفهم من مأكولات ومشروبات وأصناف علف الدواب. ومهما كان الملاك يصرخون وينوحون كان صياحهم صرخة في واد، لا يمكن أن تصل إلى أى من الأمراء والوزراء. وأدهى وأمر من كل هذا أن هؤلاء الرسل كانوا يدخلون بيوت الناس ويرتكبون أعمالا شائنة غلة بالآداب، كما تروى قصة هذا الشيخ الحرم الذى قدم ذات يوم إلى الديوان، وصار يخاطب الأمراء والوزراء فى صراحة تامة قائلا: "إننى رجل هرم ولى زوجة شابة وأولادى مسافرون، وقد ترك كل منهم زوجة شابة حسناء. كما أن لى بنات. وها هم الرسل قد احتلوا منزلى، وجميعهم من الشباب القوى النشط ويتصفون بجمال الوجه. وقد مضى عليهم زمن يقيمون عندى فيشاهدنهم أولئك النسوة ولن يستطعن أن يقنعن بى وبأولادى المسافرين، وأنا عاجز عن مراقبة كل ما يحدث ليلا ونهارا. ثم يضيف الرجل فى حسرة وألم مبينا أنه إذا كانت الأمور تجري على هذا النمط من الاختلاط المعيب، فإنه لعدة سنوات أخرى لن يوجد طفل شرعى فى هذه المدينة وسيكونون جميعا أبناء أتراك مخلطين.

فلما وقف غازان على أطراف هذه المشكلة أمر بأن يكفى بإيفاد رسول واحد، وأن يكون إيفاده لتصرف مصالح الملك الضرورية. وإذا كان يراد إبلاغ السلطان أخبارا مهمة فإنه يختار لهذا الغرض الرسل العداءون وسعاة البريد. كذلك منع منعاً باتاً نزول هؤلاء الرسل فى مساكن الرعايا، وأمر بتشديد دور خاصة لهم على أن تزود بالمعدات اللازمة من فراش وملابس وكل ما يحتاجون إليه. كذلك رصدت مبالغ تنفق بصفة مستمرة على هذه الدور وتعميرها. وبالإضافة إلى هذا، أصدر غازان مرسوماً يقضى بأن يقيم الحكام لأنفسهم ولأتباعهم منازل خاصة بهم أو يستأجرونها.

وبهذه الإجراءات الحاسمة زالت تلك المتاعب، وقضى نهائياً على الوسطاء فاستراح الناس، ونسوا ما كان يحل بهم من عذاب ومشقة. أما جمهور الغائبين من السكان الذين كانوا قد نزحوا عن أوطانهم، وصاروا ينتقلون مشردين من مدينة إلى أخرى، فإنهم جميعاً قد أخذوا يعودون إلى منازلهم وديارهم الأصلية وذلك بمحض اختيارهم، وألستهم تلج بالدعاء من صميم قلوبهم وبإخلاص تام. فليستجيب الله دعاءهم.

وأخيراً في الحكاية الأربعين التي كتبها رشيد الدين بعنوان: "في حظر إقامة الجوارى بالقوة في دور البغاء" نراه يذكر هذه الحكاية من بين إصلاحات غازان خان الاجتماعية التي تهدف إلى محاربة الرذيلة بشتى الطرق وكافة الوسائل. وكانت العادة قد جرت قبل تولى هذا العاهل أن تغير العاهرات على السكى في المدن الكبيرة بجوار المساجد والخوانق وبيوت الناس. وكان التجار والمستغلون يجلبون الجوارى من أطراف البلاد، ويفضلون يبعهن لأصحاب بيوت الدعارة أكثر من غيرهم؛ لأن هؤلاء الناس الذين لا خلاق لهم كانوا يدفعون أثماناً غيالية، خصوصاً للجوارى الجميلات؛ مما يحقق هؤلاء التجار الكسب والإثراء سريعاً وبأسط الطرق وأيسر السبل.

ولقد رأى غازان بحق أن فتح هذه المواخير وإجبار العاهرات على السكى فيها لممارسة الرذيلة، أمر محظور ومذموم، وخالف لأحكام الشريعة^(١). ولهذا ينبغي المبادرة بعلاج الموضوع، والعمل على غلق هذه البيوت. ولكنه رأى أن هذه العادة كانت متبعة منذ قدم الأيما؛ مما يتعذر معه مكافحة البغاء دفعة واحدة. فلا بد إذن من الحذر والثبات والصبر مؤقتاً على هذا المكروه. وإذن فالسبيل إلى تحقيق هذا الهدف هو التدرج في علاج الوباء.

وبناء على هذا صدر مرسوم غازان خان الذي يقضى بأن كل جارية لا ترغب في ممارسة الرذيلة في بيوت الدعارة، لا تباع إلى جماعة المشرفين عليها. وأما من يقمن في تلك البيوت، فإن كل من تريد أن تغادرها لتعيش عيشة شريفة، لا تمنع من ذلك، ويحدد لها ثمن تشتري به، وتزوج من الزوج الذي يقع عليه اختيارها^(٢).

هذا قليل من كثير مما حواه تاريخ غازان خان، صاغه بقلمه وزيره ومؤرخه رشيد الدين فضل الله. وقد لاحظنا أن هذا المؤرخ كلما شعر بأن كلامه قد يحمل على سبيل التهويل والمبالغة، والإغراق في المدح والثناء على غازان خان، يسارع إلى الاستشهاد بالعاصرين فهؤلاء قبل غيرهم شهدوا على ما أحدثه غازان خان من إصلاحات مختلفة وهم وحدهم يستطيعون أن يحكموا بصحة ما كتبه عنه هذا المؤرخ.

(١) يقول الله تعالى في هذا الشأن: ﴿ولا تক্রهوا فئاتكم على البغاء إن أردن ثعشاً ليعرفوا عرض الحيلة الدنيا ومن يكرهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ (قرآن كريم، سورة النور، آية ٣٣).

(٢) انظر الترجمة.

ولكن رشيد الدين محتاط للأمر ولا يكتفى بالروايات الشفوية، بل يشير أيضاً إلى الوثائق والسجلات المكتوبة التي هي خير دليل على صدق ما يقول. وعلى هذا رأيناه في الحكاية السادسة التي كتبها بعنوان: "في بذل سلطان الإسلام وعظاته وجوده وسخائه على الوجه المستحسن القائم على أساس المعرفة"^(١) يتحدث بالتفصيل عما قام به غازان من مجهودات في سبيل إصلاح شئون المال والاقتصاد، وتوجيه العدالة في فرض الضرائب وتحصيلها^(٢). وفي نهاية الحديث عن هذه الإصلاحات يصرح رشيد الدين بقوله: "لا بد أن الناس يحملون كلامي هذا على سبيل المبالغة ويقولون: من الذي رأى الملوك السابقين، ومن وقف على أوضاع خزائنتهم حتى يستطيع القيام بهذه المقارنة؟! لكن الشاهد على هذه الأمور هي سجلات الدخل والمخرج لخزائن السابقين، وكلها محفوظة في دار المحفوظات، ولا يزال قسم منها موجوداً حتى الآن.

فأى شهادة في هذه الدنيا أكثر عدلاً وصدقاً من السجلات والدفاتر التي لم ترها عين، ولم تخطر على بال أحد؟! ولكن عند مطالعتها يتضح صدق هذا المقال أو كذبه"^(٣).

والأمر الذي لا شك فيه أن ما قام به غازان خان من إصلاحات، كان نتيجة اعتناقه الإسلام عن إخلاص وإيمان؛ فلقد أخذ على نفسه أن يعمل بتعاليم هذا الدين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وما غن نراه يوضح الهدف الأول من وراء هذه الإصلاحات حين يقول: "هو تأكيد تلك الأحكام، حتى يتحقق الرفقاء من شدة عنايتنا واهتمامنا باستقامة أمور الدين، فتزول من النفوس نقيصة التساهل والتهاون في شئون الشرع، وتعمل محلها فضيلة الصلابة والثبات"^(٤).

ولقد صدق المستشرق الإنجليزي براون حين قال: "على الرغم من أن غازان لم يكن أول سلطان مغولي يعتنق الدين الإسلامي، فإنه في الحقيقة كان أول شخص يعيد إلى هذا الدين الحنيف عظيمته وجلاله"^(٥).

(١) انظر الترجمة.

(٢) جاءت النقوش المكتشفة في آني ولقرة والرقابة إلى عهد خلفاء غازان مصدقة لما قاله رشيد الدين عن هذه الإصلاحات (انظر بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ج ٢، نقله إلى العربية الدكتور نبيه أمين فارس ومير البلبيكي، الطبعة الأولى، ص ٢٧٤، بيروت ١٩٤٨م).

(٣) انظر الترجمة.

(٤) نفس المصدر.

(٥) تاريخ أدبي إيران از تيمه قرن هفتم تا آخر قرن هشتم هجري: عصر استيلاي مغول و تاتار، ترجمة و حواشي بقلم علي أسفر حكمت، ص ٢٠، تهران ١٣٢٧ هـ - ش = ١٩٤٨م.

هذا الخلق الثمين وهذه الأعمال المجيدة والإصلاحات المفيدة التي شملت جميع نواحي الحياة لا يمكن أن تصدر إلا من رجل قلبه عامر بالإيمان، يقظ الضمير، بعيد النظر يخشى ربه، ويعمل بأوامره، وينفذ تعاليمه. ومن هنا كان لنا أن نقرر أن هذه الإصلاحات قامت على أسس إسلامية خالصة^(١).

وبناء على هذا لا نوافق على رأى المستشرق الألماني شپولر (Spuler) الذى يزعم أن نظم غازان فى كثير من النواحي تسير على النمط المتبع فى الغرب؛ فالحاجات متشابهة والأساليب متشابهة، وأجهزة الديوان فى عهد غازان تستند إلى أساليب شرقية قديمة مأخوذة من إدارة إمبراطورية روما الشرقية^(٢)؛ إذ إنه من الجلى الواضح أن هذه النظم سواء فى الديوان أو فى المصالح الأخرى تستند كلها إلى أحكام الشريعة الإسلامية.

وفى الحقيقة بعد أن اعتنق غازان الدين الإسلامى صار واحداً من المؤمنين الذين خلصت نيتهم وصفت سريرتهم، واتجهوا بكل ما فى طاقتهم إلى رعاية آداب هذا الدين وإقامة شعائره على أحسن وجه. يقص علينا ابن القوطى ضمن أحداث سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م أن غازان توجه إلى بغداد، ودخل المدرسة المستنصرية من الدار المجاورة، وكان يسكن بها نظام الدين محمود شيخ المشايخ. وكان المدرسون والفقهاء قد جلسوا على عادتهم، والربعات الشريفة فى ألبدهم. فلما عاينوه قاموا وخدموه؛ فأمر رشيد الدين أن يقول لهم: أنتم مشغولون بقراءة كتاب الله عز وجل كيف جاز لكم تركه، والاشتغال بغيره؟ فقال أحد المدرسين: السلطان ظل الله فى أرضه، وطاعته وتعظيمه والانقياد له واجب فى الشرع. فدخل خزانة الكتب ولها، ثم عاد إلى الدار المذكورة، فبات بها^(٣).

ورغم أن المستشرق الفرنسى "جروسيه" يرى أن حكم غازان يحدد اللحظة التى تحول فيها هؤلاء البدو البدائيون شيئاً فشيئاً إلى الحياة المستقرة فى إيران، إلا أنه راح يدعى أن هذا الاستقرار لسوء الحظ لم يتم دون أن يكون له مضار؛ لأن هؤلاء المغول عندما خرجوا عن تسامحهم العام إلى اعتناق دين خاص هو الإسلام، وإلى اعتناق مذهب خاص فيه لم يلبثوا أن فقدوا جنسيتهم، وأن فقدوا معها مميزاتهم، وأن تركوا أنفسهم للوسط الذى

(١) الشرق الإسلامى، ص ٣٤٠.

(٢) تاريخ مغول در ایران، ترجمة دكتور محمود مير آفتاب، ص ٢٩٢، تهران ١٣٥١هـ.ش.

(٣) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة، ص ٤٩٢ - ٤٩٣، تحقيق مصطفى جواد، بغداد ١٣٥١هـ.

هضمهم وشربهم وأخفاهم. ولكن لم يكن الوقت قد اتسع ولا الوسيلة قد تهيأت لظهور هذه النتائج الضارة في أيام غازان الحازم^(١).

ونحن لا نوافق على هذا الرأي؛ لأنه إذا كان "جروسيه" يتحدث عن التسامح العام للمغول؛ فإننا نرد عليه بأننا نرى أغلب المغول قوما متعصبين ضد الإسلام والمسلمين فنجغى بن چنگيز خان مثلا كان أشد أبناء العاهل المغولي قسوة وأكثرهم بطشا. وكان يشرف على تنفيذ أحكام والده وقواته كما نصت عليها الياسا. وقد لاقى المسلمون منه الأمرين؛ إذ كان ينزل بهم أشد العقاب على أقل هفوة، وكثيرا ما يكون العقاب الرهيب هو الإعدام^(٢)؛ فمثلا من يذبح الحيوان على الطريقة الإسلامية كان چغتاي يأمر بقتله على الفور، لأنه خالف طريقتهم التي أقرتها الياسا^(٣).

والحقيقة أن ما حدث للمغول في إيران من الضعف والتفسخ والانحلال ثم القضاء حدث أيضا في جهات أخرى مثل الصين وروسيا وغيرها من الجهات التي كانت تخضع للمغول. والسبب الرئيسي في ذلك هو تفرق أمراء المغول بعد أن كانوا وحدة متماسكة. وسرعان ما دب النزاع والقتال بينهم؛ فكانت النتيجة الحتمية لكل هذا هو السقوط والانهار. وبذلك أثبتت الحضارات أنها أقوى من سلطة المغول الممجبة^(٤).

وهناك أسباب أخرى كان لها أثرها المباشر في ضعف المغول وانهيارهم، فتحن لا ننسى الصراع الرهيب الذي نشب بين أفراد الأسرة حول ولاية العرش والحرب الطاحنة التي دارت بينهم في سبيل الوصول إلى كرسي السلطنة؛ تلك الحروب التي طالما حذرهم منها جدهم الأعلى چنگيز خان؛ فقد كان ينصحهم دائما بالاتحاد والتآزر.

يروي أنه عندما كان على فراش الموت، جمع أولاده وقال لهم: "اعلموا يا أولادى الجياد أنه قد قرب سفرى إلى دار الآخرة ودنا أجلى. وأنا بقوة الإله والتأييد السماوى استخلصت

(1) Grousset: des Steppes, P. 457

الترجمة الفارسية لهذا الكتاب، چاپ سوم، ص ۶۲۵، تهران ۱۳۶۸ هـ.ش.

(2) انظر الجوزجاني: طبقات ناصري، جلد دوم، تحقيق عبد الحى حبيبي، ص ۱۵۱ - ۱۵۷، كابل ۱۳۴۳ هـ.ش.

(3) انظر القرطبي: المحطوط، المجلد الثالث، الجزء الأول، ص ۱۴۶ - ۱۴۷.

(4) هارولد لام: چنگيز خان وجغائل المغول، ترجمة مترى أمين، مراجعة وتقديم الدكتور زكى محمود،

ص ۱۵۵ - ۱۵۶، القاهرة ۱۹۶۲ م.

مملكة عربية فسيحة، حيث يسلك من وسطها إلى طرف منها مسيرة سنة من أجلكم أنتم يا أولادى وهياتها لكم. فوصيتى إليكم أنكم تشتغلون بعدى بدفع الأعداء ورفع شأن الأصدقاء، وتكونون جميعا على رأى واحد حتى تعيشوا فى نعمة وعز ودلال، وتتمتعوا بالسلطة والجاه^(١).

هذا وبذكر الدكتور زكى محمد حسن سببا آخر لانتهيار دولة الإيلخانيين هو أن خلفاء هولاء لم يفتنوا فى بداية الأمر إلى ما فى شو النظام الإقطاعى فى إيران من خطر على دولتهم؛ فتطرق إليهم الانحلال، وانقسمت إيران بعد سقوط هذه الأسرة إلى دويلات محلية ظلت قائمة حتى قضى عليها تيمور لنگ فى نهاية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) حين استقر له الأمر فى بلاد ما وراء النهر، وبدأ سلسلة فتوحات أخضع فيها إيران وجزءا من جنوبى روسيا والهند، وهزم بايزيد سلطان الأتراك العثمانيين عند أنقرة سنة ٨٠٤هـ / ١٤٠٢م^(٢).

ونظرا لغزارة المادة العلمية التى كتبها رشيد الدين عن غازان بوجه عام وما قام به من إصلاحات فى مختلف ميادين الحياة بوجه خاص، صار ما كتبه منبعها ومرجعا مهما لمعاصريه ومن جاء بعده من المؤرخين. وغن غنص من هؤلاء بالذکر محمد بن هندوشاه النخجوانى فى كتابه "دستور الكاتب فى تعيين المراتب"^(٣) وخواندمير فى كتابه "حبيب السير"^(٤).

(١) رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ، ج ١، نشر وتحقيق دكتور بهمن كرى، ص ٣٨٥ تهران ١٣٣٨هـ.ش.
(٢) الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى، ص ٢٨، الناشر دار الرائد العربى، بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
نفس المؤلف: التصوير فى الإسلام عند الفرس، ص ١١، الناشر دار الرائد العربى، بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
(٣) مؤلف هذا الكتاب هو حسن الدين محمد بن هندوشاه النخجوانى المعروف بشمس اللش. ألفه سنة ٧٦٠هـ وقدمه إلى السلطان لوبس الجلائرى (٧٥٧ - ٧٧٦هـ). ولعمد ما اشتمل عليه الكتاب يشتمل على مجموعة من الإسادات والوثائق والعرائض المرفوعة من الأهالى إلى السلطان والأمراء على شكل رسائل تتعلق بالشئون الاقتصادية المختلفة من زراعة وتجارة وتقسيم للأراضى وزراعتها. وكذلك الأوقاف والإقطاعات الخاصة بالأسرة الحاكمة والأهالى والكتاب على هذا النحو يشتمل على موضوعات مهمة تتصل بمسألة خاصة بالتاريخ الاجتماعى والاقتصادى والسياسى لبلدان الشرق الأدنى والأوسط. كما أنه مفيد أيضا لتاريخ أذربيجان. قام بتحقيق هذا الكتاب عبد الكريم على لطفى زاده، ونشر فى موسكو عام ١٩٦٤.

(٤) انظر مؤرخ الفول الكبير، ص ٣٣٤ وما بعدها.

أما الأول فقد تأثر بما كتبه رشيد الدين عن إصلاحات غازان بصفة خاصة، فنراه في أكثر من موضع من كتابه ينقل عبارات رشيد الدين بنصها أو بتغيير طفيف. فعلى سبيل المثال عندما تحدث غازان إلى الأمراء المغول ينصحهم بأن يعاملوا رعاياهم معاملة حسنة ويحذروهم من الإساءة إليهم، وينذرهم بإنزال أشد أنواع العقوبات إذا لم يكفوا عن إيذائهم نرى النخجواني يعقب على ما ذكره قائلاً: "يقول الوزير العادل الشهيد الخواجه رشيد الدين فضل الله طاب ثراه الذي دون أخبار السلطان السعيد المغفور: "إنه بواسطة استماع هذه النصائح، صار يحدث واحد من ألف من المتاعب التي كانت تحدث قبل هذا من المتغلين والمعتدين بالنسبة إلى الرعايا الضعفاء. وقد اشتغل جمهور الرعايا في الممالك بالدعاء للسلطان السعيد نور الله مرقده"^(١). كذلك نراه في صفحة ٢٠٣ تحت عنوان: "النوع السادس: في منع المكاريين وأمثالهم من إيذاء الرعايا" يتأثر بما ورد في كتاب رشيد الدين إلى حد كبير؛ فالعنوان هو نفسه العنوان الذي كتبه رشيد الدين تقريباً في "الحكاية التاسعة والثلاثين": "في منع المكاريين والجمايلين والسعاة من إيذاء الناس"^(٢). والعبارات مصوغة في أسلوب يختلف قليلاً عما ورد في كتاب رشيد الدين. وكذلك فعل النخجواني في حديثه عن الإصلاحات الاقتصادية التي نعت في عهد غازان خان"^(٣).

وأما "خواندمير" مؤلف كتاب حبيب السير، فقد راح هو الآخر ينقل عن رشيد الدين. وكان يصرح بهذا في أكثر من موضع؛ فهو مثلاً عندما تحدث عن أخلاق غازان خان وإصلاحاته تحت عنوان: "ذكر شمة از محاسن أوصاف ومحمد آثار غازاني، وبيان قوانين يستديده أن"^(٤)، نراه يمدح هذا العاهل ويثنى عليه، ويكشف عن نواحي العظيمة في شخصيته، ويذكر عنه أنه لم يقصر في تأسيس بناء الدولة وتجهيد مراسم العدل والاهتمام بشئون الرعية. وقد اختصر خواندمير الحكايات الأربعين التي ذكرها رشيد الدين في عشرين حكاية لتكون دليل صدق وشاهد عدل على إثبات ما يدعيه، واعترف بأنه نقل هذه الحكايات من كتاب جامع التواريخ"^(٥).

(١) دستور الكاتب في تعيين المراتب، ص ١٩٩ وما بعدها.

(٢) انظر الترجمة العربية.

(٣) دستور الكاتب، ص ٣١٦ - ٣١٧.

(٤) حبيب السير، ج ٢، ص ٩١ وما بعدها.

(٥) خواندمير: حبيب السير، ج ٢، ص ٩١.

وهكذا فإن من يدرس تاريخ المغول يرتاح حقاً عندما يتحول فجأة من قراءة ما اقترفه هؤلاء القوم من فظائع تقشعر لها الأبدان، وما سفكوه من دماء بغير حساب إلى أسى العواطف الإنسانية وأنبال المشاعر الرقيقة التي أعلنت عن نفسها في سلوك غازان وأعماله المجيدة. وإن المرء قد تعثر به الدهشة وتملكه الحيرة، لأن هذه الإنجازات كلها قد نمت على يد غازان الذي كان جده الأعلى هولاءكو غازياً جباراً سفاكاً للدماء وغن لا يمكن أن ننسى أنه محطم الخلافة العباسية وقاتل الآلاف المؤلفة من الأنفس البريئة. ولكن ما تلبث أن تزول الدهشة وتنتفي الحيرة عندما يعلم أن هذا التحول الكبير إنما يرجع أولاً وقبل أى اعتبار إلى الإسلام الذى اعتنقه غازان عن القناع وإخلاص، وآمن به إيماناً راسخاً صادقاً، وتنفذ تعاليمه فكانت النتيجة هذه الإصلاحات العظيمة التى قامت على أسس إسلامية قوية^(١).

وإذن فغازان رغم قصر مدة حكمه يعد دون شك واحداً من أكبر السلاطين فى الشرق، وذلك بواسطة القواعد والقوانين التى خلّفها والإصلاحات التى قام بها. وغن لا نعدو الحقيقة إذ اعتبرناه أيضاً واحداً من السلاطين المشهورين فى إيران من حيث السياسة التى انتهجها ومن حيث التنظيم والإدارة، فهو من هذه الوجهة يعد أكبر سلاطين الإيلخانيين على الإطلاق.

ولكن يجب أن نضع فى الاعتبار أن ما ناله غازان من فخر وعظمة وسمعة طيبة إنما كان بمعونته وزيره العبقري الغز رشيد الدين فضل الله الهمذاني الذى كان من جهة يدير الممالك الواسعة لغازان بكفاءة وتدير. وكان من جهة أخرى الساعد الأيمن لغازان فى الترفيه عن الرعية وإصلاح الشؤون الاقتصادية وتشبيد الأبنية والأثار الخيرية.

وغن لا ننسى جانباً هاماً آخر هو أن رشيد الدين خلّد - على صفحات الدهر - فى كتابه الذائع الصيت "جامع التواريخ" محامد غازان وأعماله المجيدة ووقائع إيمانه بقلبه السلس الجذاب. وبالإضافة إلى هذا ينبغي ألا ننفل ذكر النخبة الممتازة من العلماء والأدباء والفضلاء الذين اجتمعوا حول رشيد الدين فى تمييز نتيجة شغفه بالعلوم والآداب وتشجيعه الأدباء والعلماء والفضلاء الذين بذل كل واحد منهم جهداً مشكوراً فى هذا

(١) الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين (أسرة هولاءكو خان) ص ٣٤٠.

السبيل؛ بحيث إنه يمكننا أن نقول: "إن عصر غازان وأولجايتو وأبي سعيد يعد من أكثر العصور إشراقاً في تاريخ إيران"^(١).

والآن أكتفى بهذا القدر من الدراسة، وأترك المجال للقارئ كي يعكف على قراءة الترجمة بأكملها، ويستخلص منها ما يشاء. وأنا على ثقة تامة من أنه سوف يظفر بمتعة عقلية كبيرة، ويجد في تاريخ غازان المزيد من العظات والعبر، ويتأكد أنه إذا توافر للإنسان العزم الصادق واليقين الراسخ، فسوف يتخطى العقبات ويحقق الأهداف.

لقد أعجبتني كلمة الكاتب الصحفي الكبير الأستاذ "رجاء النقاش" التي يقول فيها عن التاريخ: "عندما نقرأ التاريخ نشعر بالمتعة؛ فالتاريخ هو ملخص الحياة، وفيه مواقف وشخصيات وصراعات ومغامرات، وفيه أيضاً ألوان متعددة من حسن الحظ وسوء الحظ. والذين يعشقون قراءة التاريخ لا يتوقفون وهم يقرأون عن المقارنة بين ما جرى في الماضي وما يجري في العصور الحاضرة، بل كثيراً ما يقارن قارئ التاريخ بين أحواله الشخصية وبين ما يقرؤه من شخصيات قديمة وأحوال ماضية. وهذا هو ما يضاعف متعة التاريخ في نظر قرائه وعشاقه، فهم يستمتعون مرتين: مرة بمعرفة ما حدث وما جرى في عصور سابقة، ومرة أخرى بالتفكير والتأمل والمقارنة بين ما حدث في الماضي وما يحمله الحاضر من أحداث. والتاريخ آخر الأمر هو فن، ولكنه أكثر من كل الفنون قدرة على التأثير في النفوس؛ لأننا ونحن نقرؤه نعرف أنه حقيقي وصادق وبعيد عن الخيال"^(٢).

(١) عباس إقبال: تاريخ مفصل إيران، جلد أول: از حمله چنگیز تا تشکیل دولت تیموری، ص ٢٨١ - ٢٨٢.

طهران ١٣١٢ هـ.ش.

(٢) صحيفة الأهرام، ص ٢٤ بتاريخ ٢٢ يوليو ١٩٩٦.

الترجمة العربية

لتاريخ غازان خان

غازان خان بن أرغون خان بن أبا قاخان بن هولاكو خان ابن تولوى خان بن چنگيز خان

وهو يشتمل على ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

فى تقرير نسب العريق، وذكر أحواله منذ مولده المبارك حتى عهد جلوس أرغون خان على عرش السلطنة وذكر زوجاته (خواتينه) وأولاده، وشجرة نسبهم الشريف.

القسم الثانى:

فى مقدمة جلوسه الميمون، وصورة العرش والخواتين "والأمراء الأنجال"^(١) والأمراء وجلوسه على عرش السلطنة، وتاريخ حكمه، والحروب التى قام بها، والفتوحات التى تيسرت له.

[ص ٢٤٧]

القسم الثالث:

فى سيره الحميدة، وسجاياه المحمودة، وآثار عدله وإحسانه وخيراته وميراثه وفنون آدابه ومستحب عاداته، والكلمات التى قالها فى كل سنة على وجه التحقيق وسبيل التدقيق والأحكام المحكمة والقوانين المبرمة المشتملة على رعاية مصالح كافة الخلق، والتى نفذها فى كل شأن من شئون الحياة، ونوادر الحكايات والأحوال التى لم تذكر فى القسمين السابقين. وهى نوعان:

أحدهما: ما كان مبوباً. وهو عبارة عن أربعين حكاية.

وثانيهما: ما يسجله القلم بصورة متفرقة حسب القضايا والحوادث المختلفة.

(١) ترجمة لكلمة شاعران كان للتبميز بينها وبين كلمة "امير" من غير أبناء الملوك.

القسم الأول

في تقرير نسبة العريق، وذكر أحواله منذ مولده المبارك حتى عهد جلوس أرغون خان على عرش السلطنة، وذكر خواتمه وأولاده، وشجرة نسبهم الشريف.

غازان خان هو الابن الأكبر لأرغون خان الذي تزوج، وهو في الثانية عشرة من عمره من والدته غازان المسماة "قولتاق" ابنة "بيتكجي" الصغرى من قبيلة "دوربان". وكان أرغون قد خطبها من "كرك تيمور" الذي كان أخا "لأرقتو" و"مولاي". وكان الأمير "تسين" قد تزوج من أختها الكبرى المسماة "أشلون".

كانت "قولتاق" في غاية الكمال والجمال. وكان أرغون يحبها حبا شديدا لدرجة أنه أراد أن يستقبلها، ولكن منعه من ذلك الأميران "سرتاق" و"جوجغان". ولشدة تعلقه بها صعد برج القصر، وجلس فوق سطحه، وصار يشاهدها من بعيد.

وصفوة القول أنه بعد إتمام مراسم الزفاف والزواج، تكونت مواد العنصر الشريف لغازان، واستقر صدف مشيعة ذلك القمر الملكي في در البحر الحافاني. وبعد تسعة أشهر وفي أسعد ساعة [ص ٢٤٨] من فجر ليلة الجمعة التاسع والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧١م الموافق (ير يكيو منج آي) عام الخروف جاء من كنه العدم إلى حيز الوجود، طالع غازان المبارك القدم في "آيسكون"^(١) من نواحي مازندران، وذلك وقت طالع السعد يبرج العقرب، وسهم السعادة وسهم الغيب، فأضاء عين الدنيا بجماله.

ووقت ولادته رصد الكواكب جماعة المنجمين المهرة الذين كانوا حاضرين واستخرجوا في احتياط تام طالع المولود، فوجدوه مسعودا للغاية. فقال كل منهم (شعر فارسي في الأصل ترجمته):

لقد نظرت إلى طالعك فرأيت

إقطاعك سيكون مائة ألف نفس

(١) آيسكون: جزيرة صغيرة منعزلة على بحر قزوين. اشتهرت في التاريخ بأنها آخر مكان لجأ إليه

السلطان علاء الدين محمد غورانشاه فارا من جبال اللؤلؤ، ومات فيها ذليلا في سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م.

(انظر: كي لسنج: بلدان الخلافة الشرقية. نقله إلى العربية، بشر فرسيس وكوركيس عواد، ص ٤١٩ - ٤٢٠

بغداد ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م الدكتور فؤاد عبد المعطي الصبياد: الفضول في التاريخ، ص ١٢٢ - ١٢٣

الذائرة ١٩٧٥م).

ثم عهدوا به إلى مرضعة حسنة الخلق تدعى "مغالجين"، وهى زوجة رجل غطائى اسمه "إهشك"، وكانت قد جاءت مع "تولتاق خاتون"، وعرف عنها أنها امرأة عفيفة، محمودة السيرة، تليق بترية أبناء الملوك. وكان ابنها "هندو" على قيد الحياة.

وصفوة القول أن مرضعته الرحيمة، صارت تربيته فى جحر الشفقة. وكذلك انطلق لسانه فى عهد المهدي بالألفاظ المليحة والكلمات الفصيحة طبقاً لما يقول الشاعر:

(شعر عربى فى الأصل)

فى المهدي ينطق عن سعادة جده أثر النجابة ساطع البرهان

بحيث إنه حير الجميع.

ولما كانت عادة المغول ألا يسمحوا لبعولة مرضعات أبناء الملوك أن يقربوا نساءهم ولأن "إهشك" الحطائى جامع زوجته فى ذلك الوقت، فحملت منه - أصيب الأمير غازان بإسهال نتيجة تغير لبن مرضعته. ولهذا السبب استردوا الأمير منها، وأركبوه جواداً وهو فى الثالثة من عمره، وسلموه لأُم حسن الذى كان أميراً على طائفة "توقجيان" من قبيلة "سولدوس"، واسم والده "حسن آشتو" واسم والدته "آشتاى". وكان لآشتو ولد آخر يدعى "تولاي" يعمل ساقياً وطاهياً.

وعندما بلغ الأمير غازان الثالثة من عمره، أرسل أرغون الأمير "قتلغ شاه" من مشتى مازندران إلى حضرة آبا قاخان لإعجاز بعض المهام، فحظى بالثول بين يدى الحضرة فى "موغان"^(١)، فاستفسر آبا قاخان عن أحوال الأمير غازان. فرد "قتلغ شاه" بأنه فى الثالثة من عمره ويركب الجواد. فأظهر آبا قاخان ميلاً شديداً إلى رؤيته.

وعند عودة "قتلغ شاه" قال له آبا قاخان: لقد بلغت من الكبر عتياً وتطوف بخاطرى - من وقت لآخر فكرة الرحيل إلى الآخرة. وإذا كان ولدى أرغون يحب ابنه غازان حياً

(١) موغان: تكتب أيضاً موقان: مدينة نهرسان من أعمال طوس. ولها سوق وسور حصين. وبها تجار الزمراء وخياص وفطلة. ولها حصن منيع. ويوجد بها قبر على بن موسى الرضا. ويقيم موقان معادن القضة والفضة والنفيس والحديد. وبها كذلك كثير من أحجار الفيروز. وكانت موقان دار الإسارة نهرسان إلى إسماعيل الطاهرية ثم انتقلت منها إلى نيسابور. (انظر كتاب الروض للعطار فى غير الأقطار، تأليف محمد بن عبد النعم الحميرى حققه الدكتور إحسان عباس، الطبعة الثانية، ص ٥٦٦، بيروت ١٩٨٠م).

جها، ولا يريد مفارقتها لأنه وحيد فإني أتوق إلى أن يرسله إلى حتى يلهو باليواسق^(١) والصقور.

فلما بلغ قتلغ شاه تلك الرسالة لأرغون، قال: ليس لي غير هذا الابن، فكيف أستطيع أن أرسله إلى والدي؟ . غير أن الامتثال لأوامر الأب واجب على. وإذن فالمصلحة تقتضي أن أتوجه بنفسى إلى حضرة والدى، واصطحب ولدى معى.

وفى أول شهور فصل ربيع من عام ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م، غادر أرغون مازندران قاصدا زيارة حضرة والدته [ص ٢٥٠]، واصطحب معه ابنه، ومثل بين يديه فى "قونقور أولانگ"^(٢).

وعندما سمع آبا قاخان خير قدموها، يادر باستقبالهما، وذلك لفرط شغفه بلقاء الأمير النجل غازان. وما أن رآه حتى رفعه عن صهوة الجواد وأجلسه على مقدم سرجه، واتهيج برؤيته.

وحيث إن آبا قاخان كان يشاهد على غازان أبهة الملك وشمال السلطنة صرح قائلا: "إن هذا الولد جدير بأن يبقى معى، وأن أقوم بنفسى بتربيته". ومع أنه كان يحب ابنه أرغون حبا شديدا، فإن حبه له قد ازداد، ورسخ فى قلبه أكثر من ذى قبل، وذلك بسبب تعلقه بغازان.

وفى تلك الفترة من الإقامة، وتيمنا بوصول ذلك النجل، صار آبا قاخان مشغولا بأسباب المتع واللهو والمرح. وكان يذل الإنعامات والهدايا للجميع. وعند عودة أرغون قال آبا قاخان: "ليق الابن غازان عندى هنا حتى أقوم بنفسى بتربيته". ولما لم يكن لبولغان خاتون الزوجة الكبرى لآبا قاخان ولد ذكر، قال أرغون: إذا صدر الأمر، فإني أقدمه إليها على سبيل العبودية والخدمة. فأعجب بذلك آبا قاخان. وكانت بولغان خاتون قد توجهت

(١) الفرد "ياشق" وهو نوع من جنس البازى، من فصيلة العقاب النسرية وهو من الجوارح يشبه الصقر ويتيز بحجم طويل ومنقار قصير يادى القفوس (جمع اللغة العربية: المجمع الوسيط، ج ١، ص ٥٨).

(٢) "تقفر أولانگ" الاسم للقول للمدينة التى شرع فى إنشائها السلطان أرغون خان، وأنها السلطان لولجياتو وأطلق عليها اسم "السلطانية" وذلك فى سنة ٧٠٤هـ / ١٣٠٥م، وجعلها عاصمة الدولة الإلغائية. (انظر كسى لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشر فرنسيس وكوركيس عواد، ص ٢٥٧ بغداد ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م).

إلى ناحية "سفورلوق"، فتبعها أرغون مسيرة منزل واحد وأدى لها التحية والولاء، وسلم لها غازان، ثم عاد إلى خراسان. فسرت بولغان خاتون سرورا شديدا، وقالت: إن هذه كرامة، وهدية لي من الله، وهو مثل ولدي من صلبى.

ولقد ترك أرغون لابنه غازان عشرة من الخدم، هم: حسن وكوكا وما جار وأدرم وبوقا وفردغميش وقلجاي والتون وبوقا وآقاجى وهم من قبيلة اونكقوت. [ص ٢٥١] ثم صرح آبا قاخان قائلا: ليق غازان فى هذا المخيم، وينسب إليه، ثم يتول إليه من بعدى، ويقوم مقامى.

وبجمل القول أن الأمير غازان كان يقيم فى مقر "بولوغان خاتون"، وملازما لحضرة آبا قاخان. ولأن غازان كان طفلا، كان آبا قاخان يحبه أكثر من ابنه الصغير "غيختاتو"؛ بحيث إنه كان يؤاخذ غيختاتو إذا ما ضايق غازان أثناء اللعب.

وعندما كان آبا قاخان يملأ ازدحام الناس وضجيجهم، وفى الوقت الذى يطلب فيه زوجته "توادی خاتون" التى شغف بحبها، كان ينزلها على بعد ما يقرب من نصف فرسخ من المعسكرات. ولم يكن أى مخلوق من الإخوة والأبناء يبقى هناك. ولكنه لقرط حبه لغازان، كان ينزله بجوارها، وكان يصحبه فى سكره وصحوه وأوقات صيده وظلعه وإقامته وفى أى وقت يشاء. ولم يكن يطيق صبرا عن بعده لحظة واحدة. وكان يصرح دائما بأنه تتجلى فى رأس هذا الصبي السعادة، ويدنو عليه الإقبال التام.

ولأن غازان كان عاقلا إلى أقصى حد، صار فى أول سن الطفولة يجمع الأطفال والأتراب، ويعلمهم القواعد والقوانين، وأساليب الصراع والنزال. كذلك عين أحد أقاربه من بين كبار أفراد الأسرة، ومن الأصدقاء المقربين؛ بحيث إنه لو تجاوز شخص حده، فإنه كان يؤاخذ طبقا لقواعد الياسا^(١)، ويعاقبه بالزجر والتعنيف. ولم تنصرف إلى اللعب واللهو شأن الأطفال الآخرين، بل كان من عادته فى اللعب أن يأمر بأن تحاك له من البلاد والشياب "دمى" على هيئة آدميين والخيول ثم يدججها بالسلاح، ويجعلها تواجه بعضها بعضا كجيشين متحاربين الواحد منها فى مواجهة الآخر، [ص ٢٥٢] ثم يشير بيده الحرب والظعن.

(١) للحصول على معلومات مفصلة عن الياسا التى وضعها چينگيز خان انظر كتاب المقول فى التاريخ للمرجع ص ٣٣٨ وما بعدها، القاهرة ١٩٧٥م.

وعندما بلغ غازان الخامسة من عمره، عهد به جده أباقاخان إلى "ماروق بنخشي" الخطائي حتى يشرف على تربيته، ويعلمه الخط المغولي والأويغوري والعلوم والآداب. وفي مدة خمس سنوات، أتقن تلك الفنون. وبعد أن حصل هذه المعارف، شرع في تعلم الفروسية والرماية.

(شعر فارسي في الأصل ترجمته)

بينما كانت لا تزال رائحة اللين تفوح من فيه

جاءته الرغبة في الطعن بالسيف والرمي بالسهم

وكان دائما يطارد الحيوانات، ويجري الخيل بطريقة أدهشت البشر.

وفي سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م عندما توجه أباقاخان إلى خراسان لمقاومة جنود القراونة الذين كانوا قد خربوا فارس، اصطحب معه "بولوغان خاتون" وغازان، فقدم أرغون لاستقبال أبيه. وفي سمنان^(١) لحق بالخضرة، وجدد الأب والابن اللقاء. ولما غادر الجميع سمنان، مارسوا الصيد عند الجبل الواقع بين سمنان ودامغان^(٢).

وفي ذلك الوقت بلغ الأمير غازان الثامنة من عمره. وهناك شغل بالصيد^(٣). ولما كان هذا أول صيد له، مكث ثلاثة أيام في دامغان من أجل طلاء يده بالشحم^(٤). وقد أقيمت الولائم وحفلات اللهو ثم غمس "بوقا" صاحب السلاح "قورجي" - الذي كان "مركانا" بمعنى أنه يجيد الصيد - يد الأمير غازان في شحم الصيد.

(١) سمنان: تقع بين دامغان والري على طريق خراسان. جوها معتدل، وتستمد مايعا من النهر. وهي مدينة حسنة ومتوسطة بها أسواق وصناعات، وتنتج الرمان والفسق، وتشتهر بها غاية الجودة (انظر حمد الله المسعودي القزويني: نزهة القلوب بكوشش محمد دبیر سیاهی، ص ٢٠، الروض العطار، ص ١٣٢١ بلدان الخلافة الشرقية، الترجمة العربية، ص ٤٠٧).

(٢) دامغان: تقع بين الري ونيسابور، وهي أقرب إلى نيسابور. وقد أطلق عليها العرب أيضا اسم قومس. يسيل جوها إلى الحرارة، وهي قليلة الماء. ومن فواكهها الكمثرى الجيدة (انظر نزهة القلوب، ص ٢٠، الروض العطار، ص ١٣٢١ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٠٥).

(٣) كان للأولاد الصغار فرص يظهر فيها مهاراتهم في الصيد، ويلتون عدم اكتراثهم بما قد ينجم عن ذلك من أخطار. وفي الحق كان الصيد يهذب الصغار على مطاردة الأعداء الآمنين ووضعهم في مركز حرج. (انظر چنگیز خان وجماعت المغول، تأليف هارولد لام، ترجمة مری آمین، ص ٥٥، القاهرة ١٩٦٢م).

(٤) جرى العرف عند المغول أن يوضع شحم الصيد الذي يصيده الصبي لأول مرة على إصبعه الأوسط وكذلك يفعلون مع من يقدم أول رأس لقتل تحت العلم في المعركة.

وعندما كان آبا قاخان يغادر دامغان، أمر بأن تسافر بولغان خاتون ومعها غازان عن طريق مازندران؛ ولأن الوقت كان أول الربيع لم يكن العلف قد توافر بعد. وسلك هو طريق بسطام. ثم اتخذت بولوغان خاتون ومعها غازان طريق "شهرک نو"، ولحقا بحضرة آبا قاخان في "مرغزار رادکان". ثم رحل آبا قاخان إلى كيتو جام وهرآة، وسير ابنه أرغون إلى ناحية غور وغرجه لصد القراونة. [ص ٢٥٣] وعندئذ قال غازان لجدته آبا قاخان: لو أذنتم لي فإني على استعداد للسير كي أكون في خدمة والدي. فاستحسن آبا قاخان منه ذلك، وأمر له بزر من الشراب الخاص حتى يلحق بأبيه أرغون. ثم اصطحبه إلى موضع "باغ حین" مما يلي طوس حيث قام بتوبيعه ثم قفل راجعا.

بعد ذلك أوقف آبا قاخان "سالموق خاتون" إلى ناحية دماوند وأعاد معها غازان أيضا. ثم استدعى "مايخو بنجشی" والد الأمير "تارمدار" ووالدته "تو کال تی"، وقال لهما: "إني أثق بكما ثقة مطلقة وأودعكما غازان كابين لكما، وسوف يكون معكما "باروق بنجشی" أيضا. وعليكم أن تذهبوا مع "سالموق" إلى مصيف "دماوند" حتى يتوافر لغازان الحظ السعيد. وهكذا أمضوا الصيف هناك.

ولما عاد آبا قاخان وقت الخريف، لحق بحضرتة غازان في ورامين الري. وكان آبا قاخان لفرط حبه الشديد لحفيده، يلبس قلنسوة عتيقة في بعض الأحيان، ثم يأتى متنكرا إلى مخدع غازان، ويداعبه وهو مستلق في ثياب النوم. وكان يعريه، ويأمر "آشتا ايكاجی" بالألأ يضع وسادة تحت رأسه. وكذلك لم يسمح بأن يضعوا وسادة على سرج فرس غازان جريا على عادة أبناء الملوك، بل يجلسوه على سرج بلا غطاء حتى يصير متقشفا.

وكانت توغتای خاتون تكرر قولها: "ليت السلطان يهبني غازان كولد لي أتبناه، إذ إنه ليس لي ولد. ولكن لما كان آبا قاخان يحب زوجته بولغان خاتون حبا جما، ويريد أن يجعل مقرها خاصا بغازان، كان يجيها بقوله: "إن والده أرغون قد وهبه لبولغان خاتون كابين لها [ص ٢٥٤]. فكيف يمكن استرداده منها؟! وكان دائما يصرح بأن آيات السعادة والإقبال تبدو على جبين هذا الغلام. وكان يضرب لذلك مثلا مغوليا يقول: "كالضرس بين الكرشمه: يعنى الكرشمه اللينة التي ينبت منها ضرس، وكان يدعو بهذا الاسم "كرشمه" مداعبا.

وفي سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م عندما عاد آبا قاخان من بغداد، وتوفي في همدان، كان غازان في العاشرة من عمره، فبكى على جده بكاء حاراً، فكانت الخواتين والأمراء جميعاً يرقون لتواحه وعويله. ولما عاد أرغون خان من خراسان، ولحق بالمعسكرات في مراغه رجع بعد جلوس أحمد على العرش. وكان غازان لا يزال مقبهاً عند بولوغان خاتون كما كان مقررًا من قبل.

وفي سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م عندما كانت بولوغان خاتون تضي الشتاء في بغداد، كان معها الأميران گيخاتو وغازان. وكان أحمد في أران^(١). أما أرغون فقد قدم من خراسان إلى بغداد، ومكث هناك خلال فصل الشتاء. وفي وقت الربيع توجهت بولوغان خاتون إلى خراسان، فتزوج منها أرغون خان، وأدخلها في حبالته^(٢). ولكن ظل غازان في معسكرها جرباً على القرار والقاعدة.

وعندما توجه أحمد إلى ناحية خراسان، أراد أرغون أن يعود من حيث أتى، وذلك على النحو المذكور في تاريخ أرغون. ثم أوفد أرغون ابنه غازان إلى أحمد ثانية، فأدركه بناحية سمنان. وقد لاحظ عليه أحمد أمارات الملك، وشمله بعطفه، وأطرى شجاعته كثيراً. ثم أذن له بالانصراف من بسطام. وعندما قدم أرغون إلى أحمد - الذي كان معه ايلدار - صار أحمد يقول كلاماً سفيهاً في مواجهة أرغون. فرد عليه غازان، وأبدى فصاحة وبلاغة، فبقي الجميع حيارى مذهوشين لحسن جوابه وسؤاله.

وبعد أن نصر الحق تعالى أرغون وتعقب أحمد في آذربيجان، سارت بولوغان^(٣) خاتون أيضاً متوجهة إلى تلك النواحي. أما غازان فقد تركوه في خراسان ليحل محل أبيه، وتركوا له أكثر المحيمات. وكان برفقته الوزراء الكبار، وأيضاً "أيسن بوقا" الذي كان أميراً لذلك المعسكر [ص ٢٥٥]، كذلك بقيت الحزائن كلها هناك لغازان.

ولما توفيت بولوغان خاتون، تزوج أرغون بعد مدة من سيدة تحمل نفس الاسم "بولوغان خاتون" وهي موجودة الآن، وقد أسكنها محل الأخرى. وعندما شاهدت خزائن

(١) أران: ولاية واسعة وبلاذ كثيرة منها جنسز "گنجه". وسين آذربيجان وأران نهر يقال له السرس. وأران أيضاً قلعة مشهورة من نواحي قزوین (معجم البلدان، ج ١، ص ١٣٦).

(٢) جرباً على عادة الفلول التي تبيح للأبناء الفروج من زوجات آبائهم. ويسمى من ذلك أمهاتهم.

(٣) يكتب هذا الاسم: بولغان أو بولوغان أو بلغان.

بولوغان خاتون المتوفاة، اختارت منها لنفسها قليلا من الثياب وأدوات الذهب والفضة. وقالت عن الباقي: بموجب فرمان آبا قاخان تكون الخزانة والموطن والمخيم ملكا لغازان فينبغي أن تختم هذه الأشياء ويحافظ عليها. وقد أجمع الذين شاهدوا هذه الخزانة على أن مثلها لم يتح لأى شخص آخر مطلقا؛ إذ كان يوجد بها الكثير من الجواهر واللاكن الثمينة بحيث لا يمكن وصفها. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن آبا قاخان - لفرط حبه الشديد لبولوغان خاتون، كان كلما ذهب إلى الخزانة، يأخذ منها جوهرة شينة، ويعطيها إياها فى الخفاء. ولكن بعد أن توفيت بولوغان خاتون، مد الخزنة أيدي الخيانة إلى محتويات هذه الخزانة. فعلم بذلك غازان، وكان دائما يؤاخذهم على خيانتهم. وحتى لا تحدث هذه السرقات كانت تلك الخزانة تختم بالختم.

ولما توفى أرغون خان، تزوج غيخاتو من بولغان خاتون رغم إرادتها ولم يدع غازان يذهب إليها، كما سبق أن ذكر فى تاريخه^(١). ثم أعادها غيخاتو من تبريز فتأثرت تأثرا شديدا لتلك الحالة. وكانت تصبر دائما على هذا الوضع. وقد استمر الأمر على هذا المنوال حتى مقتل غيخاتو وانتصار غازان على بابو، وصار سلطانا، فتزوج من بولوغان خاتون. وفى أواخر ذى القعدة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م وصل الحق إلى مستحقه. وفى الوقت الذى قدم فيه أرغون خان إلى خراسان، وجلس على العرش وترك غازان هناك نائبا عنه، لم يتح لهما اللقاء بعد ذلك. وسوف نذكر أحواله فى خراسان خلال تلك المدة فى قسمين إن شاء الله تعالى.

(١) انظر جامع التواريخ، المجلد الثانى - الجزء الثانى: تاريخ أبناء هولاكو من آبا قاخان إلى غيخاتو خان. نقله إلى العربية محمد صادق نشأت ومؤاد عبد المعطى الصياد، ص ١٧٠، القاهرة ١٩٦٠م.

ذكر زوجات غازان وأبنائه

[ص ٢٥٦] تزوج غازان في البداية من "بيدى قورتنقه"، وهي ابنة منكو تيمور
گوركان من قبيلة سولدوس. وكانت والدتها طوقلغشاه بنت مباركشاه بن قراهورلاكو بن
يسوتوى بن مواتوكان بن چغتای. وبعد ذلك تزوج من بولوغان خاتون الخراسانية بنت
الأمير تسوكا. وكانت والدتها بنت أرغون آقا. ثم تزوج من آشيل خاتون بنت توقتيمور
أمير التومان (عشرة آلاف جندي) ابن نوقاي يارغوجي. ومن بعدها تزوج من كوكاجي
خاتون التي جىء بها من منغوليا، وهي من بين قريبات بولوغان خاتون الكبرى، والتي
أنزلها في محيم توقوز خاتون وتوفيتي خاتون. ومن بعدها تزوج من بولوغان خاتون بنت
اوزان بن أخى آبتاي نوبان. وقد أنجب منها ولدا اسمه "الجو". توفي في صغره. كذلك
كانت لها بنت اسمها "الولجاي قتلغ" زوجها من ابن أخيها .. وبعدها تزوج من "دندى
خاتون" ثم من "كرمون خاتون" وهي بنت قتلغ تيمور بن آبتاي نوبان. وقد أحلها محل
كوكاجي خاتون.

ما ذكرناه هو قصة زوجات غازان، وقد تم شرحها. أما جدول شعبه الشريفة لأبنائه
فهو على هذا النمط الذي تبيته.

القسم الثاني

من تاريخ غازان

**فى مقدمة جلوسه المبارك، وصورة العرش والأمراء الأنجال
والأمراء عند جلوسه على عرش السلطنة، وتاريخ عهد حكمه
والحروب التى قام بها، والفتوح التى تيسرت له**

**مقدمة جلوسه المبارك ابتداء من ذلك العهد
الذى اختاره فيه أرغون نائباً عنه فى خراسان
إلى أن تغلب على بايدو**

وذلك القسم عبارة عن عدة حكايات:

حكاية حاله فى خراسان فى عهد والده:

لما نجا أرغون خان بعون الله تعالى من يد أحمد، وتعبه إلى ديار آذربيجان، وجلس على عرش الملك، ترك الأمير غازان نائباً عنه فى خراسان، ومنحه تلك البلاد مع جيوش كثيرة، وعهد إليه بتلك المنطقة التى تعد من أعظم الثغور. وظل يقيم هناك طبقاً لأوامر والده. وكان يرعى مصالح تلك البلاد، ويرتب شئونها. وكانت الرسل تتردد دائماً من أجل إبرام مختلف المهمات. وظل الأمير نوروز يلازمه. وكان غازان يبذل الجهود والمساعدى فى تصريف شئون الجند والإمارة.

وفى شهر ذى الحجة سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م، عندما عاد غازان خان من مشتى مرو وكان نوروز فى خدمته، توجس هذا خيفة بسبب قتل صديقه بوقا وأتباعه^(١). [ص ٢٥٨]

(١) الأمير بوقا كان شخصية كبيرة فى عهد أرغون والد غازان. وكان قد عهد إليه بالإمارة والوزارة وذلك مكافأة له على دوره البارز فى القضاء على السلطان أحمد تكودار وتولية أرغون عرش الغول فى إيران. ثم نقم عليه "أرغون" بسبب طغيانه واستبداده، فنقض عليه وعلى جميع أتباعه. ولما كانت تربطه بنوروز صلة صداقة، خاف نوروز على نفسه وثار على غازان وحاربه. (انظر كتاب الشرق الإسلامى -

فما كان منه إلا أن استأذن غازان قائلا: "تصل أنباء عن المتمردين، فأريد أن أعود إلى ديارى، وأشاهد الألاف من أتباعى. وإذا دعت الحاجة، فسوف أزحف بالجيش. فلما حصل على الإذن عاد إلى دياره. ثم ترك زوجته الأميرة طوغان مع والدته "سرmiş" وإخوته "يراناى غازان" و"حاجى" و"نارين حاجى" وأبناء أخيه فى ملازمة الحضرة.

بعد ذلك أرسل أرغون الأمير "تكنا" على رأس الأمراء بصفته معاونًا لغازان فى حكم خراسان. ولكن لم ترق لغازان عادات "تكنا" وسيرته. ولما لم يكن ذلك مناسبًا لطبعه لم يتيسر له أن يفعل ما يريد. وكان الأمير قتلغ شاه نويان قد عاد من ناحية آذربيجان، وأقام على حدود "خوجان" بسبب اعتلال صحته.

أما نوروز فقد سار إلى "وادی جز" حيث المقر الشتوى لجماعته، وأمضى الأمير "كينشو" فصل الشتاء فى هراة تنفيذًا لحكم الرسوم. وعندما حل الربيع، رحل الأمير غازان من مرو إلى ناحية سرخس^(١) حيث مكث عدة أيام. ثم قدم إلى "قراية" سرخس حتى تسمن الدواب وانصرف إلى اللهو والرمى. ولخوف نوروز من أرغون بسبب تهمة بوقا صار يرسل تبعًا، ويتنحل الأعذار قائلا: "إن ما أصابنى من وجع فى قدمى هو المانع من وصولى إلى الحضرة". ثم أحضر أمراء السرايا ممن هم تحت إمرته وكذلك أتباعه، وقال لهم: "سمعت أنه قد وصل أمر من أرغون إلى الأمير النجل غازان يقضى بأن "نوروز" وأتباعه كانوا يتآمرون مع بوقا، فينبغى اعتقالهم وإعدامهم جميعًا. ولما كان الأمير "كينشو" قد تزوج من أخت "نوروز"، أرسل إليه أيضًا رسالة بهذا المعنى، بحيث إنه خوفه وحذره، وجعله متحدا معه. وفى تلك الأيام القريبة، وصل "سداق ترخان" و"يكلاميش" اللذان أرسلهما غازان إلى حضرة أرغون. ثم أقام مدة شهر فى "قراية". وهكذا ذاع على الأفواه صرد نوروز وفنتته. وفى تلك الأثناء، وصل أيضا الأمير قتلغ شاه.

— فى عهد الإيلخانيين أسرة هولكو خان، تأليف الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد، ص ١٦٠ وما بعدهما منشورات مركز الوثائق والدراسات الإنسانية بجامعة قطر، الدوحة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

(١) سرخس: بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الحاء المعجمة، وآخره سين مهملة. ويقال سرخس بالتحريك. والأول أكثر. مدينة قديمة من نواحي خراسان، كبيرة واسعة. وتقع بين نيسابور ومرو فى وسط الطريق. وتكثر فيها مراعى الإبل والأغنام. ولو أن ما يزرع من أراضيها محدود المساحة بسبب قلة مائها. ولأهلها مهارة فى صنع اللصاع والعصائب المنقوشة الملعبة (انظر معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٠٨ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٣٨).

بعد ذلك استأذنت "سرميش" والددة نوروز والأميرة طوغان وكذلك إخوته وأبناء إخوته في المسير بحجة أن "نوروز" قد زوج ابنته من "ساربان بن نيكبي"، وأن الجمع في انتظارهم كي يحضروا مراسم الزواج والأفراح على أن يعودوا بعد حفلات الزفاف فلما ذهبوا لحقوا بنوروز.

وفي أوائل ربيع الأول سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م رحل غازان من "قرباته"، وسار إلى ناحية طوس وراذكان^(١). ثم أرسل "سাদاق" برسالة إلى نوروز يقول فيها: "إننا قد ارتحلنا، لنلحق بك هناك؛ فينبغي أن تقابلنا عند نهر فرغانة أي عند "كشف رود". فلما وصل "سাদاق" إلى نوروز، اعتقله وقيده، ثم استجوبه بضرب العصي والمراوات قائلا: "لقد كنت في خدمة أرغون، فصارحتي: ما حكمه علي؟! فأجاب: "خير وحسن". وعندما هم نوروز بقتله تحدث بوضع كلمات مضطربة خوفاً على حياته، غير أن والددة "نوروز" "سرميش" والأميرة طوغان حالتا دون قتله، فزوج به في السجن. ثم سار به في الطريق. وهكذا شرع نوروز في إثارة الفتنة والاضطراب. أما غازان فقد نزل بعد ذلك في منطقة "كشف رود" عند "سد معين".

وفي يوم الخميس ٢٧ من ربيع الأول سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م [ص ٢٦٠] قدم نوروز بالجيش الذي معه، ليدهام المعسكر العظيم لغازان. واتفق أن يوقا وتكنا وكورك والأمراء الآخرين كانوا قد نزلوا عند النهر، واجتمع جمع غفير وعسكر الجيش عند حافة ربوة خارج وادي النهر.

ولما كانت العناية الربانية ترعى غازان، أدرك نوروز ذلك التجمع، وظن أن تلك الجحافل تابعة لغازان خان، فحاصره؛ فأخذوا يهللون ويصيحون جريا على عادة المغول. وبسبب اللطف الإلهي، استيقظ غازان مبكرا، وغسل وجهه، وحضر المقربون إليه، وركب الأمير قتلغ شاه استعدادا للقتال، وازداد الضجيج. كذلك ركب غازان. وكان الأمير قتلغ شاه في خدمته. وقد سارا إلى ناحية رباط "سنگ بست" على طريق نيسابور. وبذلك نجأ

(١) وراذكان (أورادكان): قرية من قرى طوس. وقيل بلدة تقع في نصف الطريق بين خيوشان وطوس. عرج منها جماعة وفسرة من أهل العلم. ويقال: إن الوزير نظام الملك كان منها. (معجم البلدان، ج ٣، ص ١١٢ بلدان الخلافة الشرقية، الترجمة العربية، ص ٤٣٥).

من تلك الغارة المفاجئة بفضل العون الإلهي. وقد أعتق "نوروز" الأمير بوقا^(١) وتكنا وكورك. وأمر بإجلاء الجنود من المعسكرات ومنازل الأمراء جميعا، وأرسلهم إلى "يزاوكان". ثم نهبوا كل ما وجدوه، وقتل "نوروز" بوقا. وكان يحتفظ بتكنا والأمراء الآخرين مسجونين عنده.

وعندما بلغ غازان نيسابور، كان هناك الأميران ساتلميش ومولاي فالتحقا بخدمة. ثم اعترم غازان السير إلى مازندران. وتصادف أن الدرع الذي كان في غاية الحسن والجمال قد أسقطه السياس من العيبة^(٢) وبثثوا عنه مدة، فلم يعثروا عليه.

أما سبب عزيمة غازان على التوجه إلى مازندران، فيرجع إلى وجود الأمير "هولاجو" بها. وكان يشاع أنه متفق مع نوروز. وكان نوروز يكتب المنشورات إلى الولايات بهذا المعنى [ص ٢٦١]، فأراد غازان أن يعتقل "هولاجو" قبل أن ينضم إلى نوروز، فسار بسرعة فائقة؛ بحيث إنه ركب من نيسابور، فبلغ ظاهر "شهرك نو" خلال خمسة أيام. وبقي الأمير "كورشور" بمفرده. وقد انضم إلى الحضرة أمراء جيش مازندران. وكان هولاجو في ظاهر مدينة جرجان^(٣) على مقربة من "كورداغى".

وفي يوم الجمعة السابع من ربيع الآخر، داهموا "هولاجو"، وطفقوا يهللون ويصيحون قبل أن يصلوا إلى دياره. وكان "هولاجو" يشكو من ألم في قدمه، فخرج مسرعا قبل أن يلبس نعله، وعزم على الفرار. وعندما وصل الجنود إلى منزله، ولم يجدوه تعقبه الأميران مولاي وبانجار وقبضا عليه بالقرب من "سنگ سواد"، وأحضراه. ثم نهب الجنود دياره. ولما اقتادوه إلى الحضرة، وسألوه عن أحوال نوروز أنكروا وقال: ليست لدى معلومات عن أحواله، وإنني لم أكن متواطئا معه، ولم تخطر ببالى هذه الفكرة قط.

(١) بوقا هذا شخص آخر غير الأمير بوقا وزير أرغون السابق ذكره.

(٢) العيبة: وعاء من آدم ونحوه. يكون فيه الناع. الجمع عيب وعيب (انظر المعجم الوسيط، ج ٢، ص ٦٣٩).

(٣) جرجان: مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان، ليس لها نظير في نواحيها. والغالب على أعمال جرجان الجبال والقلع. ويعرف عن أهلها القوار والرومة واليسار. وفيها مياه كثيرة وضياء واسعة. وليس بالشرق بعد مجاوزة العراق، مدينة أجمع ولا أظهر حسنا من جرجان. وبها الزيتون والنخل والجوز والرمان وقصب السكر والأترج. وفيها يهود الإريسم ويحمل إلى كل الأقاليم. وقد خرجت جرجان كثيرا من العلماء والأدباء (معجم البلدان، ج ٢، ص ١١٩ - ١٢٠ الفوضى للعطار، ص ١٦٠ - ١٦٢).

وفي ذلك اليوم نزل غازان على مقربة من جرجان. وفي اليوم التالي، أرسل "هولاجو" إلى حضرة أرغون رسالة، وذلك على يد "تاهمور". أما غازان فقد أقام يوماً، وتفقد الجنود. ومن هناك تحرك إلى جانب غيوشان^(١) وطوس ورادكان لمواجهة نوروز؛ بحيث إنه في اليوم السابع، وصل إلى موضع "سلطان ميدان كلندر" الذي كان على بعد شاتين فرسخاً. وفي آخر النهار، وصل خير من الحراس بفيد أنه يبدو ظل جيش المتمردين، فصدر الأمر بأن يتسلح الجيش كله. ولما رأى المتمردون [ص ٢٦٢] الجيش المنصور من بعيد، ساروا إلى ناحية رادكان. وفي تلك الليلة ظلت الرايات السلطانية في "سلطان ميدان". ثم هطل مطر غزير أثلف معظم الدروع وسروج الخيل.

وفي الصباح الخامس عشر من ربيع الآخر، توجهت الرايات السلطانية إلى رادكان في طلب نوروز، فالتقوا به في موضع يسمى "إنجكه سو". واصطف الفريقان، فأسرع الجيش المظفر إلى مدهمتهم، وذلك لفرط شجاعته، وقاتل الجند قتالاً عنيفاً؛ لا سيما الأمير قتلغ شاه. ومن الجانب الآخر ثبت كينشو ونوروز وتكنا.

وفي نهاية الأمر ظهر وهن في جنود هذا الطرف (أي جنود غازان) فولوا الأدبار منهزمين. وكذلك توقفت الرايات السلطانية مدة طويلة في مواضعها. ثم أمر غازان الأمراء قتلغ شاه وساتلميش وسوتاي بجمع فلول الجنود. ورغم ما بذلوه من جهد لم يستطيعوا جمعهم. وعندئذ تحركت الرايات السلطانية إلى "جوين"^(٢) عن طريق أرغيان. وعقب أمراء الجيش، وصل إيغورتاي وغازان والآخرين. ومن كل ولاية جوين لم يقدم أي غلوق إلى الحضرة سوى "مهتر نجيب الدين الفراش" الذي خرج على الفور عندما وصلوا إلى قرية

(١) غيوشان أو غوجان: مدينة تقع في المستنقعات التي يخرج منها نهرا تترك بالقرب من طوس. سمي رستانها "سو". وقد عرف بتحصينة أرضه، وأعداد هولاكو خان بناء غيوشان في المائة السابعة (الثالثة عشرة). ثم وسع حفيده أرغون هذه المدينة كثيراً وطقبها معادل. وهي تتج القمح والفلن وفواكهها كثيرة. وقد وسع حفيده أرغون هذه المدينة كثيراً (بلدان الحلافة الشرقية، الترجمة العربية، ص ١٣٥).

(٢) جوين: اسم ولاية على طريق القوافل من بسطام إلى نيسابور، وجميع قرأها متصلة واحدة بعد الأخرى. وأكثر سكانها من الشافعية، وتستمد جوين ماها من القنوات، وحاصلاتها متنوعة. وإلى جوين ينسب خلق كثير من الأئمة والعلماء. (انظر معجم البلدان لياقوت، ج ٢، ص ١٩٢ - ١٩٣، بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ترجمة

القولوب، ص ١٨٤، تهران ١٣٣٦هـ.ش)

"زيرآباد"، وقدم أكمل فروض الطاعة وعنى بالخليل عناية فائقة، وقام بالخدمات الجليلة الثلاثة من كل نوع؛ فلا جرم أن سلطان الإسلام عندما تربع على عرش السلطنة، شمله بعطفه، ومنحه كثيرا من الامتيازات، وجعله من جملة المقربين إلى الحضرة. [ص ٢٦٣]

ومنحه قرية "زيرآباد" التي كانت من أملاكه الخاصة. كذلك منحه مرسوم الترخائية^(١) وفوض إليه الإشراف على الخزانة، وإدارة الخانقاه التي بناها في قرية "بوزينجر" من أعمال همذان. وهي عبارة عن عمارة مرتفعة وبناء رائع. وقد أوقف عليها أوقافا كثيرة من الضياع والعقار، وجعل ولايتها له ولأولاده وأعقابهم، وصار ملحوظا بنظر العناية والعاطفة السلطانية.

وعلى هذا لا يخفى أن كل من يؤدي للسلطين خدمة جليلة ومرضية لا بد أن ينجى نتيجتها وشرفها، ويكون وموقرا ومحترما في نظر الجميع. وحتى هذا الوقت في عهد السلطان أوجياتيو خلد الله سلطانه كان هذا الشخص لا يزال يباشر هذه الأعمال ويتمتع بما كان له من توقيير واحترام.

والحق أنه رجل شريف ومرتب، طيب الذات، حسن السيرة؛ فلا غرو أن يكون جديرا بملازمة السلاطين، وينال منهم دائما الحيرات والمبرات. وهكذا فإن كثيرا من الناس من الصلحاء والعلماء وسائر أصناف الطوائف ينعمون في وجود غازان بالراحة والرفاهية. وصفوة القول أنه عندما وصلت الرايات السلطانية إلى مكان قريب من جاجرم^(٢) تشاوروا في الأمر، وقالوا: إن المصلحة تقضى بأن نذهب إلى حضرة أرغون خان أو أن

(١) الترخان هو الرجل اللقي من الضراب، ويكون له حق الاستحواذ على ما ينضم في الحرب، ويدخل على الخان الأعظم دون استئذان، ويتفحص له عدد من الجند والأتباع يكونون تحت تصرفه، ويغطي من القواب والخمير والثقولات ما لا يدخل تحت حد وحصر، ويغني من المسألة عن الذنوب التسعة الأولى التي يرتكبها. ويكون لأبائه أيضا حق التمتع بهذه الامتيازات وقانون الترخانية خاص بهذه الطبقة. (انظر عطا ملك الجويني: تاريخ جهاتگشای، جلد أول در تاریخ چنگیز خان وأعقاب لو تاكيوك خان، ص ٢٧ - ٢٨، بسعي واعتماد وتصحيح محمد بن عبد الوهاب القزويني، ليدن ١٣٢٩هـ / ١٩١١م).

(٢) جاجرم: يقال له أيضا أرغيان. بلدة لها كورة والفة بين نيسابور وجوين وجرجان. تشتمل على قرى كثيرة. وهي بلد حسن. وتتميز مساكنها بالعمامة. تنتج القمح، وتكثر بها الفاكهة. (انظر معجم البلدان، ج ٢، ص ١٩٢ نزهة القلوب، ص ١١٨٤ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٣٣ - ٤٣٤).

نقيم في كالبوش. فرد عليهم غازان بقوله: حيث إننا قد أرسلنا الرسولين: يغميش وأرمنى بلا، ينبغي أن نصير حتى نعرف ما عساه أن يحدث. ثم توقف في كالبوش. ولما كان بها موطن "انغورتاي غازان"، وكان مطلعا أيضا على الأوضاع في مازندران، قدم هناك خدمات جليلة. بعد ذلك عين غازان طائفة من الحراس ليرابطوا حتى صمغقان وجرمقان.

وفي تلك الأيام وصل نظام الدين يحيى من ولاية "بيهق"^(١)، وأحضر معه كل ما تحتاج إليه الحضرة السلطانية، وما يلزم المعسكر من الخيول القبقاقية والآلات الذهبية [ص ٢٦٤] والفضية والمخيمات والسرادات والأواني والبغال والإبل. كما قدم للأمرء خدمات مستحسنة، ثم عاد إلى بيهق حسب الأمر الصادر إليه كي يعد الأموال والميرة للجند.

وقبل الاشتباك مع نوروز بيومين، هاجم الأمير "إلادو" وطائفة أمراء القزلوناس ديار نوروز، ونهبوا كل ما فيها. فلما وقف نوروز على ذلك الأمر تعقبهم. أما كينشو والآخرون فقد أقاموا في رادكان. وكما هي عادة القراوتة، انقسموا - بعد تلك الغارة - إلى فرقتين أو ثلاث فرق وانفصوا من حول الأمير "إلادو"، وانضم بعضهم إلى الأمير نوروز، وسار بعضهم إلى ديارهم، وشرعوا في إثارة الفتن والاضطرابات. وعندما شاهد "إلادو" تشتتهم وتفرقهم، نقل خيامه إلى حدود "بادغيد" في واد حصين وانضم إلى الحضرة، فشملة غازان بغاية عطفه ورعايته، وأقام مدة أربعين يوما في "كالبوش". وعندما قدم الجنود من حضرة أرغون، يتقدمهم الأمير بايدو، ونورين آقا وابنه انضموا إلى حضرة غازان، وشغلوا عدة أيام بإقامة الولائم والاحتفالات. ثم رحل غازان من هناك - بطالع السعد إلى "خبوشان" عن طريق صمغقان.

وعندما علم نوروز بوصول الجنود من ناحية العراق، وعرف أنهم يقصدونه، نقل خيامه وأمتعته إلى هراة، وقدم هو نفسه إلى حدود جرمقان. وعندما رأى أنه لا طاقة له بالمقاومة

(١) بيهق: ناحية كبيرة وكبيرة واسعة، كثيرة البلدان والعمارة من نواحي نيسابور. تشتمل على ثلاثمائة وإحدى وعشرين قرية بين نيسابور وقومس وجوين. وكانت قصبتها أولا خسروجرد ثم صارت سبزوار. وقد خرجت بيهق عددا كبيرا من الفضلاء والعلماء والفقهاء، والغالب على أهلها مذهب الشيعة الفلانة. (انظر معجم البلدان، ج ١ ص ٥٣٧ - ٥٣٨ تاريخ بيهق، تأليف أبي الحسن علي بن زيد البيهقي المعروف بابن قندق: مقالة العلامة محمد بن عبد الوهاب القزويني، ص: ٥ وما بعدها، طهران ١٣١٧هـ.ش.).

عاد من حيث أتى، فصار الجيش المنصور يتعقبه حتى حدود جام. وفي موضع "نجم سرائ" التي تلي جام [ص ٢٦٥] دخل في طاعة غازان "الولجيتو" مع جماعة القراونة وشاجي بن بكه يندون من أتباع نوروز. ولما بلغوا "خرجرد جام" كان نوروز قد ساق كل الدواب التي وجدها في خراسان، سواء أكانت له ولجنوده أم كانت للعرب والتركمانيين وغيرهم. وكان يأخذها معه.

ولما وصل الجنود المنصورون متعاقبين، شاهدوا ابتداء من مدخل جام حتى مدخل هراة الحزبون^(١) والسهول وكلها تعج بالدواب التي تركها وراءه نوروز وجنوده. وفي عدة أماكن أخرى شوهد كثير من الدواب قد نفق. ونظرا لشدة العقوبة، أصبح السير متعذرا فكان المغول يأخذون تلك الدواب، ويسبسون بها. وفي القرى كانوا يبيعون كل خروف بدنانق واحد. وحيث إنه كان قد صدر أمر بالألأ يهتموا بالغنائم، لم يجرؤوا على أن يأخذوا منها المزيد. وقد حمل نوروز كل ما خف حمله من المشاع. ثم سار مع الأميرة "طوغان" وعائلات الإخوة وعدد معدود عن طريق فره وسيزوار وهي منطقة صحراوية قاحلة.

ولما كان الوقت صيفا، لم ير غازان من المصلحة في شيء أن يرسل الجند في إثر نوروز وأقام عند باب هراة على ضفاف نهر "بول مالان". ثم أرسل الأمراء إلى بادغيس لاستدعاء "كينشو" والجيش العظيم. وعلم كينشو بهذا الأمر، فخرج مع نسائه وأطفاله وأتباعه إلى جبال الغور وخرجستان. أما أمراء المعسكر العظيم وتكنا وجنود القراونة الذين كانوا معه فقد رحلوا جميعا إلى هراة. ومما يدل على ثبات "كينشو" وسكونه وأمانته - خلال تلك المدة - أنه لم يستول على دينار واحد من الخزائن الخاصة أو الأموال والدواب التابعة لبيوت الأمراء الذين كانوا هناك، ولم يتصرف فيها. بل إنه في الواقع أدى خدمات جليلة.

[ص ٢٦٦] وبعد عدة أيام رحلوا من هراة، واتجهوا إلى ناحية "رادكان" ومن هناك سبر غازان إلى حضرة أرغون "ايغورتاي غازان" في صحبة تكنا ليشرحا له أحوال جيش خراسان. وعلى الرغم من وجود المزيد من الفتن والاضطرابات التي كانت تحدث في خراسان، لم يكن غازان يغفل دقيقة واحدة قط عن مراعاة قواعد العدل والإنصاف. وكان

(١) مفرد حزن. والحزن من الأرض: ما غلط. ومن الدواب ما صعب رياضته. ومن الناس من عشت معاملته. المعجم الوسيط، ج ١، ص ١٧١.

يذل قصارى جهده فى رعاية شئون الرعية. وكان قد سن قانونا يقضى بألا يدع أى مخلوق من الجنود أو غيرهم الدواب تلتف مزارع الناس وبساتينهم. وقطعا لا يطمعونها الغلات، ولا يعيشون فى الولايات فسادا، وألا يشقوا قط على الرعايا.

بعد ذلك تحرك غازان من رادكان إلى "شتركوه" مع طائفة القراونة الذين كانوا قد تركوا فى ناحية "جام"، وذلك كى يصطاف. وهناك شغلوا باللهو والشراب. وقد أكرمهم غازان غاية الإكرام.

وفى أثناء ذلك ورد نبأ من الحراس يفيد أن العصاة قد ظهوروا، فتحركت الرابات السلطانية إلى ناحية رادكان. وكانت تلك الإشاعة كاذبة. وبسبب إدمان غازان الشراب اعتلت صحته. ثم قدم الجمع من هناك إلى خيوشان. وقد ظل غازان مريضا ما يقرب من أربعين يوما. وبعد ذلك استرد صحته.

وخلال تلك المدة وفد الأمير "شيكور آقا" و"طوغان" من لدن حضرة أرغون، وأمضيا الصيف والخريف مع أتباعهما فى منطقة خيوشان ورادكان وشتركوه. فلما صار الجو باردا، استقر رأى على أن يعضوا الشتاء فى نيسابور. أما غازان فقد مضاه فى "موهيدى" ومضاه الأمير بايدو فى موضع "شامكان" الذى يقع بين ييهق ونيسابور. ولقد اشتد البرد فى ذلك الشتاء، ونزل الثلج بغزارة فهلك أغلب الدواب، وبقي أكثر الناس مترجلين [ص ٢٦٧].

ولما حل ربيع سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م قضوا الصيف فى مناطق رادكان وخيوشان وشتركوه. وفى هذا العام كان الأمن مستتباً فى كل الجهات. وقد أحضروا الأموال من لدن أرغون، وقسموها على الجنود. بعد ذلك سار طوغان حتى منطقة بادغيس ثم عاد. وفى أوائل الصيف بسبب عدم توافر الميرة فى خراسان، صدر الأمر بأن يعود الأمير بايدو ومن كان معه من الجنود الذين كانوا قد ساروا من العراق وأذربيجان، وأن يلازمه "تورين". ثم قدم غازان إلى ناحية بام واريغان لتوديع بايدو، وعاد بعد ذلك.

وفى ذلك الصيف تغيرت نيات طائفة من القراونة، ودخلوا ولاية جوين، بتقديمهم "دانشمند بهادر"، وصاروا يعربدون ويخربون، فعين غازان الأمير "مولاي" لمقاومتهم واستمر غازان طوال الصيف والخريف يشتغل بالصيد والترهة فى منطقتي خيوشان

ورادكان. كما عهد إلى الأمراء بتنظيم الجيش، وإلى أصحاب الديوان بضبط الأموال وإعداد الميرة للجند. ثم أمر بقضاء الشتاء في "تزن باورد"، وإقامة سد على النهر الذي يدعى "كال تزن"، وعمر عدة قرى.

وفي ذلك الحريف، وصل المدعو "خوارزمي ترخان" من لدن أرغون خان لضبط شئون خراسان وتدبير الأموال في هذا الإقليم. كذلك أمر غازان بأن يباشر الجميع أعمالهم وفقا للفرمان السابق. وبموجب الفرمان أيضا أمر باعتقال نواب طوغان في قهستان وإحضارهم إلى الحضرة. وأما الكتاب والعمال في خراسان، فقد زوج بهم في السجن، وحقق معهم.

وفي آخر الشتاء شرع جمع من القراونة في التمرد في ناحية سرخس وساروا إلى جهة مرو [ص ٢٦٨]. ثم تحركت الرابات السلطانية إلى "وادي مرغه". وقد سير غازان "الإدونيوان" للقضاء على فتنة القراونة، فحاربهم إلى أن أخضعهم وألزمهم الطاعة. بعد ذلك أقام غازان مدة في ناحية "الرجاه" و"شوكان". ومن هناك سار إلى سرخس، ثم نزل "بقراته" التي تسمى "شيرسيل".

وفي شهور سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م وصل نبأ يفيد بأن "نوروز" سوف يصل قاصدا خراسان بجيش معد ضاماً ومعه ساريان وأيوكان أغول واوركتيمور وقواد يساوور. وكان سبب ذلك هو أن "نوروز" عندما هزم قبل ذلك في منطقة هراة، فر هارباً، وسار إلى قايدو^(١). وبعد أن قدم له خدمات كثيرة، التمس منه أن يمدّه بجيش فأجابه إلى طلبه وأرسل إليه جيشاً، وسير أيضاً ابنه "ساريان" على رأس جيش آخر لمساعدة نوروز. فما كان من غازان إلا أن أرسل "قبرتو" مع طائفة من القواد لاستطلاع الأخبار، فساروا إلى "مرغاب" ثم عادوا وقالوا: إن التمرد سوف يصل حقيقة على رأس جيش كبير.

(١) قايدو: هو ابن قاشي بن لوغكاي قاآن بن چنگيز خان (انظر جامع التواريخ: تاريخ خلفاء چنگيز خان من لوغكاي قاآن إلى تيمور قاآن: نقله إلى العربية الدكتور فؤاد عبد المعطى الصبيد، ص ٣٢١ - ٣٢٢، بيروت ١٩٨٣ رحلات ماركو پولو، ترجمها إلى العربية عبد العزيز توفيق جابوید، ص ٣٥١ - ٣٥٢، القاهرة ١٩٧٧؛ بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، ص ٧٠ وما بعدها الكويت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م الشرق الإسلامى، ص ٤٧).

ولما لم يكن جنود غازان مجتمعين، رحل الحاضرون منهم إلى موضع آخر حيث مرغانه وكشف رود، وصاروا ينتظرون حتى يصل الأمير قتلغ شاه والجنود الذين كانوا يمضون الشتاء في هراة. كذلك أرسلوا الأمير "كونغك" لاستدعاء جنود مازندران. وعندما وصلوا إلى "جسر معين" "بول معين"، استأذن الأمير مولاي، وسار إلى قهستان حتى يحضر الجنود من هناك. وكانت أخبار المتمردين تصل تباعا، فرحل غازان من هناك، [ص ٢٦٩]، ونزل في أعلى المشهد الرضوى، وظل في انتظار الأمير قتلغ شاه. وأثناء النهار وصل "قبان" احتجاجي من ناحية آذربيجان موقفا من قبل الأمراء الذين كانوا قد أثاروا الفتنة هناك، وقتلوا جوشي واوردقيا وسعد الدولة، ثم أرسلوا قبان حتى يضرم نار الفتنة في غراسان مع نفر من المفسدين. كذلك أخبر أن جيوش آذربيجان والعراق سوف تصل من لدن أرغون خان. أما غازان خان فقد عرف بما كان له من فراصة وكياسة - أن ما يقوله "قبان" احتجاجي كذب. ولكن لما كانت الأخبار تصل تباعا عن تحرك المتمردين، لم يتفحص حقيقة الأمر.

وفي اليوم التالي، وصل الأمير قتلغ شاه، وصرح بأن جيوش نوروز المتمردين، قد وصلت إلى رباط "سنگ بست"، فشملة غازان بعطفه، وألبسه قباهه الخاص، وأعادته ليلا كي يحضر الجيوش صباحا إلى الحضرة في موضع بلى المشهد المقدس، وذلك لحوض غمار المعركة. وفي منتصف الليل ورد نبا من الحراس يفيد بأن العصاة اجتازوا جسر معين "بول معين"، فاقتضى الرأي العالي أن يسير الجيش الأعظم ليلا بمعذاته مع الخواتين إلى "أسفرائين"^(١).

وفي صباح غرة ربيع الآخر سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م تحرك غازان من هناك. وكان في صحبته الأمراء: نورين آقا والإدو وابهورتاي غازان وغيرهم. ثم ارتحل إلى ناحية تقع أسفل المشهد الرضوى، ومكث هناك ساعة واستعرض الجيش، وظل منتظرا وصول الأمير قتلغ شاه كي يحارب المتمردين. وفي وقت الظهيرة قدم "جمجمة" من قبل قتلغ شاه، وقال:

(١) أسفرائين وتكتب أيضا أسفرائين: بلدة حصينة من نواحي نيسابور على منتصف الطريق من جرجان. واسمها القديم "مهرجان". ساءها بذلك بعض الملوك لحضرتها ونشأتها. وفيها أسواق وسباه جارية وخانات. وهواؤها رطب. وتكثر فيها الأعصاب والقملج. (انظر معجم البلدان، ج ١، ص ١١٧٧، الروض المعطار، ص ١٥٧، بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٣٤ - ١٣٥).

عندما وصلنا إلى "سنگ بست"، كانت الجيوش كلها قد سارت عن طريق "وجنك" و"اسحاقباد" إلى نيسابور [ص ٢٧٠]. وعلى أثره جاء الأمير قتلغ شاه إلى الحضرة. وبعد ساعة ظهر سواد الجنود. ولما كانوا كثيرين - على حين أن جنود هذا الجانب (أى غازان) كانوا قليلين - تشاور الأمراء فى الأمر، ورأوا أن المصلحة تقتضى بتجنب الحرب وعدم خوض غمار المعركة. كذلك صرح "إلادو" بقوله: إنه ليس من صالحنا مواجهتهم. ثم ضرب هذا المثل المغولى الذى يقول: "إن الالتحام بجيش العدو المتمرد أمر سهل؛ أما التخلص منه فأمر عسير". وأنتم تعرفون أياما كثيرة تجيئون فيها على أرغون. أما جواب هذا اليوم فعلى أنا".

وأخيرا استقر رأى المبارك على أن يترث الحاضرون، ويعودوا، ويرابطوا فى أحد المواقع حتى تتجمع الجيوش بأكملها. ومن هناك تحرك غازان إلى ناحية "رادكان"، فصار المتمردون يتعقبونه. وفى آخر النهار داهم غازان بقواته جنود المتمردين بالقرب من طوس وغاربوا. ثم ارتحل فى اليوم التالى، ورابط فى عدة مواضع. ولم يتصادف حدوث ذلك. ثم نزل فى "سلطان ميدان" ليلا، وارتحل صباحا. وقد عرض "إلادو" قائلا: "ما دام القتال ليس ميسرا. وقد سار أهلى وعشيرتى وأكثر الجنود إلى ناحية "جوين". فلو أذن لى قائدى، فإبنى سوف ألحق بهم. فصرح له غازان بذلك، وذهب "إلادو" إلى حال سبيله. كذلك قال: "رايتمور" والد "شيرين الكاجى": لقد ذهب أهلى وجنودى أيضا إلى ناحية نيسابور، فلأذهب، وأتى بهم. فعمضى هو كذلك. أما ابغورتاى غازان فكان يحب زوجته توزميش خاتون ابنة الأمير مباركشاه. وكان قد سيرها مع أهله إلى "كبود جامه". وفى نيته أن يأخذها وينضم إلى نوروز [ص ٢٧١]، فطلب هو أيضا الإذن بحجة أنه سوف يذهب إلى دياره حتى يعيى جنود مازندران، ويحافظ على تلك الحدود. فأذن له هو الآخر ورحل. أما الأمراء نورين آقا وقلغ شاه وسوتاي فقد ظلوا ملازمين للحضرة.

بعد ذلك تحرك غازان سالكا طريق أرغيان. وكانت أخبار الأعداء تصل تباعا. ثم توقف برهة فى مدينة إسفراین، ومر من هناك ونزل فى قرية "كسرغ"، من أعمال إسفراین وفى منتصف الليل علم نورين وقلغ شاه وسوتاي أن طائفة القراونة الذين كانوا فى "هزاره"، وجىء بهم إلى المعسكر كى ينضموا إلى "باتاي" يتوون إثارة الفتن. وقد تشاوروا

فيما بينهم، ثم استقر رأيهم على أن يتمردوا، ويعودوا أذراجهم. فعرضوا تلك الحال على غازان، ورأوا من الصالح أن يغادروا ذلك الموضع على أن يبقى الأمير قتلغ شاه ليوقف على حقيقة الأمر. ثم تحركت الرايات المباركة إلى ناحية "جورهد"؛ بحيث إن غازان وصل إليها في الصباح. ثم عاد ذلك الجمع من هناك، وهاجموا ديار "كوتجك" و"قتلغ خواجه" وبقية الحرس ونهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم، وانضموا إلى المتمردين. وكذلك كان جنود الأعداء يأتون في إثرهم حتى بلغوا "جورهد".

فلما وصل السلطان إلى هناك، أمر بترحيل أسر قاجير بن سرتاق وسوقار وسواتو والقراونة الآخرين الذين كانوا قد نزلوا هناك في ناحية جاجرم وبسطام^(١)، وأقام غازان هناك إلى آخر النهار. وعندما وصل الأمير قتلغ شاه، وعرض الأخبار عن وصول المتمردين نزل غازان في جاجرم حيث أقام تلك الليلة، وعاد نوروز من جديد. وإن ما حدث في تلك السنة بخراسان من ضروب القتل والسلب والتخريب ليفوق حد الوصف والبيان؛ فلقد حاصروا مدينة نيسابور، ولكن يمين غازان وإقباله، وقى الحق تعالى هؤلاء المسلمين شر الكفار^(٢) [ص ٢٧٢] فلم يسيطروا عليهم. لكنهم مع هذا أغاروا على القرى، وأسروا كثيرا من السكان. ثم قصد المتمردون "بارونقي" من نواحي نيسابور، حيث يوجد محاربون أشداء.

ولما كان الموضع حصينا للغاية، لجأ كثير من الناس إليه بأموالهم ودوابهم. ثم ذهب المتمردون إلى أحد الوديان، فحاصروهم السكان وسدوا عليهم الطريق من فوقهم، وقتلوا ما يقرب من ألف فارس من الكفار. ثم عاد المتمردون من هناك، وذهبوا إلى مشهد طوس وانتزعوا أربع كرات فضية، كانت قد وضعت كحلية في أعلى الضريح. ولقد قتل الأهالي

(١) بسطام أو بسطام: بلدة بتومس على جادة الطريق إلى نيسابور بعد دامغان بمرحلتين. منها أبو يزيد البسطامي الزاهد. وبها فتاح جيد يعمل إلى العراق. (معجم البلدان، ج ١، ص ٤٢١). انظر كتاب بسطام ويازيد بسطامي نكارش اقبال بعلاني، ص ٨، ص ١٧، تهران ١٣١٧ هـ.ش).

(٢) من الملاحظ هنا أن رشيد الدين يطلق على غازان ورفاقه اسم مسلمين ويحذر أعدائهم كفارا. هذا على الرغم من أن العكس هو الصحيح؛ إذ إن غازان وأتباعه كانوا يدينون بالبوذية في ذلك الوقت. أما عدوه نوروز فكان يعتنق الإسلام.

كثيرا من هؤلاء الجنود؛ بحيث إن الأعداء عندما وصلوا إلى حدود بادغيس^(١)، واستعرضوا الجيش، لم يجدوا ما يقرب من خمسة آلاف فارس. ولهذا السبب اعتبروا "توروز" مذنباً ومقصراً، وضربوه بالعصا.

وفي اليوم التالي ارغلت الرايات الملكية عن طريق بسطام ودامغان. وكان جميع الأمراء قد علموا بوفاة أرغون، ولكنهم يخفون ذلك عن غازان. فلما وصل إلى بسطام، أقام بها يوماً؛ لأن الخواتين كن هناك. ثم اتجه إلى دامغان. وكان قبل ذلك قد أرسل "أيشقا" أخا إلدو برسالة إلى حضرة أرغون، ولكن لأنه كان قد سمع بوفاة، توقف في دامغان. وكان جميع سكانها قد خرجوا من المدينة، ومضى بعضهم بصحبة "شاه ابلدوز" إلى "گردكوه"^(٢) وبعضهم إلى حصن "دين مايان"، وهو مكان حصين. ولهذا السبب عاد "أيشقا" من دامغان [ص ٢٧٣]، ووصل إلى الحضرة في بسطام وعرض على غازان أحوال سكان دامغان. وعندما وصلت الرايات السلطانية بدامغان، لم يتقدم لاستقباله مخلوق قط، ولم يكن الأهالي قد أعدوا الهدايا والعلف والميرة، فغضب عليهم غازان. ولما كان الأكابر والأعيان هناك في حصن مايان، أمرهم بالخروج، فأبوا، فأمر بمحاصرتهم. وبعد حرب استمرت ثلاثة أيام بلياليها، طلبوا الأمان، ودخلوا في الطاعة وأعطوا غازان أموالاً كثيرة من النقود والأمتعة وقدموا للجيش المؤن والأبقار والأغنام، فصنع غازان - لفرط عطفه ورحمته - عن ذنوب هؤلاء المجرمين. ثم أشار بتخريب القلعة. وبعد جلوسه المبارك أمر بتعميرها.

(١) بالانغيس أو بادغيس: عبارة عن بلدات وقرى كثيرة ومزارع بنواحي هرات. وأصلها بالفارسية "بادغيز" أي قيام الريح أو هبوب الريح لكثرة الرياح فيها. (تقويم البلدان ص ١٤٥٤ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٥٦).

(٢) گردكوه: قلعة تقع على بعد ثلاثة فراسخ من دامغان في وسط الجبل براها الوقت بدامغان. ويطلق على هذه القلعة أيضاً اسم "دز گنجبدان" أي القلعة الثنية. ويعرف رستاقها الحصب ينتصرون آباد، وزراعتها وعصولاتها وفيرة. وگردكوه إحدى قلاع الإسماعيلية التابعة التي كانت تسيطر عليها طائفة الإسماعيلية في إيران. وقد قاوم المدافعون عن هذه القلعة قوات للنول بقيادة هولاء مقاومة عنيفة استمرت ٤ رين سنة إلى أن سقطت في أيديهم في عهد أبا قاسم (انظر جامع التواريخ، جلد سوم، متن علمي والتقاضي فارسي يسعى واعتماد عبد الكريم على لوغلي على زاده، ص ٣٥ - ٣٦، باكوي ١١٩٥٧ نزعة القلوب، ص ١٢٠١ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٠٥، وللوقوف على مزيد من التفاصيل من التطور التاريخي لهذه القلعة انظر كتاب "قلاع إسماعيلية در رشتة كوهای البرز، تأليف دكتور منوچهر ستوده، ص ١٤٦ وما بعدها، تهران ١٣٤٥ هـ.ش).

بعد ذلك سار إلى ناحية سمنان. وخلال تلك الأحداث، كان معين الدين مستوفى الديوان الأعظم، وجمع من الكتاب يسرون إلى نيسابور فقبض عليهم، وسبقوا إلى الحضرة فلم يلتفت إليهم غازان إلى أن صدر الأمر باسترداد المراسيم (برليغها) والأختام الحمراء (آل صفها) التي كانت في عهدهم. ثم أذن لهم بالانصراف، فانصرفوا.

وعندما وصل غازان إلى سمنان، شاور الأمراء، فأحاطوه علما بوفاة والده أرغون. فقدم الأمير مراسم العزاء. وجريا على عادة المغول أمر بانتزاع الريشة من قلائس الحاضرين. ثم قدم الأمير "مولاي" من قهستان إلى سمنان عن طريق الصحراء، واتضم إلى الحضرة فاخصه غازان بأنواع العطف والرعاية. ثم صدر الأمر بتزويجه من شقيقة الأمير ساتلمش. ولما عاد "ايغورتاي غازان" من "سلطان ميدان" متجها إلى "كبود جامه"^(١) وجرجان كانت ترأوده فكرة فاسدة؛ فاصطحب معه "ترميش"، وقدم حتى حدود "سلطان دوين" واستراباد وصاح قائلا: إن تلك الولاية ملك قابلو [ص ٢٧٤] وصار يشق على جنود المغول الذين كانوا يقيمون في تلك المناطق، وبدأب على إثارة الفتن. ولما لم يكن كبار الأمراء حاضرين، اتفق سايفان إياجي وماملق وآخرون، وهجموا عليه فجأة، وطاردوه من هناك، وصاروا بتعذيبه حتى أخرجه من حدود جرجان وكبود جامه. فهام على وجهه مع نفر قليل ومضى إلى حال سبيله. وكان قبل ذلك يشق كثيرا على جماعة السادات والأهالي والرعايا في مشهد طوس. والسلام.

(١) كبود جامه: ولاية توجد وراء مدينة استراباد التي تقع في إقليم جرجان قرب حدود مازندران. وفي كبود جامه بكسر الحاء والقصر والقصر. وهي كثيرة القنى والخصرا إلا أن الحراب لحق بها في حروب تيمور في المائة الثامنة (الرابعة عشرة). (نزهة القلوب، ص ١١٩٩ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤١٦).

مكايبة

أحوال غازان خان بعد وفاة أرغون خان حتى وقت رحيله إلي ناحية آذربيجان في عهد گيخاتو خان ثم عودته من تبريز إلي خراسان

بعد ذلك مكنت الراهبات السلطانية عدة أهام في سمنان. ثم تحركت نحو فيروزكوه^(١) وسار حتى حدود دماوند بالقرب من ميسان حيث أقام عدة أهام. وهناك أنجبت بلغان خاتون الخراسانية ولدا لكنه توفي. ثم قدموا إلي فيروزكوه. وقد ورد نيا يفيد بأن گيخاتو قادم من الروم. أما الأمراء الذين أثاروا الفتنة في المعسكرات فقد تفرقوا، وانضم بعضهم إلي گيخاتو، ووافق بعضهم "بايدو". وقد فر "طوغان" من بينهم، وقدم إلي خراسان. ولهذا السبب أمر غازان باعتقال "مولاي" وسجنه. وعندما ورد نيا اعتقال طوغان، أطلقوا سراح مولاي بشفاعاة الأمراء.

ولما تحقق نيا اعتلاء گيخاتو^(٢) العرش، أوفد إليه غازان الأمير قتلغ شاه برسالة، عرض فيها أحوال التخريب في خراسان، وشئون الجيش هناك. ثم أرسل الأمراء "هورقداق" و"قرا بن جاورجي" [ص ٢٧٥] وقلع تيمور وآخرين إلي خراسان. وفي صيف سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م بموضع "أسيران" الواقع بين فيروزكوه وسمنان والذي يدعى مصيف "نكاتو" كان غازان يشتغل دائما بالصيد والأخذ بأسباب الثعنة. هذا على حين أن أصحاب الديوان كانوا

(١) فيروزكوه: قلعة حصينة في جبال غرجستان بين هراة وغزنة اتخذها المغوليون عاصمة لهم. وقد استمروا في الحكم إلى أن اكتسح المغول بلادهم، وسقطت عاصمتهم في يد چنگيز خان سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م بعد أن أنزل بها الحراب والدمار (انظر معجم البلدان، ج ٤ ص ١٢٨٩ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٥٩).

(٢) كان التقليد يقتضى اعتبار الأكبر سنا لخلافة الإبلغان للتوفى؛ لكن الأكبر سنا يمكن أن يكون الأخ الأكبر للمتوفى. وبما فعل كان گيخاتو خان هو الأخ الأكبر لأرغون والد غازان. كما يمكن أن يكون أكبر أبناءه. ولم يكن هناك عرف محدد متى ينبغي إحلال الجبل الأصغر محل الجبل الأكبر في تعاقب السلطة. وكان المعتاد أن يتنصر الأكفأ والأقدر على فرض نفسه وسيطرته في حالة تقدم اثنين كمرشحين لتول السلطنة. ويتم ذلك الاحتكام إلى السلاح. (انظر دوروثيا كرفولسكى: العرب وإيران، ص ١٩٢ - ١٩٣، الترجمة العربية، بيروت ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م).

يقومون بجمع المؤن للجنود وتدبير أموال الولاية. وقد وصل الأمير قطع شاه إلى حضرة
 گيخاتو في أران، وعرض عليه حقيقة الأوضاع في خراسان. ونظرا لاشتغال گيخاتو
 بالنتعة والبهجة واللهو والأنس، لم يعبأ به كثيرا، فرجع هو أيضا من حيث أتى، وقدم إلى
 حضرة غازان. وبعد ذلك حلت الرابات السلطانية بناحية دامغان وبسطام. ثم هناك اتجهت
 إلى كالبوش، وأرسلت "قتلغ خواجه" و"لالا" إلى ناحية بيهق لاستدعاء "نظام الدين يحيى".
 لأن هذا الشخص قد جاوز حده كثيرا بخراسان؛ إذ قتل جمعا من الأكابر رغم أنهم كانوا
 تابعين له، واغتصب من الناس أموالا طائلة ولهذا ظل متوجسا خيفة، وتقاعس في الجي. بعد ذلك دخلت الرابات السلطانية جرجان عن طريق قلعة "جناشك"، وقضت ذلك الشتاء
 في "سلطان دوين استراباد".

ولقد أرسل گيخاتو إلى غازان عن الأمير النجل أنبارجي والأمراء "دولاداي"
 و"قونجيقبال" و"هلمتور" لإمداد جيش خراسان، فحفظوا بشرف المثل أمام حضرة غازان في
 "سلطان دوين". ثم صدر الأمر بأن يمضوا الشتاء في ناحية "قرا توغان". وفي أواخر الشتاء
 أشيع أن "توروز" قدم إلى نيسابور قاصدا "جوين" حتى يخرج نظام الدين يحيى [ص ٢٧٦]
 من قلعة "أندمد". ولما كان الجو لا يزال باردا والدواب هزيلة، تحركت الرابات السلطانية
 إلى "كالبوش" حيث مكثت عدة أيام. ثم أرسل غازان الجواسيس إلى الأطراف والنواحي
 وزحف مع عدد قليل ناحية "جوين" ثم رجع. بعد ذلك عادت الرابات الملكية إلى جرجان
 حتى تسمن الدواب.

وفي أول ربيع سنة ٦٩١ هـ / ١٢٩١ م سير غازان الأمير "أنبارجي" مع الجنود الذين
 كانوا قد قدموا معه، وذلك عن طريق "دهستان" و"بارز" و"نسا" و"آبيورد"، وأرسل معهم
 "هورافدائي" لإعداد المؤن وما يحتاج إليه حتى لا يجوروا على البلد ويغربوه. كذلك
 تحركت الرابات السلطانية. وفي تلك السنة حلت بخراسان ضائقة شديدة بسبب القلاقل
 والاضطرابات؛ بحيث تعذر وجود من من الغلة بمائة دينار، فعين غازان الصاحب الأعظم
 الخواجه سعد الدين علي رأس أصحاب الديوان لإعداد المؤن للجنود، وتدبير الأموال في
 خراسان ومازندران والري. وفي تلك الرحلة، كان طعام أكثر الجنود من لحوم الصيد. بعد
 ذلك نزلت الرابات السلطانية على ضفاف نهر هرة الذي يسمى "جوقجور". وبسبب
 غزارة المياه عبروا بمشقة بالغة. ثم سار إلى الحضرة الأمير النجل "أنبارجي" وأمراء العراق.

بعد ذلك وصل نبالاً من الحراس يفيد أنهم رأوا ظل المتمردين. فرحلت الرايات السلطانية إلى ناحية بادغيس، وأقامت في "بولداق بادغيس"، فأرسل غازان الجواسيس إلى الأطراف ولكن لم يكن هناك أثر أو خبر عن العصاة في موضع قط. ولأن مؤن الجند قد نفذت صار الجنود يسرقون غيول بعضهم البعض [ص ٢٧٧] وبأكلون لحومها. وبسبب عدم وجود الأغذية وقعوا في مشقة بالغة. وهنا ذكر الأمراء أنهم على مقربة من هراة حيث توجد مناطق ينضج فيها الشعير، وأنه من المصلحة أن يذهبوا إلى هناك. وعلى هذا رحلوا قاصدين تلك الجهة، ونزلوا على جسر مالان "بول مالان". ولكن صدور هراة وأكابرها لم يكونوا في المدينة بسبب الفتنة والاضطرابات. وكان الملك "شمس الدين كرت" يقيم في قلعة "غيسار". ومن المعروف أن هذا الملك كان قد سجن ابنه الأكبر "فخر الدين" ^(١) بسبب تأله منه وغضبه عليه. أما ابنه الأصغر "علاء الدين"، فقد أرسله إلى حضرة غازان ليكون ملازماً له.

ولما كانت ولاية هراة قد خربت بسبب المتاعب والأضرار التي نتجت عن عبور الجيوش، ولم يحدث فيها عمران، عطف غازان على الأهالي هناك، ولم يشق عليهم. أما سكان فوشنج ^(٢)، فلأنهم كانوا قد لجأوا إلى القلعة عندما وصلت إلى هناك جيوش العراق، ولم يقدموا المؤن المطلوبة، وشنوا الحرب، غضب عليهم غازان بسبب تصرفهم هذا وأصدر أمراً بمحاصرة القلعة، واستولى الجنود عليها بمشقة بالغة، وأخرجوا منها الدواب والثيران والأغنام والمؤن الوفيرة، وأسروا أغلب السكان هناك.

وعندما غادرت الرايات السلطانية هراة، وصلت إلى فوشنج. وهنا عرض سكانها ضعف حالهم؛ فعطف عليهم غازان، وأصدر أمراً بإطلاق سراح نسائهم وأطفالهم الذين كانوا قد أسروا، وطيب خاطرهم. ثم ركب بطالع السعد، وقدم ناحية رادكان. ولأن كغيخاتو لم يرسل أموالاً إلى جيش خراسان، احتشد هناك جنود كثيرون، وتعرضوا لكثير من

(١) انظر كتاب الشرق الإسلامي، ص ٢٨٢.

(٢) فوشنج أو بوشنج: مدينة بينها وبين هراة عشرة فراسخ. وتقع في وادٍ كثير الشجر والقواكه. وهي تنتج العنب بأنواعه الكثيرة للعددة. وأكثر خيرات مدينة هراة مجلوبة منها، وطواحينها كلها تعمل بالهواء. ومن هذه المدينة خرجت طائفة متميزة من أهل العلم. (معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٥٢ - ٤٥٤ نزعة القلوب، ص ١٨٨).

المشقات والمتاعب؛ فصمم غازان على التوجه إلى جيخاتو، ليسين له حقيقة الأوضاع مشافهة، ولكنه عدل عن عزمه، وقدم إلى "شركوه".

ونظرا لانقطاع أخبار العصاة، ونفاد المؤن، استأذن جنود العراق وأذربيجان في الانصراف. ثم أمضى غازان الصيف في شركوه وشيد بها "جوسق مراد"، [ص ٢٧٨] ولم يكن السلاطين قد أقاموا عمارة في تلك الجهات. وفي هذه الأيام وصل نبأ يفيد أن الأوغاد والسفلة (رنود وأوباش) قد اجتمعوا، وقتلوا أولاد ملك زوزن^(١)، وطائفة من عظماء تلك الولاية، واستولوا على إحدى القلاع؛ فصدر الأمر بأن يسير الأميران سوتاي ومولاي للقضاء على هؤلاء المجرمين. وعندما اقتربا من القلعة، كان شاه علي ابن ملك سجستان قد جاء من قهستان طمعا في الاستيلاء على "خواف"، وقام بحصار القلعة فداهمه الأميران فجأة، وقتلا أغلب أتباعه، وسطوا على أموالهم ودوابهم. غير أن شاه علي خلع نفسه بصعوبة بالغة، ولاذ بالفرار. وبعد ذلك أخضع الأميران المقاتلين في تلك القلعة، وقتلا المشاغبين ومثري الفتنة، واستمالا الرعية ثم عادا.

وفي شعبان سنة ٦٩١هـ / ١٢٩١م صدر الأمر باعتقال "علي عماد الدين" خطيب نيسابور الذي كان رجلا عظيما، غير أنه كان يتدخل لصالح نوروز، وكثرة الحديث عنه اعتمادا على صيته؛ فأحضره من نيسابور وأعدموه. وفي ذلك الصيف لم تحدث وقائع تذكر. وعندما دخل الشتاء أمضاه غازان في "سلطان دوين استراباد". ثم أوفد الأمير نورين إلى سمنقان وشقان.

وفي أوائل الربيع أشيعت أخبار عن ظهور المتمردين، فتحركت الرابيات السلطانية إلى ناحية جرجان و"شهر نو" و"مورجا باد". ثم وصل الأمير "تورين" إلى حضرة غازان. وفي أوائل شهر سنة ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م رحل من هناك، ومكث عدة أيام في "سمنقان" وأرسل الجواسيس إلى مختلف النواحي. وقد اتضح أن الأنباء عن ظهور المتمردين كانت كاذبة. ومرة أخرى راودت غازان فكرة العودة إلى ناحية أذربيجان. والسلام.

(١) زوزن: بضم أوله وقد يفتح: كورة واسعة بين نيسابور وهرات وبحسبونها في أعمال نيسابور. وهي نقطة مهمة في نظام الطرق. ومن أعمالها مائة وأربع وعشرون قرية. وفيها بيت نار للجموس. كانت زوزن تعرف بالبرة الصغرى لكثرة من خرجت من الفضلاء والأدباء وأهل العلم. (معجم البلدان، ج ٣، ص ١١٥٨ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٣٩٨).

حكاية

توجه غازان إلى ناحية ألتاغ^(١) بقصد مقابلة گيخاتو

ثم عودته من تبريز وهزيمة نوروز

تشاور غازان مع الأمراء، وعقد العزم على الرحيل إلى آذربيجان وكلف الأمير الكبير "قتلغ شاه" وبقية الأمراء بالمحافظة على خراسان ثم عاد من سمنقان. وكان في حضرته الأمراء نورين وساتلمش وسوتاي؛ الذين دخلوا عن طريق "شهرک نو" ومازندران. كذلك قدم إلى حضرة الأمير قتلغ شاه، وسار حتى موضع "تميشه" حيث يقيم غازان. وفي هذه البلدة تزوج الأمير قتلغ شاه من ابنة "جيرغوتاي"، وعاد بعد ذلك. أما الرايات السلطانية فقد سارت من تميشه حتى شوريل من نواحى مازندران؛ حيث كان المعسكر المعظم. وقد قطع غازان في ليلة واحدة ما يقرب من واحد وثلاثين فرسخا. وحدث أن أحد زعماء مازندران خاف ولم يحضر إلى الحضرة؛ فاتهم بالثمرد. ولكن غازان لم يعبأ بذلك وعقد العزم على الرحيل إلى العراق وآذربيجان، وسلك طريق "شاه دز" متجها إلى "فمروزكوه" وأقام عدة أيام في دماوند. ومن هناك عهد إلى الأمير "ساتلمش" والحواجة سعد الدين بتحصيل أموال خراسان ومازندران وقومس والرى وإدارة شئون تلك المناطق والمحافظة على الولايات وتعيين مؤن الجند. ثم توجه غازان إلى تبريز، وكان نورين آقا يرافقه. وقبل ذلك سير "بغميش" إلى گيخاتو للإعلام بوصوليه، ثم عاد إلى منطقة أبهر، وصرح بقوله: "إن گيخاتو يتساءل: ما الداعي إلى مجيء غازان؟... كان ينبغي أن يعود إلى خراسان، وأن يرسل جماعة من قبله لإنجاز المهمات، وتقديم اللتمعات. فكان رد غازان: "حيث إننا وصلنا إلى هنا، كيف نعود، دون أن يرى الواحد منا الآخر؟!"

وعلى هذا توجه غازان إلى تبريز، وسير الأميرين "إلادو" و"مولاي" لتصريف المهمات وتوجه هو إلى تبريز. وعند قطرة زره [ص ٢٨٠] وصل إلى الحضرة السادة: نجيب وعنبر وريحان من خواص أرغون خان وعندما وصل غازان باليمن إلى تبريز، مكث عدة أيام.

(١) ألتاغ: تكتب أيضا "الاطاغ". وفيها تكثر المياه، ونجد مزارع العلف، وتعدد مناطق الصيد. وقد أقام فيها أرغون خان قصرا كان يضي فيه أكثر أيام الصيف. (نزهة القلوب، ص ١١٨).

وكان رسل جيخاتو يصلون تباعا كى يعود غازان. وفى نهاية الأمر وصل "كمجو" و"باردو"، وصرحا لغازان بقولهما: "إن كيخاتو يأمرك بالعودة أيضا فى نفس هذا اليوم. وقد أرسل إليك هدايا قليلة. فلم يلتفت إليها غازان، ورد عليهما قائلا: "حيث إن جيخاتو لا يريد لقاءنا فنحن أيضا لا نريد لقاءه مائة مرة".

بعد ذلك غادر غازان تبريز بطالع السعد، وأقام فى "بوز آغاج" حيث تزوج من "أشيل خاتون" ابنة الأمير "توقتمور". وهناك أقام حفل الزفاف. وقد وصل إلى الحضرة الأمير "محمد ابداجي" الذى كان على رأس إمارة إصفهان، فقدم الهدايا اللاتقة، وحظى بأنواع الرعاية والتكريم، وصار ملازما لغازان^(١).

وبعد شهر توجهت الرايات السلطانية إلى خراسان. وفى مدينة "أبهر"^(٢) تقدم إلى الحضرة الخواجة^(٣)، وطاقتة من الرسل الذين كان أرغون خان قد أرسلهم إلى حضرة القاآن^(٤) لإحضار إحدى قريبات بلغان خاتون الكبرى كى يتزوج منها^(٥)، فجاءوا بـ "كوكاجين خاتون" مع هدايا أخرى خطائية وصينية تليق بالملوك. وكان غازان مقيما فى "أبهر" فتزوج من "كوكاجين"^(٦). وبعد إتمام مراسم الزفاف، أرسل إلى جيخاتو هدايا، كان من بينها بير وعدة أشياء أخرى.

بعد ذلك سار إلى ناحية دماوند. وعندما نزل عند حدود فيروزكوه، وصل رسل الأمير قتلغ، وبشروه قائلين: "لقد حاربنا (نوروز)، فاندحر، وفر منهزما وراجلا إلى جبال نيسابور. وقد استولى جنودنا على كل الأموال والدواب والخيول المحملة بالأدوات والثياب. وعلى أثر ذلك تحركت الرايات السلطانية إلى دامغان وبسطام. وإلى بسطام وصل الأمير

(١) أبهر: مدينة مشهورة بين قزوین وزنگیان وهماذان من نواحی الجبل. (معجم البلدان، ج ١، ص ٨٢).

(٢) هكذا فى المتن.

(٣) المقصود به قوبلاي قاآن الذى كان يحكم فى مدينة بكين عاصمة الصين (انظر جامع التواريخ تأليف رشيد الدين فضل الله الهمداني: تاريخ خلفاء چنگيز خان من اوتغكاي قاآن إلى تیمور قاآن الترجمة العربية، ص ٢٣٦ وما بعدها؛ إسیر طوری صحرا نوردان، تأليف رنه كروسبه ترجمة عبد الحسین ميكنده، ص ٤٨٧ وما بعدها جاب سوم، تهران ١٣٤٨ هـ.ش).

(٤) انظر الشرق الإسلامی فى عهد الایلخانیین (أسرة هولاكو خان) ص ١٩٧ - ١٩٩٩.

(٥) لأن أباه أرغون كان قد توفى.

قتلغ شاه والأمراء فأنعم عليهم غازان بالغنائم التي غنموها، واختصهم بأنواع الرعاية والتكريم [ص ٢٨١]. ومن هناك دخلوا جرجان عن طريق خرمابه.

بعد ذلك نزل غازان "بسلطان دوين استراباد"، وصار يمارس ضروب المتعة والصيد. وبسبب إفراط الأمير قتلغ في الشراب، اعتراه مرض شديد؛ فلأزمه الأطباء وفقاً للأمر الصادر إليهم، حتى استرد صحته، وصارت كما كانت من قبل. ومنذ ذلك الوقت أقلع عن الشراب. وحتى وقتنا هذا لم يحسن الشراب أبداً.

أما عن "كيا صلاح الدين" فقد نحاشي مقابلة غازان عندما حل هو ومرافقوه بولايته وهم يقصدون آذربيجان. وبعد أن عاد غازان من تبريز، ومثل بين يديه "كيا صلاح الدين" في الري وتشفع له الأمراء الآخرون، عفا عنه. ولكنه عندما عاد إلى ولايته، رجع إلى العصيان مرة أخرى؛ فكلّف غازان الأمير "سوتاي" بالقضاء عليه، فذهب هذا، وأعدمه وأحضر من هناك مالا وفيرا ودواب عديدة، فوزعها غازان على الجنود. وفي ذلك الشتاء كانوا في مازندران، ولم ترد أخبار من أية ناحية.

بعد ذلك تحرك في الربيع إلى ناحية دماوند، ثم سار عن طريق "چهار ديه"، ومكث شهرا في دامغان. ثم غادرها إلى فيروزكوه عن طريق "سلطان ميدان". وأمضى الصيف في دماوند. ومن هناك أرسل قائدين من قواد الجيش هما مولاي وهورقداق إلى خراسان فأبلغاه نياً يفيد أن أهل نيسابور ينوون الخروج عن الطاعة، وليسوا مشغولين بالرحيل، فلم يعبأ غازان بذلك. ومن غاية لطفه القبطي، سير الرسل منذرين بالوعد والوعيد. ولكن دون جدوى؛ فتحرك بنفسه إلى تلك الجهة، ووصل إلى هناك في ذي القعدة سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م، ونزل في "موبدي". ثم أرسل الخواجه سعد الدين إلى المدينة ليحضر أهلها فاستطاع هذا بتصالحه ومواعظته أن يعيدهم إلى جادة الصواب، لأنه ليس من المستساغ أن يقتل الأتباع المخلصون القدماء بواسطة جرائم حفنة من المفسدين. وعندما ذهب الخواجه سعد الدين إلى المدينة تقدم إليه القاضي صدر الدين والبهلوان عمر وأعيان نيسابور وقالوا: "نحن نفكر في أرواحنا. فإذا تعهد الخواجه بأن يعطينا الأمان، فإننا سوف نخرج" [ص ٢٨٢]، ونؤدى فروض الطاعة. فقبل الخواجه أن يعرض الأمر على الأمير غازان وقال لهم: "سوف أعمل ما في وسعي حتى لا يصيبكم أذى. كذلك خرج من المدينة

القاضي صدر الدين واليهلوان عمر مع طائفة من السكان، وتقدموا إلى الأمراء الكبار فأرسلوهم إلى الحضرة. وكان غازان قد رحل من "مويدى" وحل بنيسابور، وصرح قائلاً: "لن ندمر ملكنا ورعيتنا بسبب حفنة من الفوغاء؛ فينبغي أن يسلموا طائفة المفسدين ومثیری الفتن وهم: فخر الدين الرئيس وحسام الدين أبيك الخطائي، أبو بكر على عايشه وعثمان مشكاني ومحمد عبد الملك. وعلى السكان أن يؤدوا الخراج بصدق وأمانة؛ حتى نعود من هنا في أمن وسلامة. ولكنهم ماطلوا في تسليم تلك الجماعة. وصدر الأمر بمحاصرة نيسابور فلجأ أهلها إلى مسجد حصين، ودخل الأمراء عليهم، كل منهم من ناحية. ولما طوقهم الجنود، عجزوا عن المقاومة بسبب خوفهم وفزعهم. ثم نهب الجند الأحياء والأزقة وقصدوا المسجد، ونقبوا عدة أماكن فيه، وتسلقوا الجدران؛ فصاح هؤلاء المساكين، وطلبوا الأمان. فصلى غازان عنهم لفرط رأفته وشفقته. وذلك على الرغم من كثرة ذنوب المتعدين، ورغم أن بعض الناس الأبرياء قد قتلوا. كذلك أشار غازان على الجنود بالكف عن السلب والقتل.

ولكن لما كان الجنود قد هجموا مرة واحدة، لم يتيسر منعهم. وعندئذ ركب غازان خان بنفسه المباركة، وتجول في المدينة، وقتل واحداً أو اثنين من التوتيجية، كما أمر بتعليق أعضائهم على البوابات.

وبهذا خاف الجنود وارتدعدوا، وكفوا أيديهم عن القتل والنهب. وقد اعتقل الجماعة المذكورون الذين أثاروا الشغب والفتنة وأعدموا، ولم يسمح لغازان بإخراج دابة واحدة من تلك الولاية. كذلك استمال الرعايا، فأمنوا على أنفسهم، واتجهوا إلى التعمير والزراعة. بعد ذلك تحركت الرايات السلطانية إلى ناحية جرجان وقضى غازان ومرافقوه ذلك الشتاء في "سلطان دوين استراباد". والسلام.

خضوع نوروز، ودخوله فى طاعة حضرة غازان مرة أخرى، وإقامة الولائم والحفلات وتقديم الهدايا

فى أوائل المحرم سنة ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م، وصل غلام "نوروز" موفداً من قبله إلى غازان خان، وذكر أن "نوروز" يقول: "إبنى عبد وابن عبد قديم. ولكن بسبب افتراء الجنشين من الناس وبهتانهم شردت نفسى عن الخضوع للحضرة؛ فإذا عطف على غازان، وصفح عن ذنبى، وعفا عني، وتناسى جرمى؛ فإبنى سوف أتوجه إلى الحضرة ثم أرحل على أن أقوم بتنفيذ شروط العبودية.

ونظراً لكمال شفقة السلطان وعدله، تجاوز عن ذنوب نوروز وقبل عذره. كما شرفه بأجوبة سلطانية كريمة. وفى نهاية الرسالة التى عرضها "ساتلمش" على غازان، جاء فيها: "إذا تلطف السلطان، وأرسل جنداً على سبيل المدد إلى منطقة "مروجوق"، فإن العبد سوف ينضم إليهم بعد مفارقتهم هذه الجماعة. وإذا تعقبهم أحد، فسوف يكونون مدداً للقضاء عليه؛ وذلك حتى أنال شرف العبودية بفضل إقبال السلطان. فأجاب السلطان غازان: "حيث إنه الآن فصل الشتاء وليست هناك أخبار واردة من الأطراف والجوانب، فإبنى سوف أتمرك بذاتى المباركة إلى تلك الجهات باسم الصيد". ثم خص ساتلمش بأنواع التكريم والرعاية، وقتل راجعاً.

وكان جواب الرسالة هو أنه ينبغي على نوروز أن يكون عند كلمته. ثم سار السلطان باليمن والبركة. وكان فى ركابه الأميران الكبيران: نورين وقتلغ شاه آقا. وعندما بلغ ولاية "بازر" فى موضع "كوشك"، ووصل من قبل نوروز أخوه "حسين حاجى" وانجبل بن جاردو بهادر لنفس الغرض الذى كان ساتلمش قد جاء من أجله شملهما الأمير النجل بعطفه. ثم سار من هناك حتى سرخس. وبعد أن استراح، رحل متخذاً طريق "دالان قودون".

وعندما خرج الجمع من بين الجبال [ص ٢٨٤] والتلال، وظهرت فى صحراء مرو وشبورغان الديار والحياض والدواب، صدر الأمر بأن يتفحص أمرهم "باوداى" الذى كان

أميرا للمشرفين على تعبئة الجبوش. وقد عاد بعد مدة ومعه سائلمش غلام نوروز، فعرضا معا على غازان قائلين: إن نوروز قد نزل هناك ينتظر وصول الرابات السلطانية؛ فوقف السلطان فوق ربوة فما كان من نوروز والأمير النجل طغان إلا أن أسرعا، فوصلا إلى الحضرة، وتشرفا ببقاء غازان. وقد مكث السلطان ثلاثة أيام في تلك القرية، وأقيمت الولائم والأفراح.

ولما كان العمار بعيدا والشراب قليلا، أمر السلطان بأن يقيموا مراسم الصلح بتبادل كتوس الماء. وهناك أمر بإقامة ناد يطلق عليه المقول اسم "أوبا". وعفا عن ذنوب نوروز وخصه بأنواع الرعاية والتكريم. ثم عاد إلى ناحية "مروجوق"، وساروا إلى طريق "شاخ". وقد اعترى "بورين آقا" ألم شديد جدا في قدمه، وتحمل في تلك الرحلة مشقة بالغة. وقد انضم إلى الحضرة أمراء جيش القراونة "توغاي" وآخرون. ثم رحل غازان عن طريق "اندخوى"، وتشرف بالثول بين يدي الحضرة أبناء عمر أغل ابكو وآخرون. ثم سار إلى طريق فارباب، واشتبكت طلائعه بطلائع المتمردين، وقتلت منهم كثيرين، وقبض على بعضهم وسبقوا إلى الحضرة. وعندما سئلوا عن الأحوال، ذكروا أن جيش المتمردين يوجد في فارباب وجوزجانه. وعندما نزل بفارباب ترك المتمردون الخزائن والأمتعة والجنود الذين عجزت دوابهم عن السير هناك.

بعد ذلك تحرك غازان إلى ناحية شبورغان حيث الطريق مقفر للغاية، ولا ماء فيه. وأخيرا وصل ليلا بالقرب من تلك المنطقة في موضع "اينجكه سو" وأمر بالآل يشعل أي مخلوق نارا حتى لا يعلم المتمردون بوجودهم، وأن يهاجموهم فجأة عند الصباح. فعلم المتمردون [ص ٢٨٥] أن الرابات السلطانية قد وصلت إلى فارباب، فعداوا وخرجوا إلى طريق صان وجريك. ثم نزل الجيش المنصور عند وادي نهر شبورغان. وصدر الأمر بأن يتعقب المتمردين الأمراء الكبار قطع شاه والآخرون، وأقامت الرابات السلطانية في تلك المناطق. وأما جنود القراونة الذين كانوا قد التجأوا إلى أماكن حصينة خشية المتمردين فإنهم قدموا جميعا إلى الحضرة. ثم ساروا إلى ناحية سرغس بناء على الأمر الصادر إليهم. هذا على حين أن الأمراء الذين كانوا قد تعقبوا العصاة في مناطق جبل "صان" و"جريك" قد أدركوا هؤلاء المتمردين في أوائل ربيع الأول سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م وشنوا عليهم حربا شعواء، وهزموهم، وقتلوا منهم كثيرين، ثم وصل هؤلاء الأمراء إلى الحضرة ومعهم أسرى كثيرون، وغنائم لا حصر لها.

وقد أقاموا عشرين يوما في تلك المناطق. وشرع جميع الجنود الذين كانوا مرافقين للحضرة في نقل الغلال من المخازن، وصاروا يأكلون منها ويطعمون دوابهم. ونظرا لكثرة هذه الغلال لم يظهر نقص فيها.

وفي تلك الأيام انضم نوروز أيضا إلى الحضرة. وبعد ذلك رحل غازان من هناك. فلما وصل هو ومرافقوه إلى "قرامرزان" كان هناك الأمير النجل "طوغان"، وأهل نوروز؛ فأقاموا الولائم والاحتفالات عدة أيام، وأحضروا هدايا محدودة، وقدموا مراسم الخدمات من كل نوع. ومن هناك تحرك غازان ومرافقوه عن طريق "سرغس" حتى إذا بلغوا "قراية" وصل "بوغداي ايداجي" من لدن "گيخاتو"، وأطلعه على غزالة بايدو والأمراء لگيخاتو، فلم يعأ بهذا.

بعد ذلك استأذن نوروز، وعاد إلى دياره بناحية "بادغيس". ثم توقفت الرايات السلطانية عدة أيام، وسارت عن طريق "زجا" و"خوكان". وعندما وصلت إلى وادي "جز" عزمت على المسير إلى "مرج رادكان" لتصطاد طائر الحجلة كذلك وصل من قبل بايدو المدعو قتلغ شاه وطلقة من الرسل وعرضوا على غازان أخبار النزاع بين كيخاتو وبايدو، وقالوا إن جميع الأمراء كبيرهم وصغيرهم وأفراد الأسرة الحاكمة وخواتين الأمراء [ص ٢٨٦] قد اتفقوا على أن يسير أمير العالم إلى تلك الناحية، ويجلس على عرش السلطنة التي يستحقها إرثا واكتسابا. ولكن الأمير النجل لم يعر ذلك اهتماما، وأعاد جماعة الرسل. ثم تشاور مع الأمراء الكبار، وأرسل رسولا لاستدعاء نوروز ثم أقام عدة أيام في "رادكان" و"جشمة" كلسب". ثم قدم ومن معه إلى "خبوشان". وغادرها بعد عدة أيام. وعندما نزل "بدوير" لحق نوروز بالحضرة.

ولأن العناد وأغلب الجنود والأمير النجل "سوكا" الذي قدم من قبل گيخاتو كانوا في مازندران، استقر الرأي المبارك على أن يذهبوا إلى "سلطان دويك". ومن هناك يقصدون العراق وأذربيجان. ثم قدم غازان إلى "شهر ك نو" في جرجان، ونزل في سلطان دوين استراياد. وفي المعسكر المعظم انهمكوا في إقامة الولائم والأفراح واللهو والأنس. ثم أرسل لورايتمور ايداجي إلى بايدو قائلا له: "إننا سوف نصل على الأثر". والسلام.

حكاية

توجه غازان من خراسان إلى العراق العجمي

ومحاربته بايدو في منطقة هشتروند

وقربان شيره

تحرك غازان خان باليمن وطالع السعد من "سلطان دوين" قاصدا العراق وأذربيجان. ثم قدم عن طريق "چهار ده" إلى دامغان. بعد ذلك أراد أن يتجول في قلعة "مگردكوه". لكن الأمراء قالوا: لأن أماننا عملا خطيرا ليس من المناسب الآن التفاضل بولوج القلعة. ثم أمر بأن يغادر القلعة أبناء تاج الدين الذين كانوا حراسا عليها، وذلك مع نسايتهم وأطفالهم [ص ٢٨٧]. وقد سلم مفتاح القلعة للخواجة سعد الدين حبش، وعهد إليه بالمحافظة عليها.

وعندما قدم غازان إلى سمنان، وصل "أوردوبوقا" موفدا من قبل جيخاتو، ومعه عدة أحمال من أوراق النقد "الچاو" والأدوات الخاصة به من الورق الأبيض والأختام وغير ذلك. فقال غازان خان: "إنه لا بقاء للألات الحديدية والأسلحة في مازندران. وما جاورها من مناطق بسبب جوها الشديد الرطوبة؛ فكيف يمكن أن يبقى فيها الورق دون أن يتلف؟! ... وأمر بإحراقه تماما. ثم قدم من هناك إلى طهران عن طريق فيروزكوه حيث تشرف "بورالغى" وأمراء العراق بقاء الحضرة. ولما بلغوا موضع "خيل بزرگ" قدم ثانية "أورايتمور ايداجى" من قبل بايدو وعرض قائلا: "إن بايدو قد رجع في كلامه، وظهرت في رأسه الرغبة في السلطنة. وقد أثار الأمراء "طفاجار" و"قونجقبال" و"دولاداي" وغيرهم الفتن، وأراقوا دماء أوردوقيا وجوشى وغيرهما. وبسبب خوفهم من حضرة غازان ووحشتهم منه، اتفقت كلمتهم جميعا على توليه بايدو الحكم، وهم يفكرون في إثارة الفتن والشغب.

(١) انظر مزيدا من التفاصيل عن التعامل بهذا النوع من العملة الورقية في كتاب "مجموعة مقالات عباس إقبال آشتياني، شامل يكسد وبك مقاله با مقدمه وتصحيح آقای دکتر محمد دبیر سیالې بعنوان "چاو - چپاب اسکناس"، ص ٢٣٧ - ٢٣٤، تهران ١٣٥٠ هـ.ش، الشرق الإسلامي، ص ٢١٣ وما بعدها.

ولما لم يكن غازان خان يفكر فى مخالفة بايدو، لم يحضر معه جنودا كثيرين، ولم يصطحب الفرقة المدرعة بأسلحة الحرب إلى حد أنهم تركوا هناك الطوق المبارك والطفل الخاص. وقد تشاور مع الأمراء. وبذافع الشجاعة السلطانية، لم يلتفت إلى ما قالوه. ثم أرسل مولاي ويغميش برسالة إلى بايدو يقول فيها: "إننا سوف نصل بذاتنا المباركة. فأين نتقابل الواحد منا مع الآخر؟". ثم استدعى "لوركاوك".

وعندما قدم باليمن إلى "آق خواجه" من منطقة قزوین، وصل إلى الحضرة "شادى گوركان" الذى كان قد أرسله بايدو والأمراء فتحدث بشئ الأقوال التى يتكلم بها أصحاب التخليط والتويه. وفحوى هذه الأقوال التى جاءت على لسان بايدو: "إنه لم يكن لى تفكير ولا رغبة فى الحكم. ولكن نظرا لبعده الأمير النجل غازان، وقعت [ص ٢٨٨] الفتن والفتائل بين الرعية. ولهذا السبب اتفق أفراد الأسرة الحاكمة على أن أعتلى العرش. والحالة هذه فإن الأمير النجل سوف يجاب إلى كل ما يطلبه. وليس فى ذلك مجال للمعضايقة. ولكن ينبغى أن يعود غازان من حيث أتى"، غير أن هذا الأمير لم يعبأ بذلك وسار فى طريقه. فلما وصل إلى "قونقور أولاتنگ"، قدم مولاي ويغميش، وأخذوا يتحدثان بمثل هذا الكلام المزخرف. وفى نفس ذلك اليوم انفصل "ناولدار" عن بايدو، ووصل إلى حضرة غازان، فشمله برعايته، واختصه بأنواع العطف والتكريم. ثم رحل غازان من هناك ونزل فى طريق "رباط مسلم". ثم استدعى "شادى گوركان" ورسل بايدو، وأنهم تأتيا شديدا لدرجة أن شادى گوركان يش من حياته. بعد ذلك أرسل غازان رسائل شديدة اللهجة بخصوص تولى بايدو الحكم.

وفى الوقت الذى ذهب إلى هناك مولاي ويغميش، تفوه ايلدار - فى حالة سكره - بكلمات قال فيها: لقد اتفقنا نحن أفراد الأسرة الحاكمة على أن نولى بايدو مقاليد الحكم. فإذا لم يتفق معنا الأمير النجل غازان فى هذا الرأى، فإن الحصومة تقع بيننا.

وأخيرا أذن للرسل فى العودة. ثم كلف الأميرين الكبيرين: نورين وقنلق شاه باستعراض الجنود والتفتيش عليهم. وعلى الفور أرسل "ايسا بوقا" الكاتب برسالة إلى بايدو قال فيها: "نحن سوف نصل". وعلى أثر ذلك سلك طريق "توكاتو". ثم عبر "سفيد رود"^(١). وفى

(١) "سفيد رود" أى النهر الأبيض. تسقى روافده كثيرة نواحي آذربيجان الجنوبية الشرقية. ويؤلف معظم مجرى هذا النهر الحدود الفاصلة بين آذربيجان وإقليم الجبال. ويصب أخيرا فى بحر قزوين بعد مروره بإقليم جيلان. (بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢٠٣).

اليوم التالى الثلاثاء غرة رجب سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م الموافق الثانى من شهر "شون آى" وصل إلى بايدو نبأ وصول الأمير النجل غازان، فأرسل فى الطليعة الأمير النجل ايلدار والأميرين ايلجيداي وحيجك. وأما من هذا الجانب (المقصود به غازان) فكان على المسيرة الأمير قتلغ شاه ونورين آقا، ووقف فى القلب الأمير النجل "سوكا" و"بورالغى" و"نوروز" والأمراء الآخرون الذين كانوا فى حضرة غازان.

وعندما اقتربوا من بايدو، أوقفوا أمامهم بوقداى احتاجى وتحذثوا فى كل أنواع الكلام عن الصلح والمودة، وضرورة مراعاة صلة الرحم بين أفراد الأسرة الحاكمة، غير أن غازان لم يلتفت إلى ذلك [ص ٢٨٩]، والتحم الجنود من الطرفين بعضهم ببعض. وكان الأمير قتلغ شاه فى المقدمة كالطود الثابت. ولما كان الأمير النجل "ايلدار" قد تفوه بكلام خطير اقتضى رأى غازان العالى المبادرة بتأديبه.

ولم تكن قد قرعت بعد طبول القلب إيلانا يبدء المعركة، وقبل أن يتحرك جنود القلب من جانب العدو، هاجهم الأمير قتلغ شاه، ودحرمهم بحملة واحدة؛ بحيث إنه عندما وصل الخبر إلى القلب فى جيش العدو، كانت الهزيمة قد حلت به، وقتل منه ما يقرب من ثمانمائة جندى، وانهزم الباقون. وقتل "تغاي" نائب "ايلدار". ثم أحضر "أرسلان أوغول" إلى الحضرة مترجلا، وطلب أن يهجم جنود خراسان دفعة واحدة ليستأصلوا شأفة أعدائهم ويفنوهم. ولكن غازان حال دون ذلك مدفوعا بما فطر عليه من رحمة، وقال: إن هؤلاء الجنود جميعهم عبيد آبائنا وأجدادنا. وإذن فكيف نقتلهم بسبب حفة من المشاغبين ومثيرى الفتن؛ هم أولئك الذين ولوا "بايدو" الحكم؟... غير أن نوروز وبقيّة الأمراء صاروا يبالغون مصرين على أنه ينبغي اغتنام الفرصة. فما كان من غازان إلا أن صاح فيهم ونهرهم فالتزموا السكون.

وعندما اعتقل "أرسلان أوغول"، وسبق إلى غازان، قال ابن عم بورلتاي: "بما أن "أرسلان" سل السيف فى وجوه عبيد الدولة، فإنى سوف أقتله لو أذن لى السلطان بذلك غير أن غازان لم يلتفت إلى هذا القول. ثم أمر بأن يحضروا من خزائنه الخاصة قباء وقلنسوة ومنطقة (حزاما) وحذاء، وألبسوا الأسير هذه الأشياء، وأركبوه جوادا مخصيا من جياد الخاصة. كما أمر بإحضار جرحى المعركة، وصار يضع المرهم على جروحهم، وكان

يسقيهم الأدوية المذابة في الشراب. فلا جرم أن الحق تعال وضع أطراف الممالك واكتافها في قبضة سلطنته جزاء وفاقا لتلك العاطفة وهذه الرحمة.

ولما رأى بايدو وأمرؤه أن "إيلدار" و"توكال" اللذين هما أشجع رجالهم قد هزما، عرفوا أنهم لا طاقة لهم بمقاومة أعدائهم فسلكوا طريق المسألة والشفاعة، وجاء بايدو وسط ميدان المعركة، ووقف على قمة ربوة مع الأمراء: طغاجار ودولاداي وقونجقبال. [ص ٢٩٠] ومع أن سلطان الإسلام قد خلفهم وهزمهم، نجشم السير إليهم. وكان الأمراء نوروز ونورين وقطف شاه وسوتاي ملازمين للحضرة. وقد اتفق الجانبان على اللقاء، وسأل بعضهم بعضا وقالوا: "ينبغي أن يعقد بيتنا عهد وميثاق نتعهد فيه بألا يؤذى بعضنا بعضا. فصاح الأمراء من هذا الجانب (جانب غازان) قائلين: ينبغي أن نحسم أولا أمر الملك والسلطنة. وبعد ذلك يبرم العهد والميثاق.

والخلاصة أنهم أحضروا الشراب، واحتسوه في الكؤوس. أما المسلمون منهم فتصافحوا وأقسموا بألا يفكروا في الإساءة بعضهم إلى البعض. ثم قالوا: غدا يتقرر أمر الحكم والسلطنة. ولما كان النهار قد انتهى، وأذن بالمغيب، عاد كل منهم إلى مقره. وفي تلك الأثناء انفصل عن بايدو أفراد أسرة الخاتون المعظمة "بولوغان خاتون" منهم الشيخ "هورقاسون" وجمع آخر، وانضموا إلى الحضرة. ولما كان جنود بغداد وموغان قد اقتربوا كان بايدو يرسل إليهم الرسل تباعا لاستدعائهم أثناء المفاوضات وكان الأمراء يصلون مع جنودهم لحظة بعد أخرى، فظهرت لهم شوكة كبيرة آخر النهار. وفي اليوم التالي سار الجيشان حتى "قربان شيره" لمناوشة الواحد منهما الآخر. ثم دخل جيش السلطان غازان واديا ضيقا يبلغ طوله فرسخا. ولم يكن أمامه غير طريق واحد؛ فأسرع "توكاتو بهادر" مع ألفي فارس، واستولى على مدخل الوادي. وكان قونجقبال يتبعه ليعاونه. فلما علم بايدو ذلك، وعرف أن هذا التصرف يؤدي إلى الحرب، أوفد على الفور رسولا يأمر أتباعه بفتح الطريق أمام جنود غازان، ولا يمتنعونهم من الخروج؛ فغضب قونجقبال من ذلك التصرف.

وصفوة القول أنهم نزلوا في تلك الليلة بعضهم بجوار البعض؛ بحيث إنهم كانوا يشربون من عين واحدة على الرغم من أن جميع الجنود كانوا يمسكون بأعنة خيولهم مدججين بأسلحتهم، ولم يستريحوا في تلك الليلة. وفي اليوم التالي الإثنين السابع من رجب، أخذ جمع

من الساعين في الصلح يترددون بين الجانبين. [ص ٢٩١] وأخيراً استقر رأى الأميرين توقيتهم وسوتاي على أن يقام سراق بين الطرفين على أن تحضر "توداي خاتون" التي يقع موطنها على مقربة من ذلك المكان، وتعقد الصلح بين الطرفين. وفي تلك الأثناء قدم "قنجقبال" وعرض قائلاً: "إذا كان الظفر من نصيب غازان، فإن الأمير "آقوبقا" سوف يقضى علينا. ولهذا السبب قتلوه في نفس ذلك اليوم.

وبعد حديث طويل تقرر أن يجتمع الأمراء وسط ميدان المعركة، ويقر الطرفان بصواب وجهة نظر الطرف الآخر. وعلى هذا ذهب من هذا الطرف (أى غازان خان) الأمراء نوروز ونورين وقتلغ شاه وتوقيتهم. ومن طرف بايدو قدم طغاجار وقونجقبال ودولاداي وصاروا يتناقشون حتى منتصف النهار. وكان جنود بايدو يصلون لحظة بعد أخرى فصارت تزداد قوتهم.

ولما رأى الأمراء ذلك، استقر رأيهم على أن يرسل بايدو إلى حضرة الأمير النجل غازان المخيمات الخاصة بأرغون خان والخاتون المعظمة يولوغان وأوروك خاتون والأمير النجل غرينده مع الأمراء الأنجال الآخرين، وأن تسلم له أمواله وخزائنه. ويكون لغازان أيضاً من الجانب الآخر مناطق "سفيدرود" والعراق وخراسان وقومس ومازندران ونصف إقليم فارس مع كل أملاك الخاصة هناك. وعندما عرضوا ذلك الأمر على حضرة غازان، طلب أن يسلموه طغاجار أيضاً مع عشرة آلاف من القراونة الذين هم من خاصة أرغون. وبموجب هذا الاتفاق انتهى الحديث عند هذا الحد ونعود. فأجاب بايدو بحضور الأمراء قائلاً: "إن الأمير النجل غازان يعلم أن أرغون كان يعتبرني ابناً له من صلبه، وكان يعين لكل ابن مشى خاصاً في جهة من الجهات في صحة أحد الأمراء. وكان طغاجار مع عشرة آلاف جندي من القراونة في صحبتي دائماً في بغداد. وها أنا أقرر ذلك حسب أمر أرغون خان، فإنه هو الحاكم". وأخيراً استقر رأى السلطان والأمراء على هذا، وقالوا: "فلتسلم هذه المقررات لغازان حتى نعود". ثم أرسل بايدو "دولاداي" بحمل الطعام والشراب إلى الحضرة، فحظي بالإعزاز والرعاية، وناولوه قدحاً من الشراب.

بعد ذلك أشار السلطان غازان قائلاً: لتعد عن طريق "سياه كوه"؛ غير أن بايدو والأمراء لم يرضوا بهذا الرأى. والسبب في ذلك هو أن جيش القراونة كان مقيماً هناك، فخافوا أن

ينضموا إلى غازان خان إذا ما قرّ في تلك الناحية [ص ٢٩٢] فتحدث الفتنة مرة أخرى. ثم أوفدوا "بولاد چينگسانگ"^١ إلى الحضرة ليقنع غازان بالعودة من الطريق الذي قدم منه. وفي اليوم التالي أرسل يابديو ابنه "قجياق" مع طائفة من الأمراء إلى حضرة غازان لإبداء رعايتهم وإعزازهم له، ولتناول أقداح الشراب، وليبلغوه أن يابديو يقول: "إن الأمير النجل قدم إلى هنا باليمن والبركة، وتم الصلح والاتفاق بيننا. فإذا ما انصرفنا دون أن يرى الواحد منا الآخر، ولو للحظة، فسوف يظن القريب والبعيد أن الكدر لا يزال بيننا. وإذا فالأولى أن نجلس ساعة بعضنا مع البعض لنجدد عهد اللقاء، ثم يعود الأمير النجل باليمن والبركة". ولإبلاغ هذا الالتماس، قدم أيضاً الأميران سوتاي وتوقتيبور عدة مرات. وأخيراً تقرر أن تعد دار يتزل فيها كلا الجانبين مع عدة أشخاص من خواصه، ويقابل الواحد منهما الآخر. وفي ذلك اليوم تودد السلطان غازان إلى "قجياق اغول" وشمله بعطفه ورعايته، وخلع عليه، وأركبه جواده وأعاده. ثم تشاور مع الأمراء نوروز وتورين وقتلغ شاه فلم يروا المصلحة في هذا الاجتماع. كما أن المتجمين قالوا: "إنه يوم نحس. فأرسل غازان "سوتاي" وتوقتيبور إلى يابديو ليقولا له: "إن اليوم نحس حسب قول المتجمين، وقد اقترب أيضاً وقت الليل، وغداً صباحاً سوف يقابل الواحد منا الآخر. ثم كلف الأميرين نوروز وتوقتيبور بأن يقيما معه هذه الليلة، على أن يذهبا في الصباح إلى يابديو. وبعد ذلك بصرفان شئون الملك، ويسيران الجنود. ثم رحل غازان ليلاً باليمن والبركة بعد أن أوقدوا النيران في كافة البيوت، وسار في طريقه حتى إذا حلّ الصباح كان قد عبر نهر "سبيد رود"، وانضم إلى الحضرة أمراء الجند الذين كانوا هناك. ثم خرج وسلك طريق "دبه منار"، وبات ليلته في زنجان.

وفي اليوم التالي أرسل غازان "كورتيبور" من "مسلم" إلى يابديو ويقول له: "لقد سرنا إلى ناحية دماوند، وتركنا هناك الأميرين نوروز وتوقتيبور فينبغي أن تكون عند كلمتك فتيسر الجنود والخواتين، ونحسم أمر الملك بالمشافهة". [ص ٢٩٣] ومن هناك مرّ غازان "بقوتقور أولنگ"، ووصل إلى موضع "كره رود" الذي يسميه المغول "تركان موران".

(١) كان يعمل سفيراً للخاقان في بلاط إيران، ويحتج بمنزلة كبيرة بين الأهلانيين (انظر كتاب الشرق الإسلامي، ص ٢١٣، ٢١٤).

وهناك وصل إلى الحضرة "كشهر بنشى"، وأبلغه رسالة بايدو التى يقول فيها: "كان من المتوقع أن نجد عهد اللقاء، ونأتس لحظة بمجاورة الواحد منا الآخر. وحيث أن الأمير قد ارتحل فإن الصلاح يكون فى ذلك. والآن ينبغي أن يفى كل منا بوعده". فأعاد السلطان غازان "كشهر بنشى" بصحبة إبراهيم شكورجى (سكورجى) رسالة إلى بايدو يقول فيها: "ينبغي أن تبرم الأمور بأكملها مع نوروز وتوقيتيمور وكورتيمور، وتعيدهم فى أسرع وقت". ومن هناك توجه غازان إلى دماوند حيث أمضى الصيف.

وعندما رجع الأمراء: نوروز وتوقيتيمور وكورتيمور، ظهر أن بايدو قد أبدى أعذاراً غير مقبولة فيما يتعلق بتصريف المهمات، وتدبير شئون الملك، وإرسال الخواتين والجنود، ولم يَفِ بما تعهد به مما أثار غضب غازان؛ فأمر بأن يذهب الأمراء جميعاً مع جنودهم لإعداد العلف وتسمين الدواب.

أما عن حال نوروز ومن معه من الأمراء، فكان على هذا النحو: عندما وصلوا إلى بايدو، والتمسوا إليه أن يصدر مرسوماً بشأن البلاد والجنود والخواتين، توجس خيفة بسبب عودة السلطان غازان، فاعتقل رسله. ثم أرسل قونغقبال ودولاداي والبلجيداي فى المقدمة لتعقب غازان، وتحرك هو نفسه فى اليوم التالى. وفى يوم الأربعاء التاسع من رجب عبر غازان "سفيد رود". وفى يوم الجمعة الحادى عشر قدم "كورتيمور" برسالة. وكان الأمراء يتبعون أثرهم حتى شرويان، ثم عادوا من هناك، واتصلوا ببایدو فى منطقة سجناس^(١) ورحلوا فى يوم الاثنين الرابع عشر من رجب حتى ربوة شرويان ثم عادوا من هناك.

وأما عن بايدو فقد [ص ٢٩٤] تشاور مع الأمراء فيما يتعلق بالتصرف فى شأن نوروز وتوقيتيمور. فأجابوا جميعاً: "لا يمكن أن نسميها بسوء". ما عدا "توكال" الذى كان يسعى فى إراقة دم نوروز؛ إذ قال فى هذا الصدد: "إن نوروز هو الملجأ والظهير لغازان. وإذا قتلته يكون ضرورة لازمة". لكن طغاجار وأمراء آخرين لم يجيزوا ذلك بسبب صلات

(١) سجناس أو سجناس: بلدة تقع على بعد خمسة فراسخ غرب السلطانية، ويجاورها أكثر من مائة قرية أغلب سكانها من الفول. وكان فى الجبل المجاور لها قبر أرغون خان. وحرباً على عادة الفول أخفى هذا القبر. وكان الناس يمدون مشقة فى عبور تلك المنطقة إلى أن جاءت لولجاي خاتون فأظهرت قبر أبيها وأقامت هناك خاتماً للتراث. (نزهة القلوب، ص ٦٩ - ١٧٠ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢٥٨).

القريبى والصداقة فعاد توكمال مهموماً لعدم الأخذ برأيه، ورحل إلى ولاية جورجيا "گرجستان" حيث موطنه، ولم يعد منها حتى حادث مقتل بايدو.

وعن موقف طقاجار فنظراً للعداء الذى يكنه له "توداجو" نفر من حكم بايدو. وكذلك الحال بالنسبة إلى "صدر الدين"؛ ويرجع سبب ذلك إلى أن منصب الوزارة لم يتيسر له فحقد على بايدو، وصار يحرض "نوروز" عليه، واتفق معه على مؤازرة غازان. كذلك أشار على نوروز بأن يتظاهر بالموافقة على ما يراه بايدو وأتباعه، وأن يبرم معهم عهداً على أى نحو يريدونه.

بعد ذلك شغل بايدو "نوروز" بعطفه. وأخيراً استقر رأى على أن يعقد معه ميثاقاً يتعهد بموجبه بأن يرسل إليه غازان مقيداً^(١). وعلى هذا سمح بايدو لنوروز بالعودة، وخصه بمزيد من الرعاية والتكريم. كذلك فوضت إمارة يزد من قبل بايدو إلى "سلطان شاه" نجل نوروز، وحررت له حوالة على يزد بعشرة آلاف دينار.

وفى يوم الثلاثاء الخامس عشر من رجب سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م أعادوا نوروز وتوقيتمور والرسل الآخرين. وفى اليوم التالى عاد ايلجيداي الذى كان يتعقب غازان. ثم لوى بايدو العنان، وسار صوب "سوغورلق" وفى يوم السبت التاسع عشر من رجب نزل فى موطنه الكبير بسوغورلوق. والسلام.

(١) يقول بيرس الدوادار فى كتابه زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩، ص ٢٨٨ - ٢٨٩، تحقيق د. زبدة محمد عطا المملكة العربية السعودية، بدون تاريخ: "لما استولى نوروز من الأشراف الذين استسلموا، علم قازان بأمرهم، فجهز للسير من خراسان، وبلغ بايدو خبره فلوّجس خيفة منه، وذكر ذلك لنوروز، فقال له: أنا أكتفيك أمره، وأدفع عنك شره، ومنى وجهتى إليه ثبتت عنك عزيمته، وفرقت جماعته وأرسلت إليك مريوطاً، فاستحلفه أنه لا يكون عهده إذا فصل من عنده ثم سرحه فسار إلى خراسان، وأخبر قازان بكل ما كان وعرجا مئاً للقصد بايدو. وسارا طالين الأمد. وأرسل نوروز فيه قدراً مريوطاً فى عدل. وقال: قد وفيت بما قلت لك، وأرسلت قازان إليك مريوطاً بالوثاق، ولم أغير ما وقع به اللئاق. فغضب بايدو لرسائله، وتبين له مكره به من مقالته. انظر أيضاً الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين (أسرة هولاكو خان) ص ٢٣٨.

مكايبة

انفراج الصدر المبارك لسلطان الإسلام غازان بنور الإيمان واعتناقه الإسلام هو والأمراء بحضور الشيخ زاده صدر الدين إبراهيم بن حمويه الجويني دامت بركاته

عندما يكون الله تعالى وتقدس قد أراد في أزل الأزال أن يخلق عبداً سعيداً، ويختصه بأنواع التأييد، يجعل قابلية السعادة [ص ٢٩٥] في طيبته وجيلته غامرة ومركزة. وإن الألفاظ الدرية النبوية الدالة على تحقيق هذا المعنى، وتصديق هذه الدعوى للدليل واضح وبرهان ساطع. "السعيد من سعد في بطن أمه"^(١). وبعد ذلك يربيه مربى العناية الربانية في مهد التربية بيد العناية، ويوصله بالتدريج إلى مدارج الكمال، ويرشده بمرور الشهور إلى النظر في حقائق الأمور حتى يتأمل في أحوال الصور والمعاني، ويطلع بذلك على حقيقة كل شيء وبطلانه وتحول آثار سعادته من القوة إلى الفعل بفضل ذلك التدبير والتفكير ويتحقق ظهور كل ما تقتضيه سر الحكمة الإلهية القائمة عليه إرادة تلك السعادة، وفقاً لنص القرآن الكريم: ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾^(٢).

وبموجب هذه المقدمات، فإنه لما اقتضت عناية ذي الجلال ومشية الأزل أن يتدارك الوهن والفتور اللذين قد تطرقا إلى أطراف الملة الإسلامية بتقلب الشهور والأعوام، وتعاقب الليالي والأيام على يد أحد خواص العباد الذي يتولى حكم الأمصار والبلاد. لذلك جعل ذات صفات غازان الملائكية مستعدة لفيض أنوار الهداية والإلهام الرباني.

(١) أخرجه البيهقي في المدخل والبرز في مسنده عن أبي هريرة. وجاء على هذا النحو: "السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقى في بطن أمه". وسنده صحيح. وأخرجه الطبراني في الصغير مقتصرًا على "السعيد من سعد في بطن أمه" (كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، تأليف إسماعيل بن محمد المجولني الجراحي، ج ١، ص ٥٤٨، حلب بدون تاريخ).

(٢) الآية بأصلها ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الدين علوماً من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾. (سورة الأحزاب آية ٣٨).

ولما كان فى أوائل طفولته يتربى فى رعاية جده الأعظم آباقاخان وكان ميالاً إلى طريقة الكهنة البوذيين، ومعقداً معتقداتهم، عهد به إلى واحد أو اثنين من كبار الكهنة، وكلفهما بأن يجدا فى تعليمه إلى أقصى حد، وحته على اقتباس مراسم طريقتيهما. وعلى هذا كانا يلزامانه. ودائماً كانا يواظبان على ترغييه فى تلك الملة.

ولكن الأمير النجل لفرط كياسته ودهائه وفطنة ذهنه وذكاؤه اطلع - فى وقت قصير على عيوب تلك الطريقة "عُجْرها وبُجْرها"^(١)، ووقف على غوامض ودقائق أقوال تلك الطائفة وأفعالها وحاز درجة الكمال؛ بحيث إنه صار متمعقاً إلى درجة كبيرة فى الطريقة البوذية^(٢).

غير أنه بتأثير العناية الأزلية، صار ينظر بفكره الشاب [ص ٢٩٦] ورأيه الصائب إلى أسرار البوذية. كما كان يتأمل حقيقة الأدهان والملل؛ فسطعت ولمعت أشعة أنوار الديانة المحمدية على ضميره المنير، وذلك بسبب فيض الإلهام الإلهى، وصار يظهر فى خاطره العاطر الليل إلى هذه الملة الصحيحة.

ولكنه نظراً لتمكنه وثبته، ظل سائرًا على تلك الطريقة البوذية. وكان فى هذا المجال متمكناً وثابت القدم. وبسبب غلوه فى تلك العقيدة أقام معابد عالية للأصنام فى "نجوشان" بخراسان. وكان يؤدى طقوسها بصورة جعلت جميع اللامات والرهبان متعجبين مندهشين من تلك الرياضات والمشقات. ومع هذا كان مجدداً إلى أقصى حد فى البحث عن أسرار الحق، وتحقيق طرق الصواب. إلى أن اجتمعوا بياهدو؛ وكان الأمراء الحاضرون يرمون العهد والميثاق؛ فالمسلمون منهم كانوا يقسمون بالقرآن الكريم، على حين أن المغول كانوا يقسمون بالذهب.

ولقد اغتنم نوروز هذه الفرصة، فعرض على غازان قوله: ماذا يحدث لو يقوى السلطان ملاذ العالم الدين الإسلامى باعتناقه الإسلام والإيمان به؟ فرد عليه غازان بقوله: إن هذه

(١) عُجْر وبُجْر: يقال عجرة وبجرة أى ذكر عيوبه وأسرته كله ما أغشى منه وما أبدى. (المعجم الوسيط: ج ٢ ص ٥٨٥).

(٢) انظر دكتور شيرين بيلى (إسلامى تدوشت): دهن ودولت در ایران عهد مغول، جلد دوم، حكومت إلهخانى: نرد ميان دوفرهنگ، چاپ اول، ص ٤٤١ وما بعدها، تهران ١٣٧١ هـ.ش.

الفكرة تجول بخاطرى منذ زمن. عندئذ أخرج نوروز قطعة من اللؤلؤ المصقول النادر، وركع على ركبتيه وقال: "ولو أنه ليس للعبد سبيل إلى هذه الجرة؛ بحيث يقدم هدايا لأبناء الملوك. ولكنى أطمع فى أن يتعطف السلطان على عبده، فيحتفظ بهذه الهدية لحين عودتى من مهمتى ووصولى إلى الحضرة".

فلما قدم نوروز وبقيّة الأمراء من لدن بابلو دون أن ينجزوا مهمتهم غضب السلطان وصار يفكر فى تدارك الأمر. وهنا طرح نوروز تلك القضية مرة ثانية بحضور الشيخ زاده العظيم صدر الدين إبراهيم ابن قطب الأولياء الشيخ سعد الدين حمويه - أعزه الله وقدهس نفسه - وكان يلزم السلطان فى أغلب الأوقات، فيستفسر منه عن الدين الإسلامى وحقائقه، ويتباحث معه فى هذا الشأن، فيشرح صدره للإسلام^(١). ولقد كان نزول السكينة على صدره المبارك يقوى سطوع أنوار الإيمان فى ضميره، فيستوى عليه إمداد الهداية، فقال: حقاً إن الإسلام [ص ٢٩٧] دين متين ومبين للغاية. ويحتوى على كل الفوائد الدينية. وإن معجزات - الرسول عليه الصلاة والسلام - مؤثرة فى القلوب وباهرة وعلامات صحتها - على صفحات الدهر واضحة وظاهرة. ولا شك أن المواظبة على أداء الفرائض والواجبات والنوافل تؤدى إلى الوصول إلى الحق. وأما عبادة الأصنام فإنها عديمة الجدوى، وبعيدة كل البعد عن العقل والعلم. وعند أصحاب الرأى والكفاية يكون وضع الجبهة على الأرض أمام الجماد محض جهالة وحماقة، ويدو أيضاً - من وجهة نظر الحق - أمراً مكروهاً أمام الإنسان الذى هو سيد الروح والعقل. ولا يوجد أى إنسان كامل يرضى أن يضع جبهته على الأرض أمام الصنم. وعلى وجه الصدق، فإن صورة الصنم تليق بعتبة الباب، يظفها الناس بأقدامهم دون مشقة. ثم إن اتفاق كافة الناس على الإسلام وإنكار عبادة الأوثان، أمر مقطوع به، وليس فيه مجال للتأويل.

وصفوة القول فإن غازان خان نطق بكلمة التوحيد فى أوائل شعبان سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م بحضور "الشيخ زاده صدر الدين إبراهيم بن حمويه"^(٢)، ومعه كافة الأمراء. وبهذا

(١) الآية القرآنية: ﴿مَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَلِمَاتًا يُعَذِّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الأنعام، آية ١٢٥).

(٢) هو الشيخ الصوفى الزاهد والإمام الجليل صدر الدين أبو الجوامع إبراهيم ابن الشيخ سعد الدين محمد بن المؤيد بن أبى بكر بن حمويه الجوينى الشافعى. ولد سنة ٦٤٤هـ فى أمل بطبرستان، وتلمذ على أكثر علماء عصره. وقد =

صار الجميع مسلحين. ولقد أقيمت الولائم والأفراح، واشتغل الحاضرون بالعبادة. وشمل غازان برعايته جماعة السادات والأئمة والمشايخ، وأجرى عليهم الإدرات والصدقات. وفيما يتعلق بتعمير المساجد والمدارس والخوانق وأبواب الير، بالغ في إصدار الأحكام المتعلقة بهذه المؤسسات. وعندما حلّ شهر رمضان، صار مشغولاً بالطاعة والعبادة مع طائفة الأئمة والمشايخ.

ولا يخفى على كافة العقلاء أن إسلام وإيمان سلطان الإسلام غازان خان إنما كان عن صدق وإخلاص، ومبرعاً من شوائب الرياء والرعونة، وصافياً خالصاً؛ إذ إنه لا يتصور أن يكون هناك إجبار وإلزام في اعتناقه الإسلام مع وجود عظمة السلطان وشوكته، وكمال القدرة على إبرام الأمور وتنفيذها. ومن المسلم به أنه في حالة عدم الاحتياج وفرد الاستغناء لا يمكن أن يكون هناك رياء ومراء. والله الموفق.

رحل في طلب العلم والحديث إلى العديد من البلاد والمدن العربية والإسلامية وفي سنة ٦٧١هـ تزوج من إحدى بنات المؤرخ الفارسي عطا ملك الجويني. وعلى يده أسلم السلطان غازان في سنة ٦٩٤هـ ونال حظوة كبيرة في بلاط هذا السلطان. وقد توفي هذا العالم الجليل في سنة ٧٢٢هـ ودفن في "قبر آباده" إحدى قرى جوين (انظر كتاب شد الإزار في حط الأوزار عن زوار المزار، تأليف معين الدمن أبي القاسم جريد شيرازي، بتصحیح وانشاء عماد قزوینی وعباس إقبال، ص ٣٧١ - ٣٧٢، حاشية ٧، طهران ١٣٢٨هـ شرق الإسلام، ص ٢٥٠، ٢٥١، حاشية ٣).

حكاية

توجه الرايات المباركة لسلطان الإسلام إلي بايدو للمرة الثانية وخضوع أمرانه

بعد أن نطق غازان بكلمة التوحيد، وتبعه جمهور الأمراء [ص ٢٩٨] وأعلنوا إسلامهم، وصاروا مشغولين بالعبادة، قدم رسولاً بايدو: المدعو "قتلغ شاه"^(١)، وشيخ المشايخ "محمود"، فتحدثنا عن كل أنواع الكلام غثه وسمينه. وقد اغتتم الشيخ محمود الفرصة وعرض كلام الأمراء الذين في معية بايدو وقلوبهم مع غازان، وأبلغ رسالة كل منهم، وأخذ عليها الجواب مختوماً بالخطم الذهبي. وفي اليوم الثالث أذن غازان للرسولين بالانصراف. ولما عاد الشيخ محمود، وأبلغ تلك الجماعة الإجابة المختومة بالخطم الذهبي عقدوا التنية على نصره سلطان الإسلام، واتفقت كلمتهم على الإخلاص له.

كذلك لأن "صدر الدين الزنجاني" لم يبلغ غايته في عهد بايدو وذلك بسبب إسناد منصب الوزارة لجمال الدين المستجرداني، صار هو الآخر يحرض طغاجار على المخالفة والنشوة. ولهذا كان بايدو وأتباعه يتحشون مكائده؛ فشملوه برعايتهم التامة، ومنحوه الفرمان والپايزه، وعينه حاكماً على بلاد الروم. فلما اجتاز حدود "هشترود"^(٢) تفرع بإحدى الحجج، وأرسل إلى تبرز أهله وأتباعه مع الأمير "باغلاقو" الذي كان في صحبته. ثم ذهب بنفسه إلى "سراو" بحجة أنه يريد قرضاً، وعرج من ذلك الطريق على "جبلان". ومن سوغورلوق عقد عزمه على التوجه إلى قزوين لإخطار أخيه قطب الدين بتلك الفكرة فخرج هو الآخر من المدينة متلرعاً بإحدى الحجج. ثم توجه إلى جبلان، وانضم إلى أخيه وذهب معاً إلى سلطان الإسلام غازان خان. وفي فيروزكوه تشرفا بتقبيل الأرض بين يدي غازان، وبحضور الأمير نوروز الذي كان قد قدم من خراسان منذ وقت قريب. وقد ذكر الأخوان أقوالاً مرضية نقلاً عن لسان طغاجار.

(١) "قتلغ شاه" هذا شخص آخر يحمل نفس اسم "قتلغ شاه" أحد أمراء غازان وقائد قواته المسلحة.

(٢) هشترود (الأنهار الثمانية) عرجها الجبال شرق مرانغ ذات الشين وثلاثين طاقا (بلدان الحفلة الشرقية، ص ٢٠٤).

ولما كان نوروز قد شمل برعايته جنوده، وهبأهم للقتال، أمر غازان بمشد كافة الجيوش. وقد جرت تلك الأحوال في شهر شوال. ولأن بايدو كان خائفاً خائفاً، أرسل "قتلغ شاه" مرة أخرى بأقوال موهبة؛ غير أن سلطان الإسلام [ص ٢٢٩] - بفرط كياسته - عرف أن الأمر لا يخلو من كيد ومكر؛ فأمر بتعريته، وبضربه بالعصى والمراوات وبهذا تفحص منه حقيقة الأحوال. إذ راح يشرح كل أحوال بايدو وأمراته وجنوده وتفكيرهم في إثارة الدسائس والفتن وتلمس العيوب. ثم أضاف قائلاً: لقد أرسلوني حتى أعلم إن كنتم تنوون الزحف أو لا. فأمر غازان بتقييده وسجنه في قلعة استونايند بيهلرود.

وفي يوم الجمعة منتصف شوال توجه غازان باليمن والبركة صوب الري، وسار الأميران نوروز وقتلغ شاه في المقدمة، وصار نوروز جريئاً على عادته يذيع الأنباء عن كثرة جنود غازان. وعندما وصل سلطان الإسلام إلى "هيلرود"، فر من بايدو الأمير جويان وقورومشي گوركان بن عليناق، وانضما إلى الحضرة، فسر سلطان الإسلام سروراً شديداً بوصولهما، واعتبر ذلك فائزاً ميموناً، وأكرمهما إكراماً بالغاً، ومنح كلا منهما قباء وقلنسوة ومنطقة (حزاماً) مرصعة. ثم تحرك من هناك، ونزل عند وادي نهر "قوهه" وأقام عدة أيام. وقد انتهز الأميران جويان وقورومشي هذه الفرصة فقالا: لو يتعطف علينا سلطان الإسلام فسوف نرحل ونسير في المقدمة مع الأميرين الكبيرين نوروز وقتلغ شاه؛ فأذن لهما بذلك وانضما إليهما.

بعد ذلك ترك سلطان الإسلام غازان خان زوجته بولوغان الخراسانية هناك، وسار عقب الأمراء. وعندما وصل إلى آمد خواجه قزوین، قدم "أرغا بيتكجي" أخو بوغداي احتاجي من قبل نوروز، وأعلن أن الأميرين طغاجار وبوغداي انفصلا عن بايدو وأنها يقصدان حضرة سلطان الإسلام. وقد انضما إلى نوروز. ثم سار السلطان من هناك عن طريق "سجاس" حيث وصل إلى خدمته الأمير النجل خيرنده والأمير النجل "المدار". وعندما قدم غازان إلى بهستان على ضفاف "سپیدرود"، وصل إلى الحضرة الأمراء دولاداي ابداجي وابلتمور بن هندوقور مع طائفة أخرى. ثم رحل من هناك، ونزل "تيوز آغاج" في انتظار [ص ٣٠٠] نوروز وقتلغ شاه اللذين خرجا إلى "نخجوان" و"أرس" يتعقبان بايدو وتوكمال.

وبعد ذلك قدم غازان إلى أوجان، ووصل من قتل نوروز وقتلغ شاه الأمير "بانتجار" يعلن أن بايدو قد أسر، وسبق من ناحية غنجان إلى تبريز. وهو يقول: أريد أن أتحدث إلى السلطان بكلمة أو كلمتين. فما هو الرأي؟ غير أن السلطان قد عرف بفراسته أنه ليس لدى بايدو كلام مفيد يقوله، وإنما يبحث عن حجة يتذرع بها. وعلى هذا صدر الأمر بعدم إحضاره إلى الحضرة والخلاص منه هناك. وكانوا قد أخرجوه من تبريز، ووصلوا به إلى "باغ بيكش" حيث أنهوا حياته في يوم الأربعاء الثالث والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م.

وعلى أثر ذلك، نفذ حكم المرسوم الذي يقضى بتخريب كل معابد البوذيين ودور الأصنام والكنائس والبيع في دار الملك تبريز وبغداد وسائر بلاد الإسلام. وقد شكر المسلمون الله تعالى شكراً كثيراً على هذا الفتح المبين؛ لأن أهل الأزمان السالفة لم ينالوا تلك الأمانة.

بعد ذلك عقد سلطان الإسلام العزم على السير إلى دار الملك تبريز، فاستقبله صدر الدين الزنجاني الذي كان قد ذهب إلى المدينة لتدبير المصالح، ثم سار حتى بلغ "كندرو"، وكان يريد أن يطلع الناس على منزله وجهه، فصار يتعالى ويتغطرس إلى حد الوقاحة. وكان يتحدث وهو على صهوة جواده. وفي ذلك اليوم كانت التوجهية للأمير مولاي، فقال لصدر الدين الزنجاني: ليس هذا السلوك هو سبيلك! فلا تتجاسر، والزم حدك". ولكن صدر الدين لم يعبأ به؛ فضربه مولاي بالسوط عدة مرات على رأسه، وأقصاه عنه. ولهذا السبب ولأسباب أخرى اغخط شأن صدر الدين.

وفي يوم الأربعاء الثالث والعشرين من ذي القعدة نزل سلطان الإسلام في عظمة تامة بظاهر تبريز في السراي المبارك "بشم".

وبموجب فرمان أعدم ايلجيتاي قوشجي دون محاكمة، وأعطى السلطان بولوغان الخراسانية ما يملكه. وبعد ذلك وصل نوروز وقتلغ شاه وقدمت من "سوقورلوق" بولوغان خاتون والخواتين الأخريات. وفي جوسق العادلة أقيمت الولائم والاحتفالات، وحقق مع قنجهال وجيجك، وقتل قونجهال قصاصاً لدم آقبوقا [ص ٣٠١] ثم أسرع غازان من هناك إلى "قراته"، وضرب جيجال بالهراوة وأطلق سراح توداجو، وأرسل الأمير "نورين"

على رأس جيش إلى خراسان ومازندران، ثم عاد إلى تبريز حيث وجّه هذا النداء ومضمونه أن على الجميع أن يراعوا مسلكهم، ولا يظلم بعضهم بعضاً، ولا يشيروا الفتنه والفساد، ولا يعطوا داتقاً ذهبياً قط لأى مخلوق بدون حوالة مختومة بالختم الذهبى.

بذلك نال العالم والعالمين بفضل عدل سلطان الإسلام وميامن إنصافه الزينة والنظام والراحة التامة، ولهجت ألسنة القريب والبعيد والترك والتازيك^(١) بالدعاء للدولة الممتدة أيامها، وتعبيراً عن الشكر لثقل هذه الموهبة القذة قدموا صدقات لا حد لها. ومن وراء حجاب الغيب، صاح هاتف الإقبال وقال:

(بيت فارسى فى الأصل ترجمته)

كان ملك العالم قد بقى بغير سلطان ورئيس

أما الآن فجاء سلطان جدير بأن يزين رأسه

بعد ذلك أرسل السلطان من تبريز الأمير مولاى للإمارة والحكم فى ديار بكر وديار ربيعة، ورعى الأمير نوروز رعاية تامة، وأصدر مرسوماً ينص على أن تقبض إليه الوزارة لجميع الرعايا. وهو يقيم الآن فى تبريز، ويصرف مصالح الناس ثم يحىء عقب ذلك إلى أركان.

وفى يوم الإثنين ٦ من ذى الحجة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م غرك غازان خان من دار الملك تبريز قاصداً مشى "أران". وفى ناحية تبريز تزوج من بولوغان خاتون زوجاً شرعياً رغم أنها كانت ضجيعة والده أرغون خان. ولكن حيث أن الزواج كان قد تم مع اختلاف الديانة فى ذلك الوقت، وأن السلطان والخاتون فى الوقت الحاضر، كلاهما على دين الإسلام، فإن هذا النكاح يعتبر نكاحاً صحيحاً شرعاً^(٢).

(١) كان الإيرانيون أول من أطلق هذه الكلمة على العرب، ثم انتقلت إلى الصينيين، ويحتمل أن تكون قد وصلت إلى الترك. ومن المعلوم أن دلالة هذه الكلمة قد تغيرت شاملاً على القرن الحادى عشر الهلادى كانت تطلق على غير العرب وربما على الإيرانيين. وأغلب الظن أن الأتراك أطلقوها على كل المسلمين إلى المدينة الإسلامية. ثم بعد ذلك على الإيرانيين خاصة، لأن الأتراك كانوا يعرفونهم أكثر من غيرهم من المسلمين. (انظر: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، تأليف المستشرق فروسى و. بارتولد، ترجمة الدكتور أحمد السعد سليمان، ص ٣٨، القاهرة ١٩٥٨م).

(٢) بخصوص زواج غازان من بولوغان خاتون يقول ابن حجر العسقلانى عن غازان: "ما أسلم قبل له: إن دين الإسلام يحرم نكاح نساء الآباء. وكان قد استضاف نساء أبيه إلى نساءه. وكان أبهى إليه بولوغان خاتون، وهى أكبر"

وقد زف عليها باليمن والسعادة. وجرياً على المجهود والعتاد أقيمت الولائم والأفراح، وأظهروا المباحج والمسرات. ثم عرجوا إلى طريق "أهرويشكين"، واتجهوا إلى موغان، ونزل الموكب عند (أبو بكر آباد) بموضع "بول خسرو".

وبعد أسبوعين نال نوروز الشرف بالحضرة، واجتمع في "قرباغ" من أران كافة الخواتين والأمراء والأنجال والأمراء وأركان الدولة وأعيان الحضرة، واتفقوا جميعاً على تولية سلطان الإسلام الحكم بلا رياء ونفاق، وحرروا جملتهم إقراراً مكتوباً شاهداً على ذلك. وقد اختاروا لجلوسه المبارك [ص ٣٠٢] يوم الأحد الثالث والعشرين من ذى الحجة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م الموافق الثالث والعشرين من شهر طوقسونج آي، قوبين ييل، وأجلسوا سلطان الإسلام على عرش الخانية بالطالع المسعود. وقد ركب كافة الخواتين والأمراء الأنجال والأمراء كل في مكانه وأداروا الكتوس، وهنأوا العالم بجلوسه المبارك وقالوا:

(بيت من الشعر الفارسي في الأصل ترجمته)

اسمع بنفسك واجتهد لأن الروح العالمية

مرتبطة بتلك الروح العزيزة التي شلكتها أنت

"نساء آية، فسيهم أن يرتد عن الإسلام! فقال له بعض عواصمه: إن أباك كان كافراً ولم تكن بلغان معه في عقد نكاح صحيح، إنما كان مساقماً بها، فاعقد أنت عليها، فإنها فعل لك ففعل. ولولا ذلك لارتد عن الإسلام. واستحسن ذلك من السدي أنصاه به هذه الصلحة. (الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٢١٣، حيد آباد الدكن، ١٣٥٠هـ).

حكاية

بدء تنظيم شئون الجيش والبلاد بأمر سلطان الإسلام بعد جلوسه المبارك

بعد إقامة مراسم الأفراح والأنس، اتجه رأى غازان - الذى هو زينة للممالك - إلى ضبط وتنظيم شئون المملكة. وفى الأربعاء سلخ ذى الحجة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م، أرسل الأمير طغاجار ليتولى إمارة الروم وحمايتها؛ وذلك لأنه رجل سريع القلب. ومن المصلحة أن يكون بعيداً عن الحضرة. وفى يوم الجمعة سلخ المحرم سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م قدم الرسل من خراسان، وأخبروا أن الأميرين "دوا" و"ساربان" ابنى "قايغو" انتهزا فرصة غياب الربابات السلطانية، ودخلا خراسان ومازندران، وشرعا فى النهب والسلب، فتشاور سلطان الإسلام مع الأمراء، واستقر رأى على أن يسير الأميران سوكا ونوروز للقضاء عليهما. غير أن سوكا ذهب إلى دياره. ومهما حاولوا استدعاه كان لا يستجيب متعللاً بشنى الأعذار. وأخيراً أرسل سلطان الإسلام "هورقداق" لاستدعائه. وتحت وطأة السكر تقوه بعدة كلمات مثيرة للفتنة؛ فأوصلوا تلك الحكاية إلى السمع الأشرف؛ غير أن غازان لم يلفت إلى ذلك لفرط ثباته ووقاره [ص ٣٠٣]. وعندما وصل سوكا إلى الحضرة شمله غازان برعايته التامة وعينه على خراسان، وسير معه من أمراء التومان "بارولا" بن الخواجه بن يسور نوبان من قبيلة أولقونوت، وكذلك أرسلان أغول من أحفاد "جوجى قسار"، وأرسل فى الطليعة نوروز وهورقداق فى خدمة الأمير طايغو أغول، وعيّن للنيابة حاجى نارين أخا نوروز وساتلميش من أتباعه القدامى.

وفى يوم الجمعة ٢١ من صفر غادر نوروز وهورقداق المعسكر. وفى يوم الإثنين ٢٤ من صفر سارا عن طريق العراق. وفجأة وصل نبأ يفيد أن طرقاى گوركسان أمير أويرات الذى كان فى ديار بكر، وتلك الناحية عزم على المسير إلى ديار الشام مع الأميرين يسوتاي بن طاشمكوقوشجى وكوكتاى بهادر مع أهلهم ومتاعهم وأتباعهم من كتائب الأويرات فركب الأمير مولاي لمنعمهم، لكنهم هزموه ورحلوا. وفى آخر ربيع الأول، وصل خبر يفيد بأن "الهدار" هرب مع ثلاثائة فارس، فسار إليه شادى بن بوقور وأبنه بك أخو أشك

توغلى مع ثلاثة آلاف رجل، وحاربوه وانتصروا عليه. وقد ظل غنظيًا مدة في منطقة أرزن الروم. وفي النهاية اعتقلوه في إحدى القرى، وقتله إقبال بن أورتوتو بن ايلكاي نوبان. وكذلك في يوم الخميس العشرين من رجب قتل يسوتاي بن طاشمكو قوشجي الذي كان قد أثار الفتنة في ديار بكر. وفي السادس من ربيع الآخر أعدم بولارغى قتاي شكورجي الذي كان متضامنًا في آخر عهد أرغون مع الأمراء المثيرين للفتنة، وحتى يوم مقتله كان له دخل في كل ما حدث من قلاقل. والسلام.

حكاية

شروع سوکا وبارولا فی المخالفة والتمرد ووضوح ذلك وتوجه الجيش للقضاء عليهما ومآل ذلك الحال

لما سار سوکا وبارولا من أران تشاورا كثيرًا مع الجنود، فقالوا جميعًا: إنهم يرسلوننا إلى خراسان كي يتقاسموا نساءنا وأطفالنا ويوزعوه على جنود خراسان. وعقب التشاور اتفقوا على أن يتخلصوا من نوروز أولاً. وبعد ذلك يذهبون إلى العسكرات، ثم يجلسوا سوکا على العرش. وقد جرى هذا التدبير في موضع "كره رود" الذي يسمونه "تركان موران".

فلما علم نوروز بتلك المؤامرة داهم سوکا وقت الضحى، واقتل الطرفان قتلاً شديداً فقتل "بارولا" أولاً في تلك المعركة وهرب سوکا، واتجه إلى خرقان^(١) وسأوه^(٢)، فتعقبه هورقداق مع كوكبة من الفرسان، وتم اعتقاله في ناحية خرقان، ثم جاءوا به إلى موضع "سركوى رى". فقال هورقداق لساتى بن لاوداى الذى كان متآمراً معهم: "اقتل أنت سوکا". فذهب إلى السراقى كي يقتله جرمًا على العادة المتبعة في قتل أبناء الملوك. ولكن سوكاى طعن ساتى بمدية في بطنه، فأرداه قتيلاً. عندئذ دخل المدعو باتيمور من أتباع هورقداق، فانتزع المدينة من يده وأجهز عليه.

فى ذلك الوقت كان سلطان الإسلام قد اعتزم صيد نوع من الأسماك اسمه "آق باق" من موضع "أبى بكر آباد". وفى الثامن من ربيع الآخر، قدم "ساتلمش كلجى" من قبل نوروز وأبلغ غازان وهو فى موضع الصيد نبأ نرد سوکا. وفى تلك اللحظة عاد

(١) خرقان: تقع على بعد أربعة فراسخ من بسطام فى الطريق القلعب إلى استراباد. وكان لها شأن كبير فى السنين السابعة والثامنة (ثلاثة عشرة والرابعة عشرة) وهولاءها طيب وملاؤها كثير. وفيها قبر الولد أبى الحسن الخرقانى (بلدان الخلافة الشرقية، ص ٤٠٦).

(٢) سأوه: مدينة حسنة بين الرى وهمدان، وبقرىها مدينة يقال لها آوه وسأوه سنة شاقية، والنسبة إليها سلاوى وسلاوى. أما آوه فأهلها شيعة إباضية، وبينها نحو فرسخين. وكان بها دار كتب كبيرة. وقد نسب إليها طائفة من أهل العلم (معجم البلدان، ج ٣، ص ١٧٩).

سلطان الإسلام، ونزل على حافة سد "منكو تيمور". [ص ٣٠٥] وكان في حضرة غازان الأميران قتلغ شاه وساتلمش. وفي الصباح أصدر غازان قراراً يقضى باعتقال ايسن بن قونقورتاي وقورمشي أخى بارولا إذ كان لهما دخل في المؤامرة التي دبرها سوكا. وبعد المحاكمة قتل ايسن تيمور و"جريك مغول" الذي كان أميراً على معسكره وكذلك قورمشي.

وقد اتفق الأمراء قتلغ شاه وچوپان وساتلمش وسوتاي وإيلباسميش على تعبئة الجيوش. وفي أثناء ذلك وصل ياساميشي أمير مولاييد من خراسان، وأخبر أن "نوروز" قتل سوكا^(١) وبارولا، وأن الأمير "تورين" اعتقل جيباك ودولاداي في خراسان، وأن الأمور تسير وفق المراد، وهزم أغلب طائفة الأمراء. أما الجماعة التي بقيت فقد نصبت أرسلان أغول رئيساً لها، ثم قدموا إلى يلسوار^(٢)، ومن هناك ساروا إلى جهة ساري المتصورة، وقرية بايي (ديه بايي)، وأقاموا بهما. وفي الحال كلف سلطان الإسلام الأمراء چوپان وسولاميش وقورمشي وطغريلجه وتابناق وإيلباسميش بالسير بجنودهم للقضاء عليهم، فالتحموا في منطقة ييلقان^(٣)، وخاضوا حرباً حامية. وكان مع أرسلان أغول من الأمراء تولك ابن عم أوجان الذي كان أمير السلاح، وأبنيه بك بن أشك توغلي من الجلائر وغازان بن طايكو بهادر وموسى ترخان وسركيس بن نارين أحمد. وكانت لهم الغلبة في ذلك اليوم. وقد أصيب من جنودنا طغريلجه بجرح بليغ؛ كاد يسقطه على الأرض، فرعاه قورمشي بن عليناق (ص ٣٠٦) ثم سار هورقوداق وباريم مع ألفي جندي لمدد جيشنا، ووقف الجيشان كل في مواجهة الآخر؛ غير أن جنود الأعداء استسلموا وأعلنوا خضوعهم دون قتال، وبذلك لحقت الهزيمة بأمرائهم.

بعد ذلك عاد هورقوداق، واعتقل سركيس، وأحضره معه.

(١) ذكر المؤرخ أن الذي قتل سوكا هو تيمور أحد أتباع هورقوداق.

(٢) يلسوار: تقع في سهل موغان. يقال إنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى الأمير "يله سوار" الذي ولاه بنو بويه عليها.

ومعنى اسمه "الفارس الصنيد". (بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢١٠).

(٣) ييلقان: مدينة قرب القزوين الذي يقال له باب الأبواب. تعد في أرمينية الكبرى قرية من شروان. وقد علها قوم

من أعمال أران (معجم البلدان، ج ١، ص ٥٣٣).

كذلك قام الأمراء الآخرون بتعقب المنهزمين، واعتقلوا "تولك"، وأحضروه معهم، ثم أعدموه مع سركيس. وفي يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م اعتقلوا أرسلان أغول، وأحضروه معهم ثم أعدموه. وعقب ذلك غلصوا أيضاً من غزان بن طاجبور بهادر.

وفي تلك الأيام اعتقل صدر الدين الزنجاني، وطالبوه بالأموال التي كان قد سجلها عليه جمال الدين المستجرداني^(١)، ولكن حمته بولوغان خاتون، ونجا بشفاعتها. ثم انتقل إلى معسكر قويونل. وفي يوم الخميس السابع من جمادى الآخرة، عزم غازان على زيارة الشيخ إبراهيم الزاهد. وبعد يومين قدم إلى المعسكر، وأرسل الأمير "هورقوداق" ليكون أميراً على إقليم فارس، وعهد إلى "ياساميشي" بتصرف الشئون وجمع الأموال.

وفي تلك السنة وقعت حرب بين توفتا ملك "أولوس" القيقاق ونوقاي بن ناتار، فقتل نوقاي، وتفرق أتباعه، فقدمت إلى حضرة سلطان الإسلام "جبي خاتون" زوجة نوقاي و"توري" ابنه الأصغر، وطلبا المساعدة والمدد قصاصاً لدم نوقاي، فصار سلطان الإسلام يطيب خاطرهما بلطفه، ويهدئ من روعهما. وفي ليلة الأربعاء السادس والعشرين من رجب زوج سلطان الإسلام أخته "أولجاتيمور" [ص ٣٠٧] من الأمير قتلغ شاه، وكانت قبل ذلك زوجة لتوكال.

ولما كان وجود "طغاجار" أساساً للفتن والفساد، وكان سلطان الإسلام يرغب في أن يقضى نهائياً على مصادر الفتن، أرسل الأمير "خرمنجى" في ذلك الشتاء إلى الروم كي يتفق مع بالو وعرب وأمراء جيش الروم على الخلاص من طغاجار. وعليهم أن يبادروا أولاً بتسليمه اليرليغ (المرسوم) الذي يتضمن استماتته والتودد إليه، ثم ينتهزون الفرصة لقتله في السر حسب الأمر الصادر إليهم. ومع أن سلطان الإسلام لم يكن يميل إلى القضاء عليه؛ إلا أن مصلحة الملك وإدارة شؤونه حتمت عليه اتخاذ هذا القرار. وفي تلك القضية قال السلطان غازان للمقرئين إليه: حدث في قديم الأيام في ولاية الخطا أن ملكين تجارياً فانهزم أحدهما، وتفرقت جنوده، وصار الجنود المنصورون يتعقبون المنهزمين عدة أيام، حتى أدرك أحد الأمراء ذلك الملك المنهزم. ولما كان هذا الملك في غابة العجز والضعف أشفق عليه

(١) انظر التضميلات في كتاب الشرق الإسلامي ص ٢٣٠ - ٢٣١.

الأمير، وأراد أن يخلصه، فصاحبه حتى وصل به إلى بئر فى تلك المنطقة، وقال له: انزل فى هذه البئر حتى لا يراك جنودنا. ولما وصلت طائفة الجند المنصورين لم يستطيعوا العثور عليه لأن المنطقة كانت رملية، وثارت الرياح فمحت آثار الأقدام. فقال لهم ذلك الأمير: "إن الطريق ليس واضحاً، ولا يعلم إلى أية ناحية ذهب الملك وقد يمضى فى طريق، ونحن نسلك مائة طريق. وإذا فكيف يمكن العثور عليه؟!... الأولى أن نعود. فرجعوا جميعاً. ثم خرج ذلك الملك من البئر، وعاد إلى مملكته، وجمع جيشاً بالتدريج والثانى وعاد إلى شن الحرب مرة أخرى، وانتصر على ذلك الملك الذى كان قد تغلب عليه فى المرة السابقة وقتله واستولى على ملكه، وخصص الأمير الذى كان سبب نجاته - بأنواع الرعاية والتكريم وصار مقرباً إليه للغاية، وفوض إليه الإمارة الكبرى والنيابة المطلقة.

وذاث يوم قال أحد الأمراء للملك: إن هذا الشخص تنكر لحقوق مليكه، ولم يكن وفياً له، وكان هو السبب فى هلاكه ووصولك إلى الحكم. فكيف يمكن تركه حياً؟! إنه عن قريب سوف يفكر فى الغدر بك. [ص ٣٠٨] وكان الملك غاية فى الذكاء، فاستمع لذلك الكلام، وأشار بقتل منقذه؛ فصرخ ذلك الأمير قائلاً: إن لى عليك حقوق إنقاذك والمحافظة على حياتك. فبكى الملك، وقال: إن الحق معك، وأنا لا أرضى عن قتلك مطلقاً. ولكن لا مفر من رعاية مصلحة الملك والحكم. ومن اللازم أن تقتل. ثم قتله وهو يبكى.

وهكذا فإن شأن ضبط الأمور يجرى على هذا النمط. ورغم أن قتل شخص من الأشخاص أمر صعب على جِدِّ، فإنه إذا لم تراع السياسة والحزم فى المحافظة على القضايا الكلية والجزئية، فإنه لا يمكن تدبير الملك.

وجملة القول أن سلطان الإسلام ركب فى أول الربيع من "بيلسوار" قاصداً دار الملك تبريز، ونزل باليمن والبركة فى سراى "شم تبريز". وفى السابع والعشرين من رجب قبض على آينه بك، وأحضر إلى تبريز. وفى يوم السبت التاسع والعشرين، قتل فى الميدان هناك. وفى يوم الأربعاء العاشر من شعبان وصل الأمير "إلادو" من خراسان، وعرض أحوال ذلك الإقليم كما هى ثم غادر سلطان الإسلام تبريز إلى ناحية "مرغزار صاين" الواقعة بين سرلو وأردبيل. وفى يوم الأربعاء السابع عشر من شعبان عقدوا مجلس الشورى (القروريلشاي) فى تلك المنطقة، وانفض المجلس فى التاسع عشر. والسلام.

حكاية

أحوال نورين آقا وكراهية الأمير نوروز إياه

وبدء اختلال وضع نوروز

كان نورين آقا من قبيلة قيات. وكان بالنسبة إلى غازان شخصاً موثقاً به محترماً لديه وموضع اعتماده المطلق، ومحرم أسرارهِ. وكانت له سلطة كبيرة في خراسان ومازندران. وكان "أويراتاي" أخو نوروز تابعاً له. واعتماداً على عظمة عهد نورين، كان لا يعبأ كثيراً بأويراتاي، فكان هذا يشكوه إلى أخيه نوروز؛ فيتولد بذلك الكدر والنفور. ثم إن "نوروز" عندما وصل إلى منطقة خراسان [ص ٣٠٩] أرجع سب تغلب الثمرديين وسيطرتهم إلى تقصير نورين، وكان يفتابه بكلمات لاذعة مزعجة في حضور أتباعه وغياهم. وعندما وصل الإنسان إلى جرجان، كان كل منهما متأثراً من صاحبه. ثم وصل الأمير النجل "طايجو" من طريق "تبيشه"، فقال له نوروز مدفوعاً بدافع الغضب والتهور: "لقد أمرت أن أسأل نورين: كيف ترك الثمرديين يدخلون هذه البلاد دون أكثر من ١٢ والأسأل هذا السؤال بحضور الأمير طايجو. فتضايق منه الجميع، واستكروا منه هذا الكلام.

وكان أول خلل تطرق إلى وضع نوروز بسبب ذلك العناد واللجاج ثم قدم من هناك إلى خيوشان، واستعرض الجنود. بعد ذلك قدم رسول من الطليعة ينبئ أن الثمرديين قد شوهوا في مرج رادكان (مرغزار رادگان)، فسار إليهم نوروز للقاء عليهم، ولكن عندما تفحص الأمر اتضح أن الخبر كان كذباً. ثم تشاور مع الأمراء في مشهد طوس قائلاً: "سوف أتحرك إلى مدينة هراة بأربعة آلاف فارس حتى أقف بنفسى على أحوال العصاة. ثم سار على هذا العزم في السابع عشر من رجب، وأرسل غازان الأمير النجل طايجو والأمير نورين إلى رادكان.

وفي يوم الخامس والعشرين من رجب عاد نوروز ونزل في معسكر طايجو، وقال دون أن يعمل عملاً أو يبذل جهداً: سمعت أن زوجتى مريضة، وسوف أذهب إلى حضرة سلطان الإسلام، فاهتموا أنتم بشئون الجيش وإعدادهِ؛ وذلك لحين وصولي. ثم سار على الفور قاصداً آذربيجان، وأعمل شئون خراسان وجيشها. كذلك سار عقب نوروز المذنبون الذين كان السلطان غازان قد أرسلهم معه، ليكونوا في مقدمة الجيش وقت الحرب.

وعندما عاد نوروز، صار جنود خراسان يذيعون إشاعات كل يوم، فتطرقوا إلى هذا السبب إلى حد أنهم رحلوا جميعاً. وكان المدعو "سوم" أمير هزاره^(١) هو أول من هرب مع أربعمائة من رجاله، وعاد إلى حدود أردبيل^(٢) حيث موطنه الأصلي. فلما سمع نوروز في شرويان خير فرار "سوم" ورجاله، ركب إلى سراة دون أن يخبر سلطان الإسلام بذلك وهاجم ديارهم، وأنزل بهم الأضرار وعرضهم للمشقات. [ص ٣١٠] فتأثر سلطان الإسلام بسبب رجوع نوروز، وأرسل إليه رسولا يقول له: "عد إلى قواعذك". فرد قائلا: إن زوجتي الأميرة "طوغان" مريضة، فكيف يمكن أن أعود دون أن أراها؟!... فكان هذا الامتناع أيضاً سبباً في تغير غازان عليه.

وفي يوم الحادى والعشرين من شعبان سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م قدم نوروز إلى حضرة سلطان الإسلام، فاختص بالاعزاز والاحترام. ثم جاء سلطان الإسلام إلى "أوجان". وفي يوم الاثنين ٢٩ من شعبان تزوج من "آشيل خاتون".

وعندما أحس قتلغ شاه نوبان والأمراء الآخرون تغير نظرة السلطان إلى نوروز، وتأثره منه، عرضوا عليه قائلين: ليس من المصلحة إرساله إلى خراسان. ومن الواجب التحرى عن أحواله؛ إذ إنه من تصرفاته يمكن مشاهدة أمارات الفتنة والفساد. غير أن سعة صدر سلطان الإسلام، كانت مثل البحر المحيط لا نهاية له، وحلمه ووقاره أزيد مما يدركه الوصف فقال: مع أن كلامكم صحيح؛ غير أنني لا أستطيع نقص العهد والحث في اليمين.

وفي يوم الأربعاء غرة رمضان عاد نوروز إلى خراسان بناء على أمر غازان، وكان يصاحبه نظام الدين عجمي باعتباره نائباً له. فلما وصل إلى خراسان، كان أبناء "توقاي يارغوچی" يقصدون قتله في السر قصاصاً لدم أبيهم، فكان نوروز خائفاً منهم. وخلال هذه الأحداث توفيت "طوغان" زوجة نوروز، وأخذ حاله في التدهور، ولكنه كان يتجلىد ويجدد ويجهد. وفي الثامن من رمضان سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م نزل غازان خان على ضفاف

(١) المقصود قائد كتيبة عددها ألف جندي.

(٢) أردبيل: من أشهر مدن أذربيجان. وهي مدينة كبيرة جداً. وأما بالقوت في سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م فوجدنا تلح في قضاء فسيح، وبها عدة أنهار. ولكن من الغريب حقاً أنها لا تبت صنفاً من الفواكه. فتحيا للفول عنوة، وغربوها غرباً تلياً؛ غير أنها سرعان ما عادت إلى الأزدغار في عهدهم. ينسب إليها كثير من أعل العلم في كل فن (معجم البلدان، ج ١، ص ١٤٥ - ١٤٦).

"تاوور دولا" طريق تبريز، حيث شيد الخديقة والجوسق المبارك. وفي تلك الأيام قدم سلطان "ماردين" وأهدى غازان مالاً وفيراً من النقود والجواهر، ثم عاد مشعولاً بالرعاية والتكريم التام، وبمزيد من الابتهاج. وفي الثالث عشر من شوال قتلوا "حسام الدين لر" في "هشترود". وفي السادس والعشرين كان الاحتفال بعرس "دوندى" والدة الأفرنك. وفي الثامن من ذي القعدة قتلوا سياغوت بن شيرامون بن جورماغون في "سه گنبدان". [ص ٣١١].

بعد ذلك قدم سلطان الإسلام إلى مراغة حيث تفقد المرصد^(١). وقد أقام الحكام هناك الولائم والاحتفالات. وفي ذلك اليوم عرضوا على غازان الرسالة التي كتبها ايلدار بن قوتقورتاي إلى بالثو بحرضه على التمرد والعصيان، فرحل غازان على الفور عائداً إلى المعسكرات. ثم قبض على ايلدار وقتل بعد ثبوت التهمة عليه.

(١) أقام هذا المرصد العالم الرياضي الفلكي خواجه نصير الدين الطوسي السمي محمد بن محمد بن الحسن بأمر هولاكو خان في مدينة مراغة، وأعد به أدوات الأجهزة المعروفة في زمانه، وألحق به مكتبة كبيرة تحوى ما يزيد على أربعمائة ألف مجلد. وكان هناك علماء في الفلك من الصين يقدمون العون والنصح. إلى جانب المهمة الأساسية التي كان يؤديها هذا المرصد، كان عبارة عن دار للفقهاء والفلاسفة والأطباء، وانظر جامع التواريخ، المجلد الثاني - الجزء الأول: تاريخ هولاكو، الترجمة العربية، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ وما بعدها، فوات الوقفيات تأليف ابن شاذكر الكبيسي ج ٢ ص ٣٠٧ وما بعدها، تحقيق محمد محبي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥١م؛ السلوك للمقرئى، ج ١ ق ٢ ص ١٤٢١؛ نسوخ نامه المملوكي، تأليف خواجه نصير الدين طوسي، بالمقدمة وتطبيقات مدرّس رضوى، ص نوزده يست وبك (١٩ - ٢١) من مقدمة المحقق، تهران ١٣٤٨ هـ؛ موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين، تأليف جوزيف نيندهام، ترجمة غريب جوده، ص ١٢٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م.

حكاية

توجه الرايات السلطانية إلى بغداد، وقتل افراسياب لر

وجمال الدين المستجردانى ومولانا عز الدين

مظفر الشيرازى وولادة الأمير

النجل أولجاي

فى يوم الثلاثاء الثامن عشر من ذى القعدة سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م تحركت الرايات السلطانية من مراغة قاصدة مشى بغداد، ثم سارت صوب همدان. وفى الرابع والعشرين من الشهر المذكور، وصل نورين آقا من خراسان، فشملة سلطان الإسلام بعطفه ورعايته.

ولما كان بالتو بن تبشى يعمل فى ممالك الروم منذ عهد آبا قاخان سيطر هناك سيطرة تامة؛ خصوصاً بعد أن توفى سماغار نوبان، وكان ابنه "عرب" لا يزال طفلاً. لهذه الأسباب زاد استبداد بالتو، واشتد نفوذه. وكلما استدعاه سلطان الإسلام، كان ينتحل الأعذار. وبعد قتل طغاجار جاوز نفوذه وغطرسته الحد، ولصق به اسم المتمرّد.

وفى شهر سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م، أبلغوا غازان - فى الوقت المناسب، فتوجه الأمير قتلغ شاه إلى الروم بموجب الفرمان مع ثلاثين ألف جندى للقضاء على فتنه بالتو الذى اختبأ فى كمين خلف أحد الجبال [ص ٣١٢]، فتعقبه الأمير قتلغ شاه مع سولاميش وعرب وبورلتاي أغول وأبيشقا الذى كان فى المقدمة. فلما وصل إلى ذلك الجبل، خرج بالتو من الكمين. وقد جرح أناس من الطرفين. وعلى الأثر وصل الأمير قتلغ شاه إلى صحراء "ماليه"، وهزم بالتو بهزيمة واحدة. ثم أرسل الأمير قتلغ شاه "سولاميش" فى إثره وعاد إلى مشى أران.

فى ذلك الوقت كانت الرايات السلطانية تقصد بغداد. وعندما عادت إلى "مرج زك" (مرغزار زك) من منطقة همدان، قلد السلطان جمال الدين المستجردانى الوزارة بدلاً من شرف الدين السمناني، وكان ذلك فى الثامن من ذى القعدة سنة خمس وتسعين وستمائة. وقد أقام غازان هناك شهرًا، وتشرف بلقاء حضرته ملوك "العراق العجمي"^(١)، وأنجزوا

(١) المقصود بالعراق العجمي (تقليم الجبال) للمنطقة التى تكون حدودها على النحو التالى: حدّها الشرقى مغارة خراسان وفارس وأصبهان وخرقن غوزستان، وحدّها الغربى لأذربيجان، والشمال بلاد الديلم وقزوین والرى، وحدّها =

المهمات، ثم استأذنوا في الانصراف. وكان "هورقدان" قد عاد بعد أن فرغ من جباية أموال فارس. وكان الأتابك "أفراسياب لر" قد هم بالرجوع بعد أن وجد الرعاية والتكريم من السلطان. غير أن "هورقدان" أعاده من الطريق، واصطحبه معه. فلما وصل إلى الحضرة، استفسر منه غازان عن الأوضاع في فارس. فقال: إن العبد يعرض أولاً أحوال هذا "التازيك" إذ أنه عند ذهابي إلى فارس مررت ببلاد "أفراسياب لر"؛ فلم ينجي لاستقبال فثار أتباعه في وجهه، وقالوا: لقد استولينا على هذا الملك بحمد السيف، فألت موارد إلينا وأصبحت حقاً لنا. وأنا لن أتحدث عن إثارة الفتن الأخرى وقتل باهلو شحنة أصفهان والزحف بالجيش إلى أصفهان وفيروزان، وما صاحب ذلك من اعتقالات، وأمثال تلك التصرفات. فغضب سلطان الإسلام على أثر سماعه تلك المخالفات، وأمر بقتل أفراسياب^(١).

وعندما بلغ غازان وأتباعه منطقة قرية سيندان "ديه سيندان" حرض الشيخ محمود وصدر الدين الزنجاني جماعة على التمرد والعصيان [ص ٣١٣]، وذلك بوشاية جمال الدين الدستجرداني، فحقق معه في الثامن والعشرين من ذي الحجة سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م وقتل. ومن هناك سار السلطان الأمير "خرينده" ابن سلطان العالم إلى خراسان ليكون نائباً عنه. وفي تلك الأيام وشى عز الدين المظفر الذي كان حفيد عميد فارس - بحاكم ذلك الإقليم الشيخ جمال إبراهيم السوملي، وكان صدر الدين الزنجاني متعاوناً معه. ولما لم يستطع إثبات تهمة الخيانة على الحاكم، قتل الواشي عز الدين.

^(١)الجنوبي العراق وبعض عوزستان (انظر الدكتور نافع تولين العبود: الدولة الخوارزمية: نشأتها علاقاتها مع الدول الإسلامية نظمها العسكرية والإدارية ٤٩٠ ٦٢٨ هـ / ١٠٩٧ ١٢٣١م، ص ٣٢، حاشية ٥٧، بغداد ١٩٧٨م).

(١) يذكر شرف خان البلخي أنه لما تولى غازان خان أمر القبول، وبسط سلطانه على البلاد، بلاد أفراسياب إلى تقديم الطاعة له، وإلى الشرف بالحضرة السلطانية، فتمطف عليه السلطان وأبقاه في منصبه في حكومة لرستان. وفي سنة (٦٩٥هـ / ١٢٩٥م) التي كان غازان قد توجه فيها نحو بغداد كان الأتابك أفراسياب قد تشرف مرة أخرى عند حدود همدان بالمعبات السامية، ونال لديها الحظوة والقبول. ولكنه حين رجوعه إلى بلاده التقى به في الطريق الأمير "هورقدان" الذي كان عائلاً حيث من فارس قاصداً الحضرة الملكية، فقبض هذا عليه، وأعادته بالقوة والفتب إلى الحضرة ورفع إلى غازان خان تفاصيل ما صدر من أفراسياب من الأعمال الجائرة والتصرفات السيئة، وبلغ في ذلك مبالغة كبيرة حتى حمله على صدور الأمر بقتله (انظر كتاب شرفنامه، ج ١، ص ٣١ - ٣٢، ترجمة إلى العربية محمد علي عوني، وراجعه وقدم له يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٥٨م).

رسالة على لسان نوروز إلى حاجي نارين بخصوص هذا الموضوع، وذهب إليه، وتناول كأساً على سبيل الاحترام، ثم وضع الرسالة في متاعه دون أن ينتبه، ثم انصرف. بعد ذلك أرسل الشيخ محمود أخاه سليمان إلى الحضرة لإطلاع غازان على ما حدث. وكان سلطان الإسلام قد عاد من موضع الميدان على حدود كرمانشاهان، وجد في السير يوماً واحداً حتى بلغ (شهر آبان) التي تبعد ثلاثين فرسخاً.

وفي يوم الأحد الحادى والعشرين من جمادى الأولى، وصل الشيخ محمود وقطب الدين أخو صدر الدين الزنجاني، ومعهما قيصر إلى "شهر آبان" وعرضاً على غازان موقف قيصر فقال له سلطان الإسلام: "قل الصدق". عندئذ عرض قيصر الموضوع بطريقة لم يثبت فيها أى ذنب على الأمير نوروز. ثم طلبوا عيته، وأخرجوا منها الرسائل والوثائق، [ص ٣١٧] وشهدوا جميعاً بأنها كتبت بخط حاجي رمضان كاتب الأمير نوروز. عندئذ أمر السلطان بقتل قيصر ذلك الغلام ضرباً بالمهرلوات، وتعهد الشيخ زاده بأن يعثر على الغلامين الآخرين.

ثم ذهب بالفعل إلى بغداد لهذا الغرض، ولكن لم يتيسر له العثور عليهما. ولما لم يستطع القيام بما تعهد به قضا عليه أيضاً. وكانت نيران الغضب تضطرم في صدر السلطان غازان، وغرق الأخضر واليابس، فقال: حيث إنه قد وقع الإطلاع على أسرار نوروز ينبغي اتخاذ شروط الحزم والاحتياط قبل ظهور آثار القدر والمكر.

وعلى أثر ذلك صدرت الأوامر بأن يقوم الأمير نورين وباننجار باعتقال جميع آل نوروز من أبناء وأنصار وأتباع وقتلهم جميعاً. وعلى أثر ذلك رحلت الرايات السلطانية من هناك إلى المارونية. وكان حاجي قد عزم على السير، فأدركه باننجار واعتقله، وسبق أتباعه إلى جهة أخرى. وكانوا قد قتلوا قبل ذلك ساتلميش نائب نوروز وابنه قتلغتمور وأوردو بوقا ابن نوروز، وسبق حاجي نارين إلى مرج خانقين، فحقق معه الأمير نورين. ولما ثبت إدانته بإخراج رسالة صدر الدين من أمته، جردوه من ملابسه، وطافوا به حول البيوت، ثم قتلوه ونهبوا دياره وأمواله. وفي تلك الظروف فر ابنه تغاي الذي كان في الثانية عشرة من عمره، ولجأ إلى دار الأمير انجيل الذى كان أميراً لمعسكر الخاتون المعظمة بولوغان الخراسانية، فحافظوا على الصبي هناك حتى سكن غضب السلطان، ثم عرضوا عليه حاله

ونجا من الهلاك. وهو الآن ملازم لخاله الأمير حسين، وسلموا خاصته وأتباعه لبولوغان خاتون الخراسانية [ص ٣١٨]. كذلك قتلوا كمال الصغير (كمال كوجك) الذى كان أيضا نائبا له. وقتل أيضا لكزى فى السابع من جمادى الآخرة فى ميدان "ماهدشت"، وعفوا عن كشلك ابن أخى نوروز، وأخيه يول قتلغ. وبسبب ذلك الفتح سما الميدان الكبير "قتلغ ميدان". كذلك أرسلت الأوامر إلى كل البلاد بقتل جميع أقارب نوروز وأتباعه، وقضوا أيضا على شيدون وإيل يوقا ابنى هندوقور على حدود قصر شيرين.

وفى يوم الثلاثاء العشرين من رجب، وصل إلى الحضرة الأمير التجل خربنده من خراسان. وفى الخامس من شعبان، وصل الأمير قتلغ شاه إلى أسد آباد همذان قادما من ناحية موغان. وبعد ذلك قدم من ناحية الرى الأمير چوپان وبولادقيا. ثم صدر الأمر بأن يسير بولادقيا إلى خراسان لاعتقال نوروز، ويلحق بهورقوداق والأمير سوتاى.

وبعد يومين سير أيضا الأمير قتلغ شاه. وفى إثره أرسل قتلغا كذلك. وفى أوائل شعبان اعتقل فى بلاد الروم سولاميش وعرب بالو بن تنجى بسبب ترددهما، وأحضرهما إلى تبريز. ثم تحرك سلطان الإسلام من أسد آباد قاصدا مصيف آلتاغ، وسير من حدود "كره رود" خربنده ابن ملك العالم للمحافظة على بلاد خراسان. وعندما وصل غازان إلى "نوشهر" جاءت الرسل بالشارة من قبل قتلغ شاه، وهم يقولون: إن "نوروز" اشتبك فى القتال وانهزم وأحضر يولجه أخا طوغان جوق فى الرضاعة.

ومؤدى هذه القصة أنه عندما وصل الأمير قتلغ شاه إلى دامغان وجد أن هورقوداق وسوتاى كانا قد قتلا شحن نوروز الذين كانوا فى الرى ورامين وخوار وسمنان ودامغان وبسطام [ص ٣١٩].

ولما بلغ قواد غازان اسفراين، سار معهم أبناء "يوقا تيمور آغو" للأخذ بقصاص دم أبيهم من نوروز. وفى تلك الأيام أعلن المدعو دانشمند قائد إحدى فرق نوروز المكونة من ألف جندي، أعلن خضوعه ودخوله فى الطاعة؛ فسيره قتلغ شاه فى الطليعة. ثم ذهب أوبراتاي قران إلى نيسابور، وأخطر "نوروز" بوصول جيش غازان، فرحل من هناك. وفى إحدى محطات البريد، واجه جيش دانشمند بهادر، فتحارب الفريقان. ورغم أن جيش دانشمند كان قليل العدد، انهزم نوروز وهرب مع نفر قليل. وفى الصباح وقعت أمتعه

وخزائنه غنيمة في يد خصومه. ثم تعقبه بسرعة فائقة هورقوداق وأبناء يوقاي بارغوجي مع عشرة آلاف جندي. وفي الليل وصل نوروز إلى ولاية جام حيث توجد قطعان غيوله ونزل بينها، وأمر الخدم بإعداد كمين خلف الجدران. وفي منتصف الليل وصل جنود غازان وأرادوا أن يسوقوا الخيول، ففتح نوروز وخدعه الكمين، وأحضرهم أوتار القسي، وأطلقوا السهام، فقتل خلق، وصار الياقون مشردين. وبهذا انهزم نوروز، وخرج جيش هذا الطرف (أي جيش غازان) فائزاً منتصراً. وكان نوروز يسير على غير هدى، وهو منهزم؛ حتى إذا وصل إلى باب هراة دعاه حاكمها فخر الدين بن شمس الدين كرت إلى داخل المدينة ففكر في ذلك الأمر. ولكن أمراءه بابكر وساريان وسدوم قالوا: أيها الأمير! إن قلوبنا لا تطمئن إلى كلام هذا الرجل. والمصلحة تقضي أن نمر بسلام من وراء هذا الجدار، ولا نعتمد على وعده. فقال نوروز: لقد فاتني أن لأدى صلاة الفرائض ثلاثة أيام، وأنا أريد قضاءها. فمضى الأمراء ونجوا بأنفسهم. ودخل نوروز مدينة هراة مع أربعمائة فارس وصعد القلعة. [ص ٣٢٠] أما الأمير قتلغ شاه الذي كان يتعقبه، فإنه عندما وصل إلى مشهد طوس، زار القبر، وصلى ركعتين صلاة الحاجة، ثم سجد وتضرع إلى الله قائلاً: "يا إلهي! إنني لا أدري أمصيب أنا أم مخطئ في هذا الأمر؟.. فكلنا الخصمين مسلم والسلطان مسلم. وأنت يا رب عالم الأسرار. فإذا كنت تعرف أن "نوروز" مذنب، وعلى باطل، وخالف غازان وعصاه، فاجعله على يدي أسيراً مخذولاً".

ثم سار من هناك حتى إذا بلغ هراة، حاصر الجنود المدينة، وشرع الجانبان في القتال. وكان الأميران نورغاي وهجاي بحاربان بشدة. وكان الطقس حاراً جداً، فقالت جماعة من جند قتلغ شاه: إن المصلحة تقضي بأن نعود لأن سور هراة حصين جداً، ولن يكون من السهل القضاء على الخصم نوروز فتكدر الأمير قتلغ شاه إلى أقصى حد، وقال: لقد صار الخصم ضعيفاً ذليلاً، وبقي خلف الجدار بلا أعوان وانصار، فكيف نعود، وما العذر الذي نقدمه إلى الحضرة؟! لا بد أن نصمم على الاستمرار في هذا الأمر، ونسعى في سبيل هذا الهدف حتى يتحقق الفتح المبين بفضل التأييد الرباني. ثم كلف شيخ الإسلام "جام" فجأة - الذي كان في صحبة الأمير - بأن يكتب رسالة إلى صهرة الملك فخر الدين، يقول فيها على لسان قتلغ شاه: ينبغي أن تتدبر هذا الأمر جيداً وإلا فإن مدينة هراة، وكل بلاد

خراسان سوف تروح ضحية هذه القضية. وقد ذبل قتلغ شاه هذه الرسالة بتوقيعه. ثم أرسلت إلى المدينة على يد أحد الجواسيس. فلما قرأها الملك حملها إلى نوروز، فقال هذا للمقربين إليه: إنه يتضح من هذه القضية أن قلب الملك معى فى غاية الصدق والإخلاص. عندئذ قال حاجي رمضان لنوروز فى السر: إن المصلحة تقتضى [ص ٣٢١] أن نعتقل الملك فخر الدين ونقيده حتى نهاية المعركة؛ فإذا كان النصر لنا، فإننا نكرمهم ونرعاه ونطلق سراحه، وإلا فسيعرف الجميع غدرة وخيانتة. وبهذا نكون قد راعينا شروط البقطة والاحتياط. ولكن "نوروز" لم يقبل هذا الكلام. وكان هناك رجل سجرى قد استرق السمع، فمضى على الفور، وأبلغ الملك كل ما سمع، فخاف الملك، وتشاور مع عظماء المدينة وأعيانها، وقال: إن جنود غازان سوف يستولون على هذه المدينة وبأسرون نساءنا وأبنائنا، وتسقط أسرتنا العريقة منذ القدم. ثم إن "نوروز" سبق أن أقسم لغازان بالآيمان المغلظة أنه لن يخالفه أبداً. وقد خالفه. وإذا فمصلحتنا فى أن نسبقه ونعتقله بالمكر والحيلة ونعلن الخضوع والطاعة. وعلينا أن نأخذ عهداً بالأمان من الأمير قتلغ، ونسلمه له. فقال أهالى المدينة: إن رأى الملك هو الأعلى، فهو يرم كل ما يعرفه صواباً.

بعد ذلك ذهب الملك إلى نوروز بعد إجراء هذه المقدمة، وقال له: إن جنودنا المرويين والغوريين يتراخون فى القتال. فالرأى أن ترسل رجلين من رجالك على رأس كل عشرة من جنودنا كى يمرضوهم على القتال، ولا يسمحوا لهم بالتراخى. وبناء على نصيحة الملك وزع نوروز جميع جنوده على تلك الجماعة، فتشتتوا وتفرقوا، وبقي هو وحده فى القلعة. ثم أوعز الملك إلى جنوده بأن يعتقلوا جميع أتباع نوروز، ويقتلوه. ثم صعد القلعة هو نفسه مع عدة رجال من الغوريين الشجعان، واعتقل نوروز، وأحكم وثاقه، وقال له: إن الفرمان يقضى بتسليمك للأمير قتلغ شاه.

ومن عجائب الأمور أن الملك فخر الدين كان فى عهد أبيه شمس الدين كرت عاقاً إلى أقصى حد، وعنبدا متمرداً ومشاغباً. ولهذا قيده أبوه الملك شمس الدين، وسجنه فى قلعة "خيصار". وبعد أن وصل نوروز إلى هناك، التمس إلى أبيه أن يطلق سراحه، فقال شمس الدين: أنا أعرفه جيداً، أعرف كيف أن له نفساً مجردة من الوفاء. ومن حيث إنه لم يكن وفيّاً لأبيه، فلن يكون وفيّاً لك أنت أيضاً. ورغم هذا صار نوروز يبالغ ويلج فى الشفاعة

له. وأخيرا قال الملك: إني أطلق سراحه بشرط أن تعطيني تعهدا ينص على أن كل عمل يصدر عنه من الآن فصاعدا، يكون الأمير مسئولا عنه؛ فأعطاه نوروز تعهدا بذلك. وعلى هذا فك الملك شمس الدين قيوده وأطلق سراحه.

وعندما كان الملك فخر الدين يقوم باعتقال نوروز، قال له: إني لم أسئ إليك حتى تنكث العهد وتسفك دمي. وإذا كان لا مفر من الغدر، فأعطيني جوادى الكميث وسيفى حتى أركب الجواد بدون سرج وأخوض المعركة وسط هذا الجيش، فأقتل فى الحرب كى أكون غازيا وشهيدا فى آن واحد. فرد عليه الملك قائلا: منذ الآن سوف ترى الحصان والسيف تحت أفخاذ الآخرين. وفى قبضة أيديهم. وبمجرد أن اعتقل نوروز، قطع فخر الدين رأس حاجى رمضان، وأرسله على يد رسول إلى الأمير قتلغ شاه، يبلغه نبأ اعتقال نوروز وإخوته وأتباعه. ثم طلب منه عهدا بالأمان حتى يكون ذلك شغيعا له، وحتى لا يؤاخذ غازان باسم المرويين، وأن يقسم على ذلك بالأيمان المغلظة. ثم ألقى الرسول رأس حاجى أمام قتلغ شاه، وقال له: إن الملك يقدم الخضوع والطاعة، ويقول: لقد تهيأ نصر كبير بسعادة الأمير وإقباله، وأسر نوروز وأتباعه وكيلا جميعا بالأصفاد.

ولما رأى الأمير رأس حاجى رمضان، عرف أن كلام فخر الدين صدق، قال: بناء على التماس المرويين، كتب علاء الدين نصر الخطائى كتاب الأمان المؤكد، وذكر فى مقدمته أيمانا مغلظة. ثم أرسل الأمير قتلغ شاه إلى المدينة الأمير بولا دقيا وخواجه علاء الدين وشيخ الإسلام "جام" حامل هذا المکتوب بعنوان الرسالة، فتلقى الملك مقدمهم بالترحيب والتكريم، وأعادهم معززين قائلا لهم: سوف أرسل نوروز ليلا مقيدا إلى حضرة الأمير.

بعد ذلك عاد الرسل على هذا النحو، وأطلعوا الأمير على ما حدث. وفى الليل أرسل الملك "نوروز" مقيدا، وفى حراسة طائفة من الضباط الغوريين؛ فسر قتلغ شاه بذلك الفتح سرورا بالغا. ثم سأل نوروز: لم فعلت هذا؟ فرد عليه بقوله: إن غازان يستطيع محاکمتى لا أنت. وكلما سأله بعد هذا، لم يجب عن أسئلتهم، وسبب ذلك أنه لم يرتكب ذنبا قط، وأنه لا إثم عليه. ثم أمر قتلغ شاه بإتزاله، وشقوه نصفين، وأرسل رأسه إلى الحضرة. ومن هناك أرسل إلى بغداد، وظل فى باب النوبى عدة سنوات معلقا على رأس عمود من الخشب. كذلك قتل هناك أخواه أرغون حاجى وبولدوق. وكان ذلك فى الثالث والعشرين من شوال سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م. والسلام.

حكاية

ارتفاع شأن صدر الدين الزنجاني، وازدهار عمله

بسبب قتل الأمير نوروز، ووصول الرايات

السلطانية من ألتاغ إلى تبريز

ووضع أساس القبة العالية

في شم تبريز

بعد قتل نوروز رحل الأمير قتلغ شاه من ظاهر هراة، ونزل في مرج شوران (مرغزار شوران). كذلك قضى على قواد نوروز: بوراجر والهباق وتوكمال قرا وطائفة أخرى. [ص ٣٢٤]. أما قراسون فقد لاذ بالفرار، وكان في خدمة الأمير قتلغ شاه. كذلك رحل سلطان الإسلام من ألتاغ. وفي يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذي القعدة وصل إلى تبريز. وفي اليوم التالي قتل بالتو وابنه في ميدان تبريز.

وعلى إثر قتل نوروز، ارتفع شأن صدر الدين، وشمله السلطان برعايته، ومنحه الختم الأحمر (آلتغا). وفي غرة ذي الحجة قدم سلطان الإسلام من شم إلى تبريز، وذهب إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة، وتصدق على الفقراء والمساكين بأموال طائلة. وكذلك فعل في الجمعة التالية. وفي يوم السبت السادس عشر من ذي الحجة سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م وضع أساس قبة عالية وسط حديقة العادلة بموضع "شم". وقد شغف شغفا كبيرا بهذا الأمر. وكان يتردد دائما على هذا المكان ليبتعد أعمال البسائين والعمال. ولما رفعوا بناء سرداب القبة على وجه الأرض، سأله المهندسون عن عدد ما ينبغي أن يفتحوا من منافذ للإضاءة. فسألهم: لماذا؟ فأجابوا: كي يكون السرداب منيرا. فأجاب هو نفسه على هذا السؤال: ينبغي إيصال النور من هنا إلى هناك، وإلا فلا فائدة للمرء من ضوء الشمس غير الثابت. وفي يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة وصل قتلغ شاه نوبان من خراسان. وفي منتصف المحرم سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م وضع غازان العمامة على رأسه هو وكافة الأمراء. وفي اليوم التالي أقاموا الولائم والحفلات. وبعد أداء الصلاة في يوم الجمعة العشرين من المحرم سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م غادر غازان تبريز قاصدا مشتي أران. وفي ذلك الوقت كانت

تضاع أنباء عن وقوع اضطرابات في جورجيا^(١)، فأرسل الأمير قتلغ شاه وهو في الطريق إلى هناك كي يتفحص شئون هذه الولاية، فقام بمهمته، وعاد سريعا مصطحبا معه أخا الملك داود "وختانگ" فوجدا الرعاية والتكریم.

بعد ذلك تحركت الرایات السلطانية إلى ناحية باكو [ص ٣٢٩] وغادرت هذا الموضع بعد عدة أيام. وفي يوم الجمعة التاسع من ربيع الآخر سنة ١٢٩٧هـ/١٢٩٧م توفي الأمير النجل "ختای أغول" في "دالان ناوور". وفي هذا البلد أيضا ولد الأمير النجل "آلجو" في التاسع من جمادى الأولى سنة ١٢٩٧هـ/١٢٩٧م، وصار الجميع منهمكين في إقامة الولائم والاحتفالات والأخذ بأسباب اللهو والمتعة. والسلام.

(١) تسمى أيضا مارجستان. يسكنها جيل من الناس يعرفون باسم الكرج (المرج)، وهم نصارى. فتحها تيمور في ختام السنة الثامنة (الرابعة عشرة) ونفلس قسبة جورجيا، ونقع في أعمال نهر الكر، وأرضها خصبة كثيرة الحيرات. (انظر معجم البلدان، ج ٤، ص ١٤٤٦ بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢١٦).

حكاية اختلال أحوال صدر الدين الزنجاني وإعدامه

فى يوم الجمعة الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م جثا على ركبته السيد قطب الدين الشيرازى^(١) ومعين الدين الخراسانى، وعرضا على غازان موضوع خيانة صدر الدين الزنجاني وتلاعبه فى أموال البلاد.

وفى أغلب الأوقات كان بين مؤلف هذا الكتاب رشيد الطيب وبين صدر الدين صداقة ومودة. وقد حاولت طائفة من أصحاب الديوان تكدير صفو العلاقات بين الصديقين وصاروا يتقلون الكلام من كل نوع للإيقاع بيننا. ولكنى لم أكن ألتفت إلى مثل هذه المحاولات. ولما يتسوا منى، مضوا إلى صدر الدين، وألبوه على بتخليطهم وتوبيههم وتلفيقهم؛ غير أننى لم أكن أعبأ كثيرا بمثل هذه الأمور. وفى يوم الأحد منتصف جمادى الآخرة، ركب صدر الدين على ركبته فى حضرة السلطان، وحاول إهانتى بطريق الغمز واللمز فشغلت بالرد عليه. ولكن نهره السلطان وقال له: إنه لم يتناولك بسوء مطلقا.

(١) هو العلامة قطب الدين محمود بن مسعود بن مصلح الكازرونى الشيرازى. ولد سنة ٦٣٤هـ. وكان أبوه طبيا. درس مقدمات علم الطب على يد والده وعمه. كذلك برع فى الحكمة والفقه، واستكمل دراساته ومعارفه بعد أن اتصل بالمواجة نصير الدين الطوسي وشارك فى الأعمال العلمية التى يقوم بها فى مرصد مراغه. وكان ينتفع بذلك تادرا وعقلية مستترة. بعد ذلك رحل إلى بلاد الروم، وشغل منصب قاضى سيواس ومطبعة. ثم سافر إلى الشام والنفى بالصوفى الكبر جلال الدين الرومى، وتربى بزم أهل التصوف ثم عاد إلى تبريز، وكان معروفا مكرما لدى السلطان ألباتابو. وفى مدينة تبريز كانت وفاته فى سنة ٧١٠هـ.

بعد العلامة قطب الدين الشيرازى أحد العلماء الراسخين فى العلم. وقد عرف عنه أنه رجل مرح، ينتفع بلفظ وظرف، ويجيد لعب الشطرنج والعرف على الرباب. وهناك حكايات تروى عن روحه الراح ومطياته العذبة. له مؤلفات عديدة باللغتين العربية والفارسية منها شرح كتاب القانون فى الطب لابن سينا وشرح حكمة الإشراق لشهاب الدين السهروردى الملتول، وشرح مفاتيح العلوم للسكاكى، وكتاب درة الشجاع لدرة الدباج. وهو بالفارسية، ويتناول علوما مختلفة. (انظر عباس أقبال: تاريخ مفصل إيران از استيلاى مغول تا اعلان مشروطيت جلد اول از حلقه چنگيز تا تشكيل دولت نيمورى، ص ٣١٢، ٥٠٦، ٥٠٧، طهران ١٣١٢هـ. ش) مجموعة مقالات عباس أقبال آشتياني شامل بكدنوك مقالة با مقدمه ولصحيح آفاى دكتور محمد دير سباني بعنوان علامة قطب الدين شيرازى ومطابيات أول، ص ٢٩٠ - ٢٩٦، تهران ١٣٥٠هـ. ش) الشرق الإسلامى، ص ٣٥٥.

وعندئذ شرعت فى الكلام؛ غير أن السلطان قال لى: لا تلوث لسانك بالرد عليه، وحافظ على سيرتك ومسلكتك. ولما اتضحت براءتى، استاء صدر الدين من تلك الجماعة استياء شديدا؛ لأنها هى التى قامت بالسعاية والدس لإفساد العلاقات بيننا.

وفى يوم الأحد سلخ جمادى الآخرة، قبض على طاييو أغول وأصحابه [ص ٣٢٦] وذلك بسبب إثارتهم الفتنة. كما قبض على الشيخ الذى يرافقه، والذى وعده بتقليده الحكم. وفجأة أبلغ السلطان تلك القضية. وفى الثانى من شهر رجب قتل طاييو أغول مع أربعة من أتباعه على ضفة النهر الذى كانوا قد شقوه فى منطقة "دالان ناوور". وقد عبر السلطان النهر، ونزل فى المعسكرات فى موضع "جوى نو" وعندما كان السلطان فى "دالان ناوور"، وكان الأمير قتلغ شاه قد عاد من جورجيا (گرجستان) أخذ السلطان يعاتب صدر الدين بخصوص الأموال التى نجى من هناك، فخافه صدر الدين، وعرض قائلا: إن أتباع قتلغ شاه خربوا ولاية جورجيا. ولهذا السبب صار السلطان يعاتب الأمير فى صحوه وسكره. فما كان من الأمير إلا أن سأل صدر الدين قائلا: ألا تعلم من شكاتى إلى حضرة غازان حتى صار يعاتبنى؟!

فأجاب صدر الدين: إنه رشيد الدين.

وفى يوم "نوروز"^(١)، خرج الأمير قتلغ شاه من لبدن حضرة غازان، وتصادف أن قابلنى، فقال لى: لقد كنا سويا فى حاشية واحدة ولم يحدث بيننا شيء قط يعكر صفو علاقاتنا وبسبب الأذى. وإذن فكيف أسأت إلى فى حضرة السلطان؟!.. فرددت عليه قائلا: الحقيقة أنه لم يلحقنى ضرر منك مطلقا؛ بحيث أسىء إليك!.. ينبغي أن تصرح لى باسم الشخص الذى قال لك هذا الكلام، وإلا فسوف أعرض الموضوع على حضرة السلطان. فلما لم يذكر اسم هذا الشخص، عرضت هذا الكلام على غازان خان فى موضع الصيد. فاستدعى السلطان الأمير قتلغ شاه، وقال له: تلبية لرغبتى الشديدة، أصدقنى القول: من قال لك هذا الكلام؟! أجاب صدر الدين: فتضايق سلطان الإسلام ضيقا شديدا، وقال: مهما حاولت أن يترك هذا الرجل الخداع والتمويه وإثارة الفتنة، كان ذلك دون جدوى؛ لأن طبيعته تجرى على هذا النمط. [ص ٣٢٧].

(١) للوقوف على تفصيلات عن النوروز انظر كتاب النوروز وآثره فى الأدب العربى، تأليف الدكتور غزاد عبد المعطى الصبيح، بيروت ١٩٧٢م.

وفي يوم الأربعاء السابع عشر من رجب صدر الأمر باعتقال صدر الدين، وأخيه قطب الدين أيضا. وفي يوم الجمعة التاسع عشر من رجب شرعوا في محاكمة صدر الدين، فكان يرد على المحققين بإجابات جريئة ودون مبالاة، ولم يكن يكثر بالقضاة. ولو أنه أعطى فرصة الكلام لخلص نفسه من تلك الورطة المائلة، غير أن السلطان أمر بأن ينهي قتل شاه حياة صدر الدين.

وفي يوم الأحد الحادي والعشرين من رجب سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م وفي وقت الضحى وفي موضع "جوى جاندار" أمسك الأمير سوتاي بإحدى يدي صدر الدين، وأمسك الپهلوان ملك غوري بيده الأخرى. ثم قده الأمير قتل شاه نصفين^(١).

تعالى الله، فإن صدر الدين قد بذل من السعى والاجتهاد الشيء الكثير؛ بحيث إنه في كل وقت، كان يهدف إلى ازدهار شأنه. وإن كل الفتن والقلقل التي أثارها، كانت في سبيل تحقيق هذا الغرض. ولكن كانت عاقبة أمره، أن عندما وصل إلى غايته، لم يتمتع بما حصل عليه، ولم ينل بغيته.

بعد ذلك غرقت الرايات السلطانية من هناك إلى "بيلسوار" وواصل غازان خان ومن معه الرحلة تلو الرحلة حتى يوم السبت الثاني عشر من شعبان عندما وصلوا إلى دار الملك تبريز. وفي يوم الإثنين الحادي والعشرين من شعبان قتل القاضي قطب الدين وابن عمه قوام الملك على باب بوابة "ورجونة" بتبريز. أما القاضي زين الدين الذي كان من أقاربهما، فقد هرب ليلا من سجن تبريز وسار ناحية گيلان، وعاد بعد سنتين أو ثلاث سنوات ثم هرب ثانية. وأخيرا اعتقل وقتل.

(١) يقول عنه ابن التوماني في أحداث سنة ٦٩٧هـ: فيها أسر السلطان غازان بقتل صدر الدين أحمد بن عبد الرزاق الخاقاني صاحب ديوان المالك لما ظهر من سوء حركاته، وكان غير محمود السيرة ظلالا، أظهر الجاؤ، وقصر الناس على المعاملة به، فأنسروهم، وبطلت معاشهم وتعطلت أمورهم إلى أن لطف الله تعالى، وأقم السلطان (گيخاتو) بإطاله ثم ضاعف الحراج كما فعل جمال الدين المستجواني، وبالحق في المصادرات والتشيلات. فلما قتل أسر بقتل أخيه قطب الدين قتل، ومطلب أخوه زين الدين الذي كان قاضي القضاة ببغداد، فهرب، ولحق بصاحب جيلان فسال من السلطان العفو عنه، فأجاب سؤاله فسال أن يعاد إلى القضاء بالعراق، فأعذ وحس بتبريز فهرب من الحبس، فأدرك وأُعيد إليه وقتل. (الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق الأستاذ مصطفى جواد، ص ٤٩٥ - ٤٩٦، بغداد ١٣٥١هـ).

وفى يوم الأحد العاشر من شوال سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م أثار عوام تبريز الشغب، وخربوا
باقي الكنائس؛ فغضب عليهم سلطان الإسلام، وعوقب بعض هؤلاء المشاغبين من مشيرى
الفتنة. وفى يوم الإثنين التاسع من ذى القعدة توفى ساربان بن سونجاق نويان فى تبريز.
وفى الخامس والعشرين من ذى القعدة توفى "بورلتاي أغول" من ذرية جوجى قسار.
والسلام.

حكاية

توجه الرايات السلطانية من دار الملك تبريز إلى مشتى بغداد، وتفويض منصب الوزارة إلى الخواجه سعد الدين، ووصول خبر تمرد سولاميش، وزحف الجيش للقضاء عليه

فى يوم الخميس الثالث من ذى الحجة سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م سار سلطان الإسلام من دار الملك تبريز جنوب أوجان^(١)، قاصدا مشتى بغداد وفوض منصب الوزارة إلى الصاحب الأعظم الخواجه سعد الدين الذى كان قد أكد سوابق حقوق التأييد بلواحق أنواع الوفاء وقام بشروط ومراسم الملازمة، والمرافقة فى السراء والضراء، وفى الحل والترحال. ثم أرسل السلطان الأمير "تورين" من دربند إلى أران للمحافظة على الأمن. وفى يوم الجمعة الثانى من المحرم سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م نزل فى مرج زك (مرغزار زك) على حدود همدان.

وفى شهر المحرم أيضا توفي ابن يوقا گوركان بن نوقاى يارغوجى. ثم رحل السلطان فى الثامن من المحرم من براهان. وفى منطقة بروجرد أعدم أبو بكر داد قاهادى الذى كان واليا على همدان بعد ثبوت إدانته.

بعد ذلك سار إلى ناحية جبل الأكراد. وفى يوم السبت الثانى والعشرين من صفر، نزل فى مرج جوقين (مرغزار جوقين) من أعمال واسط. ومن هناك مر ببطائح شيب، ودخل واسط. وفى تلك الأيام كانت تصل تباعا أنباء تمرد سولاميش فى ولاية الروم.

وتتلخص تلك الحكاية فى أنه بعد قتل بالتو، عهد سلطان الإسلام بإمارة الروم إلى الأمراء باينجار ويوجقور ودقوزتيمور. وكان سولاميش نفسه أمير أمراء جيش الروم

(١) أوجان أو أجان: مدينة تقع على بعد عشرة فراسخ من تبريز فى طريق ميانه. وقد وصف بالقوت أجان فقال عنها إنها مدينة عليها سور وبها سوق. إلا أن الخراب لحي بها. ولكن بعد عصر بالقوت أعاد غازان بناءها وأقام فيها زمنا، وأطلق عليها اسما جديدا هو "شهر إسلام" أى مدينة الإسلام. وكانت نواحيها وقرى الخيرات، يكثر فيها القطن والقمح والفواكه. (معجم البلدان، ج ١، ص ١١٠٠ نزهة القلوب، ص ١٩١ بارتولد: تذكرة جغرافى تاريخى إيران، ترجمة حمزة سردادور، ص ٢٧٣ طهران ١٣٠٨هـ. ش. بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٩٨).

[ص ٣٢٩]. ولما عزل السلطان مسعود بتهمة اتصافه لبائس عهدوا بالسلطنة إلى ابن أخيه علاء الدين كيقباد بن فرامرز فذهب مع الأمراء المذكورين إلى الروم. وفي ذلك الشتاء كان البرد شديدا جدا في تلك المناطق، وتساقطت ثلوج كثيرة سدت الطرق، فانقطعت الأخبار. وقد شاعت أنباء تفيد بأن أحوال المعسكر قد ساءت واضطربت.

وقد اغتتم سولاميش هذه الفرصة، فاتفق مع إقبال وطاشتمور وطائفة أخرى، وفجأة ألقى القبض على باينجار ويوجقور وقتلها، وشرع سولاميش في العصيان والمخالفة. ثم استدعى الجنود من أطراف الشام ونواحيها، وأدخل في طاعته الجنود الذين كانوا يقيمون في ولاية دانتشمند، واستقروا في صحراء "قازاده". ثم جمع عددا كبيرا لا يحصى من الصعاليك والرعاع. وكان يهدق على الجنود أموال الولايات وأملاكها؛ حتى اجتمع حوله ما يقرب من خمسين ألف فارس، وكذلك قبل السوريون أن يمدوه بعشرين ألف جندي وأطلق اسم الأمراء على طائفة منهم، وأعطاهم الأعلام والبطول. وقد اشتدت جرأته لأن الطريق كان مسدودا، ولا يصل الرسل والسعاة من هذه الناحية.

فلما وصلت تلك الأنباء إلى السمع المبارك لسلطان الإسلام غازان، أمر بأن يسير الأمير قتلغ شاه على رأس جيش في يوم الأحد الثاني عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م عن طريق ديار بكر قاصدا بلاد الروم للقضاء على سولاميش، وأسرع الأمير جويان بهادر، فسار في المقدمة، وفي إثره الأمير قتلغ شاه. أما الأمير سوتاي فقد سار على رأس جيش آخر. وفي فصل الربيع تقابل الجيشان في صحراء آقشهر التابعة لأرزنجان. وقد دارت الحرب في الرابع والعشرين من رجب سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م. وبعد أن انهزم سولاميش، توجه إلى ديار الشام، فقبض عليه الأمراء وأحضروه [ص ٣٣٠].

بعد ذلك رحل سلطان الإسلام من جوقين قاصدا بغداد. وفي يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شهر جمادى الأولى توجه من مدينة نيل (شهرنيل) إلى مشهد أمير المؤمنين علي (رضي الله عنه) فزاره، وشمل بعطفه ورعايته المقيمين والمجاورين للمشهد المقدس وخصهم بالإنعامات والصدقات.

وفي يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى، قدم جمع من أمراء الشام ومصر وهم سيف الدين قهچاق وسيف الدين بيكيمور والبكي وعزار الذين كانوا قد انتقلوا على

حاكم مصر لاجئين بسبب تألمهم منه. وكان معهم ثلاثمائة فارس. وفي رأس العين سمعوا خبر وفاة لاجئين، فندموا. ولكن لم تكن هناك حيلة أخرى. وقد تحددوا إلى غازان خان بأنواع من الكلام الغث والسمين. وفي الثالث من جمادى الآخرة، نزل سلطان الإسلام في بغداد. وفي يوم الخميس الخامس عشر من الشهر المذكور، ركب السلطان من بغداد واتجه إلى الميدان. ومن جملة المصريين الذين دخلوا في الطاعة "بوزلار" الذي فر مع طائفة أخرى فتعقبهم الجيش المصري، وقتل أغلب السوريين، وأسر سبعة أشخاص، وفر بوزلار وحده ونجا.

وفي أوائل شعبان سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م هرب فوج من القراوناس، ومقدمهم المدعو بوقا، وهؤلاء كانوا يقيمون في ضواحي طارم، وساروا عن طريق العراق، واجتازوا حدود يزد وكرمان. وفي الطريق صاروا يغيرون وينهبون، ثم انضموا إلى النكوديين^(١) في "بيني كاو". [ص ٣٣١] وفي يوم السبت الرابع عشر من شعبان وصل بالبشارة من الروم بغلاقو سكورجي معلنا أن الأمير چوپان وباشغرد قد هزما سولاميش، ولكنه هرب مع نفر قليل. غير أن جميع الجنود الذين كانوا تحت إمرته دخلوا في الطاعة، وقتل آغو أخو ايلچينداي قوشجي الذي كان قد ذهب معه. كذلك اعتقل إقبال بن أورقتو بن ايلكاي نوبان وطاشتمور الحفظائي، وجاءوا بهما.

بعد ذلك نزل سلطان الإسلام في قوچين الكبرى (قوچين بزرگ) من منطقة سغورلوق ووصل "نورين آقا" إلى "قربن شيره" عائدا من أران. وفي الخامس والعشرين من شعبان نزلت الرايات السلطانية في لوجان. كذلك وصل الأمير النجل خربنده من منطقة خراسان فاستبشر الأخوان بلقاء الواحد منهما الآخر وصارا أكثر تعاونا وتأزرا. ثم شرع السلطان

(١) عرف النكوديون بهذا الاسم نسبة إلى زعيمهم "نكودر" وهو من سلالة چنگيز خان. وقد التحق أول الأمر بخدمة هولاكو خان، ثم ثار عليه، وحاصر مع قبيلة وآبائه إلى أراضي أفغانستان الحالية. وانقلب هؤلاء النكوديين هم الذين كونوا قبيلة "هزاره" هناك، وكانوا دأبى الإغارة على خراسان وسجستان وكرمان وفارس. وعلى أيديهم دمرت فارس عام ٦٧٧هـ. بعد أن أجهت من غارات المغول عند فتحهم إيران. هذا، وقد ظل النكوديون يغيرون على حدود إيران ويحطمون ويدمرون. كذلك أغاروا على يزد في عهد مبارز الدين محمد الظفري، وظل يحاربهم إلى أن استأصل شلتهم. (انظر بارتولد: تذكرة جغرافياي تارخى ایران، ترجمة حمزه سردانور "طالب زاده" ص ١٣٩، چاپ أول، طهران ١٣٠٨هـ. ش. شرف خان البليسى: شرقنامه ج ٢، ص ٢٧).

وأعوته في عقد مجلس الشورى (الفوريلى)، وأقاموا الولائم والحفلات. ولما فرغوا من المشاورات والمداولات في مجلس الشورى، قتلوا "إقبال" في الثامن من شعبان. وفي يوم الأربعاء الرابع والعشرين من رمضان قتل أمراء الروم: كرز وجر كس وابسن الذين كانوا متحدين مع سولاميش. وفي يوم الخميس السادس عشر من شوال سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م تزوج سلطان الإسلام من كرامون خاتون ابنة قتلغتمور بن آباتاي نويان، ودفع مهرها لها ستين توماناً عن المقدم والمؤخر، وأقام حفل الزفاف، وأتزلها في المعسكر الأعظم في مكان "دوقوز خاتون". وفي أوائل ذى الحجة أمر بأن يعود الأمير النجل "خربنده" إلى غراسان وأن يحفظ ذلك الإقليم من الاضطرابات.

وفي يوم الجمعة الرابع عشر من ذى الحجة نزلت الرايات السلطانية [ص ٢٣٢] في العاصمة تبريز. وأخيراً قبض على "سولاميش"، وأحضر من الروم. وفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من ذى الحجة، قتل في ميدان تبريز بصورة بشعة ثم أحرقت جثته، وذروا رمادها في الهواء. وعلى أثر ذلك شعر سلطان الإسلام بتعب بسبب رمد أصابه، فصار الناس يحرقون الحرم (نوع من البخور) لدفع إصابة العين عنه. وكانوا يدعون الله، ملتجئين له الشفاء. والسلام.

حكاية

توجه سلطان الإسلام إلي ناحية الشام ومصر ومحاربتهم المصريين وهريمتهم وفتح ولاية الشام

في تلك الأيام التي قدم فيها سلطان الإسلام باليمن والإقبال إلى تبريز، كان الرسل يصلون متتابعين من ناحية الروم وديار بكر ويلغون أن السوريين زحفوا إلى حدود تلك الولاية يهاجمون ويقطعون الطريق ويحرقون الغلات ويشقون على المسلمين. وقد حاصروا ماردین، وأسروا الكثيرين من المسلمين. وفي شهر رمضان هتكوا أعراض بنات المسلمين وشرب بعضهم الخمر كذلك. ولكن سلمت قلعة ماردین وحدها من شرهم، إلا أنهم أغاروا على بقية المدينة والولاية. ثم مضوا من هناك إلى دنيسر^(١)، وارتكبوا هذه المنكرات وأرادوا تكرارها في "رأس العين"^(٢) أيضا. ولكن الناس هناك كانوا جنودا شجعان التحموا بالمعتدين في معركة في الأرزقة الضيقة بالمدينة، فعجزوا عن التغلب عليهم؛ غير أنهم نهبوا كل ما وجدوه خارج المدينة من الدواب وغيرها. وفي حلب صاروا يبيعون - على سبيل الشكر والامتنان - أسرى المسلمين بأغلى الأثمان.

فلما بلغت هذه الأخبار السمع المبارك لسلطان الإسلام، تميز غيظا لشدة غيظه على الدين وحمة الإسلام [ص ٢٣٣]، ورأى لزما عليه المبادرة بالقضاء على شر أولئك الطغاة. وبعد أن استفتى أئمة الدين وعلماء الإسلام، أفتوه جميعا أن دفع شرهم عن ممالك المسلمين

(١) دنيسر: بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردین، بينهما فرسخان. ولها اسم آخر هو "قوج حصار". رآها ياقوت وهو صبي وقد صارت قرية، ثم رآها بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة. وقد صارت مصرا لا نظير لها كبرا وكثرة أعمل وعظم أسواق. ليس بها نهر جار إنما يشرب الأهالي من آبار عذبة طيبة، وهولائها صحيح. (معجم البلدان، ج ٢، ص ١٧٨).

(٢) رأس العين هي من الجزيرة على مسيرة يومين من حران، ولشهر بكثرة عيونها التي تبلغ ٣٦٠ عينا تصب في نهر الخابور، وتجمع هذه العيون فتسقى بساتينها وتغسلها كأنها بستان واحد. وتجمع رأس العين بطنس جميل جدا، ويكثر بها القطن والقمح والكرشم. (تقويم البلدان، ص ١٢٧٩ نزعة القلوب، ص ١٢٢ بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٢٥).

الذين هم في ذمة همة السلطنة؛ فأمر بحشد الجيوش وسير حسب ما تقتضيه المصلحة -
الأمرء من اليمن واليسار.

وفي يوم الجمعة التاسع عشر من المحرم سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م تحركت الرايات من دار
الملك تبريز نحو الشام. وفي اليوم التالي رحل من ظاهر مدينة مراغة، واستدعى "تورين آقا"
من دهخوارگان كي يسير إلى أران، وعبر نهر الزاب في العاشر من صفر، وعسكر في
مقابل قلعة كشاف. وفي يوم الثلاثاء الرابع عشر من صفر تحرك بالطالع المبارك لبرج
الحوت، وودع الخواتين اللاتي كن قد سرن من الموصل لتوديعه، ثم عدن من حيث أتین.
وفي يوم السبت الخامس والعشرين من صفر، وصل إلى حدود نصيبين^(١)، واستعرض
الجيش، وفي يوم الإثنين السابع والعشرين من صفر سير قتلغ شاه نوبان في المقدمة على
رأس جيش. وفي يوم الثلاثاء الثاني عشر من ربيع الأول، عبر باليمن والبركة نهر الفرات
في محاذة قلعة جعبر وصفين، ووصلت أنباء حسنة تفيد أن خلافا قد وقع بين الأعداء^(٢).

وفي يوم الأحد السابع والعشرين من ربيع الأول، وصلت الرايات السلطانية إلى مدينة
حلب، ثم رحلت من هناك. وفي الطريق صادف جنود غازان المروج والحقول، فابتهجوا
برؤيتها قائلين: سوف نطعم الغلات. عندئذ لوى السلطان العنان، وخرج من جانب الزرع
وصرح قائلاً: إن كل مخلوق يمد يده إلى هذه الغلال أو الغلال الأخرى [ص ٢٣٤] التي
سوف نصل إليها، ويتناولها أو يطعمها غيره، سوف يقتل على الفور؛ لأنه ليس مستساغاً أن
نطعم الدواب غذاء الإنسان.

وفي يوم الثلاثاء التاسع عشر من ربيع الأول نزلوا بمنطقة "سرمن"^(٣)، وفر مغولناى
أجاسى مع أتباع قهجاى. وفي يوم الإثنين الخامس والعشرين من ربيع الأول اجتاز مدينة
حماة ونزل بجوار مدينة سلمية. وهناك ظهر يرك^(٤) الأعداء.

(١) نصيبين: من أعظم مدن الجزيرة شاماً، وهي مخصوصة بالورد الأبيض ولا توجد فيها ورود حمراء. وتقع شمال
سنجار. وجبل نصيبين هو الجودي. وهو الذي يقال إن سفينة نوح استقرت عليه. وتتميز نصيبين بكثرة غلاتها من
الحبوب والقمح والشعير. (تقويم البلدان، ص ١٢٨٢ بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٢٤).

(٢) المقصود المؤامرة الخطيرة التي درها زعماء قبيلة الأويراتية (العورياتية) بالتعاون مع الأمرء السابقين؛ وذلك بقصد
اغتيال السلطان وإعادة صاحبهم كتيبا إلى عرش مصر. وبالرغم من أن هذه المؤامرة قد أحبطت، كانت سببا في
تأخر زحف الجيش المصري، وإضعاف الروح المعنوية للجنود. (الفريرى: السلوك، ج ١، ص ٨٨٣ - ٨٨٤).

(٣) سرمن: تقع جنوب حلب. وهي على منتصف الطريق بين المرة وحلب. وتتميز سرمن بأنها ذات أشجار كثيرة
من زيتون وغيره. وليس لها ماء إلا ما يقع من الأمطار في الصحاريح. (تقويم البلدان، ص ٢٦٤ - ٢٦٥).

(٤) اليرك: وليس العس، ومن يراقب من مضى فينبهه. (أبو الحسن: ابن تفرى بردى: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٧٣).

وعندما رأى سلطان الإسلام جنوده كأنهم فى غفلة، ذاهلين عن التأهب للحرب، سار باليمن والإقبال مع طائفة من الأبطال الشجعان كى يتخذ الحيلة فى تحديد مكان المعركة وليطلع على أحوال الأعداء. ثم أمر بأن ينادى فى المعسكر أن الأعداء قد وصلوا. عندئذ استعد جنود المغول لخوض المعركة، وشغل الجميع بإعداد أسلحتهم، وصاروا متأهبين للقتال. بعد ذلك عاد الأمير چويان وقال: ليس هناك أثر لجيش الأعداء. وكان الغرض من إذاعة هذا النبأ على حد قول السلطان: أن ينبه إلى أننا قد اقتربنا من الأعداء، فعليكم أن تكونوا يقظين متنبهين، وأن تقفوا مستعدين متحفزين. وكان غازان قد احتاط للأمر وعرف أن المصريين قد نزلوا فى نفس الموضع الذى كان قد احتشد فيه الجنود فى عهد "منكوتيمور"، وأنهم قد احتلوا المكان الأفضل وحتى يكون المكان الردىء لجند هذا الطرف (أى جند غازان)، ففكر فى إفساد خططهم، ورأى من المصلحة عدم مواجهتهم فعال بمسيرته التى تقابل ميمنة الأعداء.

وفى يوم الأربعاء السابع من ربيع الأول، نزل غازان على ضفاف نهر صغير على بعد ثلاثة فراسخ من مدينة حمص وأمر جنوده بأن يأخذوا كفايتهم من الماء لمدة ثلاثة أيام، وأن يسلكوا طريق الصحراء، ويتعقبوا الأعداء حتى يجبروهم بالضرورة إلى التوجه إلى تلك الناحية، فتبطل بذلك خططهم التى وضعوها. وقد شغل الناس بأخذ حاجتهم من الماء، وظن المصريون أن جنود المغول قد اتجهوا إلى اليسار لتوقعهم الهزيمة. وكان من المقرر أن يحاربوا فى يوم الخميس. ولإيهام الأعداء بالهزيمة، ركبوا دفعة واحدة فى يوم الأربعاء [ص ٣٣٥] وتقابلوا وجها لوجه.

ولما علم سلطان الإسلام غازان بوصول الأعداء، صلى ركعتين بنية صادقة مع جميع الجنود، ثم ركب، وجاء فى مواجهة الأعداء مع من كان حاضرا معه من الجنود. وكان الأمير "مولای" على رأس الميمنة، وبله الأمير زاده ساتلميش، وبعده الأمير قتلغ شاه ومن بعدهم "يمن" و"مرتد"، كل مع فرقته المكونة من عشرة آلاف جندى (تومان). أما سلطان الإسلام فقد وقف فى القلب كأنه جبل شامخ. وكان فى مقدمة القلب الأمراء: چويان و"سلطان چويان" على اليمين، وسلطان على اليسار. وكان على ميمنة القلب طغرلج بن آجو سكورجى، وخلف القلب وزيرا السلطان من ذوى المرتبة السامية. وبعد

المعروف للجميع أن حكم هؤلاء القوم آل إليهم اتفاقا وليس استحقاقا، فكلهم كانوا عبيدا لأسرة جد سلطان الإسلام المشهور. ثم قال لهم سلطان الإسلام [ص ٣٣٧]: ليس هناك خير من وجودكم أحياء، ولكن يوجد في الموتى من أسلافكم كثير من الخير والبركة. وإنى لأخطركم بأننى سوف أصفح عنكم أنتم الجهال إكراما هؤلاء الموتى. فاستبشر بذلك أهالى دمشق إلى أقصى حد، وقويت عزائمهم، ودعوا للدولة كثيرا.

وفى الثانى من ربيع الآخر ذهب إلى ميدان الحصا للتفرج. وعندما وجد زعما ناضرا للغاية، رأى من الواجب صيافته والمحافظة عليه. ثم عين جماعة من الحراس على بوابة "باب توما" حتى لا يدعوا الجنود يشقون على سكان المدينة، وأمر بإغلاق البوابات السبع الأخرى. وبألا يتجول الجنود فى البساتين، ولا يخربوها. ثم ولى "قهجاق" إمارة دمشق؛ إذ إنه كان من قبل أميرا هناك، وبذلك دخل فى الطاعة. وعين قنغليا شحنة على المدينة، وقرر أن يعهد بالتصرف فى الأموال والمحافظة عليها إلى فخر الدين أمين الشيرجى وسيد زين الدين كما كان الوضع سابقا، وكلفهما بالتصرف حسب القواعد المعهودة والمعتادة. وإذا عرض لهما أمر هام، فإن عليهما أن يعرضاه على وزيرى الحضرة. وهناك طائفة من ملازمى السلطان الذين كانوا هناك مثل كتاب الخزانة والجيش وغيرهم، وهؤلاء جميعا شملهم برعايته، وقرر أن يستمروا فى أداء أعمالهم.

بعد ذلك عرض الأمراء رأيهم على غازان قاتلين: "حيث إن أهل القلعة لا يدخلون فى طاعتنا، لا يمكن أن نخلص لنا سكان المدينة. وإذن فالمصلحة تقضى بأن نغير على المدينة. ولقد اتفق جميع الأمراء على هذا رأى. ولهذا استولى القلق والرعب على أهل المدينة إلى أقصى حد. ولكن سلطان الإسلام رقى لحالهم، ولم يقبل هذا الرأى، وأصدر فرمانا يقضى بألا يشق أى مخلوق على أهل المدينة، ولا يتعرض لهم بسوء، وأن يمنع منعاً باتاً كل واحد من الأمراء والجنود يريد أن يدخل المدينة، ما لم يكن لديه تصريح خاص من الديوان.

وفى يوم الثلاثاء الثامن عشر من الشهر تنفيذا للأمر الذى كان قد صدر بخصوص السماح بارتداد الخدائق، وقطع الأخشاب الملائمة للمعجنيق [ص ٣٣٨] بقصد الاستيلاء على القلعة، ألقى جمع من سياس الخيول والأرمن والكرج والأنباغ بأنفسهم فى ساحة الصالحية وقاموا بالقتل والنهب والأسر؛ فغضب سلطان الإسلام من ذلك التصرف. وعلى

الفور أمر أرغى بن قونجى بن كيتوبقا بالذهاب إلى هناك وحماية الناس، وقتل الأشخاص الذين شنوا الغارات، واغتصبوا أموال الناس. فلما وصل هذا القائد تفرقت جموع الجنود الذين كانوا قد عاثوا فسادا. وأخذ جنود أرغى يبحثون عن ديار الكرج والأرمن واستعادوا منهم الأسرى، وأطلقوا سراحهم.

وفى يوم السبت التاسع والعشرين من ربيع الآخر عاد مولاي الذى كان قد تعقب المنهزمين حتى غزة. وحيث أن الجو كان قد مال إلى الحرارة، لم يهتم السلطان غازان بأهل القلعة الذين كانوا قد خرجوا على طاعة مصر.

وفى يوم السبت الثامن عشر من جمادى الأولى عاد من دمشق، وترك الأمير قتلغ شاه والأمير جويان للمحافظة على استتباب الأمن هناك على أن يعودا إذا ما حل الربيع. ثم كلف الأمير مولاي بأن يقيم هناك على رأس جيش كبير، وعين ناصر الدين يحيى ليكون فى خدمة قهچاق وأسند عملا مناسباً لكل من بيكليمور وإيليكى اللذين كانا قد قدما إلى الحضرة. ولكنهما وكذلك قهچاق نسوا حق نعمة سلطان الإسلام ورعايته لهما. وكانوا يشيعون الإشاعات المختلفة مما كان سببا فى عودة الأمير مولاي والجماعة.

وصفوة القول أن سلطان الإسلام عبر نهر الفرات فى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من جمادى الأولى فى محاذة قلعة جعير على جسر كان قد اقترح إقامته، وهو مصنوع من حزم القصب، ومربوط بحبال من ألياف الأشجار. وفى ذلك اليوم أيضا لحق بمضارب الخيام ووصل "سلطان يساول" الذى كان قد سار إلى غزة. وعلى حدود سنجار لحق السلطان بالخواتين. كذلك وصل رسل كرمان، وعرضوا على غازان نبأ نمرود محمود شاه وأشباهه، وقتل علامة العالم مولانا فخر الدين [ص ٣٣٩] قاضى هراة وأولاده بسبب الفتن التى أثاروها.

وفى يوم الثلاثاء الخامس عشر من جمادى الآخرة، وصل السلطان إلى الموصل. وفى يوم الأحد الخامس من رجب، قدم قتلغ شاه نوبان من الشام، وأخبر غازان بمخالفة قهچاق وأتباعه. وفى غزة شعبان عبر سلطان الإسلام نهر دجلة. وفى السابع عشر من شعبان وصل الأمير مولاي من دمشق. وفى التاسع عشر من شعبان سعد بشرف لقاء الحضرة - فى منطقة دريند زنكى الأمير نورين وجيجاك وطوغان الذين كانوا قد عادوا من أران، وفى

يوم السبت الخامس عشر من رمضان، نزلت الرايات السلطانية فى مراغة وذهب فى اليوم التالى لمشاهدة المرصد، ورأى كل أعماله وأجهزته، وتفحصها بأكملها بتأن تام، واستفسر عن كيفية استعمال كل منها. ورغم وجود معضلات دقيقة تتعلق بها، فهم أكثرها. ثم أمر بأن يقام مرصد آخر بجوار القبة العالية ومواقع أبواب البر فى "شم"، على أن يختص بعدة أعمال شرحها كلها بوضوح، لدرجة أن الحاضرين من الحكماء قد أعجبوا لحسن استنباطه إذ إنهم لم يقيموا مثل هذا العمل فى أى عهد من العهود. وقد بين الحكماء لغازان خان أن إقامة هذا المرصد أمر متعلل للغاية؛ فعلمهم وأرشدتهم، وشرعوا فى إقامة هذا المرصد على سبيل التجربة والاختبار، واتصوه حسب تعليمات السلطان. وهم وجميع المهندسين المهرة يجمعون على أن أحدا لم يقم مثل هذا المرصد، ولم يعرف له نظيرا. ثم رحل غازان من هناك، وقدم إلى أوجان.

وفى يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شوال، شرعوا فى عقد مجلس الشورى (القوريلتاى). وبعد أن انفض المجلس توفى الأمير النجل آجو فى يوم السبت الثالث من ذى الحجة سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م فى أوجان، وحمل جثمانه إلى القبة العالية بشيريز. وفى السادس من ذى الحجة استأذن الأمير النجل خربنده فى العودة إلى خراسان. أما غازان خان نفسه فقد عزم على الرحيل باليمن والإقبال إلى دار الملك تبريز وكان يذهب كل يوم للإشراف على تشييد القبة العالية. والسلام.

حكاية توجه سلطان الإسلام إلي الشام ومصر للمرة الثانية

لما دخل فصل الحريف عقد غازان خان عزمه على السير مرة ثانية إلى ديار الشام. وفي يوم الإثنين غرة المحرم سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م سير الأمير قتلغ شاه في المقدمة على رأس جيش كبير.

وفي الخامس عشر من الشهر المذكور غادرت الرهات السلطانية تبريز، وهي على هذا العزم. وفي الثالث من صفر أعاد نورين آقا من "جغاتو" كشي يمشي إلى أران. وفي الرابع من ربيع الأول وصل باليمن والإقبال إلى مدينة الموصل، وأمضى يومين أو ثلاثة في الأسس والسرور. ثم سار إلى منطقة "أبو ميرى" بناء على اختيار الجند وسير الأميرين چوپان ومولاي في المقدمة.

وفي ذلك الوقت توفيت طغانشاه خاتون بنت مباركشاه في منطقة سنجار. وفي السادس من ربيع الآخر عادت الخواتين اللاتي قدمن من رأس العين لتوديع غازان. وفي الثاني عشر من ربيع الآخر وصل "شينقا" من قبل الجيش، وأخبر قائلاً إن يزكنا (رئيس عسنا) داهم بعدة فرسان، "كوشلوك" طلعة جيش الأعداء، وقتل منهم أميراً.

وفي السابع من صفر عبر سلطان الإسلام الفرات بمحاذاة جعبر وصفين. وفي يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من صفر نزل في أعلى "حبول" على مقربة من حلب. ثم وصل "قيرتو بهادر"، ومعه العديد من السوريين الذين كان قد أسرهم. وفي السابع والعشرين شاعت الأراجيف عن وصول الأعداء، فهب الجيش كله دفعة واحدة. ولكن اتضح بعد التدقيق أن هذه الأخبار ملفقة فتخلوا عن حالة التأهب القصوى. وفي الخامس من جمادى الأولى اجتازوا حلب، ونزلوا في زباط "وصيحي" على ضفاف نهر "قويق" الذي هو عبارة عن وادى نهر مدينة حلب. وفي السابع من الشهر حلوا بمحاذاة قسرين.

ولما لم تكن هناك أخبار عن الأعداء، ولم يخرج سلطان مصر خوفاً ورعباً، رآف سلطان الإسلام ببلاد المسلمين، ولم يتقدم أبعد من ذلك، وأمر بأن يربط قتلغ شاه مع جيشه في

"سرمين". وكان المطر غزيراً في ذلك الشتاء. [ص ٣٤١] وقد اتفق أن نزل في موضع ردى الأمير سوتاي مع بعض من جنود الأمير "شياوجي" الذين قدموا من الروم. وفجأة هطل مطر غزير^(١)، واشتد البرد، وظهر وحل كثير؛ بحيث إنه لم يستطع الأميران أن يتصل أحدهما بالآخر وهلك كثير من دوابهما بسبب الوحل والبرد. ولهذا أرسل السلطان غازان الأمير مولاي مع تومان من الجنود (عشرة آلاف جندي) حتى ينقلوا المحاصرين بدوابهم. وعندما وصلوا إلى هناك، استطاعوا أن ينقلوا أنفسهم بألف حيلة (بصعوبة بالغة).

وفي الثامن والعشرين من جمادى الأولى عاد السلطان، واجتاز الجسر الذي كان قد أقيم بمحاذاة مدينة الرقة، وزار قبر عمار بن ياسر وشهداء صفين (رضى الله عنهم). وفي يوم السبت الخامس عشر من جمادى الآخرة لحق بالخواتين والجنود في موضع "جهار طاق" أدنى سنجار. وفي سلخ ربيع الآخر توفي الأمير ساتلميش بن بورالغى من أقارب "التاجو آقا" على حدود كشاف، فحزن السلطان حزناً شديداً لبناً وفاته. وفي يوم الخميس الحادى عشر من رجب وصل من الشام "سلطان يساول". وفي منتصف رجب عاد أيضاً الأمير فتلغ شاه، وأمضى مع مرافقيه عدة أيام في تلك المنطقة في الأُس والمتعة والصيد.

وذاث يوم كان سلطان الإسلام يعدو وراء أحد الغزلان ورماه بهم. وبدا كأن السهم لم يصبه. ولكن سقط الغزال فجأة فاحتاط أتباع السلطان للأمر غير أنه اتضح أن الغزال أصيب من ذلك السهم بتسعة جروح. وقد شاهد هذا المنظر عامة الخلق، وتبين لهم كيف حدثت تلك الجروح التسعة؛ وذلك أن سهماً يسميه المقول "تونه" نصله له ثلاث ريشات حادة إلى أقصى حد قد أصاب الغزال عند ثوبه في الهواء، فتقاربت يداه ورجلاه، فأصاب السهم قوائمه الأربعة وجرحها، ومرق منها، فأصاب صدره وبطنه، ونحت أذنه كذلك. وقد أحدثت كل ريشة من النصل جرحاً طويلاً. وعندئذ وصل تأثير السهم إلى عنقه وحلقه [ص ٣٤٢]، فجرحه جرحين آخرين؛ بحيث إنه قد ظهرت فيه بالتحديد على هذه الصورة تسعة جروح.

(١) انظر تفصيلات عن هذا الحدث في كتاب زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج ٩ ص ٢٢٤ ٢٢٥.

بهذه الرواية تكون قد عجت نحوًا تامًا حكاية "بهرام جور"^(١) الذي رمى بمهارته غزلاً فربط ظلفه بأذنه، تلك الحكاية التي أعجب بها الناس كثيرًا. وعلى مدى ألف وخمسمائة عام ظلوا ينقشونها على الجدران، ويصورونها في الكتب. ولقد شاهد هذا الحادث ما يزيد على ألفي شخص.

وفي يوم الأربعاء الثالث والعشرين من شعبان، وصل رسل توفتاي ملك الوس جوجي وتشرفوا بقاء الخضر ثم عادوا سريعًا. وفي يوم الأربعاء سلخ شعبان عبر غازان خان نهر دجلة، وأمر وهو في الطريق باعتقال الأكراد الذين كانوا يرتكبون كل أنواع الجرائم ويعيشون في الأرض فسادًا، وقُتل منهم الكثيرون. وفي الرابع والعشرين من رمضان نزل غازان خان في أوجان. والسلام.

(١) نكتبه للمصادر العربية: "بهرام جور" والمقصود به بهرام الخامس بن بوجدرد الأول المعروف ببوجدرد الأثيم أحد ملوك الساسانيين. تولى بهرام عرش إيران بمساعدة الصمان بن النضر ملك الحيرة. حكم من سنة ٤٢٠ - ٤٣٨ م. كان بهرام مثلاً أعلى للشجاعة والفروسية. ونظرًا لولعه بصيد حمار الوحش (جور) أطلق عليه "بهرام جور". كان ينظم الشعر بالفارسية والعربية. أحبه الإيرانيون لميله إلى الغزو والفتوح والانتصار على الأعداء، وللتخفيف عن الرعية؛ إذ أباح لهم أن يأخذوا بنصيبهم من اللهو ولتسعة إلى أقصى حد. وقد اشتهرت سيرته بولعه بالصيد وعشقه النساء.

حكاية تكريم الخواجه سعد الدين صاحب الديوان وقتل حساده

بعد أن عاد سلطان الإسلام باليمن والبركة والإقبال من رحلته بالشام، نزل بمدينة الإسلام "أوجان". وفي السابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م كرم الخواجه "سعد الدين"^(١)، وشمله برعايته إلى أقصى حد، ومنحه "الختم الأحمر" "التمغا"^(٢) وفوض إليه شئون صاحب الديوان. وفي غرة ذي الحجة كان زفاف قتلغ شاه نوبان على "أبل قتلغ" ابنة غيخاتو.

وفي ذلك المصيف كان جماعة من المقربين وأصحاب الديوان مثل صابن القاضي والشيخ محمود والسيد قطب الدين ابنجو الشيرازي وغيرهم من الأتباع قد عقدوا جلسة للمشاورة بقصد إقضاء السادة من كبار موظفي الدولة.

[ص ٢٤٣] وفي المجلس الذي كان "يحتسى فيه السلطان الشراب"، صار يذكر الأمراء. وكان السيد قطب الدين الشيرازي حاضراً، فقال: "إن باسميش كان رجلاً حسن السيرة فقال السلطان: أنت تتحدث عن حسن سيرته لأنك ذهبت معه إلى شيراز، وكان أداة لكسبك، وجلب المنفعة لك، وحصلتما على أموال طائلة من هناك. ثم أضاف السلطان قائلاً: إنك وأمثالك تسعون دائماً إلى الفتنة والشر. فرد قطب الدين تحت وطأة السكر: إن السلطان يظهر الكرامات كأنه كان معنا أثناء المشاورة. فأدرك السلطان بحمده وفراسته ما دار بين المتأمرين. وفي تلك الليلة أيضاً أمر باعتقال الشيخ محمود. وفي الصباح قبض على

(١) انظر تفصيلات عن هذا الوزير في كتاب مؤرخ الملوك الكبير، تأليف الدكتور فؤاد عبد المعطي الصباد، القاهرة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م.

(٢) كلمة مغولية مركبة من آل بمعنى أحمر شفا بمعنى ختم، أي الختم الأحمر. وأحياناً يكتب هذا اللفظ "شغاي آل". وكان هذا الختم أول الأمر مربع الشكل، ولحق به النقوش والقرمانات والأحكام، وذلك بالبلاد الأحمر. وبناء على طلب نوروز أمير السلطان غازان أمره بأن يغير هذا الختم، فيصير مستديراً بدلاً من أن يكون مربعاً وذلك بقصد التمييز والتفان (انظر الجوهري: تاريخ جهانگشاي، ج ١ ص ٦٧ من المقدمة؛ مؤرخ الملوك ص ٧٧).

صاين القاضي والسيد قطب الدين ومعين الدين الحراساني وأمين الدين الإبداجي وسعد الدين حبش، وشرع المحققون في استجوابهم. وبعد سبعة أيام أطلقوا سراح أمين الدين. وبعد عشرة أيام أطلقوا أيضاً سراح سعد الدين حبش لأن كلا الاثنين لم يرتكب ذنباً. وفي يوم الاثنين الثاني والعشرين من ذي الحجة قتل صاين القاضي والسيد قطب الدين ومعين الدين في موضع "دول". وفي يوم الأربعاء منتصف المحرم سنة ١٣٠١/٧٧٠ م أطلق سراح الشيخ محمود بشفاعه بلوغان خاتون.

كان سلطان الإسلام غازان رحيم القلب إلى أقصى حد، ولا يحيز إهداء أى مخلوق لدرجة أنه إذا سقطت ذبابة في الطعام فإنه كان يخرجها بيده المباركة بحيث لا ينكسر جناحها ويدعها تستعيد قوتها، ثم يطيرها. مع هذا كان يصرح بقوله: "إن قتل بعوضة بريئة أشق على من قتل إنسان مذنب؛ لأن ترك الإنسان الكثير للفتنة حياً يؤدي إلى خلل كبير لا سيما في شئون المملكة والسلطنة".

**توجه سلطان الإسلام غازان خان إلى الأتاغ
ثم تحرّكه من هناك عن طريق نخجوان
إلى مشتى أران، ووصول الرسل
الذين كانوا قد ذهبوا إلى مصر**

فى يوم الأربعاء منتصف المحرم سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م توجهت الرايات السلطانية إلى الأتاغ. وفى الحادى والعشرين من الشهر المذكور سار قتلغ شاه نويان على رأس جيش قاصداً ديار بكر عن طريق مراغه. وفى يوم الخميس الثانى من صفر، نزل سلطان الإسلام فى قصر الأتاغ. وفى يوم الأحد الثانى من ربيع الأول تحرّك من الأتاغ قاصداً أران عن طريق نخجوان. ثم صدر الأمر بعودة الأمير قتلغ شاه إلى ديار بكر. وفى يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الآخر وصل كمال الدين الموصلى وعلى خواجه اللذان كانا قد سارا برسالة إلى مصر. ولأن الجيوش عسكرت فى منطقة قرا باغ، لم يمكث سلطان الإسلام هناك طويلاً، وسار للصيد فى جبال شروان ولكرستان حيث مارس الصيد عدة أيام. ومن هناك توجه إلى ناحية گاوبارى لصيد الإوز. كما اشتغل هناك مدة بصيد الطيور والأسماك. ثم نزل بموضع "خليزى" التى سماها السلطان "قوش قيون"، وهى التى تقع على شاطئ البحر، وعند إلى حدود برمكى، وشر بها كافة أنواع الكركى والطيور المائية التى تعود من المشتى إلى المصيف. ولما حلت الأكلوبة السلطانية بتلك المنطقة على مقربة من "درند"، انهزم ملك الألووس، كما انهزم [ص ٣٤٥] أمراؤه الذين كانوا على مقربة من هذه الناحية ظانين أن الأكلوبة الغازية متوجهة إليهم، وأن الجنود عبروا الأنهار. وبعد مدة عرفوا أن الأمر على خلاف ظنهم، فعاد التجار إلى التنقل مرة أخرى. وقد دخل فى الطاعة جميع أمراء لكرستان الذين كانوا قد أعلنوا العصيان والتحرد منذ مدة طويلة، واختبأوا فى الجبال المتبعة ففوجئوا إلى الحضرة عن إخلاص ورضا وسكوا بالعروة الوثقى طامعين منقادين. وقد اعتقل جماعة اللصوص والرعاع الذين كانوا قد قدموا من ولاية أذربيجان واعتصموا بالجبال. وكانوا يمارسون أعمال اللصوصية وقطع الطرق فقتلوا جميعاً. ثم عاد غازان خان

من تلك الجهات، ونزل في المعسكرات في بيلسوار و"همه شهرة". بعد ذلك خرج معترفاً الصيد في المناطق الواقعة على طريق تالشان واسيهيد. ثم أمر بإقامة جدارين من الخشب والحسك وسط تلك الجبال، وذلك في مدة ما يقرب من يوم واحد؛ بحيث كانت الفتحة الخارجية الواقعة بين الجدارين بقدر مسيرة يوم واحد تقريباً. وكانت تضيق شيئاً فشيئاً على شكل مخروطي حتى تصبح الفاصلة بينهما خمسين ذراعاً. وفي قاعها أقاموا - من الخشب - ما يشبه الحظيرة. وبعد ذلك أعد الجنود خندقاً دائرياً، وأخذ الصيادون يسوقون الصيد^(١) بين الجدارين، حتى جمعوا الحيوانات كلها في تلك الحظيرة. وكان من بينها البقرة الجبلية وحمار الوحش والغزال وابن آوى والثعلب والذئب والدب وغير ذلك من أنواع وأصناف الوحوش والطيور.

ولما كانت هذه الحيوانات محصورة بين الجدارين وليس لها مخرج كان لا مفر لها من الدخول في الحظيرة. وكان سلطان الإسلام يجلس مع بولوغان خاتون في عريشة صنعت من الخشب، وأقيمت وسط تلك الساحة، فكانا يشاهدان تلك الحيوانات. وقد اصطادا بعضها، وأطلقا بعضها الآخر. ثم رحلا من هناك، وكانا يتجولان ويتنقلان من مكان إلى آخر إلى أن وصلا إلى دار الملك تبريز. فصار أهل ولاية آذربيجان من رجال ونساء وكبار وصغار يسطون أيديهم بالدعاء عن طواعيه وإخلاص. كما لهجت ألسنتهم بالثناء على حضرة السلطان. ثم خرج جميع أهل تبريز مع علماء الإسلام بنظام وترتيب تام، وقاموا بمراسم الاستقبال، فأظهر لهم سلطان الإسلام كل عطف ورحمة، وأعفاهم من التكاليف والمؤن غير الملائمة. والسلام.

(١) جرماً على عادة آبائهم وأجدادهم الذين كانوا يهتمون بالصيد اهتماماً كبيراً، ويحشدون فيه رياشتهم الفيلة ويتخذونه وسيلة للإعداد والتدريب إذا ما جد الجهد، ودعوا إلى حمل السلاح وغرض غمار المعارك فهم في حلياتهم الصيد يتفردون على ما سيفعلونه وقت الحرب (انظر الجويني: تاريخ جهانگشاي، ج ١ ص ١٩ - ٢٠ د. السباعي محمد السباعي: عطا ملك الجويني وكتابه جهان گشا ص ٢٣١ - ٢٣٣، القاهرة ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م القول في التاريخ، ص ٣٤٢ - ٣٤٤).

حكاية

الاحتفال العام الذى أقيم بأمر سلطان الإسلام فى المعسكر الذهبى بموضع حديقة أوجان وختم القرآن هناك، وبذل العطايا والصدقات

كان سلطان الإسلام قد أمر الصناع البارعين والمهندسين المهرة بإقامة سرادق منسوج بخيوط ذهبية، وعرش مطلى بماء الذهب. وكان هذا السرادق مزودًا بالآلات والأدوات المناسبة. وقد ظلت مجموعة كبيرة من الصناع، تعمل مدة ثلاث سنوات فى إعداد ذلك السرادق. وما أن حل غازان بدار الملك تبريز فى هذا الوقت حتى كان السرادق قد تم.

وفى أواخر ذى القعدة سنة ٧٠١هـ/١٣٠١م سار غازان خان من تبريز إلى أوجان. وهناك كانوا قد أقاموا سورًا حول مرج ناضر بهيج للغاية، أعد لنزوله المبارك حيث تجرى الأنهار والينابيع. وقد أقيمت الأحواض والبحيرات العظيمة، فاختذتها أنواع الطيور مأوى لها، وقسم ذلك المربع المتساوى الأضلاع إلى أقسام متساوية، وعلى جانبي كل ممر منها غرست أشجار الصفصاف والخور ليمر الناس من تلك الممرات، ولا يسير أى مخلوق وسط المرج. وقد عيّن طريق لكل طائفة لتعرف من أين تدخل، ومن أين تخرج. ثم أمر بإنشاء الجواسق والأبراج والحمامات والعمارات العالية، [ص ٣٤٧] وبأن يقام كذلك السرداق المطرز بخيوط ذهبية وسط تلك الحديقة، وكذلك المخيم السلطاني والمظلات الخاصة به. وقد احتشد جميع العمال والمهندسين، واستطاعوا إقامة المخيم فى مدة شهر. وكان غاية فى الفخامة. ثم وضعوا العرش المرصع بالجواهر والياقوت.

وتعظيمًا للإسلام بادر غازان خان قبل إقامة الحفل بدعوة السادات والأئمة والمشايخ والقضاة والصالحين. وبالتبعية دعا أهل الأمم من الطوائف الأخرى. ثم توجه إلى الجميع، وخاطبهم بلسان فصيح وبيان عذب، وساق على لسانه حديثًا دقيقًا فى باب الحكمة والمعرفة. وكان ينصح طبقات الناس ويعظهم، وصار يشكر النعم والآلاء الإلهية. وخلال حديثه قال: إننى أنا العبد الضعيف أعترف وأقر بالعجز والقصور وكثرة الذنوب وبأنى لست جديرًا بهذا العطاء، ولا لائقًا لهذه الموهبة؛ غير أن فيض الرحمة والرأفة الإلهية

وآثار لطف وكرم البارئ عز وعلا عظيمة في حق عباده إلى أقصى حد. ولا شك أن نعمه من الكثرة بحيث لا يستطيع ابن آدم، ولا جميع الخلائق أن يوفوها حقها من الشكر ولست غافلاً عن أن شكرها واجب ولازم بمائة ألف لسان؛ إذ إن الله - فضلاً وإحساناً منه قد أدخل جميع خلائق إيران الذين هم ودائع الحضرة الإلهية في دائرة طاعته. ولست أعدد بغرور الملك السريع الزوال، والذي انتزع من عدة آلاف من الأشخاص. ومن بين أصناف النعم التي من الله بها على أنه منحني ما لم يمنحه الملوك الآخرين. وقد حقق لي آمالي أسلافى. وإن أفضّلها أن عباده قد آمنوا بطبشى [ص ٣٤٨]، وهم راضون بحكمي وراغبون فيه.

وبناء على هذه المعاني والمقدمات لم أشأ أن أدخل هذا السرداق والمخيم بالجاء والجبروت. وينبغي في هذا الزمان أن تؤدي شكر هذه النعمة العظمى نحن وأنتم أي الحاكم والمحكومون؛ وذلك يكون بالتضامن، ودون نفاق ورياء، ونطلب من الله غفران ذنوبنا مخلصين متضرعين.

والآن نبدأ حفلنا بتلاوة القرآن الكريم، ونؤدي الطاعة والعبادة، ثم نشغل باللهو والطرب.

هكذا نطق غازان بهذه الكلمات الملهية، وذكر اسم الله تعالى والرسول صلى الله عليه وسلم بالتعظيم. ثم وضع قدمه المبارك في السرداق وأسند ظهره إلى مسند التوفيق والنجاح. ثم أمر بإحضار ما لا يعد ولا يحصى من قطع الذهب والفضة، وتصدق بها كلها بعد إطعام الناس بأصناف الأطعمة المختلفة شكراً لله؛ بحيث نالت كافة الطوائف نصيبها منها. بعد ذلك اشتغلت كل طائفة على طريقتها مدة ثلاثة أيام بلياليها بتختم القرآن، وأداء فروض العبادة.

وفي يوم الاحتفال وضع غازان على رأسه تاجاً مرصعاً بالجواهر لم ير أحد مثله، وشنطق بمنطقة مناسبة له، ولبس الثياب المزركشة الثمينة للفاة، وأمر أيضاً بتزيين الخواتين وجميع الأمراء الأنجال والأمراء والمقررين بكل أنواع الزينة. وكان الجميع ينتظون الجياد التي لا نظير لها، وصاروا يتجولون.

وبعد انتهاء الحفل انصرف إلى ضبط شئون المملكة، وتدير مصالح السلطنة والترفيه عن الرعايا، ورعاية كافة البرايا. وكان قد تشاور مع أمراء الدولة وأعيان الحضرة، فاستقر

الرأى على أن يقيم الأمير خربنده فى مازندران وما جاورها خلال الشتاء، ويمضى الصيف فى نواحي طوس وأيبورد ومرو وسرخس ومنطقة بادغيس. وأما الأمير نورين فيستوفى أران مع جنوده المعينين، وذلك طبقاً للقرار السابق على أن يظل مقيمًا هناك. [ص ٣٤٩] أما الأمير قتلغشاه، فيتوجه إلى ناحية جورجيا، ويسير بعضًا من جنود الكرج إلى ناحية ديار بكر، وينضمون إلى كتية الأمير مولاي المكونة من عشرة آلاف جندى ليكونوا على أهبة الاستعداد للسفر إلى الشام. وأما كتية هولاجو فترحل إلى فارس وكرمان؛ حتى إذا دعت الحاجة فإن عليهم أن ينضموا إلى الأمير ساداق وسلطان كرمان. وهكذا نُظمت الأمور وفق هذا الترتيب، ونفذ الجميع ما أشار به السلطان. والسلام.

حكاية

توجه الرايات السلطانية من مدينة الإسلام أوجان إلى بغداد، والأحداث التي حدثت في الطريق ثم الوصول إلى واسط والحلة وعقد النية على السير إلى الشام

في غرة المحرم سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م توجه سلطان الإسلام من مدينة الإسلام "أوجان" إلى ناحية همذان عاقداً العزم على السفر إلى الشام. وفي تلك الأيام تقرر أن يسير الأمير "نورين" إلى أران لقضاء الشتاء والمحافظة على تلك الجهات.

وقبل أن يستأذن من الحضرة توجه نحو "هشترود". وقد ليس السواد أبناء شرف الدين عبد الرحمن الذي كان حاكماً على تبريز مدة من الزمان ثم سار بعد ذلك ليكون مستوفياً على ممالك الروم، ولجأ هؤلاء الأبناء إلى عدالة حضرة السلطنة قائلين: إن نظام الدين يحيى ابن خواجه وجيه قد أمر بقتل والدهم. وعندما بلغت الرايات السلطانية هشترود نال الأمير نورين الإعزاز والتكريم. ثم عاد متوجهاً إلى أران (ص ٣٥٠). وفي يوم عاشوراء قتلوا نظام الدين يحيى ابن خواجه وجيه ودولتشاه بن أبي بكر داد قابادی بناحية يوز آغاج وهشترود. كما قتلوا في اليوم التالي عربشاه حفيد السلطان "حجاج كرمان". ومن هناك دخل السلطان همذان، ونزل في الخانقاه المبارك الذي أنشأه في قرية يوزنجرد، وأوقف عليه أوقافاً كثيرة. وكان بناء فخماً وعالياً إلى أقصى حد. ثم سار من هناك إلى "جغان ناوور فراهان" حيث أقام عدة أيام. ثم سلك طريق نهاوند قاصداً هيجال.

وفي ناحية يستون دخل في طاعة غازان ثلاثة من أمراء الشام كان مقدمهم على شير فآكرمهم سلطان الإسلام، وأنعم عليهم. ووقت فتنه نوروز، واعتقال إخوته وأتباعه في ناحية كرمانشاهان كان السلطان يقيم مع جماعة من المقربين إليه في العراء في الصحراء دون خيمة تؤويهم. وقد ناموا وسط جبل كان قد نبت أمامه شجرة وارفة الظلال. ولأن لكرى لم يكن قد قبض عليه، ولم يكن مصر نوروز قد علم، كان الخاطر المبارك لغازان مشتتاً بعض الشيء. وبخصوص ذلك الأمر، صار يفكر في ذلك الموضوع، فظهر من عالم

الغيب فتح وفرج. وعندما وصل إلى هناك وكانت الآمال قد تحققت تذكر ذلك الموضع وتلك الشجرة؛ فذهب قاصداً زيارة تلك الناحية، وبصحبته جميع الخواتين والأمراء، فبكى وتذكر تلك العزيمة والضراعة والدعوات [ص ٣٥١] التي توجه بها في ذلك الوقت فأدى واجبات الشكر على ما ناله من ظفر ونصر، وصلى ركعتين صلاة الحاجة، ثم سجد ونخشوع تام، طلب من حضرة الحق تعالى النصر في جميع الأحوال، ثم رفع رأسه. وأخذ ينصح الجمع قائلاً: استعينوا بالحق جل وعلا في السراء والضراء، ولا تيأسوا من رحمته بأى حال ولا تفخروا ولا تغتروا بأى شيء. وتيقنوا أنه لن يغيب الله عنكم طرفه عين، ولا تتخضعوا بقوتكم وقدرتكم، واخشوا البطش الإلهي. ثم التمس غازان حاجاته من الحق تعالى، ونوى نوايا طيبة من كل نوع؛ خصوصاً فيما يتعلق بتحقيق العدل والإنصاف على نطاق واسع. بعد ذلك ربط جميع الحاضرين علامات على تلك الشجرة، وأصبحت مزاركاً لهم.

بعد ذلك عرف المطربون بعض العزف، ورقص الأمراء. وكان الأمير يولاد چينگسانگ حاضراً، فقال: إن "قوله قان" عم جد سلطان الإسلام، كان في عهده ملكاً على عدة أقوام. وكان بطلاً في غاية الشجاعة حتى كانوا يضربون به المثل في البطولة، ونظموا فيه شعراً كثيراً. وكان صوته جهورياً مرعياً؛ بحيث إنه كان يصل إلى السامع على بعد سبعة تلال. وتصادف أنه سار ذات يوم لمحاربة المركيت^(١). وفي الطريق وصل إلى إحدى الأشجار؛ فنزل عندها، وناجى الله الأزل، وطلب منه النصر، ونذر قائلاً: إنني إذا انتصرت على العدو، فسوف أجعل هذه الشجرة مزاركاً، وأزينها بالأقمشة الملونة الجميلة، فنصره الحق تعالى على عدوه. ولما عاد بعد الفتح، وتقدم إلى تلك الشجرة، وقى بنذره وزينها، وشكر الخالق عز وعلا. ثم أخذ في الرقص مع جنوده تحت تلك الشجرة، ودقوا الأرض

(١) قوم مركيت يطلق عليهم اسم "مركيت"، وهم يسكنون المنطقة الواقعة شمال بلاد الكرايت على بحرى نهر سلجنا وجنوب بحيرة بايكال. وكان لهم جيش قوى ذو بأس شديد في الحروب، ويعتدون أصلاً من جنس المغول، ولكنهم قاموا بعدة حروب ضد چينگيز خان ولونك خان. وقد عرف عن هؤلاء القوم ميلهم إلى الشغب وإثارة الفتن. ولهذا شن عليهم چينگيز خان حرباً شواء مستعلاًً أنسى ما عرف عن المغول من قسوة وشدة. (انظر رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ، جلد أول از أعمال پیدایش قبایل مغول تا پایان دوره تیمور قان، ص ٧١ - ٧٣، بكوشش دکتر بهمن کریمی، تهران ١٣٣٨ هـ.ش).

بأرجلهم دقاً عتيفاً إلى حد أن هبط ما حولها بقدر ذراع، وأحدث حفرة عميقة. فأعجب سلطان الإسلام بذلك الكلام إلى أقصى حد، وقال: لو لم يكن لأجدادنا هذه النية والإخلاص، لما صيرهم الله سادة ملوك العالم، ولما بلغت أسرتهم هذه المنازل الرفيعة والدرجات العالية. [ص ٣٥٢] ثم مكث ساعة في حالة من الفرح والسرور مصغياً إلى المطربين.

بعد ذلك سار السلطان غازان عقب الجيوش، وفجأة وصل الرسل من قبل الأمير قتلغ شاه، ومعهم أمراء الشام الذين كانوا قد فروا من هناك، ودخلوا في الطاعة، وعلى رأسهم "علاء الدين"، فشملمهم السلطان بعطفه وطيب خاطرهم بالعود الطيبة. وعند تلك الحدود أيضاً وفد رسل فاسيليوس ملك القسطنطينية يحملون التحف والهدايا، وأبلغوا غازان أن فاسيليوس يريد أن يكون في ظل حماية سلطان الإسلام، وأن يرسل إليه ابنته لتكون محظية له، فشملمهم السلطان بعطفه. ومن هناك رحل إلى "بندنجين". وبعد إقامة ثلاثة أيام، أرسل الخواتين والأسر إلى بغداد. وفي يوم الأربعاء الرابع عشر من ربيع الآخر، ركب من بندنجين قاصداً الصيد في جوقين. كذلك شغل بالصيد عدة أيام في نواحي شيب وواسط ومشهد سيدى أبى الوفاء رحمه الله. ثم ذهب لزيارة المشهد، وخص المجاورين بالصدقات والإنعامات، وأمر بإقامة عمارات على شاطئ النهر الذى كانوا قد أجروه من نهر الفرات إلى تلك الصحراء القاحلة، ولذلك السبب صار ذلك المشهد كأنه مدينة. وبعد ذلك قدم غازان من هناك إلى الحلة، ونزل في العسكرات. وفي الحلة وصل إلى الحضرة القاضي نصير الدين التبريزي والقاضي كمال الدين الموصلى اللذان كانا قد أرسلهما غازان من أران برسالة إلى مصر^(١)، ثم عادا من هناك، ومعهما رسل مصر، فقدموا الرد على الرسائل وكان بجانيه الصواب. كذلك قدم رسل توتكا البالغ عددهم ثلاثمائة فارس.

وفي يوم الأحد غرة جمادى الآخرة الذى كان على رأس السنة التركية أقيمت الولائم والاحتفالات. وفي ذلك اليوم تشرف بلقاء غازان رسل مصر وكذلك توتكا، فخصه برعايته الفائقة. ثم أرسل المصريين [ص ٣٥٣] إلى تبريز، وأغلق عليهم أبواب المدينة حتى لا يغادروها.

(١) انظر نص الرسالة في كتاب زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج ٩ ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

وفى يوم الإثنين التاسع من جمادى الآخرة اجتاز غازان خان جسر الحلة قاصداً ديار الشام. وفى يوم الإثنين السادس عشر من الشهر المذكور زار مشهد أمير المؤمنين الحسين (رضى الله عنه)، وعلّق عليه الستائر الفاخرة التى كان قد أمر بإعدادها للمقام هناك، ومنح المجاورين والحاضرين صدقات لا حصر لها. ومن حاصلات النهر الفغازاتى الذى كان قد حُفّر فى تلك المنطقة، والذى كانت مياهه تجرى إلى "مشهد" عَيْن ثلاثة آلاف من من الحيز، تقدم يومياً للسادات المقيمين هناك. وفى ذلك اليوم وصل "أرمنى بلا" من خراسان وأبلغ أن ثلاثة أو أربعة آلاف من الثمرديين قد اقتربوا، فذاهمهم الجنود المتصورون وأنهكوهم وأفنوهم عن آخرهم؛ فسر السلطان غاية السرور، وزاد حبه وشفقته نحو أخيه^(١). وفى يوم الجمعة الرابع من رجب سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م وصل رسول أبلغ السلطان أن الأمير "نورين آقا" قد توفى فى مثنى أران فى أوائل جمادى الآخرة؛ فحزن سلطان الإسلام بسبب تلك الواقعة. بعد ذلك شرع يجتاز الفرات من شاطئ إلى آخر. فلما بلغ "حديثة"^(٢) أمر أغلب الخواتين وكل أفراد الأسر بعبور نهر الفرات والذهاب إلى ناحية سنجار، والإقامة هناك. ثم توجه بنفسه على رأس جيشه إلى عانة^(٣). وكان برفقته بعض الخواتين الأخريات بقصد توديعه. وفى يوم السبت الثانى عشر من رجب نزل بمدينة عانة. وفى الحقيقة أنه لا يوجد مكان فى العالم أكثر رونقاً وجمالاً من هذا المكان؛ إذ إن المدينة تقع على جزيرة وسط الفرات، وقد أحاطت بها الحدائق والبساتين الزاخرة بالأشجار والرياحين؛ وذلك بعرض فرسخ، بحيث إن ضوء الشمس لا يقع من جوانبها على الأرض. وهناك أنشأوا الجواسق والأبنية العالية المنحوتة من الرخام. وقد شيدوا بناءها من أعماق الأرض، وفتحوا فى جوانبها النوافذ التى تطل على الفرات، والحدائق الشبيهة بالجنان.

(١) المقصود أموه أو الجايو، وكان قد عيّن من قبله حاكماً على خراسان.

(٢) الحديثة موضعان: أحدهما هذه الحديثة التى هى من بلاد الجزيرة، ولحق على الفرات تحت عانة، وفوق الأنبار. والثانية حديثة الموصل. والحديثة بلد على بعد فراسخ من الأنبار فى وسط الفرات، والله يحيط بها، ويقال لها حديثة النورية (تقويم البلدان، ص ٢٨٧).

(٣) عانة: بلدة صغيرة على جزيرة فى وسط الفرات. وهى على مقربة من الحديثة. وتشتهر بخرها الذى يتردد صداه فى الأشعار (تقويم البلدان، ص ٢٨٧).

[ص ٣٥٤] وهكذا فإن بهجة تلك البساتين ونضرتها ومزارع النخيل لما يفوق حد الوصف. وعلى هذا النمط الذى ذكر، تمتد عمارات توابع الفرات إلى مسافة تسعين فرسخاً ابتداءً من "سكر فلوجه" الواقعة على حدود الأنبار حتى نهاية سروج^(١) وحران^(٢). وهذه العمارات تتصل بعضها ببعض على امتداد هذا الطول المذكور، ويعرض فرسخ أو أكثر على شاطئ الفرات؛ بحيث لا تحسر قطعاً ظلال الأشجار عن أية بقعة. وتظل السدود مغلقة على الدوام، ودواليب السواقي تدور بالمياه على الجائنين ليلاً ونهاراً، والجواسق والأبنية العالية متلاصقة.

وصفوة القول فإن بلوغان خاتون ودعت زوجها غازان خان، ثم عبرت النهر وتوجهت إلى سنجار. أما الرايات السلطانية فقد قصدت مع الجيش المظفر إلى رحبة الشام. وقبل وصول الرايات السلطانية إليها أشيع أن العدو قد ظهر فى أطراف الشام. ورغم أن الإشاعة كانت كاذبة فإن السلطان أمر باستعراض الجند، وتفقد أحوالهم لتعبئة الجيش وإعداد الأسلحة والدروع.

وفى اليوم الثامن والعشرين من رجب ساروا حتى ظاهر الرحبة. وكان الأهالى هناك قد هبأوا العجلات الحربية، واتخذوا للاستعدادات الأخرى. ولكن غازان لم يعبأ بذلك، وغادر معسكره ليلاً، وصار على مقربة من القلعة. وكان الأمير علم الدين الغنى وأهل الرحبة قد تحصنوا بالقلعة؛ فأمر سلطان الإسلام فى آخر رجب بأن يذهب الأمراء الكبار وكذلك أصحاب الديوان إلى مكان قريب من القلعة. وهؤلاء هم: سوتاي وسلطان ومؤلف هذا الكتاب: رشيد الدين الطيب^(٣) والحواجه سعد الدين صاحب الديوان ليدعوا الأهالى إلى

(١) سروج: مدينة بنواحى حران من بلاد الجزيرة، وبينها وبين حران مسيرة يوم. وهى كثيرة المياه والبساتين. وبها الرمان اللؤلؤ والكشمش والخوخ والفسرجل. وهى أيضاً على مسافة يوم من البيرة فى جهة الشرق والشمال عنها (تقويم البلدان، ص ٢٧٧).

(٢) حران: مدينة مشهورة تعد من ديار مصر. بها تل عليه مصلى للصائين يعظمونه، وينسب إلى إبراهيم. وهى قليلة الماء والشجر. والجبل منها فى سمت الجنوب والشرق على فرسخين. وترتبتها حرار. وشرب أهلها من قناة تجرى من عيون خارج المدينة ومن الأنبار (تقويم البلدان، ص ٢٧٧).

(٣) بصر هنا رشيد الدين على تلقب نفسه بلقب رشيد الطيب مع أنه كان وزيراً لغازان خان منذ سنة ٦٩٧ هـ. يشارك زميله سعد الدين أحمد الساجى فى منصب الوزارة. وليس من اليسور أن نكتشف عن الطفل والأسباب =

الخضوع والدخول في الطاعة، فقدموا حسب الأوامر إلى أسفل القلعة [ص ٣٥٥] وأشاروا بكتابة منشور عبارات عربية جاء فيه: "إن سبب مجيئنا هو تصرفات المصريين غير الصائبة التي درجوا عليها منذ مدة. وقد أرسلنا الرسل مراراً يحملون إليهم المواعظ والنصائح؛ فلم ينتصحوها، وردوا علينا بردود تدل على عدم اكتراث، فحملت ذلك على سبيل جهالتهم، وعدم ممارستهم الأمور العظيمة. وحيث إن هذه الأساليب قد تجاوزت حدها، زحف جيشنا المظفر بقصد الانتقام. وكان لا مفر من عبور هذه الديار؛ وإلا فليس لنا غرض في إلحاق الضرر بكم أنتم أيها السوريون فعليكم أيضاً أن تتدبروا هذا الأمر، وأن ترعوا مصالحكم وتحفظوا دماءكم، وتحفظوا أموالكم، وتتقدموا إلينا طائعين منقادين. وحيث إنكم تدركون أن الحق في جانبنا، كان عليكم ألا تعاندوا، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة". وهكذا خَرَّ المنشور بهذه الصورة، وختم بالختم، ثم أرسل إلى داخل القلعة، فأعادوا حامله قائلين: حيث إن عبارات المنشور في غاية الفصاحة والبلاغة، نطلب مهلة هذه الليلة كي نسبر غور معانيه، ونقدم الرد غداً نهاراً. وفي اليوم التالي الخميس غرة شعبان، أوفدوا جمال الدين الإسكندري والشيخ شرف الدين من مريدي سيدي أحمد الكبير بحملان الرد على ذلك المنشور ومضمونه: "إنا مطيعون ومنقادون لأمر سلطان الإسلام"، فسلمهما غازان خان يعطفه وأعادهما. وفي اليوم التالي نزل حسام الدين لاجين نائب علم الدين الغنمي الذي كان قائد القلعة وأظهر الخضوع والطاعة؛ فوجد العطف والرعاية ثم عاد. وفي اليوم التالي نزل هو وسيف الدين قليج، الابن الأكبر للغنمي^(١) والقاضي نجم الدين وطائفة من أعيان الرحبة، وقدموا فروض إشام الطاعة وتشرفوا بقاء الحضرة. وقد حررت لهم عهود أمان محكمة باللغة العربية بخصوص اختصاصات الغنمي وأعماله، وما يتعلق بأبنائه ونوابه، وكذلك القاضي وجمهور [ص ٣٥٦] أصحاب الأعمال هناك، وتأمين أهل المدينة والقلعة والولاية. وقد زحرت هذه الكتب والعهود بالأختام المباركة، وسلمت لهم.

- التي جعلت رشيد الدين يكفي بالانساب إلى مهنة الأول دون أن يكشف عن شخصيته كوزير مسئول يشترك مع سعد الدين في إدارة شؤون الدولة. (انظر مؤرخ الغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني، ص ١٢٥). (١٦٦).

(١) انظر زبدة الفكرة، ج ٩ ص ٣٥٢.

وفى يوم الثلاثاء السادس من شعبان غادر غازان خان قلعة الرحبة، وجاءت البشرى من ناحية خراسان تنبئ أن جيش قايلو قد انهزم وهلك، وجرح "دوا". وفى هذا الوقت كان الأمير قتلغ شاه وچوهران ومولاي قد عبروا مع جنودهم نهر الفرات إلى الرقة. ثم وصلوا إلى حلب. أما سلطان الإسلام فقد نزل بأعلى "دير بسير" على ضفاف نهر الفرات، وأقام هناك ثلاثة أيام ثم سار جميع الأمراء مع جنودهم كى يلحقوا بالأمير قتلغ شاه والآخرين. ولما حل الربيع، وزادت المياه وصار الجو حاراً، عبر غازان الفرات قاصداً سنجار والموصل فى اليوم الثالث عشر من شعبان. ثم عبر نهر الخابور فى مدينة ماركسين، وشمل برعايته رسول خراسان: ساهغان وقونجى أفتاجى، ثم أذن لهما بالعودة. وكان يسير فى تلك البرية المليئة بأزهار اللعل والأقحوان، وهو ينتزه ويصطاد.

وفى يوم الأحد الخامس والعشرين من شعبان لحق بالخواطين اللاتى كن قد أتين لاستقباله فى موضع "چهار طاق" مما يلى سنجار، وأقام يومين أو ثلاثة. وفى غرة رمضان نزل فى المعسكرات فى موضع تلعفر، وقوض السلطان نجم الدين ماردين حكم ديار بكر كلها وديار ربيعة، ولقبه بلقب الملك المتصور. ثم عبر نهر دجلة، ونزل بصحراء كشاف. ولما كانت شكوى أهل الموصل قد بلغت القلق السابع بسبب ظلم فخر الدين النصرائى، صدر الأمر بأن يقضى عليه السلطان نجم الدين عند مسيره إلى الموصل، فخدعه هذا السلطان متظاهراً بأنه سوف يجعله نائباً هناك، ثم قضى عليه بعد عدة أيام.

حكاية

التحام قتلفشاه نويان بجيش مصر ثم رجوعه من هناك، وعودة الرايات السلطانية إلى أوجان

ظل سلطان الإسلام في كشاف يتربص وصول الأمراء والجنود الذين كانوا بالشام. وهؤلاء عندما بلغوا حمص، شرعوا في النهب والقتل العام. فلما اقتربوا من دمشق، وسمعوا أن العدو قد اقترب في صباح السبت غرة رمضان، ركبوا دفعة واحدة، وتقدموا إلى ما يقرب من خمسة فراسخ، واجتازوا المياه والأوحال الكثيرة؛ فأدركوا العدو في موضع "مرج الصفر"^(١)، وتحاربوا. وكان ذلك في اليوم التالي من رمضان؛ فهزمت ميسرة جيشنا مبعثتهم، وقتل منهم ثلاثة عشر أميراً من أمرائهم الكبار، من جهلهم حسام الدين "أستاذ الدار". كما قتل جمع غفير. أما الباقون فقد صاروا منهوكين مجروحين، وتقهقروا منهزمين فتعقبهم جمع من أبطالنا، وطاردوهم عدة فراسخ.

أما قتلف شاه نويان فقد انحرف من القلب إلى الميسرة بقصد المدد. عندئذ بقيت الميسنة متعزلة وحيدة، فهزمتها ميسرة المصريين، وتقهقر الجنود لأنهم كانوا قليلين. وعندما عاد الأمير قتلف شاه إلى الميسرة كان الجنود قد فرغوا من الحرب. فلما دخل الليل، اعتلى الأمير ربوة، وقف عليها، فأنجبه جنودنا غوه. وقد بات الجميع تلك الليلة حتى الصباح على ظهور جيادهم، واشتد الظلم بالناس والدواب. وقد طوق المصريون تلك الربوة. فلما حل الصباح قاتلهم جند الأمير بولادقيا وأتباع تكاتيمور ابن الأمير التيميل، وأتباع ناصر الدين يحيى وكانوا يقفون في مواجهتهم. كذلك قال الأمير قتلف شاه لثيئاق وترسا: أنتم لم تقاتلوا

(١) انظر المزيد من التفاصيل عن هذه الواقعة الحاسمة التي تم فيها النصر المبين للمصريين والسوريين في المصادر والمراجع الآتية: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج ٩ ص ٣٥٥ وما بعدها؛ أبو بكر بن عبد الله بن أبيك الشولداري: كنز القدر وجامع القدر، ج ٩ تحقيق هانس روبرت رويسر، ص ٨٢ وما بعدها؛ رحلة ابن بطوطة، ص ٥٣٩، دار صادر، بيروت ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م؛ القريري: السلوك، ج ١ ق ٣، ص ١٩٣٧ الشرق الإسلامي في عهد الإلخانيين، ص ٢٩٦ وما بعدها.

بالأمس، فاذهبوا اليوم لنجدة زملائكم. فتقدم الاثنان نحوهم متمسكين متضامنين واشتركا في الحرب، فتحلى السوريون والمصريون عن المنطقة المحيطة بالربوة وتوجهوا إلى جنود المغول دفعة واحدة. ولما كان هؤلاء قد اختل نظامهم منذ اليوم السابق، وانفصل الآلاف منهم عن بعضهم، وتشتت أفواجهم، ولم يتيسر ضبطهم وتنظيمهم، وقفوا عاجزين حتى صلاة الظهر، ثم عادوا بعد ذلك. وفي الطريق كان الماء والوحل كثيرين إلى أقصى حد فبقى كثير من الخيول في الوحل وتفرق الجند، واختفى ثابتي وترسا.

وفي التاسع عشر من رمضان، مثل أمام حضرة سلطان الإسلام الأمير قتلغ شاه وتكاتيمور في صحراء كشاف. وفي اليوم التالي غرقت الرهبات السلطانية، ونزلت في الحديقة بظاهر أربيل، ثم ارتحلت من هناك، وخرجت إلى طريق درند زنگي. وبعد ذلك غادرت المنطقة الجبلية للأكراد. وقد احتفل الحاضرون بعيد الفطر في ضواحي درند زنگي. وفي يوم السبت السابع عشر من شوال كان الأمير جويان قد توقف بسبب الجنود الذين ظلوا مترجلين بدون جياد، فتعهدهم بالرعاية، وواساهم، وكان يسير بهم على مهل من طريق بغداد حتى وصل إلى الحضرة حيث حظي بالرعاية التامة. ولما بلغوا موضع "هل سرخ" في منطقة مراغه، سَير السلطان الخواتين والأسر إلى أوجان عن طريق "سه گنبد" و"بوز آغاج"، وذهب هو نفسه بمفرده إلى جبل سهند حيث مارس الصيد أسبوعًا. وفي يوم الخميس العاشر من ذي القعدة سنة ١٣٠٢هـ/١٣٠٢م نزل بمدينة الإسلام أوجان.

حكاية

محاكمة الأمراء والجنود الذين كانوا قد عادوا من الشام، ثم عقد مجلس الشورى بموضع أوجان، وتشرف الأمراء ببقاء غازان

بعد أن وصلت الرايات السلطانية إلى مدينة الإسلام أوجان شرعوا في التحقيق مع الأمراء والجنود، وكان ذلك في اليوم الثاني لوصولهم الموافق الثاني عشر من ذي القعدة. ومع أن المحققين كانوا يسألون المتهمين أسئلة دقيقة، فإن سلطان الإسلام كان يستدرك عليهم عدة ملاحظات تنسم بالفطنة، وذلك عندما كان يعرض عليه سجل الاتهام؛ فكان المحققون يستجوبون المتهمين مرة أخرى مراعين تلك الملاحظات الدقيقة.

وعاقبة الأمر فإن التحقيقات قد انتهت في غرة ذي الحجة وأعدم آغوتاي ترخان بن چييك ترخان، وطوغان تيمور من قبيلة منكقوت، وطبقت قواعد "الباسا الكبرى"^(١) في كل الشئون الحربية. وفي يوم الخميس الثاني من ذي الحجة شرعوا في الاحتفال بعقد القوريلتاي وتشرف الأمراء ببقاء الحضرة.

(١) المقصود بالباسا التي وضعها چنگيز خان، وذلك مقصور على التواصي الحربية لأن غازان خان بعد أن اعتنق الإسلام، وأعلن الإسلام ديناً رسمياً، وضع نظاماً وقواعد جديدة وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية، وذلك بدلاً من أحكام الباسا الجارية.

حكاية

إصابة سلطان الإسلام بالرمد، ووصول الأمراء من خراسان ثم توجه الرايات السلطانية إلى بغداد، والنزول في هولان موران

فى يوم الخميس الخامس والعشرين من المحرم سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م وصلت الرايات السلطانية إلى دار الملك تبريز، ونزلت فى القلعة. ثم أشار السلطان بإعداد الجيش والسلاح. ولكن أصابه الرمد بعد عدة أيام؛ فاشتغل الأطباء والحكماء بمعالجته ومداواته. ولقد طال مدة المرض، فضاقت وقت العزم على الرحيل إلى المشتى. [ص ٣٦٠].

وفى يوم الإثنين الرابع من صفر وصلت من خراسان الخاتون المعظمة "البتوزميش" مع الأميرين بسطام وأبى يزيد، فابتهج سلطان الإسلام، وسر كثيرًا بوصولهم، ورشح ابنته أولوجاى خاتون للزواج من الأمير بسطام، وكان يجلسهما دائمًا إلى جواره ويرعاهما ويتودد إليهما.

وفى أواخر أيام مقامه فى تبريز فى يوم الأحد السابع من ربيع الأول، كوى موضعين فى جسده المبارك، عملاً برأى أطباء الخطا. وفى يوم الجمعة التاسع عشر من ربيع الأول عزم على مغادرة مدينة تبريز. ولما كانوا قد أحضروا القيلة إلى الخضره من الهند، أمر بأن يضعوا عرشًا على ظهر الفيل حسب القاعدة المتبعة، وامتطاه أول خروجه من المدينة، وساقه حتى الميدان. ومن الضحى إلى العصر صار مشتغلًا بمشاهدة القيلة وقيادتها. وكان أهالى المدينة رجالهم ونسائهم محتشدين لمشاهدة هذا المنظر، وهم يدعون تخلصين للسلطان. وكان قد نزل فى تلك الليلة فى حديقة تبريز. ثم غادر المدينة فى اليوم التالى عن طريق أوجان. ولما كانت بطنه قد تضررت بسبب الكى، واعتراه الضعف، لم يستطع أن يتماسك على صهوة جواده؛ فكان يجلس فى الخفة أكثر الوقت. ولهذا كانوا يقطعون مرحلة قصيرة فى كل يوم. وفى آخر ربيع الأول عاد الأمير قتلغ شاه من "بوز آغاج" كى يذهب إلى مشتى أران، ويحافظ على تلك الجهات. وفى يوم الاثنين الرابع عشر من ربيع الآخر وصل السلطان إلى حدود سراى جومه غوركمان. وكان الجليد قد نزل بغزارة فى سفورلوق

ومنطقة همدان، واشتد اليرد إلى أقصى حد. ولم يكن طريق بغداد يسمح بالعبور. ولهذا السبب عدل السلطان عن الذهاب إلى بغداد، ونزل على ضفاف "هولان موران" لأنه يعد أيضاً من جملة المشاتي. والحقيقة أنه موضع جيد جداً لتمضية الشتاء. وكان السكان هناك يجلبون نعماً كثيرة من مختلف الأرجاء. ثم إن الحطب موجود بكثرة لا حد لها. أما الناس فقد اعتكفوا جميعاً في بيوتهم، وتفرغوا للقيام بهام الأمور، وتصريف المصالح.

وقد اتفق أن سلطان الإسلام أراد أن يطعم عشرة مساكين ويكسوهم ككفارة صغيرة. وكان يرغب في أن يمنحهم تلك الصدقات بيده المباركة؛ فأمر بإحضار عشرة من المساكين وتنفيذاً لأمر غازان أحضر إليه مهتر نجيب الدين فراش - الذي كان من جملة خواصه والمقربين إليه - عشرة مساكين، وقدم لهم الطعام بحضور السلطان. ثم أمر بإحضار عشرة أثواب من الخزائن، وأمعن فيها النظر. ثم أعطى ثمانية أشخاص كل واحد منهم ثوباً وسلم مهتر نجيب الدين الثوبين الباقيين قائلاً له: اخرج وأحضر مسكينين آخرين كي أعطيهم الثوبين الباقيين؛ لأن هذين الاثنين مسيحيان. فقال لهما نجيب الدين: ألم تقولاً إنكما مسلمان؟! فأجابا: بلى. لقد قلنا لك هذا بسبب الطمع. ولكن الآن لا يمكن الكذب على سلطان الإسلام؛ إذ إن رأيه المبارك صائب؛ فنحن الاثنان نعتق الدين المسيحي.

ولا شك أن هذه التكتة دليل واضح على أن غازان كان ولّياً من أولياء الحق - عز وعلا - رحمه الله رحمة واسعة. والسلام.

حكاية

اعتكاف سلطان الإسلام في مشفى هولان موران والكشف عن تأمر الأفرنك وتمرده والقضاء على جماعة المتآمرين

كان سلطان الإسلام بنوى الاعتكاف في ذلك المشفى عدة أيام تبلغ الأربعين (جهله) فأمر بإقامة منزل خارج السراي، وأقام فيه وحده، ولم يسمح لأى مخلوق بأن يدخل عليه سوى أمير الدار (خواجه سراي) والحارس الخاص (كزيكتاني). وكان يفتح كل يوم بقليل من الطعام.

وفي أثناء ذلك حدثت حالة عجيبة مؤداها أن جمعاً من المشايخ الشافقين في مقدمتهم "بهر يعقوب الباغياتي"، كانوا قد دعوا إلى مدينة تبريز الأمير النجل "الأفرانك" لتوليته الحكم، وذلك بدافع حبهم الجاه والمال، ولأرادوا أن يظهروا الكرامات التي ليست فيهم. وخلال تلك الأيام، أرسلوا إلى المعسكر مريدًا اسمه محمود [ص ٣٦٢] كى تتحد معه طائفة من المقرئين فأقشى ذلك الرجل السر جهلاً منه، وقال: إن شخصاً طوله أربعون ذراعاً وعرضه خمسة أذرع يجيء من جبال "مرند وأيقان" إلى الشيخ يعقوب ليرشده، ويكشف له الأسرار. والآن قد منح الأمير النجل "الأفرانك" السلطنة؛ إذ إنها تتول إليه طوعاً أو كرهاً. وقد وهبه الزهاد هذه المنحة.

فلما بلغ هذا الكلام مسامع الخواجه سعد الدين صاحب الديوان، اعتقل ذلك الشخص وكبله بالأصفاد، وعرض ما حدث على حضرة سلطان الإسلام، فأرسل جاني الأختايجي إلى تبريز لإحضار المفسدين مشيرى الفتنة، فعاد بعد عشرة أيام ومعه كل من بهر يعقوب وناصر الدين ايلجى قآن والشيخ حبيب الذى كان خليفة رشيد البلغاري والسيد كمال الدين. وكان الشيخ رشيد شيخاً لصدر الدين الزنجاني، والسيد كمال الدين من ملازميه أيضاً. والعجيب في الأمر أن سلطان الإسلام عندما رآهم، قال: "إن نفسى تحذنى أن هؤلاء المتآمرين من أتباع صدر الدين الزنجاني". فلما تحروا الحقيقة، انضح أن الأمر كان على هذا النوال. عندئذ قال السلطان: يبدو أن الملت ما زال يثير الفتن. وعلى أثر ذلك صار يتفحص

الأمر بنفسه، وذلك بحضور الأمراء والمقررين إليه. وكانت تلك الطائفة من الجهال يرددون هذا النوع من الكلام العبث. ولما تفحصوا الأمر جيداً تبين أن معتقدات هؤلاء الأشخاص هي نفس عقائد مزدك وأنهم يقصدون نشر ذلك المذهب بين الناس. فلما ثبتت إدانتهم قال يعقوب: "سوف نحفظنا شيوعنا". فرد عليه سلطان الإسلام قائلاً: "إن شيوعي هم الله والمصطفى والمرضى. فلنتظر من الأقوى؟ أنت أم هم؟! ثم أمر بأن يلقوا به من أعلى الجبل هناك. كذلك قُتل أصحابه. أما الأمير الأفرنك فقد عفا عنه السلطان. فما كان منه إلا أن صرح بالحقيقة قائلاً: "ما دام السلطان قد شملنى بعطفه ورعايته، فبأنى سوف أفصح عن حقيقة ما حدث لقد صحبوني مرتين أو ثلاث مرات إلى الشيخ يعقوب فى تبريز؛ بحجة أننا سوف نذهب لممارسة الصيد [ص ٣٦٣]. وكان هو ومريدوه يتحدثون عن حالة السماع وغيرها من هذا القبيل من الكرامات، وصاروا يغروننى بالملك. ولكننى بسبب الخوف لم أستطع أن أبوح بذلك، وكنت أخفى هذا السر. كذلك استجبوا بتميش نائب تايناق وقتلوه لأنه أقر أيضاً بذنبه. أما آقوبقا بن تايناق فقد كان له دخل فى هذه المؤامرة، وكان من أخلاط ذلك المعجون خصوصاً وأن الأفرنك قال عنه: إن كل ذلك داخل فى جريمته. ولكن حيث إنه كان شاكياً وحدثاً، وأبلى والده بلاء حسناً فى حرب الشام، ووقع أسيراً فى يد الأعداء عفا عنه سلطان الإسلام، واكتفى بأن زج به فى السجن. والسلام.

حكاية

الاحتفال بعيد ميلاد الأمير أبى يزيد فى معسكر ايلتوزميش خاتون، وخروج السلطان من الاعتكاف الأربعينى

فى يوم الأحد غرة جمادى الآخرة أقيم احتفال فى معسكر لولتوزميش بمناسبة عيد ميلاد الأمير أبى يزيد جريئاً على المعتاد. وقد حضر الحفل سلطان الإسلام وجميع الخواتين والأمراء الأنجال والأمراء وقدموا مراسم التهنئة والابتهاج، وبالغوا فى الطرب والمتعة. وقد اختص سلطان الإسلام الأمراء والخواتين وأتباعهم بأنواع العطف والرعاية والتكريم. وبعد ذلك خرج سلطان الإسلام من خلوته، واعتنى بتدبير المملكة، وضبط مصالح السلطنة. وكان مزاجه قد صبح، وصار يمضى أوقاته سعيداً مسروراً. وكان جمهور أركان الدولة مستبشرين فرحين لكشف مكر وخداع الشيخ وأتباعه.

حكاية

تكريم سلطان الإسلام الخواجه سعد الدين

صاحب الديوان لما أبداه من إخلاص

فى قضية الأفرنك

نظراً لأن الخواجه سعد الدين صاحب الديوان ألقى القبض فى الحال على رسول پير يعقوب الذى كان قد قدم إلى المعسكر لجذب القلوب إليه، وأرسل إلى كل شخص الرسائل التى تنيهم بالوعود الحسنة عرض صاحب الديوان على القور تلك النية المبيتة على حضرة السلطان، فشمله بعطفه، ووثق به إلى أقصى حد، وأيقن أن الاعتماد المطلق عليه فى جميع الشئون إنما كان فى موضعه، وأن صدقه وإخلاصه للحضرة وتقانيه فى الولاء لها وتنقله لأداء واجبه نحوها، إنما هى خدمات على درجة يستحق من أجلها أن يشملها السلطان برعايته كل يوم مائة مرة، ويكون ذلك لا تقاً له وجديراً به، ومن قبيل وضع الشيء فى موضعه. ولهذا أراد السلطان أن يكرم وزيره بطريقة تزيد فى مرتبته ومنزلته وحتى تبلغ حشمته وعظمته درجة أكبر.

ولما كان زمام الأمور حلها وعقدتها، وعنان قبض مصالح السلطنة وبسطها قد وضعاً فى كف يده ذات كفاءة، وبكيفية لا يتصور المزيد عليها قط، أكرمه السلطان بطريقة لا نظير لها؛ إذ فوض إليه إمرة ألف جندى مغولى، ومنحه الطوق والطلب، وأمر جميع الأمراء بتقديم التهنئة له.

والحقيقة أن تلك الذات الملائكية الصفات، والتى هى مجمع للفضائل النفسانية، ومنبع للكمالات الإنسانية سبب راحة الناس رفيعهم ووضيعهم وخواصهم وعوامهم، ولازمة لزينة الملك والدولة والإيمان والإسلام. ليمتعه الحق تعالى بالجواهر العريضة والحشمة المستفيضة. والسلام.

حكاية

وفاة كرمون خاتون، ونقل جثمانها إلى تبريز وذكر بعض الكلمات الحكيمة التى نفوه بها سلطان الإسلام فى أحوال الخلق

فى وقت السحر من يوم الثلاثاء الثانى عشر من جمادى الآخرة سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م توفيت فجأة "كرمون خاتون" ابنة قتلغيمور بن آباتاى نوبان التى كانت زوجة سلطان الإسلام. وكانت وفاتها فى مشى منطقة "سراى جومه"، ثم نقل جثمانها بمراسيم مهيبه للغاية. ولما كانت فى ريعان الشباب، ولم تتمتع بالدنيا طويلاً، كان وقع موتها شديداً إلى أقصى حد على سلطان الإسلام، فتألم كثيراً لحدوث تلك الواقعة. وبعد وفاتها حضر السلطان إلى عظيمها، وبكى كثيراً، وأمر بأن يعد لها كل ما يجب من الترتيبات والمراسم. وبعد أن تم نقل نعشها، كانت عينه المباركة تدمع كلما تذكرها.

و ذات يوم كان جمهور أركان الدولة حاضرين، فسألهم: أى أمر لا يوجد ما هو أشق منه وأصعب؟! فأجاب الأمراء هو أن يقع الإنسان أسيراً فى يد عدوه، ويصبح ذليلاً لخصمه. وقالت طائفة: إنه الفقر. وقالت مجموعة: إنه الموت. عندئذ قال لهم السلطان: إن أصعب أمر هو أن يولد الإنسان ويحى إلى الدنيا؛ ذلك أن جملة العناء والبلاء والتعب والشقاء تكمن فى الحياة. ولو لم يكن الوجود ما وجدت أية مشقة.

وليس لإنسان راحة فى الدنيا مطلقاً إلا بالموت. والدليل على ذلك أنه إذا سار شخصان؛ أحدهما يجرى والآخر يمشى الهوينى؛ فأيهما يكون أكثر راحة؟! أجابوا: الذى يمشى الهوينى. عندئذ سألهم: إذا سار أحدهما الهوينى، وجلس الآخر. فأيهما يكون أكثر راحة؟! أجابوا: ذلك الذى يكون جالساً. فسألهم: إذا جلس أحدهما، ونام الآخر؛ فأيهما يكون أكثر راحة؟! أجابوا: النائم. فقال لهم: إذن على هذا القياس، وطبقاً للقاعدة الصحيحة [ص ٣٦٦] يكون الميت أكثر راحة من النائم، إذ أن فلاح النفوس، والفائدة الثابتة إنما يكونان فى الخلاص من ضيق الحياة. وليس هناك قيد ولا سجن ولا جحيم ولا عذاب أشد من الجهل وحب الدنيا؛ ذلك أن الدنيا جحيم عباد الله، والآخرة جنتهم.

ومصادق هذا حديث النبي المصطفى عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر"^(١). وبالقِطْع فإن الجاهل لا يرغب في التخلص من سجن الحياة. ومن شدة جهلة بحسب أن الميت يموت بالروح، وأن الحي يحيى بالبدن، وهو لا يدري أن الحال على خلاف ذلك، إذ إنه يفخر ويتباهى بأنواع الجهل والحماقة، وهو لا يعلم أن الموت حالة مستحبة، وأنه محض العدل. ولو لم يمِث الآباء، فكيف كانت تتول إلى الأبناء المناصب والأموال والجاء والأبهة والمللك؟! ولو أن موت الآباء صعب ومؤلم، إلا أنه مستحب بسبب دور آخر. وليس هناك فائدة في طول العمر إلا لشخص ينشد الكمال، وتقبل روحه الارتفاع والارتقاء يوماً بعد يوم.

إذن فالأولى أن يرضى البشر بقسمة الحق، لأنهم إذا عاشوا أكثر من شائين عاماً، فإن أعضاءهم تعجز عن العمل، وتختل حواسهم وتتعطل، ويصبحون في نظر الناس أذلاء محقرين، وينفر منهم الأقارب والأباعد. وحيث إن الكمال هو شرة العمر، فإنه بعد الحصول عليه، يمكن أن يتول إلى نقصان مهماً يكن العمر. وإذن فليس هناك فائدة من طول العمر وعلى هذا المتوال تفوه غازان خان بكلام دقيق كله محض حكمه.

وفي أواخر شعبان سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م رحل من مقر "هولان موران" الذي سماه "الجانباتو" (بونوق)، وترك الخواتين وأفراد الأسرة في منطقة قلعة "جوق" التي تبعد مرحلة واحدة عن "سراى جومه"، وتوجه فريق من جنده مع أركان الدولة وأعيان الحضرة إلى ناحية "مراق". أما السلطان غازان فقد قضى بضعة أيام في الجبال الواقعة على حدود خرقان ومزدقان. ثم نزل بمدينة ساره. وهناك أقام صاحب الخواجه سعد الدين حفلاً عاماً [ص ٣٦٧] دعا إليه سلطان الإسلام وجميع الخواتين والأمراء والأنجال والأمراء، ورحب بهم. وقد وجد من حضرة السلطنة ضروب الإعزاز والتكريم. كذلك فعل الصدر المعظم الخواجه شهاب الدين مباركشاه الذي كان منشئ الممالك، ومن جملة أركان الدولة القاهرة. ولما كان منزله القديم في ساره، وكان والده الخواجه شرف الدين سعدان يمثل

(١) حديث حسن صحيح ورد في سنن الترمذى، ج ٣ ص ٣٨٤ - ٣٨٥ الفاعرة بدون تاريخ؛ انظر أيضاً كشف الحفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس؛ أشرف على طبعه وتصحيحه أحمد الفلاش، ج ١ ص ٤٩٤ - ٤٩٥، حلب بدون تاريخ.

بقية أكابر إيران، وكان لا يزال مقيماً وحاكماً هناك أقام هو الآخر حفلاً عاماً، وقدم هدايا مناسبة لحضرة السلطنة، وعموم الخواتين والأمراء والأنجال والأمراء، وأرسل الهدايا كذلك إلى جمهور الأصحاب. كذلك منح بقية الخدم والحشم كثيراً من الثياب والدنانير والدراهم.

وبعد ثلاثة أيام سارت الرابات السلطانية، صوب الري. وكانت صحة غازان المباركة قد تحسنت خلال هذه المدة التي غادر فيها مقره الشتوي؛ بحيث إنه كان يمتطي جواده ويقطع المسافات النائية والطويلة. وكان يتناول كل أنواع الأطعمة. غير أنه بمجرد أن غادر ساوه أصيب بنكسة في الطريق واعتراه المرض مرة أخرى، وصار ينفر من الطعام. ورغم هذا كان يظهر التجلد على سبيل الإصرار والتحدى. وهكذا ظل يركب جريماً على العادة ويخرج. ثم أقام في منطقة الري. ولكن عندما اشتد عليه المرض في منطقة "خيل بزرگ" من أعمال الري، أرسل رسولاً إلى أسرته، واستدعى زوجته المعظمة "بولوغان خاتون" على عجل وبسرعة فائقة. وعندما وصلت كان السلطان قد غادر "خيل بزرگ"، وظل هو ومراقبوه يسرون سيراً قليلاً كل يوم حتى وصلوا إلى ناحية قزوین. وفي أواخر شهر رمضان عندما وصلت الخاتون، أقام الجميع هناك. ولما دخلت على زوجها السلطان غازان تصادف أن وجدته على تلك الحال، فبكت وبكى الحاضرون، وسكبوا من أعينهم الدموع الحارة.

بعد ذلك استدعى السلطان غازان جميع الأمراء والخواص والمقربين وأركان الدولة وأعيان الحضرة، ونصح كلا منهم نصيحة لائقة ومناسبة لحاله. [ص ٣٦٨] ثم جدد البيعة بولاية العهد لأخيه الجليل خلد سلطانه وكان قد أمر بذلك قبل خمس سنوات، وكرره وأكد مراراً ومرات في مجالس مختلفة. وبعد ذلك كتب وصية في غاية اللطف والتهذيب وحث الأقران بالخاص على مراعاتها والمحافظة على ما جاء بها من مسائل دقيقة. ولما فرغ من وصيته، كان يؤثر الخلوة في أكثر الأوقات. ورغم أن وطأة المرض قد اشتدت عليه شاماً، كان يبدو متمسكاً، وكأنه في تمام قوته. كذلك كان دائماً مرهف الحواس فصيح اللسان.

ولكن لما كانت أيام عمره قد أذنت بالانتهاء بموجب قوله تعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾^(١) انتقلت روحه الطاهرة من دار الغرور إلى دار السرور

(١) وردت هذه الآية في سورة الأعراف، آية ٣٤. ووردت أيضاً في سورة النحل، آية ٦١.

وقت غروب شمس يوم الأحد الحادى عشر من شوال سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، فحلت بالعالم
الطامة الكبرى بسبب تلك الواقعة العظمى، وليست الأفلاك لباس الحداد الزرقاء، وبكت
بمائة ألف عين، وجرت أنهار الدم من أعين سكان الربع المسكون على مثال النيل
وجيحون. وبعد إقامة مراسم الغسل والتكفين حملوا جثمانه الشريف على مراكب خاصة
وتبعه الأمراء والخواتين، وكان الرجال والنساء يخرجون من المدن والقرى حاسرى
الرؤوس، حفاة الأقدام. وقد لبسوا الثياب البالية. وكانوا يهيلون التراب على رؤوسهم وهم
يبكون وينوحون.

(شعر فارسى فى الأصل ترجمته:)

على نعش ذلك الملك العادل التقى
انتخب الزمان، وبكت الأرض
وكان كل شخص يقول: وا أسفاه وا أسفاه
لقد غابت شمس الدنيا وراء السحاب.

وفى كل المدن ببلاد إيران، ألبسوا المآذن ملابس الحداد، واندفعوا إلى الشوارع والميادين
كبيرهم وصغيرهم، رجالهم ونسائهم بثياب ممزقة وبالية، وأقاموا مأتم التعزية سبعة أيام. ولما
أوصلوا جثمانه الشريف على بعد مرحلة واحدة من دار الملك [ص ٣٦٩] تبريز، خرج
أهل المدينة برمتهم: رجالهم ونسائهم كبيرهم وصغيرهم. ولعجزهم وفقرهم لبسوا ملابس
الحداد الزرقاء.

(بيت من الشعر الفارسى فى الأصل ترجمته:)

هـام الجميع على وجوههم فى الصحراء
ضاربين صلورهم بالأحجار بسبب جزعهم وقلقهم

وكان الجنود والحشم والرعية والخدم يطوفون حول الجثمان الشريف باكين متحينين إلى
أن أوصلوه إلى موضع شمس حيث القبة التى أنشأها وأحدثها، ودفنوه هناك. ﴿كل شيء
هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾^(١١).

(١١) الآية بأكملها: ﴿ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾.
(سورة القصص، آية ٨٨).

أغرق الحق تعالى ذلك السلطان السعيد في بحر رحمته الذي لا ساحل له، وجعل سلطان
سلاطين الإسلام السلطان أوجايتو وارث أعماره، وأبلغه منتهى آماله. إنه وليّ الإجابة.
وصلّى الله على نبينا محمد وآله وسلم.

القسم الثالث

من تاريخ سلطان الإسلام غازان خان خلد سلطانه ودام عدله

فى أخلاقه الكريمة وسيره الحميدة، وآثار عدله وإحسانه وخيراته وميراته، وفنون آدابه وجميل عاداته، وكلماته التى تقوه بها فى كل مناسبة على وجه التحقيق، وعلى سبيل التدقيق، وحكمه الحكمة وأوامره المبرمة المشتملة على رعاية مصالح كافة الخلائق، والتى قام بتنفيذها فى كل شأن من الشئون، وكذلك نواذر الحكايات والأحوال مما لم يدخل فى القسمين السابقين. وهما موضوعان:

يُؤبَّ أحدهما، ويتضمن أربعين حكاية، والآخر ما يسجله القلم متفرقاً حسب القضايا والحوادث المختلفة.

وبموجب هذا الفهرست نذكر بالتفصيل ما هو ميوب، وهو عبارة عن أربعين حكاية فى غاية الجودة، وبيانها كالآتى:

الأولى فى فنون كمالات وعلوم سلطان الإسلام خلد ملكه ومعرفته الصناعات والحرف المختلفة.

[ص ٣٧٠] الثانية فى عصمة وطهارة سلطان الإسلام خلد سلطانه من الخصال المرفولة.

الثالثة فى فصاحته وبلاغته وحسن سؤاله وجوابه، واتباعه هذا السلوك مع البعيد والقريب والترك والتأنيك.

الرابعة فى صبره وثباته وصدق عهده وميثاقه.

الخامسة فى أنه فى أكثر الأوقات كان يتحرى صدق كل كلام يجرى على لسانه المبارك.

السادسة فى بذله وعطائه ولطفه وسخائه على وجه مستحسن.

السابعة فى إبطال عبادة الأصنام، وتخريب معابد الوثنيين تخريباً تاماً.

الثامنة في حبة لأسرة الرسول عليه الصلاة والسلام، وإعزازه للسادات العظام.

التاسعة في سخائه، وإعداد الجند لحوض المعارك وجلده في الحروب.

العاشر في إسدائه النصح إلى القضاة والمشايخ والزهاد وأهل العلم والتقوى.

الحادية عشرة في منعه طائفة الجنود وغيرهم من التفوه بكلمات الكفر.

الثانية عشرة في ميله إلى العمران، وحث الناس على ذلك.

الثالثة عشرة في أبواب البر بتبريز وهمذان، والتذور التي نذرها في الولايات.

الرابعة عشرة في القضاء على التزوير والدعاوى الباطلة وحيانة الخونة.

(ص ٣٧١) الخامسة عشرة: في إبطال تخريب المستندات غير القانونية، وكذلك الحجج القديمة.

السادسة عشرة في إبطال الحكر والقضاء على أنواع الكسب غير المشروع.

السابعة عشرة في المحافظة على الرعايا ورعايتهم، ورفع الظلم والمشقة عنهم.

الثامنة عشرة - في إبطال السخرة، ومنع الرسل الزائدين عن الحاجة في البلاد.

التاسعة عشرة في القضاء على اللصوص وقطاع الطرق، وحماية الطرق في البلاد من شرهم.

العشرون في تخليص عيار الذهب والفضة على وجه لم يوجد من قبل على الإطلاق وليس من الممكن أن يكون أفضل منه.

الحادية والعشرون في إصلاح أوزان الذهب والموازين والمقاييس والمكاييل والقفيز والتغار.

الثانية والعشرون في تنظيم شئون المراسيم والهايزات التي تمنح للناس.

الثالث والعشرون في استرداد المراسيم والهايزات المكررة التي كانت في أيدي الناس.

الرابعة والعشرون في منح الإقطاعات لجند المغول في كل ولاية.

الخامسة والعشرون في تقرير كيفية إعداد جيش على حدة للخاصة السلطانية.

السادسة والعشرون في منع التعامل بالربا والمعاملات بالأرباح الفاحشة.

السابعة والعشرون في منع الزواج بالمهر الغالي غلاء فاحشاً، وتحديدده بتسعة عشر ديناراً ونصف.

[ص ٣٧٢] الثامنة والعشرون فى تشييد الحمامات والمساجد فى القرى والمواضع فى كل البلاد.

التاسعة والعشرون فى منع الناس من احتساء الخمر والمسكرات المنكرة الأخرى.

الثلاثون فى إعداد أصناف الطعام الخاص والشراب للمخيم المعظم.

الحادية والثلاثون فى إعداد أصناف الطعام للخواتين ومخيماتهن.

الثانية والثلاثون فى ضبط شئون المصانع، وإعداد مهماتها ورعاية مصالحها.

الثالثة والثلاثون فى تدبير شئون المؤسسات ودور السلاح.

الرابعة والثلاثون - فى تنظيم شئون الدواب الخافقية.

الخامسة والثلاثون فى ترتيب شئون حاملى القصور ومتعهدى الفهود.

السادسة والثلاثون فى ترتيب شئون العاملين فى كل البلاد.

السابعة والثلاثون فى ترتيب الشئون المتعلقة بتعمير الأراضى البور.

الثامنة والثلاثون فى تشييد بيوت خاصة بالرسل فى البلاد، وإصدار الأوامر إلى

الشحن بمنع الرسل من النزول فى ديار الناس.

التاسعة والثلاثون فى منع المكارين والجمّالين وسعاة البريد من إيذاء الناس.

الأربعون فى منع إكراه الجوارى على الإقامة فى دور البغاء.

فى فنون كمالات سلطان الإسلام خلد ملكه وعلومه ومعرفته الصناعات والحرف المختلفة ووقوفه على أسرار تلك الصناعات

لا يخفى على العالمين أن سلطان الإسلام خلد ملكه عندما كان فى سن الطفولة كان جده آباقاخان يربيه عنده ويرعاه ويحافظ عليه. وقد صير الكهنة الوثنيين ملازمين له ومعلمين. وعلى هذا النحو رسخت الوثنية فى ذهنه؛ خصوصاً أن هذا المذهب كان عقيدة آبائه. وكانوا يسرون وفق تعاليمه.

ومنذ بداية الإسلام، كانت عبادة الأصنام قد زالت نهائياً من كل الديار؛ إلا أنها عادت إلى الظهور فى عهد المغول وقوى حال طائفة البوذيين، فاستدعوا أصناف الكهنة الوثنيين من بلاد الهند وكشمير والخطا والأويغور وصاروا معززين مكرمين، وأقاموا فى كل موضع معابد للأصنام وصرفوا الأموال الطائلة. وقد ارتفع شأن مذهبهم حتى وصل إلى العيوق^(١). وكان سلطان الإسلام يلزم دائماً الكهنة فى معابد الأصنام، ويتابع تلك الطريقة، ويوماً بعد يوم كان يزداد ميله إليها فيستحكم اعتقاده فيها.

وبعد أن توفي آباقاخان، أرسله أبوه أرغون خان إلى خراسان للحكم وإمارة الجيش فأقام هناك معابد فخمة للأصنام فى مدينة خيوشان. وفى تلك المعابد كان يمضى أكثر أوقاته فى التحدث مع الكهنة وتناول الطعام والشراب. وهكذا صار له اعتقاد راسخ فى تلك الطريقة الوثنية كما كان حرصه على عبادة الأصنام يفوق حد الوصف. وقد استمر الحال على هذا الوضع، حتى ذلك الوقت الذى استولى فيه بابادو على الملك، وبادر غازان بالعمل على انتزاعه منه.

(١) نجم آخر مضى فى طرف الهجرة الأيمن، يتلو القربا لا يتقدمها، ويطلع قبل الجزراء. (المعجم الوسيط، الجزء الثانى ص ٦٣٧).

[ص ٣٧٤] ولما كان الحق تعالى قد قدر لغازان أن يتولى الملك والسلطنة، وأن يظهر بمدد التأييد والتوفيق الرباني آثار العدل والإنصاف في العالم، وأن يعيد الصلاح إلى الأعمال التي أصابها الخلل، وأن يعمر البلاد التي آل إليها الخراب، وأن يجعل على يده تقوية الدين الإسلامي، وتسيير أمور الشريعة والأحكام الخاصة بها. بعد أن كان هو نفسه وكذلك أهل العالم غافلين عن كل ذلك. وفجأة في الوقت المعلوم، وبغضى اللطف الإلهي حل نور الهداية بصدرة الطاهر؛ فوضع قدمه المباركة في ساحة الإسلام، وتشبث بالحبل المتين للإيمان، فأمر بإبطال شعار الأديان الباطلة.

وكان ظن أكثر الناس أن سبب إسلامه يرجع إلى ترغيب بعض الأمراء والمشايخ وحشهم له على ذلك. ولكن بعد التفحص، علم أن ذلك الظن خطأ؛ لأنه أثناء الخلوة بي أنا العبد الضعيف مؤلف هذا الكتاب قرر أن هناك عدة ذنوب، لا يعفو الله عنها أكبرها أن يسجد شخص لصنم؛ إذ إنه من المؤكد والمقطوع به أن الله لن يغفر ذلك الذنب، وأن المساكين من الناس المبتلين بالجهل هم الذين يسجدون للأصنام، وأنا أيضاً كنت مثلهم. ولكن الحق تعالى وهبني النور والعلم، فتجوت وتطهرت من ذلك الإثم بهداية حضرة الحق تعالى.

وتوضح هذا الكلام أنه ليس هناك شيء قط يحمل الإنسان إلى الجحيم سوى الجهل؛ بل إن الجهل نفسه هو جحيم لا يمكن الخروج منه. فكيف يستيعق العقل السجود أمام جاد؟! . إن هذا الإقدام دليل على الجهل الخفض. وأمر آخر هو أن أصل الفكرة في عبادة الأصنام أن يكون الإنسان شخصاً كاملاً قضى غيبه. ونحن نعد صورته، ونضعها للذكرى ثم نطلب المدد من همة ذلك العظيم ونتجئ إلى الصورة ونعبدنا ونسجد لها. ونحن في هذا غافلون عن أن هذا الشخص أثناء حياته التي هي خلاصة الإنسان كان متحدًا مع بدنه الأصلي، ولم يطلب مطلقاً، ولم يجز [ص ٣٧٥] أن يسجد له أحد حتى يبدو في نفسه تكبر وعجب.

وحيث إن عبادته والسجود له هما لاستمداد الهمة منه والاتجاء إليه، كيف ترضى نفسه عن هذه الجماعة التي تسجد لشيء يشبهه؟! وإذا طمع الساجدون فيما له في نفسه من همة عالية، وإذا تصورنا أن أثرًا لتلك الهمة لا يزال موجودًا فإنه من المؤكد أن تكون همة رديئة وتعسة، وليست همة عالية متهجة. وأمر آخر هو أن الإنسان ينبغي أن يعرف

الحقيقة، وأن يدرك أنه ليس للجسد أية أهمية، فينسى أيضًا حبه له، ويعلم أن ما يفارق البدن إنما هو خلاصته، وأن يفكر في ماهية ما يفارقه ويتساءل: أى شيء هو؟.. وأين يذهب؟ . وكيف يكون باقيًا وثابتًا حتى يتصور ذلك الشيء، وذلك الموضع وتلك الحالات. ثم يتبع ذلك إلى أن يدركه. وإذا ما اعتقد في الصورة التي صنعت على هيئة البدن، وسجد أمامها، فإنه يعجز عن إدراك هذه الفكرة، وهذا الطلب الذى هو خلاصة الجنة بعينها. وعكس ذلك هو محض جهنم والدرك الأسفل منها.

ولو يفكر المرء فى أن الصنم يصلح لصنع عتبة يطلوها الناس بأقدامهم فى ذهابهم وإيابهم؛ حتى تظن تلك النفس أن ذلك شبه بدننها، فيكون الإنسان راضيا عنهما؛ إذ إنه يتصور قائلا لنفسه: إتنى ما دمت حيا فى الدنيا صرت كاملا بالتواضع. وبعد الممات يكون أيضًا لشبه البدن نفس الحالة. وأمر آخر هو أنه يفكر فى أن النفس التى لها ذلك الكمال، قد صار بدننها ترابا شبيها ببدنه، وجديرًا أيضًا بأن يكون عتبة تطلوها الأقدام. وغن الذين نعتقد الكمال تساءل: أية قيمة تكون لبدننا؟!

وبناء على هذا تنقطع علاقة الناس بالبدن انقطاعا تاما، فيتجهون [ص ٣٧٦] إلى التفكير فى الآخرة، ومنازل الأطهار وأحوال الأرواح المقدسة. وعليهم أن يلاحظوا دائما تلك الحالات حتى يتألوا شيئا مما هو حق، وأن تكون لهم فائدة من مجيئهم إلى الدنيا وبلغوا الكمال؛ إذ إن الغرض من وجود الخلق هو أن يتوجهوا من عالم الظلام إلى عالم النور.

ولما شرح السلطان هذه الحقائق وفق هذا الترتيب بعبارات جيدة ومعان دقيقة، ظهر بوضوح تام نور باطنه وصدقه وصفاته. وبعد ذلك صار يسوق دائما حكايات من هذا القبيل، ويذكر كلاما عميقا فى باب العرفان والتحقيق مما لم يسمع مثله قط من حكيم وعارف.

ولما تربع على عرش السلطنة عامين أو ثلاثة، كان يزيد يوما بعد يوم فى تقوية دين الإسلام، وراح فى صدق وإخلاص بهتم اهتماما تاما بشئون هذا الدين.

وقد ثبت وتحقق لجميع الناس أن سبب إسلامه لم يكن بتأثير بعض الأمراء والمشايخ، بل كان يهذى من الله، إذ إنه من المجرّب أن المسلمين إذا أجبروا أقل الناس شأنًا على أن يكون ملكا أو حاكما عليهم، فإنه حسب ميله هو نفسه يدين بعقيدتهم. فإذا وجد الفرصة سانحة

فى تلك الولاية أو فى ولاية أخرى فإنه يرجع إلى عقيدته الأولى. وإذن فأية حاجة تضطر مثل هذا السلطان الرفيع القدر، الباطش القوى إلى الالتفات إلى كلام شخص من الأشخاص فى مثل هذا الأمر الخطير، فيتحول عن مذهبه أو يختار ديناً آخر مكرهاً؛ لا سيما وأن آباءه قد استولوا على كل ممالك العالم فى زمن كفرهم؟!

وبناء على هذه المقدمات علم أن أجره يكون فى هذا الأمر مثل أجر إبراهيم الخليل صلوات الله عليه؛ فقد أدرك منذ البداية - بفضل نور الهداية الربانية - ضلال عبادة الأوثان، فحطم صنمه، وعرف الله بإيمانه الوجداني. كذلك كان إسلام السلطان على هذا المنوال. وزعم عظمة الملك وجبروته، فإنه عندما تحول عن عبادة الأصنام، واعتنق دين الإسلام، حطم كل الأصنام التى كانت فى بلاد إيران، وحرب تخريباً تاماً كل بيوت الأوثان وجعله للمعابد غير الشرعية [ص ٣٧٧]، وأدخل فى الإسلام جميع عابدى الأصنام والكفار الذين كانوا يزدنون على عدد الرمال، بحيث إنه لم يضطر إلى قتل أى مخلوق. ولا بد أن هذا يكون له زيادة فى الأجر.

هذه المعانى التى سبق ذكرها إنما هى دلائل واضحة على كمال علمه ومعرفته وحكمته. وهناك دليل آخر هو أن الشباب عندما يشغلون بالطرب واللهو واحتساء الشراب، يخضعون لأهوائهم ويستغرقون فى الكلام العيب وأنواع اللهو. أما سلطان الإسلام فإنه عندما كان يصير مبتهجا قليلاً، يستغرق فى تفحص أحداث أهل الحكمة وتحقيق الحكايات والباحث الدقيقة العميقة مما لا يدركه فهم كل حكيم وعالم. وكان يحب صحة جماعة الحكماء والعقلاء الممتازين. وإذا رأى من يتصف بالحكمة، وله عقل وتبصير وأدب ولكن لا قدرة له على احتمال هذا العبء، فإن السلطان لا يعجب به. وكل من يتصل به يعرف قدره فى الحال. ولا يوجد مجال لأى عتال ومزور أن يتحدث فى حضرته بكلام فيه خداع ورياء. وإذا تكلم فلن يستطيع القول أكثر من مرة، لأنه يعرفه. ومن ثم فإنه لا يسمح له بمعاودة الكرة. وإذا قابل حكيمًا ثارًا أبله، فإنه ينسبر غوره فى الحال. ونحن هنا نورد حكاية لتوضيح هذا المعنى.

كان هناك شخص فى خراسان، قدم من تركستان اسمه "هبة الله"^(١)، وكان حسن الخلق، لطيف المخضر، قد أخذ من كل علم نصيباً وكان يعرف اللغتين السريانية والتركية

(١) انظر تفصيلات عن هذا الرجل فى كتاب رجال حبيب السير، نكرد آيودة عهد الحسين نواتى، ص ٢٣ ٢٤

ويحفظ أمثالا كثيرة. وكان يقول كلاما حسنا على طريقة المشايخ. وكان السلطان والأمرء يشقون بكلامه. وقد ظل مدة يلازم حضرة السلطان خلد ملكه ولما تربع على سرير الملك باليمن والبركة، أرسل إليه رسولا يستدعيه، وأعزه وقربه إليه، ومنحه الذهب وأغدق عليه الخلع، وقرر له المرتبات الكافية، وعهد به إلى أنا العيد المطيع للدولة، وقال لي: عامله معاملة حسنة، فنفذت ما أشار به السلطان. وكان دائما يجيء إلى الحضرة. [ص ٣٧٨]. فكان الحديث يتناول كلاما عميقا يتعلق بموضوعات الحكمة والعرفان. ومع أنه كان رجلا مطلعاً، إلا أنه كان هناك تفاوت كبير بين كلامه وكلام سلطان الإسلام - خلد ملكه - وكنت أتعجب وأقول في نفسي: إذا كان السلطان لا يعلم الفرق بين علمه وعلم هذا الرجل فإن هذا أسر مستبعد. وإذا كان يعلم، فلماذا كمال الاعتقاد في "هبة الله" هذا؟ .. ولما كان الطعن أيضاً في حق هذا الرجل أمراً غير مناسب، وكان السؤال عن هذا الموضوع متعذراً أيضاً بقيت متحيراً في هذا الأمر إلى أن تفوه السلطان ذات يوم بكلام عميق قال فيه: إنه حديث لا يخفى لكل شخص أن يخوض فيه؛ فأكثر الناس يعرفون قشوره وظواهره ولا يتفقدون إلى معانيه؛ إذ أنه ليس في وسع كل شخص أن يدخل خزائن الملوك التي هي مفتوحة للخاصة وحدهم. أما الآخرون فيظلون في الخارج مثل الشيخ هبة الله الذي سبيله هو أن يبقى خارج الخزانة، ويدرك فقط ما يكون ظاهراً؛ إذ إنه لا يعرف طريق الدخول إلى الخزانة والإحاطة بتفاصيل ما تحتويه. عندئذ تقدمت قائلاً: طالما أردت أن أسأل مولاي عن هذا الموضوع؛ لكن الفرصة لم تكن مواتية. والآن قد تحققت أن السلطان يعرف قدر الجميع، لكنه يعزهم كلهم. فقال السلطان: إنني لا أعجب من أنه لو غيره لا يعرف هذه الأسرار؛ غير أنني أسر كثيراً بكل ما يعرفونه، وأريد أن أتذكر كل ما حياني به الله حين أحاورهم؛ فحجر المسن مع كونه أكثر ليونة ونعومة من السيف إلا أنه يشحذه. وسبب ذلك أن جوهر الفولاذ يزداد بالهجر؛ إذ إن الحدة موجودة في جوهره ولكنها تزداد بلبين حجر المسن.

وفي المحافل والجامع التي حضرها مختلف أصناف الناس، تعجب الجميع من الأسئلة التي وجهها إلى العلماء والحكماء. ومع أنه كان يتكلم باصطلاحات المغول، وكل شخص لا يدركها بسرعة، لكن لأنه كان بعيد ويكرر ويشرح كان يبينه البعض، ولا يفهمه أغلبهم. وهكذا كانت طرق حكمته ومعرفته الله على هذا الوجه الذي قررناه. [ص ٣٧٩].

وأما عن أحوال المذاهب المختلفة ومعتقدات كل طائفة فإنه كان يعرفها واحدة واحدة على انفراد؛ بحيث إنه عندما يتباحث مع أئمة تلك المذاهب، لا يعرفون الإجابة عن واحد من عشرة أسئلة يوجهها إليهم.

وأما عن اللغات المختلفة، فقد كانت المغولية لغته الأم. كما كان يعرف طرفاً من العربية والفارسية والمندية والكشميرية والتبعية والخطائية والفرنجية وسائر اللغات.

وأما عن السلاطين والملوك المتقدمين والمتأخرين، فقد كان يعلم بالتفصيل آدابهم وعاداتهم ونظمهم، ويقف كذلك على عادات كل منهم في الحفلات والحروب والأفراح والأثراح والطعام واللباس والمركوب وغير ذلك من الحالات والأشياء. كيف كانت وعلى أى نحو صارت فى هذا الزمان؟ .. ويشرحها لكل طائفة منهم، فيتملكهم الإعجاب.

وأما عن معرفة تواريخ المغول وحكاياتهم التى كانت ذات أهمية قصوى بالنسبة إليهم وكذلك أسماء الآباء والأجداد والأقارب نساءً ورجالاً، وكذلك أمراء المغول قديماً وحديثاً ممن كانوا فى البلاد أو لا يزالون فيها؛ فقد كان يعرف بالتفصيل شعب نسل كل منهم باستثناء يولاد آقا؛ إذ إنه لا يوجد من أقوام المغول شخص آخر مثله يحيط بهذا التاريخ والجميع يتعلمون منه. وإن تاريخ المغول هذا الذى كتبه، استفدت أكثره من حضرته وبذلك أصبح ميسراً. ويوجد كثير من أسرار المغول وحكاياتهم يعرفها هو نفسه، ولم تسجل فى هذا التاريخ.

كذلك يعرف السلطان غازان أغلب تواريخ ملوك العجم والأتراك والمند وكشمير والخطا والأقوام الأخرى على اختلاف طبقاتهم ويقول ذلك أمام كل قوم، فيصرون متحيرين.

وأما شجاعته ووقفه على نظم الحرب والإعداد لها، فإن ذلك يبلغ غاية الكمال. وسوف نورد فصلاً على حدة فى هذا الموضوع.

وأما عن الحرف المختلفة، فإنه لا توجد حرفة قط لم يمارسها بيده، وذلك من قبيل الصياغة والحداة والتجارة والنقش وصب المعادن والخرطة والصناعات الأخرى؛ وذلك على نحو أفضل [ص ٣٨٠] مما يصنعه جميع الأساتذة المهرة، ولأنه يمارس صنعها بنفسه كان يرشدهم. وكل أستاذ مهندس يريد أن يصنع آلة منقطعة النظر لا يعرفها المهندسون الآخرون، كان يرشده ويعلمه حتى يتعلم.

وأما صنعة الكيمياء التى هى أعقد الصناعات فقد أولع بها، ووقف على طريقتها فى مدة وجيزة. ولما كان يعرف حق المعرفة أن هذا العمل لا يستطيع كل شخص أن يحققه

على الوجه الأكمل، استدعى تلك الطائفة التى تدعى معرفة هذه الصنعة، ولم يفسح لهم المجال كى يتفقوا عليها شيئا على النحو الذى كان مألوفاً، وهو أن تصرف لهم أموال كثيرة على تلك الحرفة، وذلك بناء على كلامهم. لكنه أمرهم بصناعة عدة صناعات يعرفونها ويحيدونها وما يلزمها من الآلات والأدوات، وذلك مثل صنعة الميناء وحل الطلق وصهر البلور وعمل الزعفران، وصهر المواد الصلبة بواسطة تسخينها وتكثيف البخار الناتج منها وصنع شيء يشبه الذهب والفضة، بالإضافة إلى صناعات أخرى صنعوها أمامه حتى اطلع عليها وعرفها، وقال: إننى لا أريد أن أتعلمها كى أصنع ذهباً وفضة؛ إذ إننى أعلم أن ذلك أمر متعذر لكننى أريد أن أحيط أيضاً علماً بالصناعات الدقيقة الظرفية وأصنعها كذلك لأن ذلك كمال فى العلم الذى لا يقف عند حد. ولكن ينبغي التقدم والترقى من عمل إلى آخر.

أما علم الطب وطرقه المتبعة عند التازيك والخطا والمغول والمند وكشمير فقد اطلع على كليات كل منها، وعلم وجهة نظر كل طائفة. كما عرف كل الأدوية، ووقف على أكثر خواصها. والأطباء فى هذه البلاد يعرفونها على الأكثر فى دكاكين العطارين. أما هو فقد اكتشف فى الصحراء الأعشاب الطبية عند كل طائفة ووقف عليها. كذلك يعرف **[ص ٣٨١]** ما يسمى الآن "بنج دارو" (الأدوية الخمسة)، وذلك من ورقها. وإذا ما تعاملها، ظهر أنها هى بعينها. وهناك كثير من الأدوية، كانت تنسب إلى بلاد التركستان والخطا والمند، وكان التجار يجلبونها للمتاجرة فيها ويبيعها فى هذا البلد بثمان باعظ فاكشف السلطان غازان وجودها فى هذه البلاد. وبالتجربة وقف بنفسه على خصائصها.

وكان هناك فى الولايات بعض علماء العقاقير المشهورة من الترك والتازيك، فاستدعاهم السلطان، وكان يصطحبهم معه فى أوقات الصيد وغيره فى الجبال والصحارى، وكان يستفسر منهم عن كل ما يريد معرفته حتى وقف على تلك الطريقة؛ بحيث إنه فى هذا الزمان لم يكن هناك بين جميع علماء العقاقير والأطباء شخص مثله يعرف هذه الأوصاف. كذلك أحاط علماً بكل ما كان من الأدوية المفردة المعروفة عند أهلها بالترياقية وهى بحرية وعددها أربعة وعشرون دواء مفرداً، كان كل منها ترياقاً مطلقاً. ثم أضاف إليها الترياق الفاروقى، وجرب ذلك الترياق، فظهر نفعه للغاية، وصار اسمه "الترياق الغازانى".

وأما عن علم المعادن، فنظرا لكثرة تفحصه وتباحثه مع علماء ذلك العلم، صار يعرف ما يحويه كل موضع من الجبال والصحارى التي يراها، ثم يحدد المعدن الذى يوجد فى ذلك الوضع. وعندما يتحرى الشخصون حقيقة ذلك، يكون هو الذى ذكره. كما أنه يعرف طريقة استخراج كل نوع من المعادن وصهرها بواسطة الآلات والأدوات. وقد صنعها كلها وجربها.

وأما التعاويذ، فإنه يعرف منها ما يقرأ لكل آفة.

وأما معرفة خواص أشكال الآدميين والدواب، وما تدل عليه فإنه يقف بالتفصيل على كل ما يتصل بها على نحو ما ذكر فى الكتب.

وأما علم النجوم والميعة فقد ذهب عدة مرات إلى مرصد مراغة؛ واستفسر باستفاضة عما يشتمل عليه من آلات وعن كيفية تشغيلها. ولهذا استفاد وتعلم، واطلع على تفاصيل تلك الآلات والأجهزة؛ بحيث إنه مال إلى تشييد عمارة لمرصد جديد [ص ٣٨٢] حسب ما تراهى له هو نفسه، فأقيم هذا المرصد. كما بنى قبة من تصميمه بقصد تعيين دوران الشمس، وناقش النجمين فى ذلك، فأجمع هؤلاء قائلين: "على الرغم من أننا لم نر قط مثل هذه الآلة، فإن ذلك أمر معقول. وفى المرصد المجاور لأبواب البر فى تبريز أقيم بناء على شكل قبة تحوى تلك المعدات على النحو المشاهد.

بهذا كله يكون السلطان قد حصل نصيبا من كل علم يتصور، ولم يمنع الحق تعالى عنه أى كمال، وزينه بالأخلاق الحميدة كما سوف نذكر فى الفصول الأخرى القادمة. ولهذا السبب لم يتطرق إليه العجب بنفسه مطلقا. وهو يصرح بأن خلاصة العلوم علم الإلهيات.

أما الإحاطة بالعلوم والصناعات الأخرى فهى التى يمكن أن يطلق عليه اسم الكمال لأن من لا يعرفونها، يكون ذلك نقصانا فيهم. وقياسا على هذا ينبغي أن يعرف الشخص من كل شيء شيئا حتى لا يكون ناقصا. وإلا فماذا كنت أتعمل هذه المشقات؟!... " وإلى الآن ما زال غازان خان يشغل نفسه دائما بالتعليم والتعلم.

وهكذا ذكرنا شطرا مما يتعلق بعلوم وآداب سلطان الإسلام غازان خان - نخلد ملكه -
وأهل هذا العهد واقفون على تلك الحقائق وهم شهود على أن الحال يجرى على هذا
النوال؛ وذلك حتى لا يطعن القراء في كلامي فيما بعد قائلين: "لقد حدثت مبالغة فيما
كتب".

اللهم امنح غازان فضيلة جديدة كل يوم.

الحكاية الثانية

فى عفة سلطان الإسلام وعصمته

بقرر الذين كانوا قبل هذا مقررين إلى الحضرة أن سلطان الإسلام -- غلذ ملكه -- لم يقدم على حرام قط. وإذا ما اتفق له النظر إلى أحد، فإنه لم يكن يجيز مطلقاً أن يرتكب إثمًا.

وفى الوقت الذى ظل فيه زمنا طويلا بعيدا عن داره، يقود الجيش ويقوم بالفتوحات [ص ٢٨٣] كان القواد كلما حصلوا على البنات الحسنات نتيجة الغارات، يختارون أكثرهن جمالا ويأتون بهن إلى الحضرة. ومع أن من عادات المغول أن يحتفظن بمثل أولئك الإماء السريات حتى يتفاملوا بهن، ويكون طريقهم فى الغزو مزدهرا وميسرا، فإن سلطان الإسلام لم يكن يميل إليهن مطلقا، ويقول فى هذا الصدد: كيف ألوث جسدى بهن وكيف أتعرف عليهن فجأة؟ .. وعلى هذا لم يكثرث بهن ولم يقبلهن.

بعد ذلك خلال هذه الفترات، وحسب ما اتضح لم تصدر من حضرته محاولة مطلقا هيأت له طريق الزنا واللواط والفسق، ولم ينظر إلى نساء الناس بالخيانة والإثم. وفى كل مرة أثناء فتح الشام، كانت فى دمشق بنات المغول وغيرهن، فلم يلتفت إليهن على الرغم من ابتعاده مدة طويلة عن دياره ونسائه. وقد استطاع أن يحافظ على نفسه وبصاير. كذلك لم تجز نفسه الشريفة مطلقا لشخص آخر أن يجد مجالا لارتكاب اللواط والفسق والفجور. وكان دائما يبالغ فى منع هذه النقائص بإصدار فرمانات. وقد عاقب وفق قواعد الشرع والياساق عدة أشخاص معينين بسبب ارتكابهم تلك الأثام.

والخلاصة أن طهارة نفس السلطان غازان الشريفة مثل الذهب الإبريز. فليحفظ الحق تعالى، وليحرس تلك الذات الشريفة من نكبات الزمن، وأن يوجه عين الكمال إلى ساحته المباركة بحق النبى وآله.

الحكاية الثالثة

فى فصاحة سلطان الإسلام وبلاغته وحسن سؤاله وإجابته فى أحاديثه مع البعيد والقريب والترك والتأزيك

قبل هذا العهد، كان الأمراء والوزراء يصرفون أكثر المهمات ومصالح الدولة. كما كانوا هم أنفسهم يديرون شئون الملك. وكان السلطان فارغ البال من تلك الأمور. وكان يمضى أكثر أوقاته منهمكا فى الصيد واللهو. وعلى هذا يمكن إدراك [ص ٣٨٤] كيف يكون تدبير الأمراء والوزراء المختلفى الأقوال والأهواء؟

وفى كل وقت كان يقد رسول من قبل الملوك البعيدين والقربين، يتفاوض الأمراء معه ويردون عليه. أما سلطان الإسلام غازان خان فقد أصلح كل شئون الملك التى كان الأمراء والوزراء قد ألحقوا بها الضرر مدة سنوات وعرضوا قواعدها للخلل، وذلك بأفكاره الصائبة، وآرائه الثاقبة. وقد أصر على تنفيذ أوامره، ولم يدع سبيلا لأى أمير أو وزير كى يعترض أو يتحدث عن شأن من الشئون، ولم يقم وزنا أو اعتبارا لأى واحد يعرض فكريا أو رأيا، بل يظل الجميع منتظرين ومترقبين لإشاراته لتنفيذ ما يأمر به إلى حد أنه لم يترك مجالا لخلق قط كى يسأله حتى عن يوم الرحيل. وقد اتخذ بقوة عزمته طريقة تجعل الجميع من شيب وشبان وعقلاء وجهلاء يراعون رأيه وتدييره وإشارته.

وفى الحقيقة لم يشق ذلك على أى شخص منهم، لأنهم جميعا شاهدوا أن نفسه هى الأكمل، ورأيه هو الأصوب من كل الوجوه. وكذلك حركاته وسكناته مرتبة إلى أقصى حد؛ فلا جرم أن رأوا أنفسهم لا شىء بالقياس إلى كفاءته.

ورغم حداثة سن السلطان، فإنه يذكر عدة أمثال منتخبة وتواريخ وحكايات لطيفة تجعل المستمعين يقفون حيارى متعجبين. وكلما وصل إليه رسول من إحدى الجهات، كان يجيبه إجابة صائبة دون الرجوع إلى أركان الدولة وأهل الفكر والمشورة. ومن المسلم به أن الملوك العظام يرسلون إلى الملوك الآخرين رسلا فى غاية الذكاء والدهاء بالإضافة إلى أنهم علماء

وفصحاء ومحتكون. وإن طائفة الرسل الذين وفدوا حتى الآن، وكذلك الحكماء والأطباء المشهورون الذين قدموا من الأطراف إلى بلاط غازان قد تعجبوا جميعاً من فصاحته وبلاغته وحسن محاورته ومحدثه وكمال أخلاقه. [ص ٣٨٥] وكان يتحدث معهم عن أكثر الحكايات والحوادث التي تتعلق ببلادهم، ويشرح بالتفصيل معتقدات كل طائفة تقد إليه. وعن طريق الحكاية يبين رسوم وعادات كل ملك وكل قوم من المتقدمين والمتأخرين؛ فلا غرو أن ذاع صيته وشاع في كل بلاد الصين والهند الصينية والهند وتركستان وكشمير ودشت القيقاق والأوروس والفرنجة ومصر والشام؛ بحيث إن الجميع حسبوا له حساباً تاماً فيما يتعلق بهيئته وسياسته وكفائته وكباسته؛ وذلك في كل الأبواب والأحوال، فشغلوا بمدحه والثناء عليه.

أدام الله تعالى سلطان الإسلام هذا، صفوة خلق الله وأعقل وأكمل أبناء الزمان، وأبقاه حتى الأبد على رأس العالمين بحق حقه. والسلام.

الحكاية الرابعة

فى صبر سلطان الإسلام وثباته وصدق عهده وميثاقه

بين الآن عدة ظواهر من الصبر والتحمل والثبات وصدق القول والمحافظة على العهد والميثاق. تلك الصفات التى هى مركزة فى ذات السلطان غازان؛ لأن شرح ذلك كله يؤدى إلى الإطناب فلقد غدر به نوروز مع أنه عهد من عبيد الحضرة، فصد المخيمات واندرج فجأة فى زمرة الأتباع كما هو مذكور فى التاريخ، ولكنه عمد إلى الخيانة عدة مرات. وكان هو السبب فى خراب خراسان، واضطراب الجنود وتشتتهم هناك. ثم انضم إلى جيش "قاهنو" واشتغل بتخريب الملك مدة طويلة. ولما شعر بعجزه، أرسل إلى الحضرة يطلب الأمان والميثاق. ثم جاء طالعا مختارا. ورغم كل تلك المساوئ التى لا يستطيع شخص تحملها عفا عنه السلطان وتجاوز عن سيئاته، وفوضه حكم كل البلاد.

ولكن لما كانت لنوروز نفس عجيبة [ص ٣٨٦] وبدت على ناصيته علامات الغدر وكان يقول أيضا كلاما غير لائق. ولما كان الأمر كذلك، قال الأمراء مرارا للسلطان: لقد ارتكب نوروز كثيرا من الأعمال المستهجنة، وصدرت عنه أنواع الجرائم، فينبغى القضاء عليه. لكن سلطان الإسلام خلد ملكه لم يرض بذلك وقال: الحق معكم لكننى لا أستطيع أن أنكث عهدي وميثاقى. ومهما كانت تصدر عنه حركات وأفعال سيئة كان السلطان يتحمل ويصبر إلى أن ذهب إلى خراسان وشرع فى إثارة الفتنة وإعلان العصيان وأراد أن يستولى على تلك النواحي بالإضافة إلى شيراز وكرمان. وكانت البلاد على وشك أن تغرب على يديه مرة أخرى. وهكذا كانت تلك التصرفات ظاهرة وواضحة؛ فأشار السلطان بتدارك الموقف. وهنا قال الأمراء: لقد قلنا مرارا إنه يضمّر هذه النواحي فى قلبه. فقال غازان: إبنى أيضا كنت أعلم ذلك ولكنى أردت أن يكون هو البادئ بالعنوان لا أنا. كذلك كانت هناك طائفة أخرى من كبار الشخصيات، قتل السلطان بعضهم، وليس هناك داع لذكر أسمائهم بالتفصيل، ولا يكون ذلك مناسباً. وأثناء محاكمتهم قال السلطان

للأمرأ: إبنى مطلع على قبح سيرتهم وسريرتهم منذ خمس سنوات، وأعلم عنهم كل شىء، ولكننى صيرت عليهم. ولقد قال بعضهم مرات عديدة كلاما غير لائق يتسبب فى خراب البلاد. ولو كنت ألتفت وأستمع إلى أنواع الخيل التى يذكرونها، لرتب على ما يقولون تلك الفتن التى لا تنتهى، ولا أريد أن أذكر بعضها، ومنذ فترة وجيزة ذكرت لها فى الخلوة. ولقد عرفت لأول وهلة أن أقوالهم التى ذكروها إنما هى محض احتمال وخداع، فاستكرتها. ولكنهم رغم ذلك لم يستحووا، وظلوا يعيدونها مدة خمس سنوات ويعرضونها بصور مختلفة. والعجيب أنهم كانوا يرون أنى لا أصدقها [ص ٣٨٧] ولا أعمل بها. ومع ذلك صاروا يكررونها. وقد أراد هؤلاء الجهال الحمقى أن يستجهلونى ويوقعونى فى حبالهم. ولما تجاوز الأمر الحد، وظهرت نواياهم، اعترفوا هم أنفسهم. وعندئذ أعلنت ذلك على الملأ فثبت للناس من صورة الأحوال والقضايا أن ما حدث كان على النحو الذى ذكرت. ومنذ مدة كانوا يتفوهون بذلك الكلام ويقولون جميعا متعجبين: كيف استطاع السلطان الصبر على هذه المخالفات؟ . ولقد زاد عجبهم لأنهم ذكروها بنصها، ولكنهم تأكدوا من أن أى مخلوق وشى بالناس فى حضرة السلطان وعمد إلى التزوير والتليس، عرفه السلطان فى الحال، واستاء منه، ولكنه بصيره لم يتعجل فى إظهار غضبه، ولم يظن ذلك الرجل إلى أن السلطان يعلم ذلك وبصير عليه، ولكنه كان يصبر على خطئه، فكانت عاقبته الإعدام.

ولقد كانت تلك الجماعة كثيرين من بينهم قاضى سمنان الذى كان يدعى "القاضى صاين"، وكان أكثر خلق الله شرا. وفى الحقيقة كان أكثر شرا من إبليس. ومن هؤلاء أيضا صاحب الأصفهاني وعدة أشخاص آخرين ممن لا يستحقون الذكر. ولقد فطن السلطان إلى أفعالهم جميعا. وبعد أن صبر عليهم مدة، أمر بقتل بعضهم بناء على أقوال شهود التفى والإثبات، وطرد بعضهم من خدمته.

وعلى العكس فإن الأشخاص الذين عرفوا طبيعته، وكفوا عن الهذيان وإثارة الفتن وقالوا دائما الكلام المعقول المفيد المعبر عن حقيقة شعورهم، هؤلاء الأشخاص قدرهم حق قدرهم بميزان عقله الكامل، وأثنى عليهم ووثق بهم. ولما كان ضميره المنير مطلعا على أحوالهم،

لم يستمع إلى أقوال الآخرين إذا راحوا يطلعون فى حقهم، ويتهمونهم على سبيل الحسد والعداء. وكان يتأنى، ويطلق يد هؤلاء المخلصين فى الأمور التى كانوا مكلفين بأدائها وذلك حتى تسير تلك الشئون بحودة وإحكام، ولا يتطرق إليها أى خلل. وكان يكرر قوله: ليس هناك فى العالم شئ قط أشرف ولا أنفس من إنسان ثقة مستقيم [ص ٣٨٨].

فلا غرو أن يكون الصادقون الثقة معززين محترمين. ولكن السلطان كان يقضى على كل مفسد وسارق وسىء العمل. وإذا حلف المطلقون على بواطن الأمور بالآيمان المغلظة أن سلطان الإسلام خلد ملكه لم يقتل أحدا مطلقا إلا ذلك الشخص السيء الخلق ويلزم القضاء عليه، وأن وجود هؤلاء الأشرار هو عين الضرر للعالمين - كانت أيمانهم صحيحة لا تستلزم الكفارة. ومن المتيقن أنه إذا تقرب إليه مفسد آخر فإنه يأمر بقتله أيضا لأن طبيعة نفسه الشريفة بخصوص المفسدين لها خاصية الزمرد والأفعى. أما من بقى من المفسدين فإنهم تلك الزمرة التى لم يرها ولم يعرفها؛ وإلا فإن نفسه الشريفة كانت كالجوهرى الذى يميز البلور من البواقيت، فيعرف هؤلاء الأشخاص فى الحال. ومع هذا فإنه لا يتعجل فى أى أمر إلا فى عمل الخير أو ما يوشك على النسيان، ولقد نصح الأمراء والقضاة والوزراء كرات ومرات قائلا: لا تقبلوا على الفور كلام طائفة تشكو حاكما أو موظفا؛ إذ من الممكن أنهم من قبل لم يكونوا قد سدّدوا ما عليهم من ضرائب، وحلوا مسئوليتهم على غيرهم، فاضطروهم ذلك الحاكم إلى تسديد الضريبة. ومثل هؤلاء الناس لا بد أن يشكوا. وإذا صدقت أقوالهم أيضا، فإن جماعة أخرى يأتون متذرعين بنفس الأسباب.

ومن الممكن أن تكون هذه الجماعة من الراغبين فى تولى المناصب ويريدون أن ينتزعوا من المشكو منه وظيفته، كى تفوض إليهم ويمكن أن نجىء جماعة ممن كانوا أعداءه سابقا، أو أنهم تربطهم صداقة بأحد الأشخاص، فيشتعوا على الحاكم. فاحتاطوا لكل هذه الأمور وتحروا أحوال كافة الرعايا ممن يسدّدون الضرائب، وتأكّدوا من أن حاكمهم ظالم أو لا وأنهم يريدونه أو لا؟ حتى تبين حقيقة أمره [ص ٣٨٩]؛ إذ إنه من الممكن أن يكون كلام الكثرة من الناس خاليا من الغرض والمغوى. وأن كلام أصحاب الغرض والقلّة من الناس ليس له أهمية تذكر، وأن الأشخاص الذين ترضى عنهم الرعية، وتقبل طبيعتهم إلى العدل قليلا ما يعثر عليهم. وإن الحاكم الذى يؤخذ عليه عيب أو عيبان، وله فضائل أخرى

كثيرة، لا سيما قلة الطمع وحسن السياسة والصدق والاستقامة مثله لا يمكن عزله من عمله.

وعلى هذا النهج الذى استقر فى خاطر السلطان المبارك، صار يحتاط دائما، ويرشد الأمراء والوزراء أيضا، ولا تفوته - فى أية قضية - قيد شعرة من الكياسة وبعد النظر. فليمتع الله تعالى سلطان الإسلام هذا بسنوات عديدة من العمر والسلطنة بحق النبى وآله.

الحكاية الخامسة

فى أن كل كلمة تجرى على اللسان المبارك لسلطان الإسلام تكون مطابقة للواقع فى أكثر الأوقات

يقرر المقربون الذين كانوا ملازمين للحضرة منذ عهد طفولة سلطان الإسلام - خلد ملكه - أنه فى كل وقت تحدث فيه عن قضية أو قص حكاية، جاء حديثه مطابقا للواقع. وقد ثبت خلال هذه الأعوام أنه كلما تفوه بكلام على سبيل الجد أو المزول يتحقق. كأن يقول مثلا: لقد اتفق هذه السنة للشخص الفلانى ما اتفق له فى الأمر الفلانى، أو أن رسولا يصل من أحد الأماكن بهذا الشكل والمظهر، أو أن أسيرا يحضرونه بهذه الهيئة، أو أنه سوف يصل خير سار. ومع أن مثل هذه الأمور لم تكن بعيدة عن أغلب الملوك ذوى الشأن العظيم الذين وهب لهم الحق تعالى هذا الملك وهذه السعادة، ولكنهم حتى الآن لم يحكوا عن أى ملك ما يحكونه عن سلطان الإسلام، كما أنهم لم يشاهدوا مثل أفعاله التى أثرت عنه.

ولما كان كذلك شديد الولع بكل العلوم، أحاط بعلم الرمل وقراءة الكف وأسان الحيل وغير ذلك من الدلائل التى يختبرون بها السوء والحسن على نحو ما جاء فى الكتب. كما أنه تتبع كل أنواع التنجيم التى اصطلح عليها كل قوم، [ص ٣٩٠] وكل ولاية، ودرسها جيدا. وكان يصدر أيضا أحكاما بشأنها.

أما النجوم من سياره وثوابت، والتى هى مشهورة لدى المنجمين، فإنه يعرف أغلبها وهو مطلع على طلوعها وغروبها وخواص كل منها؛ بحيث إنه يشير العجب لدى مستمعيه. كذلك يعرف بدقة خواص الأشكال لكل الحيوانات المستأنسة والوحشية وذلك على تباين أصنافها واختلاف أنواعها، كما أنه يعرف عادة وحركة وسكون وموطن كل منها فى الصيف والشتاء. وكل هذا لا يتأتى إلا بقوة الفراسة. والله أعلم.

الحكاية السادسة

فى بذل سلطان الإسلام وعطائه وجوده وسخائه

على الوجه المستحسن القائم

على أساس المعرفة

عندما تربع سلطان الإسلام خلد ملكه على سرير السلطنة كانت خزائن آياه وأجداده غالية من الأموال، والولايات خربة مختلة إلى أقصى حد، وأموال الديوان عرضة للنهب والتلف، وتحصيل الضرائب أمر متعذر. وبسبب سوء تدبير الوزراء والحكام السابقين طمع عمال الولايات فى الأموال؛ فكان يلزم من مرور فترة من الزمن كى يمكن ضبط مصالح البلاد، وضمان وصول المال إلى الخزانة بعد ذلك.

هذا الخلل يتضح فيما يلى:

أولاً: الخزائن التى كان هولاءكو خان قد أحضرها من بغداد وبلاد الملاحدة والشام والولايات الأخرى، وأودعها قلعتى تله^(١) وشاه^(٢) هذه الخزائن كان الخزنة يتهبونها بالتدريج، وكانوا يبيعون للتجار بالشاط^(٣) الذهب الأحمر والمرصعات. ولما كان كل منهم مطلعاً على ما يعلمه الآخر، لم يكن أى منهم يوح بشئ عنها. وقد اتفق أن تهدم برج من الأبراج المطلة على البحر فبحجة أن البالشات والمرصعات قد سقطت فى البحر، اختلس الخزنة مبالغ أخرى.

(١) يكتبها أبو الفداء "تلا" ويذكر أن بحيرة "تلا" هى بحيرة أرمية. والبحيرة المذكورة بين مراغة وبين سلماس غربى مراغة وشرقى سلماس. وفى وسطها جزيرة فيها قلعة تسمى قلعة تلا على جبل منقطع فى هذه الجزيرة. وكان "علاوون" (هولاكو) قد جعل أمواله فيها لخصائنها. (تقويم البلدان، ص ٤٢، تصحيح وطبع رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، باريس ١٨٤٠ ميسى).

(٢) شاه: قلعة جديدة هولاكو، ووضع فيها أمواله مما نهبه من بغداد ولقائم الخلافة. ثم صارت هذه القلعة ملحقاً له. وكانت تعرف بالقراسية كور قلعة، أى "قلعة القبر". (بلدان الخلافة الشرقية، الترجمة العربية، ص ١٩٥، بغداد ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م).

(٣) بالشات جمع بالش. والبالش عبارة عن محساة مغطى من الذهب أو الفضة (انظر كتاب تاريخ جهانگشاي، جلد نول، تحقيق محمد بن عبد الوهاب القزوينى، ص ١٧٧، حاشية ٢، ليدن ١٣٢٩هـ/١٩١١م).

ثانيا: السلطان أحمد "تكو دار" كان يريد أن يجذب إليه الجند، ويستخلص الملك لنفسه ويحارب أرغون؛ فأعطى الجند جملة ما تبقى. ولم يكن قد بقي هناك شيء أكثر من هذا. وقيل إن ما بقي في الخزانة لم يكن يبلغ مائة وخمسين تومانا. (ص ٣٩١).

ثالثا: ما جمعه أرغون في "سوغورلوق" من كل نوع وأودعه الخزانة، سرق بعض منه وأتلف بعضه الآخر. وبعد ذلك فإن ما كان أرغون قد حصله في عهد توليه الحكم وزع وأتلف أيضا. وعندما فكر الأمراء والمقربون في الغدر به ومخالفته ومحاولة قتله، قسم بعض الأمراء والمقربين محتويات تلك الخزانة فيما بينهم وقال بعضهم: إننا سوف نوزعها على الجند، ولكنهم بددوها. ولم يزل يغيثوا نفسه شيئا منها. وإذا كانت هناك بقية قد توافرت من خزانة أرغون، فإنه قد منحها الناس.

لهذه الأسباب لم يكن قد بقي هناك شيء قط من تلك الأموال السالفة عند جلوس غازان المبارك. ثم إن الجنود الذين كانوا معه عندما قدموا من خراسان؛ انتهب الأعداء الفرصة، وجاموا إلى هذا الإقليم ونهبوا ديار الجند وقطعانهم. وكلما حاول سلطان الإسلام خلد ملكه أن يمنح جنوده شيئا، لم يجد في الخزانة مالا قط. كما أن أموال الولايات لم تكن تصل إلى الخزانة العامة.

ولقد ظل نوروز مدة يدير شئون الملك والمال. وبسبب سلوكه طريقته السابقة، لم يتوافر شيء. وبعد ذلك أخذ شرف الدين السمناني وصدر الدين يديران الشئون، فلم يحدث أيضا شيء يذكر. ثم إن القوات الاحتياطية كانت في حاجة إلى المال. وإذا وفد رسول من الولايات البعيدة والقرية، وأرادوا منحه خلعة أو عطاء، لم يكن يوجد في الخزانة ما يليق بمنزلته. كذلك لم يكن الناس يصدقون أن الخزانة خالية إلى هذا الحد فكانوا ينسبون التهاون والإهمال إلى سلطان الإسلام إلى حد أنه كانت تصل الشكاوى من كل شخص بخصوص هذا الموضوع.

وعندما بلغ ذلك سمعه الأشرف كرر قوله على رأس جمع من الأمراء والمقربين: إنكم تظنون عندما يصل عدد الإبل والبغال المحملة بالصادق، أنها تحمل أموالا إلى الخزانة؛ ولكن الحقيقة هي أنني أحب الصناعة، وأشتغل دائما بقطع أنواع الأخشاب وتصنيعها؛ فكل ما يجعل إلى هنا ليس أكثر من أخشاب، وأصناف الأدوات والآلات الخاصة بكل صناعة.

[ص ٣٩٢] بالإضافة إلى بعض قطع من الأسلحة. وهذا لا يخفى عليكم. والخزنة مطلعون على تلك الحقيقة، فكيف أهب الشيء الذى لا وجود له؟! إنه لم تظهر لى خزنة ورثتها عن الآباء، ولم يحضروا إلى مالا من الولايات. وعلى هذا جئت على رأس بلد حرب. فعليكم أنتم أن تجمعوا أموال الولايات وأحضروها لى. وعندئذ إذا لم أعطيها إليكم، فسوف يكون التقصير من جانبى. ومن هذا الكلام الصريح ثبت للجميع أن الحق بجانب السلطان.

وبعد عامين عندما فرغ من ترتيب شئون المملكة وتديرها وأحكم شئون الأطراف والثغور، وقضى على الخوارج والأشخاص الذين كانوا قد دأبوا على إثارة الفتن والعصيان أو أنه عنفهم وزجرهم اشتغل بتدبير شئون الولايات وترتيب الأمور المتعلقة بضبط الأموال وتحصيل الضرائب. وكان يجلس بنفسه كل يوم من الصباح الباكر حتى المساء يصحح بقلمه المبارك المسودات الجديرة بالتسجيل. كذلك أوجد نسفاً لأموار البلاد، ووضع لها قانوناً، وبين على أى نظام يسير كل عمل.

أما الولايات التى يقطعونها فقد قرر أن تعطى أناساً أقوياء ولا تسترد منهم مدة ثلاث سنوات، وألا يلتفتوا إلى أى شخص وضيع خسيس. وبين سبل تحصيل الأموال، وكيف يكون ذلك. وعين أيضاً الأموال التى يجب تحصيلها من كل البلاد. كما عين وجوه الصرف فى كل باب على الوجه الذى سوف يجيء شرحه فى الفصول التالية.

بذلك انتظمت أمور الولايات، وأخذت الأموال تصل إلى الخزنة يوماً بعد يوم، وصار الدخل يزداد سنة بعد أخرى. وأما نسيج المصانع الذى لم يكن يسد نفقاته قبل ذلك، ولم يكن الثوب يساوى دانتين من السعر المقرر، فقد وصل الإنتاج كله إلى حد الكمال. ولما حصل السلطان على المال، شغل بالعباء، وقال للأمرء وأركان الدولة فى هذا الصدد: ليس فى العالم أمر أصعب من بذل المال. وإن چنگيز خان كان يصرح: "ليس هناك عمل أسوأ من إعطاء المال، وأيضاً من عدم الإعطاء. ومن المؤكد أن من لا يعطى يكون بخيلاً. **[ص ٣٩٣]** وأى شيء يكون أسوأ من البخل؟! وأما فى حالة الإعطاء فإنهم إن منحوا أحداً قليلاً، وآخر كثيراً، أو أنهم أعطوا أحداً ومنعوا آخر، أو أن الشخص الذى ينبغي أن يسرعوا فى إعطائه أبطأوا فى تنفيذ ذلك، فهذا التصرف يكون على الناس أقسى من الموت وبصيرهم أعداء، وقليل من يستطيع مراعاة هذه الدقائق، ويتاح له هذا التفكير. ولا يتيسر فهم هذا المعنى لكل شخص. والآن يجب علينا أن نراعى هذه القاعدة بقدر المستطاع.

واتفق أن وصلت عدة خزائن أول الأمر. وكان كل منها يحتوى على مائتى تومان أو ثلاثمائة، حولها إلى الأمراء والنواب، وقال: إني لا أفسدك بما أتوا به، ولن أودعه الخزانة وأشار بأن يضعوا على حدة ما حصلوه من الولايات حتى يقوم الأمراء بتوزيعه. وبعد ذلك بين لهم أى قوم يعطون، وما المبلغ الذى يعطى لكل طائفة. وكان الأمراء يعطون أيضا طبقا لهذه القاعدة.

بعد ذلك فى هذه السنوات الأخيرة صرح قائلا ذات مرة: لقد وزع جماعة من الأمراء الأموال، وإننى أرغب من كل قلبى أن أمنح شيئا بنفسى. وعند انعقاد مجلس الشورى (القرىلتاي) فى لوجان أمر بإقامة عظيم ملكى كبير حيث جمع الخزائن التى أحضروها من أطراف البلاد، وجلس بنفسه مع بعض الأمراء المشهورين، فأعطى مبلغا كبيرا من كانوا أرفع درجة، وهؤلاء الذين أدوا خدمات جليلة. وكذلك من مهدوا الطرق المستحسنة خصص لهم منحا أزيد. وقد عبر عن تلك الزيادة بقوله: على هذا النحو أعطى هذه الجماعة أكثر من غيرهم. والمقصود من هذا أن يجد الآخرون أيضا فى تصعيد الطرق، وتأدية الخدمات الجليلة ويسعون سعيا حثيثا ويجتهدون اجتهدا تاما. وهكذا كان يتكلم على هذا النحو، وهو يمنحهم العطاء.

وبعد ذلك كان يقدم طائفة الآباء الذين لهم أبناء ثم يعطى قواد الميمنة والميسرة على حسب القاعدة المعهودة. كذلك أمر بوضع أنواع الثياب مرتبة صنفها وبابا بابا. ثم وزن كل أكياس الذهب والإبريز والفضة كلا على حدة، وكتب عليها مقدار ما تحويه واسم الطائفة التى تستحقها، وذلك على حسب استعدادها وأحققتها. وكان ينادى واحدا فواحدا، [ص ٣٩٤] ويأمر بتسليم كل منهم نصيبه بحضوره. وظل على هذا النحو يمنح الأموال مدة عشرة أيام أو خمسة عشر يوما؛ فمئذ مبلغ ثلاثمائة تومان نقدا ذهيبا وعشرين ألف ثوب وخمسين حزاما ومرصعا وثلاثمائة حزام ذهيبى ومائة بالش من الذهب الأحمر. وبعد ذلك ظل دائما وعلى التوالي يمنح العطايا من الخزانة من النقود الذهبية، ولم يحول على الولاية مطلقا حوالاة يدفع بموجبها لأحد باسم العطاء دائق من الذهب أو قطعة من الثياب. وكل ما طلبه الأمراء والوزراء لم يكن حوالاة، وإنما أعطاهم المبالغ نقدا.

على هذا النحو ظل السلطان يعطى، لكنه كان يراعى قدر الشخص ومنصبه وظروف العطاء؛ بحيث لا يعطى القليل من كان أهلا للكثير، ولا يعطى الكثير من ينبغي أن يعطى القليل. ولم تفرغ خزائنه مطلقا من الذهب والنياب. ومهما أعطى الكثير منحه الحق تعالى بركة بسبب عدله وحسن تدبيره. ولم تغل خزائنه قط من الثياب والذهب، ولا يكاد يمضي يوم إلا ويصرف من خزائنه عشرة آلاف وعشرين ألف دينار من الذهب ومائة ومائتين وثلاثمائة ثوب من الثياب الجاهزة. وهكذا يكون السخاء والبذل والعطاء .

بعد ذلك قال بحضور الأمراء وعظماء الدولة: إن أفضل الأعمال التى يؤدىها الإنسان هى أن يتخلق بأخلاق الله، لا سيما الملوك. وإن الجود والسخاء هما من صفات الله. لكن جوده وسخاءه لا ينقصان. ولا يتفدان مهما أعطى الكثير، وآثر بهما المستحقين. وإن ما يفعله الإنسان بالنسبة إلى الله تعالى لا يكون إلا كقطرة بالنسبة إلى البحر. لكن التخلق بتخلق الله بقدر المستطاع أمر واجب. أما الملوك وجميع الناس، فيجب عليهم أن ينفقوا أموالهم على هذا النحو؛ بحيث يكونون دائما قادرين على ذلك حتى يمكنهم الإنفاق دائما؛ فإنهم إن أنفقوا ما لهم فى بضعة أيام دون ضبط أو روية، ثم يكونون بعد ذلك عاجزين عن الإعطاء ولا يستفيدون من ما لهم. فما الفائدة التى تعود على الشخص إذا لم يستطع الإنفاق بعد ذلك؛ والأمر الذى لا شك فيه أن من يمنحون أشخاصا معدودين كل ما عندهم ويحرمون الآخرين حرمانا تاما، يكونون مخطئين أيضا، ولا يكون تصرفهم هذا مرضيا لله ولا متفقا مع صفته. [ص ٣٩٥].

والملك ينبغي أن يكون مثل الشمس، تصل أشعتها إلى جميع الأشخاص. والإنفاق حق عام للخلائق أجمعين، وخصوصا أولئك المستحقين والمحتاجين، والذين يعملون أعمالا مجيدة. ومن بين هؤلاء أيضا الجنود. فكيف يجوز أن يمنح الملك كل ما عنده عدة أشخاص، ثم يجلس بعد ذلك خالى الوفاض ولا يعطى شخصا آخر شيئا، لأنه عاجز عن العطاء. وإذا فما الذى يعود على الناس من ذلك الشخص؟ أية لذة وهبة يمكن أن يستمتع بهما ملك فى تلك الحالة؟!

إن سخاء الملوك وجودهم يجب أن يكونا مثل ماء البئر والعين لا يتضب معينهما مهما أخذ الناس منهما. وهذا الأمر لا يتيسر إلا بتدبير الملك وإقامة العمران وتوخي العدل

وحسن السياسة. ولا بد أيضا من مراعاة الاعتدال في كل عمل؛ بحيث إن ذلك القدر الذي يعطونه يصل عوضه تباعا وإلا:

بيت من الشعر الفارسي ترجمته:

إنك إذا أخذت من الجبل، ولم تضع شيئا مكان ما أخذت

فإن العاقبة أن يزول الجبل من موضعه نهائيا

وإذا كان لنا ولكم ميل إلى المال والسخاء والعطاء، فإنه ينبغي أن نعدل ونصدق؛ لأن خاصية العدل هي التي تجعلنا نعرف من أين هذا المال. وعندئذ نعطى الخزانة. ومهما منحت وأعطينا فإن الخزانة لا ينضب معينها. ومن الأفضل أن نكون قادرين على هذا دائما. وإلا فكيف يصلح ملك يكون قادرا يوما وعاجزا يوما، وثريا وقتا وفقيرا وقتا آخر؟! إن هذا الأمر لا يليق بالملوك. ولو يكون هناك ملك بهذه الصفة فإنه يضطر إلى أن يعيش دائما في غم وحزن، ويحرم الخلق مواهبه، ويصيرون في غنى سلطانه.

فينبغي أن نراعي هذه القاعدة، وأن نعمل على أن نعطى كل ما يحىء إلينا من مال، لا أن ندعه يتراكم بعضه فوق بعض، ولا أن نصير أيضا دفعة واحدة خالي الوفاض مفلسين. [ص ٢٩٦] والمال القليل يجب أن يكون دائما مستمرا؛ لأن خاصية المال هي أنه إذا كان قليلا؛ فإنه سرعان ما ينمو ويأخذ في الزيادة مثل الصياد إذا لم يكن لديه طائر يضعه على شبكته كي تنجذب إليه الطيور التي من جنسه؛ فإنه لا يستطيع أن يصطاد طائرا قط. أما إذا كان هناك طائر واحد هو كل ثروته، فإنه بواسطته يصطاد عدة آلاف من الطيور في سنة واحدة.

فأثنى الأمراء وأركان الدولة على كلام سلطان الإسلام ودعوا له، وصاروا جميعا مبتهجين. ومنذ ذلك التاريخ حتى الآن، ويسير السلطان الأمور دائما على هذا النمط.

ولا بد أن الناس يحملون هذا الكلام على سبيل المبالغة ويقولون من الذي رأى الملوك السابقين، ومن وقف على أوضاع خزائنها حتى يستطيع القيام بهذه المقارنة؟! لكن الشاهد الصادق على هذه الأمور هي سجلات الدخل والخرج لخزائن السابقين، وكلها محفوظة في دار المحفوظات، ولا يزال قسم منها موجودا حتى الآن. فأى شهادة في هذه الدنيا تكون أكثر عدلا وصدقا من السجلات والدفاتر التي لم ترها عين، ولم تخطر على بال أحد؟ ولكن عند مطالعتها يتضح صدق هذا المقال أو كذبه.

فليق الحق تعالى هذا العدل والعطاء والإنعام والإحسان أبد الدهر بمنه وجوده. والسلام.

الحكاية السابعة

فى إبطال الديانة الوثنية، وتخريب معابد الوثنيين وتعطيم كل الأصنام

حينما دخل فى الإسلام سلطان الإسلام غازان خان - خلد سلطانه بالتوفيق والهداية الإلهية كما سبق ذكره أمر بتعطيم كل الأصنام وتخريب كافة معابدها وهدم بيوت النار [ص ٣٩٧] والمعابد الأخرى التى لا يجوز وجودها شرعا فى بلاد المسلمين. كذلك أدخلوا أكثر جماعة الكهنة عباد الأصنام فى الإسلام. ولكن لما لم يهب لهم الله تعالى إيماناً قوياً، كانوا يتظاهرون مضطرين بالإسلام. هذا على حين أنه تبدو على سيماهم آثار الكفر والضلال. وبعد مدة أدرك سلطان الإسلام خلد ملكه نفاقهم، فقال لهم: كل من يريد منكم أن يرحل إلى بلاد الهند وكشمير والتبت وموطنه الأصلي فليرحل. أما الذين يقولون هنا فعليتهم ألا ينافقوا ويظلوا ثابتين على ما فى قلوبهم وضمائرهم، وألا يلوثوا الدين الإسلامى الخفيف بنفاقهم. لكن إذا علمت أنهم يقيمون معابد النار أو بيوت الأصنام فسوف أجعلهم دون محابة طعمة للسيف. ومع هذا فقد استمر بعضهم فى النفاق واشتغل بعضهم بأفكارهم المستهجنة. كذلك صرح سلطان الإسلام قائلاً: إن أبى كان وثنياً، ومات على هذه العقيدة. وقد أقام لنفسه بيتاً للأصنام ومعبداً، وأوقف عليهما وقفاً باسم تلك الجماعة من عباد الأصنام. وقد خربت ذلك المعبد. فاذهبوا إلى هناك وأقيموا وعيشوا على الصدقات. وقد انتهز الأمراء والخواتين تلك الفرصة، وقالوا: إن أباك قد أقام معبداً ونقش صورته على جدرانه. وحيث إن المعبد صار الآن خراباً، يسقط الثلج والمطر على صور أبيك، وقد كان وثنياً. فإذا عمروا هذا المكان، فإن ذلك يكون مؤدياً لاستقرار روح أبيك وحسن سمته. لكن غازان لم يستحسن هذا رأى، ولم يعره اهتماماً. فأضافوا قائلين: ليجعلوه على هيئة قصر. فلم يرقه ذلك أيضاً، وقال: إذا كان فى نيتى تشييد قصر حيث تحفظ صورة أبى، فإنه لا يجوز إقامة هناك، لأن هذا المكان كان معبداً وموضعاً للوثنيين. وإذا كان من اللازم تشييد هذا القصر، فليشيد فى مكان آخر. وكانت هناك حكايات وقضايا كثيرة من هذا النوع يطول شرحها.

وصفة القول أنه قال للكهنة [ص ٣٩٨] إننى أعلم أنكم لستم على علم. ولكن يجب على الملوك أن يراعوا كافة أصناف الخلق من رعاياهم. ولهذا السبب عليهم أن يحافظوا على الجميع ويرعوهم ويعتوا بهم؛ حتى البهائم التى لا إدراك لها ولا عقل؛ فإن الملوك وأهل الإسلام وكافة الناس يعطفون عليها ويهتمون بها، ويوفرون لها احتياجاتها. وأنتم أيضا تسرون فى نفس هذا الطريق، وتتمتعون بهذه المزايا. ولكن ينبغي ألا يبدو منكم أدنى أثر حتى ولو بقيد شعرة للوثنية والتعصب والمراعاة. وإلا فسوف أجعلكم طعمة للسيف. وفى وقتنا هذا فإن الطائفة القليلة منهم التى بقيت فى إيران لا يجدون فرصة مواتية لإظهار عقيدتهم أو مذهبهم، وذلك مثل أقوام الجوس والملاحدة الذين يستوطنون هذه البلاد منذ زمن قديم. لكنهم يخفون معتقداتهم. أدام الحق تعالى سلطان الإسلام هذا، وأبقاه بمنه ولطقه وكرمه.

الحكاية الثامنة

فى محبة سلطان الإسلام لآل الرسول عليه السلام

راى سلطان الإسلام غلذ ملكه فى المنام مرتين جمال سيد الكائنات عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات. وقد أبده الرسول عليه الصلاة والسلام، وقوى عزيمته بالوعد الطيبة، ودارت بينهما محاورات طويلة. وكان أمير المؤمنين على والحسن والحسين رضى الله عنهم بصحبة النبى صلوات الله عليه، فعرفهم به قائلا: يجب أن تكونوا [ص ٣٩٩] إخوة. ثم أمر سلطان الإسلام بمعانقتهم؛ فقبل الجانبان هذه الأخوة. ومنذ ذلك الوقت تيسرت لسلطان الإسلام انتصارات وفترحات؛ كان أعظمها هذه الخيرات كلها، وضبط الأمور وترتيبها، وتوخي العدل وحسن السياسة تلك المبادئ التى أذاعها فى العالم؛ فنهاى له التوفيق فى الحصول على السمعة الطيبة، وحصل لنفسه ذخيرة من دعوات الخلق العديدة له بالخير. فآية سعادة يمكن أن تكون أعظم من هذه؟!

ومنذ ذلك التاريخ ازداد حبه لأهل بيت النبوة رضى الله عنهم، وصار يمد الحجاج دائما بإعاناته، ويزور قبور أسرة الرسول، وينثر النذور ويرسلها إلى مستحقيها، ويعز السادات ويأمرهم بالصدقات والإدراوات.

ولما كان يقيم فى كل موضع الخوانق والمدارس والمساجد وأبواب البر الأخرى ويخصص لها الأوقاف، ويقرر الوظائف والمرتبات لكل طائفة، قال: كيف يكون للفقهاء والمتصوفة والطوائف الأخرى أوقاف خاصة بهم، ولا يكون ذلك أيضا للسادات؟ إنه لواجب أن يكون ذلك للعلوين كذلك. وأمر بإقامة دور السيادة فى تبريز، وفى أمهات المدن الأخرى فى كل البلاد الهامة مثل أصفهان وشيراز وبغداد وأمثالها كى ينزل فيها السادات. كما عين لهم مرتبات ينفقونها فى أداء مصالحهم على النحو الذى رآه محققا لهذا الغرض، وحسب ما نصت عليه حجج الأوقاف؛ وذلك حتى يكون هؤلاء أيضا نصيب من خيراته. وكان دائما يصرح بقوله: لست منكرا أى شخص، وإلى لمعترف بعظمة الصحابة. ولكن بعد أن رأيت الرسول عليه الصلاة والسلام [ص ٤٠٠] وقد آخى بينى وبين أبنائه، ومنحنى صداقتهم. لا بد أن أزيد فى حبي لأهل البيت، وإلا فمعاذ الله أن أنكر الصحابة. كذلك أمر بحفر نهر لإيصال الماء إلى مشهد الحسين عليه السلام، كما يحىء شرح ذلك. وكان دائما يأمر بمدح أسرة الرسول صلى الله عليه وسلم دون تعصب لأنه يحمده الله ومنه حكيم وكامل.

فليبق الحق تعالى هذا السلطان العادل الكامل بين العالمين سنوات لا نهاية لها.

المكايبة التاسعة

فى شجاعة سلطان الإسلام، وإعداد الجند للحرب وجلده فى خوض المعارك

كان سلطان الإسلام خلد ملكه يعيش منذ عهد الطفولة فى نجر خراسان الذى كان يعد أعظم الثغور وأعظمها شأنًا. ومن قديم العهد حتى الآن كانت الجيوش الأجنبية تزحف إلى تلك المنطقة. فكان لا بد من اتخاذ الحيلة والحذر، فلا تكاد تضر سنة دون أن يسير غازان بقواته الاحتياطية. ولهذا حارب الأعداء كرات ومرات واشتبك معهم فى حروب طاحنة، وتحمّل كثيرا من المشاق ووقف وقفا تاما على دقائق تلك الأمور، ومهر فى معالجتها إلى أقصى حد، وقوى قلبه إلى حد أنه لم يشعر بخوف من الأحداث الخطيرة، ولم يتطرق التردد إلى خاطره المبارك. ورغم أنه يعلم أن الموقف صعب والعدو قوى كان يظهر المصايرة والتجمل، ولا يدع أثرا يبدو عليه من التفكير فى هذه الأمور، وكان يصرح بقوله: لم تنأت من الخوف أبة فائدة بل تكون نتيجة العجز عن التدبير، فيقوى حال الخصم.

شاهد الملازمون للحضرة هذه المواقف عدة مرات فى خراسان. وإن شرح ذلك يطول. أما ما اتفق وقوعه فى هذه الديار، فواحدة من ذلك هى قضيته مع بايدو، فقد أسرع كالبرق الخاطف من خراسان، [ص ٤٠٩] وداهم بايدو وأتباعه وصاير مع نفر قليل من جنده. بعد ذلك رأى من المصلحة أن يتقابل مع خصمه فى الخلوة، ومعه نفر من أتباعه. وأثناء اللقاء ضربه بايدو على سبيل الداعبة ضربة قوية على ظهره؛ بحيث إنه تألم، ولكن بايدو عرف أن غازان لا يعأ به، وبقي الخوف مسيطرا عليه.

بعد ذلك عبأ غازان جنده، واستغل الفرصة، فداهم بايدو ومعه نفر ضئيل من جنده وأسره دون أن يلحق أى ضرر أو مشقة بالبلاد والجيوش. وفى ذلك الوقت اعتقل الأمراء الذين كانوا يشيرون الفتى فى عهد أبيه وعمه. ورغم أنه كان لهم حماة أقوياء، إلا أنه اتبع رأى الصائب مدفوعا بقوة عزمته، ولم يأبه بشقاعة أى أحد منهم، بل قضى عليهم جميعا. ثم نظم شئون الملك.

وموقف آخر وهو موقفه فى قضية "سوكاى" الذى ثار عليه. وكذلك فى عودة "أرسلان" بجيش مجهز وهجومه عليه. وكان السلطان يسمع ذلك الخبر تباعا. وقد تبين له أنه إذا ما وصل العدو فإنه لن يستطيع مقاومته لعدم وجود الجند. ومع هذا لم يكن منفعلا على الإطلاق، واستمر يزاول أعماله جريا على عادته كل يوم. ولما اقترب "أرسلان" أرسل إليه الجنود الذين كانوا حاضرين وكانهم فى رحلة للصيد، ولم يتحرك هو بنفسه، ولم يطلق أيضا كل شخص على ذلك الأمر، وظل كالعادة يمرح ويلعب، ويروى مختلف الحكايات، ويدعو الأطباء والمتجمين ويقول لهم: أريد أن أتناول مسهلا، فهيتوا لى هذا النوع من الأدوية، واختاروا لى يوما مناسباً لتناوله. ولم يبد اهتماما بأمر ذلك الثمرد؛ غير أن خطره كان قلعا بصورة لا يمكن وصفها. ولكن بسبب ما أبداه من تجلد ومصابرة لم يطرأ خلل قط؛ إذ لم يصل نبأ ينبئ عن خطورة الموقف، وبقي الناس هادئين. [ص ٤٠٢]

ولو ظهر على السلطان أقل تغير، حتى ولو بقيد شعرة، لاضطربت كل الأمور؛ وخصوصا وإن الأمر كان فى بدايته. ولم يكن الملك والجند قد استقروا. أما الجنود فكانوا قد شاهدوا الاضطرابات السابقة، واعتادوا عليها. وكانوا حريصين ومولعين بشن الغارات. فمثل هذه الأمور كانت تبدو لهم لعبة من اللعب. ومع كل هذا صح ذلك الأمر، وزال الخطر بتأييد الخالق عز و علا ويمن مصابرة وتجلد سلطان الإسلام خلد ملكه لم تصبه عين السوء بأى وجه.

موقف آخر فى قضية الحرب ضد مصر والشام؛ فقد ظن الناس أن السلطان سوف يقف فى ركن من الأركان؛ بحيث لا يعرفه أحد لكنه على خلاف ذلك اقتحم الميدان بجراحة ناردة، وتنظم كل جنوده ووقف فى مقدمتهم، وصار يحمل على أعدائه تباعا كالأسد المحصور. ولو لم يسكوا بعنان فرسه، لما كان يتوقف عن القتال. ورغم أن القرييين منه كانوا يمنونه، اخترق صفوف الأعداء عدة مرات وتجول بينهم، وصار يطاردهم، وقتل بعضا منهم، ثم عاد. وفجأة انهزم الجند أيضا الذين كانوا على مقربة منه. ولم يعلم بعض من فى الأطراف شيئا عن الاشتباكات، ولم يصل بعضهم إلى ميدان القتال وبقيت مسيرة سلطان الإسلام وميمته خاليتين. أما هو فقد ثبت مع نفر قليل صمدوا فى مواجهة الخصم. ونظرا لأن الهزيمة الأولى قد لحقت بقلب الجيش، ابتعد الجند عن الميدان ووقفوا عاجزين لا يتحركون على الإطلاق، ظانين أنه أثناء حملة العدو لن يصل مدد قط. هذا فى حين أن العدو كان يواصل هجماته الشديدة دون انقطاع. لكن السلطان ثابر على القتال فى

شجاعة كأنه أسد هصور أمام ذلك الحشد الكبير، وذلك من وقت الظهيرة حتى صلاة العصر يصد هجمات العدو بمفرده ويقاوم بحسن التدبير ولطائف الحيل مثل هذا الحشد الكبير. فأى محارب شجاع له مثل هذه القوة والقدرة؟

وعاقبة الأمر أن جنود الميسرة الذين كانوا يقفون بعيدا منتهزين الفرصة ومستعدين للتفكير، عندما شاهدوا ذلك الموقف البطولي، توجهوا إلى الأعداء، [ص ٤٠٣] وتبعهم بعض الجنود من الميمنة. فعجز الأعداء عن مقاومتهم ومحاربة سلطان الإسلام -خلد ملكه- واضطروا إلى الفرار منهزمين.

وهكذا فإن مثل هذه الحكايات كثير. وقد اقتصرنا على ذكر هذا القدر من المواقف كشاهد على صدق ما نقول. وكان دائما يقدم النصيح والإرشاد للجنود المظفرين، فيقول لهم: "إن الموت لا بد أن يدرك كل من حل أجله حيثما يكون؛ سواء أكان في المنزل أم في الطريق أم في الحرب أم في الصيد. فما الداعي إذن إلى الخوف من العدو الذي يقف في مواجهةنا؟! وحيث إن الموت حتمي لا مفر منه، فالأولى أن يرى الإنسان دمه؛ لأن الدم المختفي في البدن يتعفن، ولا يؤدي إلا إلى العفونة. وكما تكون حمرة الوجه زينة النساء يكون الدم زينة الرجال، وتبقى السمعة الطيبة في الدنيا لمثل هؤلاء الأشخاص، ويدخلون الجنة في الآخرة. وكل من يموت في المنزل، تمل زوجته وأولاده طول مرضه ورعايته ويصير محتقرا ومغفوضا لدى الأعداء الآخرين. أما إذا مات في الحرب، فإنه يكون بعيدا عن هذه الأمور، ويكفى عليه الأحباب بحرقه وتفجيع، ويعز سلطان العصر أعقابه ويواسيهم ويربى أولاده ويرعاهم، فيزداد بذلك إصلاح شأنهم.

وقال لهم أيضا: عندما يعزم الجيش على شن هجوم على الأعداء ينبغي أن يحرص على إخفاء الخبر عنهم، حتى لا يتسرب إليهم، وأن يعد الخيول، ويواصل سيره ليلا ونهارا بحيث يصل فجأة كى يشبك بالعدو، ويحسم أمره معه. وإذا كان على الجنود أن يشتوا حملة كل سنة، فإنه ينبغي عليهم أن يحرصوا على السير في أوقات مختلفة، وإلا فإنهم لو حددوا موعدا معيناً، فإن العدو يتخذ حذره ويتدارك أمره. وكذلك ينبغي بذل الجهود في أن يسلكوا طريقا مغايرا في كل مرة، حتى لا يحيط العدو علما به. ولكن ينبغي أن يكون الأدلاء والمرشدون من الثقات. وإذا سار جيش كبير، فإنه كلما أشاعوا عنه أخبارا أكثر، فإن ذلك

يكون أفضل. وينبغي أن يطبق الجنود في الحرب؛ لأن الجيش الكبير لا يستطيع الزحف بسرعة. ومن المسلم به أن العدو إذا علم بتحركاتنا، فإنه يشغل بتدبير جيشه وإعداده منتظرا للمواجهة. ولا يجوز الاعتماد على كثرة الجنود أو قتلهم حتى يسرعوا؛ لأن النصر لا يمكن التنبؤ به. أما إذا تأنوا في السير، وأذاعوا الأخبار المروعة؛ فإن الأعداء يفرعون منها، ويقع الاضطراب بينهم، ويدب الخلاف في صفوفهم [ص ٤٠٤] أو يداهمهم عدو من ناحية أخرى، أو تسرى بينهم إشاعة مفرضة، أو أنهم يعجزون عن مواصلة القتال لنفاد العلف والثونة. وعند التصميم على مثل هذه العزيمة ينبغي أن يحتاط الجنود قبل إذاعة الأخبار وذلك بتوفير الماء والعلف ونتاج الصيد، وأن يتوقفوا في مثل هذه الأماكن التي تتوفر فيها هذه الأمور، وألا يؤكل العلف الذي أعد ليوم الحاجة في المواضع الجدداء. وينبغي إرسال الجواسيس بصفة مستمرة للاطلاع على أحوال العدو. وبعد الاطلاع توضع كل الأفكار والحفظ والأعمال على أساس سليم؛ لأن التصرف الذي لا يقوم على أساس من الاطلاع والمعرفة يكون كالملاكمة في الظلام.

ثم توجه إلى جنوده قائلا: بعد الاحتياط التام ينبغي أن يكون إما الدخول في المعركة أو الانصراف عنها، وذلك يكون مرتبطا باختياركم لا باختيار العدو؛ لأنكم إذا كنتم مجبرين وتعجزتم الأمر دون توقف أو روية، فإن العدو يصل فجأة ويغتكم فيسوء موقفكم. وعندئذ يتحتم عليكم خوض المعركة والقتال مضطرين. أما العدو فيكون في موقف أفضل. وصفوة القول أن العامل الأساسي هو تنظيم الجيش، وعدم السماح لأى جندي بالتحرك من مكانه دون إذن؛ لأنه قد ثبت بالتجربة أن العدو ينتهز الفرصة، وبأخذ زمام المبادرة فيتغلب عليكم. والشرط المهم هو ألا يدع القائد أحدا بصورة قاطعة يسير حسب هواه إلى القرى والمواضع العامرة، ويسلب منها شيئا؛ لأن الجنود إذا تعودوا على ذلك؛ فإنه لا يمكن منع أفراد الجيوش الجرارة من تلك المحاولة، ويتعذر التنظيم والتنسيق. ولهذا السبب يشغل الجنود وقت الحرب بجمع الأسلاب والغنائم في وقت غير مناسب ولا يمكن منعهم. وكل السببات التي أصابت الجيوش، إنما كان أكثرها راجعا إلى الاستيلاء على الغنائم عندما تنتهي المعركة. وإذن فعلى القائد أن يعرف جيدا أين تذهب الأسلاب والغنائم. ولا ينبغي التراجع عن توقيع العقوبة ولا التردد عن القتل والسفك؛ لأن القواد إذا امتنعوا عن قتل

شخصين أو ثلاثة، فسوف يهلك عشرة آلاف وعشرون ألف رجل فى مقابل هذه القلة ويتبع ذلك ضياع الملك أيضا.

وفى حالة مغادرة الجنود قواعدهم، ينبغي أن يتوجهوا دائما بنية طيبة، وأن يشتغلوا بذكر الله تعالى، وأن يظهروا أنفسهم، فلا يرتكبوا أفعالا سيئة، وأن يكونوا عبيد لموطنهم ووطنهم، وألا يظلموا أحدا حتى يثق الناس بهم، ويذلوا همهم الطيبة فى سبيلهم ويدعوا لهم بتضرع فيستجاب لهم؛ إذ إنه ليس للجنود ذخيرة [ص ٤٠٥] قط أفضل من دعاء الخير والهمة الطيبة. وينبغي ألا يبالغوا فى القول، وألا يدعوا سيلا إلى الكبر والزهو بأنفسهم وألا يحتقروا العدو، ولكن لا يخشوه أيضا، وأن يعدلوا أنفسهم ضعفاء، وأن يعظموا الله تعالى ويخشوه حتى يصح تكبيرهم وتنظم أمورهم، ويتأكدوا من أن كل من يقول كلاما فيه كبرياء واستعلاء، ويفكر على هذا الأساس، فإن الحق تعالى يعلو عليه بكبريائه؛ لأن العظمة خليقة بالله وحده، وهو يريد أن يتساوى مع الله. وكل من يتساوى مع الله، يخذله الله ويمد الآخرين بعونه، وبهيته هو. وهذا أمر يسير على قدرة الله تعالى، فيقهره بصورة لا تخطر على بال أى بطل عادل كفء.

وعلى هذا المتوال كان السلطان ينصح دائما جماعة الأمراء والجنود، وظل ينصحهم، بل إنه تحدث إليهم بكلام كثير أدق من هذا لم يبق فى الذاكرة، ولربما يؤدى ذلك أيضا إلى التطويل لو رحنا نشرح ما قاله. وحيث إن المقصود هو إبراد شواهد وأمثلة، يكون هذا القدر كافيا. وإن الزوائد والإضافات معلومة ومحققة لدى الجميع.

أدام الحق تعالى أهد الدهر هذا الحارس للدنيا وسيد العالمين وراعى الرعايا والجنود.

المكايبة المباشرة

فى نصح سلطان الإسلام القضاة والمشايخ والزهاد وأهل العلم والتقوى

فى كل وقت كانت تصل الطوائف المذكورة إلى الحضرة، كان السلطان يسدى إليهم مختلف النصائح. لكنه عندما حضر العظماء وكبار الشخصيات، مجلس الشورى (القوريلتاى)، ومثلوا بين يديه، قال لهم: أنتم ارتديتم لباس الرياء، وهذه مسألة خطيرة لأنكم بهذا الظاهر قد لا تخادعون الخلق، وإنما تخادعون الله، ويمكن أن يسلم الخلق بادعائكم وريائكم عدة أيام [ص ٤٠٦]؛ لأنهم لا يكونون مطلعين على حقيقة ما تضرعون. لكن الله تعالى مطلع على ضمائركم، ولا يؤثر فيه التزوير والتليس، وبغضب عليكم، ويجازيكم أيضا فى الدنيا. وأما فى الآخرة فإنه من المقرر والمؤكد أن كل من يرتدى لباس الرياء أو التليس يكشف الله عيوبه بين الخلق، وتسوء سمعته ويصير خجلا من الناس، ويدو بينهم حقيرا وممتهنا، ويكون دائما أضحوكة الخواص والعوام.

أما أولئك الذين لا يرتدون لباس الرياء، ويسلكون سلوكا أميناً وصادقا، ولا يميزون أنفسهم عن الآخرين، وليس لديهم تفكير فى السيطرة والرئاسة، ولا يدعون الزهد والتواضع؛ فإنه ليس لأحد اعتراض عليهم، ولا يتوقع أحد منهم حياة لا تتناسب مع ظاهريهم.

وأما قولنا: إنكم ارتديتم زى العدالة، فإن معنى ذلك أنكم مثل غيركم من البشر، ولكن بواسطة هذا الزى اكتسبتم اسما عظيما. ونجت هذا الاسم هناك عدة معان خاصة لا توجد فى الآخرين، وأنتم أنفسكم قبلتم هذا الاسم والمعنى، وتعهدهم وتكفلتم بأداء الحقوق وتقولون: نحن كذا كذا، وسوف نفعل كذا كذا. والآن فكروا جيدا فيما أقول: إذا كنتم تستطيعون عدم الخروج من عهدة هذا العهد والميثاق والعدالة التى تلازم هذا اللباس، وأن تكونوا عند كلمتكم، فإن هذا يكون حسنا جدا وممدوحا، وتسمو منزلتكم، وتكونون أفضل من الآخرين عند الخالق والخلاق. وإلا فسوف تؤدى النتيجة إلى الخجل من الله والخلق، وبمحض اختياركم أو رغم أنفسكم تكونون قد جلبتم على أنفسكم تلك المشايبة

والمشقات. وتأكدوا من أن الحق تعالى قد وهب لى الملك بسبب ذلك، وفوض إلى رئاسة الخلق، كى أدير أمورهم، وأقيم بينهم العدل والمساواة. وقد أوجب على أن أقول الحق وأعمل به، وأن أجازى المجرمين جزاء وفاقا. [ص ٣٠٧] وقد اقتضى حكم الله منذ الأزل أن يكون عقاب الخاصة أزيد وأعنف. ولهذا السبب لا تؤاخذ البهائم على جرائمها.

وبناء على هذا يجب على الملوك أن يبادروا بمعاينة العظماء وكبار القوم، وأن يجعلوا هذه القاعدة دستورا لهم ينظمون به شئون الملك. ولهذا فأننا أيضا سوف أسرع إلى معاقبتكم على ما ارتكبتموه من جرائم دون أن تأخذنى شفقة بكم، ولا تظنوا أننى سوف أنظر إلى لباسكم، بل إلى أفعالكم. وإذن فعليكم باتباع سلوك وسنة الرسول عليه وعلى آله السلام فى كافة أعمالكم، ومراعاة ما هو واجب عليكم، وأن ترشدوا الآخرين إلى سواء السبيل واحذروا الفساد والفضول، ولا تجيزوا على سبيل التأويل ما لا يكون فى أصل الشرع وتعاملوا بالصدق والصفاء، وابدلوا الهمة وأحسنوا الظن؛ حتى يبقى ببركة ذلك العالم كله وغن أيضا آمنين مطمئنين، ولا يتعصب الواحد منكم ضد الآخر، ولا تتعصبوا أنتم أيضا ضد الأقوام الأخرى؛ ذلك التعصب الذى لم يأمر به الله ورسوله؛ لأن التعصب فى هذه الحالة يكون طلبا لحسن السمعة والشفقة وخدمة الناس بأكثر مما يطلبه الله والرسول فلا يكون من ورائه إلا سوء السمعة وضعف الهمة. وأنا لو كنت أعمل شيئا خلاف الشرع والعقل، فإن عليكم أن تنبهونى، وتعرفونى الحقيقة؛ لأن كلامكم عندما يؤثر فى، يصير مقبولا ومسموعا؛ إذ إنكم عندئذ تقرنون القول بالعمل؛ ولأنكم فى ذلك الوقت تقولون كلاما صادرا عن الصدق والصفاء وقوة النفس. ولا بد أن يؤثر فى هذا القول. وإن اتباع الحق بناء على كلامكم يجلب لى ولكم الثواب والتناء. وبذلك ينعم الخلق جميعا بالراحة والهدوء. وإذا لم يكن الأمر على هذا النحو فلن يؤثر فى كلامكم وعندئذ تشتعل نيران غضبى عليكم. ولهذا السبب يصيبنا الضرر أنا وأنتم وكافة الخلق.

ولقد أردت أن أذكر حكايات أخرى ونكتا دقيقة، وهى كثيرة ومتعددة فى هذا الموضوع. ولكنى أكتفى الآن بذكر هذا المقدار على سبيل الإجمال. فإذا وقعت منكم موقع الاستحسان وقبلتموها فإنها تفيدنى وتفيدكم. [ص ٤٠٨]، ويكون لكلامى وقع حسن فى نفوسكم، وتتوطد عبتى فى قلوبكم. وإلا فسوف يتقل كلامى عليكم، وتستقر عداوتى

فى أفدتتكم، ففطلع فؤادى على ما ففول ففاطركم، وتكونون مففوضفن عندى. ومن هذا ففظهر الفلل فى الففن والفنفا. وففن نفقصر الفوم على ذكر هذا المقفارف. ولو فالفنا الفوفف ففوف نذكر ففكافاف معنوبة فففة.

على هذا النحو نصف السلطان ففاعة كفار الشفصفاف ومشاففر الفففاة والففااف والمشافف والعلماء الففن مثلوا أمام الففصرة، ففعفبوا ففمعا، وصاروا متففرفن، ورففوا أكففهم بالفعاء للففصرة والففاء عففا. وفى أوقات أخرى الففى أمفال هذه النصاف فى الففالس المففلفة، وقال كلاما مففا فطول شرحه ففعااه.

فلفسظ الله فعالى ففل فولة سلطان الإسلام هذا، وفلفم عافه، وفلففه أبف الفهر على رأس فففااف أصناف العالمفن. فنه سمف فففف.

الحكاية الحادية عشرة

فى منع سلطان الإسلام الجنود وغيرهم من التفوه بكلمات الكفر

لما سمع سلطان الإسلام علد ملكه أن بعض الجنود وغيرهم كانوا يتباهون عندما يسيرون إلى ميادين القتال، ويتبرع لهم الفتح والنصر، فيقولون: نحن فعلنا هذا وفعلنا ذلك. وقد تسر تدبير المهام العظيمة بواسطة فلان، وأن الشخص الفلانى أبدى ضروبا من الشجاعة والبطولة، وأن العدو هزم بسعى فلان. وعلى هذا النحو يرجعون الأمور إلى كفاءتهم وشجاعتهم وبطولتهم. كما كانوا يتحدثون بكلام خطير، ويظهرون العجب والخيلاء. وكانوا أحيانا يعودون على العكس من ذلك خاسرين غير موفقين، فيقولون: كان ذلك قضاء الله؛ وإلا فقد سعينا [ص ٤٠٩] وبذلنا الجهود الجبارة. وكثيرا ما كان يدور هذا الكلام على ألسنة الخلق. وعلى هذا النمط كان يتحدث أيضا المغول والتازيك فى كل الشئون الجزئية؛ فوصلت هذه الحكايات مرات إلى السمع الأشرف، فلم يستسرها وراح بدافع غيرة على الدين يقول: إن هذا الكلام كفر محض، وإن أكثر أعمالنا، وما يتعلق بشئون الجند وكافة الناس إنما تصاب بالخلل نتيجة شؤم مثل هذا الكلام، فيجب أن يدرك الجميع أن كل خير يصل إلينا وإلى الجند والخلق الآخرين إنما هو مرتبط برحمة الحق تعالى وشفقته، وأن كل سوء وإخفاق إنما هو نتيجة ذنوبهم وسيئاتهم. وإذن فلا ينبغي أن يتكلموا بأى وجه من الوجوه بكلام يتعلق بالعجب والكبر. وللحيلولة دون الوقوع فى هذا الخطأ أمر بأن يكتب فى هذا الشأن مرسوم بليغ أرسله إلى كل البلاد حيث جماهير المغول والتازيك، نص فيه على أن كل شخص يعتقد - منذ الآن إلى ما بعد - فى الكلام السابق ويتفوه به، يكون مذنباً. وفى الآخرة يكون مثواه النار. وينبغى أن يثق أن الحسنة من فضل الله، وأن السيئة إنما هى نتيجة أفعاله المستهجنة^(١).

(١) مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ولرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا﴾. (سورة النساء آية ٧٩).

ويجب على أصحاب البيوت أن يطعموا مما عندهم - كل شخص يقصد ديارهم ويعتدوا
له هذا الطعام سواء قل أو كثر، وأن يسلكوا معه طريق المروءة، وأن يعاشروا الناس جميعا
بالتواضع.

ويعتضى هذا المرسوم الذى أصدرناه، كان على الذين يقصدون بيوت الناس ألا
يتخذوا هذا الأمر ذريعة لمطالبتهم بما يشاءون؛ إذ إن ذلك متروك لمروءة أصحاب البيوت.
وإذن فليس لهم أن يطالبوا أو يظنوا أن أحدا مكلف بتقديم شيء لهم، بل إن ذلك الأمر
يتعلق بما يتصفون به من مروءة. وقد أرسل المرسوم بهذا المعنى، وأمر بأن ينادوا به فى كل
البلاد.

وهكذا فى عهد سلطان الإسلام المبارك، عمت بركاته كافة الشئون. ويعون الله تعالى
تكون فى ازدهاد بمنه وكرمه.

المكايبة الثانية عشرة

فى حب سلطان الإسلام للعمران وحته الناس على ذلك

قبل هذا كان سلاطين المغول، وبعض آباء وأجداد سلطان الإسلام خلد سلطانه شغوفين بالعمران. وقد شرعوا فى ذلك. ولكن قل منهم من أتم شيئا يذكر كما هو مشاهد. وحيثما أقاموا بنيانا أنفقوا عليه أموالا طائلة. وكانوا يرسلون من الولايات ما يجيبى من الضرائب الاستثنائية، وكذلك كان أكثر هذه العمارات معرضا للتلف. وكان الأشخاص الذين يشرفون على هذه الأعمال يخشون أن تدور عليهم دائرة السوء، فتضيع الأموال دون أن يتيسر إضافة المزيد من المباني، وما شيدوه بالفعل لم يكن متقنا، وعرب فى مدة قصيرة.

لكن سلطان الإسلام أقر نظاما بشأن البناء والعمران لم يكن من الممكن أن يوجد أحسن منه. وحيثما يوجد سيد يوثق به أو معاون يتصف بالشرف واختاره وعينه للإشراف على كل عمارة، وحول إليه الأموال المطلوبة. كما نصب السادة المشهورين والكتاب المخلصين والمهندسين المعماريين، فاستخدموا جميع الآلات بأسعار معقولة وأجور مناسبة، وذلك فى نظير استعمال القدر المطلوب منها؛ بحيث أنهم إذا قصروا فى التنفيذ فإن النقصان والضرر يعودان عليهم. وكان المشرفون يحصون الآلات والمواد المستخدمة فى البناء. وبناء على هذا يحاسبون كل متعهد كلف بهذا العمل وهكذا سارت العملية بمتتهى الدقة؛ بحيث إنهم لو أرادوا حتى بعد مائة سنة أخرى [ص ٤١١] أن يراجعوا المبالغ والتفقات والاعتمادات المالية على حسابات الكتاب والآلات التى استخدمت لاتضح على الفور الحق من الباطل وقطعا لن تكون هناك زيادة أو نقصان فى تلك الحسابات. ولن يوجد مجال لأى شام للظلم فى أعمال هؤلاء السادة والمهندسين. ولتنفيذ كل مشروع نصب مشرفين أمناء حتى لا يميزوا استخدام آلات غير صالحة، أو ينقص العمال شيئا من الجص والأسمنت ويخلطوهما بالرماد. وهذا التدقيق والاحتياط إنما يكون فى دائرة اختصاصهم وضمن عهدتهم. وهناك مسألة أخرى هى أن كل المعدات من الخشب والحديد، سلمت للمقاول بضمن محدد. كما قررت جملة أنواعها والمطلوب استعماله منها.

وهكذا راح السلطان يأمر بتشييد العمارات في كل مدينة وولاية وصار يشق الأنهار والقنوات، ويجريها بالمياه. ومن جعلتها وأعظمها نهر يتمثل فيه الخير التام والنفع العام. وهو نهر كبير للغاية، أجراه السلطان في ولاية الحلة وأطلق عليه اسم "النهر الغازاني الأعلى" وأوصل ذلك النهر إلى المشهد المقدس لأمر المؤمنين الحسين (رضي الله عنه)، وأجرى عذب الفرات إلى كل صحارى سهل كربلاء التي كانت قاحلة، ولم يكن في المشهد ماء عذب للشرب. ونتيجة لهذا صارت كل المناطق حول المشهد مزروعة في هذا الزمان. كما أنهم أنشأوا الحدائق والبساتين وتستطيع السفن القادمة من بغداد والمدن الأخرى الواقعة على ضفاف الفرات ودجلة الإبحار إلى المشهد، ويلغ محصولها ما يقرب من مائة ألف "تغار"^(١). وهناك تنمو الحبوب وأنواع الخضر أحسن مما تنمو في أى مكان من أعمال بغداد. ونتيجة لهذه الإصلاحات صار السادات المقيمون في المشهد مرفهى الحال جدا. ولما كان هؤلاء أناسا فقراء، وعددهم كبيرا، وهم في أمس الحاجة إلى المعونة، أمر بأن تكون لهم إدارات تصرف سنويا.

وفي منطقة مشهد سيدى أبى الوفاء رحمة الله عليه [ص ٤١٢] كانت هناك أيضا صحراء قاحلة، ولا يوجد في المشهد ماء عذب للشرب، فتصادف أن سلطان الإسلام خلد ملكه ذهب في إحدى السفن قاصدا الصيد في تلك الصحراء، فلم يجد مرافقوه ماء للدواب، فهزلت جدا، كما ضعفت حمر الوحش والغزلان بسبب عدم وجود الماء والعلف فأمر بأن يشقوا نهرا من الفرات يجري إلى هناك كى يتوافر الماء، ويكثر الزرع في ذلك المشهد أيضا، وتستريح الحيوانات الصحراوية كذلك. وبالإضافة إلى هذا لا يعترى الدواب التعب والمشقة لعدم وجود الماء إذا ساروا بها في تلك الصحراء، ويتوافر العلف من الشعير والبن. وفي مدة وجيزة شق السلطان نهرا كبيرا يجري إلى هناك أطلق عليه اسم "النهر الغازاني الأسفل". وبعد ذلك أجرى من الجانب الغربى نهرا آخر على حدود تلك الصحراء، سماه أيضا "النهر الغازاني"، وأوقف من الماء والأرض عدة أفدنة على ذلك

(١) وحدة من وحدات الوزن يستعمل أكثر للفلل ويساوى مائة من تيريزى (٢٩٥ كيلو جرام). ونأى هذه الكلمة أيضا بمعنى الضرائب العينية التي تحصل من الرعايا، وتعق على العلف الخاص بالجيش "تنوقة" (انظر تقرير تاريخ وصاف به قلم عبد الحميد آيى، ص ٣٧٨، تهران ١٣٤٦ هـ.ش).

المشهد، واشترى ما تبقى من كل المواضع التى عمرها، واستغلها لنفسه. ثم أوقفها كلها على أبواب البر التى بناها فى تبريز. والآن فى هذا الزمن أنشئت فى مشهد سيدة أبى الوفاء الخدائق والبساتين، وظهر الماء العذب وأنواع الخضراوات التى لم تتوافر مطلقا للسكان من قبل. ولما كان هذا المشهد يقع بعيدا عن العمران، ويتعرض المجاورون له لأذى المغيرين من الأعراب أمر بإقامة سور حوله على نمط ما يبنى حول مدينة من المدن. وهناك شيدوا حماما وعمارات جديدة. وعما قريب تتحول هذه المنطقة إلى مدينة أيضا.

كذلك أقام السلطان ويقم العمارات فى أكثر الولايات، ويجرى فيها الأنهار والقنوات. وإذا شرعنا فى تفصيل ذلك، فسوف يؤدى هذا إلى التطويل. وإن ما أمر به بموجب أحكام القرمات، وشروط الأوقاف، وبمشاركة وكلاء الديوان من استصلاح الأملاك الأميرية وتشيد الأبنية ليس له حد.

وفى عهده المبارك، ونتيجة لعدله الشامل، سارعت الآلاف المؤلفة من الناس إلى مشاركته، وشغلوا بتشيد المباني، حتى أن ما أقاموه هم أنفسهم يزيد مائة مرة على ما أقامه السلطان بنفسه. وكل بستان أو دار، كان ثمة قبل هذا مائة دينار، أصبح فى الوقت الحالى يساوى ألف دينار. وهذا على حين أنهم قبل هذا [ص ٤١٣] كانوا يعملون إلى التخریب أكثر مما يعملون فى التعمير. وفى الحقيقة إن العمارات التى تنشأ الآن فى البلاد، لم ينشئ مثلها ملك قط بعد عهد الأكاسرة. ومن العجيب أنه إذا كان الناس فى عهد الأكاسرة قد شغلوا أيضا بالتعمير بهذا القدر فإن البلاد كانت عامرة تماما فى ذلك الوقت. ومع هذا عمرت خلال سنوات عديدة. وحيث إنه أيضا فى ذلك الوقت، لم يكن موجودا مثل هذا الخراب الموجود حاليا، فأى عمارات إذن كانوا مشغولين بتشيدها فى تلك الأيام؟

أما مدينة تبريز التى هى الآن عاصمة البلاد، فقد كان لها سور صغير اندرس أيضا وتوجد خارج المدينة منازل وعمارات كثيرة، فقال السلطان: كيف يجوز أن مدينة يسكنها الآلاف العديدة من الناس، وهى فى الوقت نفسه دار الملك، ولا يبنى لها سور؟ وعلى الفور أشار باتخاذ الإجراءات حتى يمكن تحديد المكان والكيفية التى يبنى بها السور.

ولما كانت الخدائق والبساتين تتصل بالمدينة، كان من الضروري أن يقع بناء السور بين أملاك الناس المعمورة. وهنا عرض مستشارو السلطان قائلاين: حيث إن السكان فى تبريز من الغرباء والمقيمين الذين لا حصر لهم، وأكثرهم من الأثرياء، يقسم السور إلى أقسام حتى

وظيفة	مرتبات
مرتب المشرف الذى يقوم بمهمات دار السيادة، والذى يؤدى الخدمة للسادات بمقتضى شرط الواقف.	الخدم والطهارة والعمال الآخرين الذين يقيمون هناك.

(٦) المرصد

إضافات	معاشات
الفرش والتخطيط، وشن الشمع المذاب والبنذور والعطر.	المرتزقة من مدرسى العلوم الدينية والمعبدن والمتعلمين والخزنة والنسولين وسائر العمال.

إصلاح
وترميم الآلات وأدوات الساعات
والمرصد، وتلك التى تصلح
للاستعمال.

[ص ١٩٤] (٧) دار الشفاء

إضافات	مصالح
الفرش والتخطيط، وشن الشمع المذاب والبنذور والعطر والآلات الخرفية.	الأدوية والأشربة والمعاجين والمراهم والكحل والحساء الخفيف وثياب النوم وملابس المرضى.

مرتبات	تجهيز
المرتزقة من الأطباء والكحاليين والجراحين والخزنة والخدم وسائر العمال.	الأموات الذين يتوفون هناك.

(٨) دار الكتب

إضافات	مصالح
الفرش والتخطيط، وشن الشمع المذاب.	إصلاح الكتب وترميمها، وسداد شن الكتب الضرورية.

(٩) دار القضاء

إضافات	مصالح
الفرش والتخطيط، وشن الشمع المذاب والبنور.	نفقات إعداد القوائم ونسخها وتجهيدها.

(١٠) بيت المتولى

مرتب مخصص لأحد البوابين حسب ما هو مقرر.

(١١) دورة المياه [ص ٤٢٠]

مصالح	جراية
الشمع المذاب والبنور والعطر والأباريق والجرار والأباريق والدنان والأكواز.	مخصصة لقراش واحد قائم بالخدمة.

(١٢) حمام السبيل

مصالح	جرايات
الآز والدلاء والعطر والمصابيح والمساحات والنجارف والحطب ووقود موقد الحمام.	العمال من الحمامي والدلاك وحارس الملابس والوقاد.

حرف

(١٣) ما يذكر من ملحقات وتوابيع أبواب البر

مصالح

الطعام الخارجى فى جوسق العادلية الذى يقدم إلى أمراء المغول والتنازلك والأشخاص الذين يجيئون إلى هناك إذ إنهم عند زيارتهم يقصدون ذلك الجوسق، ويأكلون هذا الطعام.

ما يحتاج إليه الطعام الذى يصرف كل يوم، وإضافة الفرش والتخطيط وأدوات المطبخ ولوازم دار الشراب وشن الشمع اللذاب.

مصالح

الوليمة التى يقيمها الواقف شكر الله سعيه كل سنة فى اليوم الذى يحدده بشرط أن يجتمع المجاورون فى البقاع المذكورة والأئمة والأعيان والمستحقون فى ترميز وغيرهم ممن يجيئون إلى هنا ويحتمون القرآن ويتناولون الطعام ويعطون الصدقات المخصصة لذلك اليوم.

[ص ٤٢١] جرابات

العمال من الطهارة والمتعهدين بشراء ما يحتاج إليه، والسقاة والخزنة وبقية فئات العمال هناك.

مصالح

الحلوى التى تقدم فى ليالى الجمعة يرسم أهل المسجد والخانقاه والمدارس وملاجئ الأيتام، بالإضافة إلى ما تعين صرفه على حدة فى القبة العالية بمقتضى التفصيلات المنصوص عليها فى السجل.

ما يحتاج إليه صدقة

الطعام المذكور الذى يصرف فى هذا اليوم.

(١٤) نفقات العيدين

والأيام والليالي المباركة من عاشوراء وليلة القدر وغيرها مدرسة

الأيام البالغ عددهم دائما مائة يتيم يدرس لهم القرآن

هدية

وجوه الإتفاق

مائة مصحف جديد تشتري كل سنة.

السنية، وتقديم العيديه لمائة طفل
يكونون قد حفظوا القرآن الكريم،
ويعملون بالسنة، ثم يحضرون بدلا
منهم أشخاصا آخرين.

إضافات

مرثيات

الفرش وإعداد المكتب، وما تدعو
الحاجة إليه.

خمسة معلمين وخمسة رقباء يلزمون
الأطفال، وخمس من النسوة يقمن على
رعايتهم.

[ص ٤٢٢]

(١٥) للمستحقين

شراء ألفين من فراء الكتف المصنوع من فرو الخروف وذلك كل سنة، وتقديمها إلى
المستحقين.

(١٦) الإشراف على تربية

الأطفال اللقطاء الذين يلتقي بهم في الطريق، فهؤلاء يؤخذون وتدفع أجور الممرضات
وما يحتاجن إليه حتى يبلغ هؤلاء الأطفال سن الرشد.

(١٧) تجهيز

ودفن الغرباء الذين يموتون في تبريز، ولم يكونوا يملكون تركة تقى بدفنتهم.

(١٨) الحبوب

التي تلتقطها أنواع الطيور في أشهر الشتاء السدة عندما تشتد البرودة وينزل الثلج، فينثر القمح والجاورس (الدخن) مناصفة على الأسطح ولا يصطاد أحد هذه الطيور. وكل من يقصدها بسوء، تحمل عليه لعنة الحق تعالى وسخطه. وعلى المتولى وسكان تلك البقاع أن يمنعوا المعتدين ويردعوهم، وإلا يكونوا آثمين.

(١٩) للأرامل

الفقيرات اللاتي يصرف من القطن كل سنة، ليكون رأس مالهن؛ على أن تمنح كل واحدة من الأرامل البالغ عددهن خمسمائة أرملة، أربعة أمان من القطن المخلوج.

(٢٠) عوض

الأواني الفخارية والكيزان التي يكسرها الغلمان والجواري والأطفال فينصب متول أمين في مدينة تبريز، حتى إذا ما أرادت تلك الفئة نقل الماء، وانكسرت أوانيهم، ويغشون عقاب ساداتهم؛ فإن ذلك المتولى يعوضهم عنها بعد أن يتحرى الحقيقة.

(٢١) بخصوص

[ص ٤٢٣]

تنظيف الطرق من الأحجار، وإقامة القناطر على التهرات ابتداء من مدينة تبريز إلى مسافة ثمانية فراسخ من المناطق والجوانب المحيطة بها وذلك على النحو المفصل في السجل.

(٢٢) مرثيات

النواب وعمال ديوان أوقاف البر المذكورة والمسماة "الأوقاف الخاصة" وذلك بموجب شرط الواقف خارج أعمال الولايات والمواضع.

(٢٣) نفقات

عمارة القبة العالية وأبواب البر بأضلاعها الاثنتى عشرة، وكذلك جوسق العادلية الذي أنشأه أرغون خان بموجب شروط الواقف المنصوص عليها في الوقفية المباركة.

(٢٤) نفقات عمارة

أحكام الأوقاف، والتي أسبل زرعها من الضياع، والعقار والأراضي المستغلة المتعلقة بأبواب البر المذكورة في كل ولايات الممالك، حيثما وجد شيء منها بمقتضى شرط الواقف.

وحيث إن المهمة المباركة قد اقتضت أن يستفيد أكثر أصناف الخلق من هذه الخيرات ومن أبواب البر كذلك حسب الشروط المعينة أوقف غازان على هذا كله ما كان يمتلكه شرعاً؛ فهو حقه المطلق وملكه المطلق بطريقة لا يمكن أن تتيح مجالا لأي طاعن للاعتراض عليها. وقد قطع بصحتها جميع المفتين وثقات العلماء الكبار وقضاة الإسلام. ثم أمر بكتابة سبع نسخ من تلك الوقفية، وتسجيلها كلها؛ بحيث تكون واحدة منها في يد المتولى والثانية في الكعبة والثالثة [ص ٤٢٤] في دار القضاء بدار الملك تبريز والرابعة في دار القضاء بمدينة السلام ببغداد. أما الخامسة والسادسة والسابعة فتحفظ في السجلات. وبعد كل مدة يجدد الشهادة عليها قضاة بغداد وتبريز. وعلى كل قاض يتقلد منصب القضاء أن يبادر بتسجيلها فور جلوسه على مسند القضاء. ثم أمر بأن يسكن ويتوطن أبواب البر المذكورة الجماعة الذين هم أفضل وأكمل أهل العصر، وأن يظلوا ملازمين لها.

كذلك شيد السلطان "عائقاء" كبيرة في ولاية همذان على حدود سفيدكوه في قرية بوزينجر، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة؛ بحيث إنه صار المغادرون تلك الخاتقاء أو القادمون إليها في راحة تامة بسبب تمتعهم بتلك الخيرات كما يشاهد الجميع.

مأثرة أخرى للسلطان هي أنه في كل ولاية حل بها، وراوده أمل، وعن له مراد، ومستة حاجة مستترة، لجأ في الحال إلى حضرة الحق، وأقضى إليه بسرّه، والتم نذراً، وأدى صدقة. وعندما هزم جيش مصر، وجلس على عرش السلطنة في دمشق، وفي بعده نذور كان قد نذرهما إبان زحفه على تلك البلاد، بعضها في هذه الممالك، وبعضها في تلك الممالك (أي ممالك إيران). وأحد هذه النذور كان لغير سيف الله خالد بن الوليد - رضى الله عنه - حيث دارت المعركة في تلك المنطقة وكان هذا النذر عبارة عن قناديل ذهبية ومعدات ومفروشات سلمها أيضاً إلى المشرفين على المقبرة. كذلك نذر نذراً آخر وذلك بأن وقف عدة قرى من أعمال دمشق على بيت المقدس ومشهد إبراهيم الخليل صلوات الله عليه.

وقد لاحظ أن ملوك مصر والشام كانوا يتفقدون ربع أوقاف الحرمين وسبيل الحجاج في أغراض تتعلق بتصرف مصالح الجيش والديوان وكاتوا يجهزون صرفها بفتاوى تأويلية، ولم يكن ذلك مجازاً في الحقيقة. ولهذا نذر أيضاً أن تصرف أموال هذه الأوقاف في الأغراض التي خصصت لها، وقال في هذا الشأن: حيث إن الحق تعالى وهب لي هذا الملك، ينبغي أن تصرف ربع كل تلك الأوقاف والأراضي التي أسبل زرعها في وجهها الصحيح، وألا تصرف قطعاً في الإنفاق على الجيش والديوان. ثم صرح قائلاً: إن هذه المملكة تحت تصرفنا الآن. وعندما تعود [ص ٤٢٥] سوف نترك جيشاً مجهزاً تاماً للمحافظة عليها. وإن نية الخير التي كنت قد أقدمت عليها، يجب أن تخرج إلى حيز التنفيذ.

ثم أصدر فرماناً فيما يتعلق بآبواب البر هذه. وقد نذر في هذه البلاد أن يصرف مبلغ عشرين تومانا من الأموال من ربع أملاكه الخاصة، وذلك على سبيل الإدرار والوقف والصدقة والإنعام على جماعة من الأمراء والرعايا والشرقاء والأثرياء والفقراء والجند الذين يجتمعون كل عام في مجلس الشورى (القوريلتاي).

وبعد عودته وفي بذلك النذر، وخلع على كل طائفة وجماعة - على قدر مراتبهم - خلعا كانت عبارة عن أحزمة مرصعة وغير مرصعة وملابس متنوعة. ونذر أيضاً عشرين تومانا ذهبياً على سبيل الإدرارات والصدقات. ولا تزال هذه الصدقات تصرف حتى الآن وتنفذ في كل ولاية سنة بعد أخرى. وفضلاً عن ذلك أمر بأن يستقطع من كل الأموال التي يؤتى بها إلى الخزانة دينار واحد من كل عشرة دنانير، وثوب من كل عشرة أثواب وعشر من كل صنف من الأصناف الأخرى. ثم تودع هذه الأموال لدى المشرفين على القصر الذي يعين لهذه المهمة، وليكون خازناً لتلك الأموال، ويتولى توصيلها دائماً إلى الفقراء والمستحقين. أما الشخص غير المستحق، فلا يعطيه شيئاً منها، وتعاد إلى الخزانة الأصلية. وأمر أيضاً بأن ترسل في كل عام الستائر والشمعدانات والقناديل إلى الأضرحة المباركة. وكان السلطان يسر دائماً إلى الحق تعالى بحاجته، وهو متأكد - دون أدنى شك - من أن حاجاته مقضية لدى الحضرة الإلهية بفضل الخيرات والصدقات والنذور. ولا يضيع أجر ذلك أبداً. ولا شك أن أي مخلوق لم ير في أي عصر، ومن أي سلطان مثل هذه الخيرات الكثيرة والمبرات والإنعامات والإدرارات والصدقات الجارية.

فليمتح الحق جل وعلا هذا السلطان العادل الكريم مزيداً من التوفيق على هذه الخيرات وليوصل بركاتهما ومثوباتها إلى أيامه المباركة.

الحكاية الرابعة عشرة

فى القضاء على الوثائق المزورة والدعاوى الباطلة ودفع^(١) خيانة من لا أمانة لهم وغير المتدينين

إن سلطان الإسلام خلد سلطانه لكمال عدله، أزال أنواع الوثائق المزورة والادعاءات الباطلة، ومنع طائفة القضاء والخطباء الذين لم يكونوا على علم تام بالعلوم الشرعية من تحرير القبالات والوثائق، وكلف جميع القضاة بأن يحرروا القبالات بطريقة واحدة؛ بحيث تراعى جملة الدقائق الشرعية، حتى تغلق أبواب المنازعات بين الناس. وحيث إن شرح تلك الأمور مدون بوضوح تام ضمن الأحكام والقواعد نكتب نصوص تلك المراسيم كي نعلم المقصود منها، ولا نكرر الكلام عنها.

تلك الأحكام والقوانين نفصلها فيما يأتى:

مرسوم بخصوص تفويض القضاة النظر فى شئون القضاء.

مرسوم بخصوص عدم إعادة النظر فى القضايا التى مضى عليها ثلاثون عاما.

مرسوم بخصوص إثبات ملكية البائع قبل البيع.

مرسوم بخصوص تأكيد الأحكام السابقة وتسهيل الشروط اللاحقة.

مرسوم بخصوص قانون الوثائق الذى اتفق عليه جميع أئمة العصر.

ومضمون كل مرسوم من المراسيم المذكورة، يكون على هذا النمط الذى نكتبه فيما

يلى:

(١) دفع الشيء: شغاه وأزاله بقوة. يقول الله تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم بعضا لقضت الأرض﴾.

(انظر المعجم الوسيط، ج ١، ص ٢٨٩).

مضمون المرسوم بشأن تفويض القضاة

بسم الله الرحمن الرحيم

مرسوم السلطان محمود غازان

[ص ٤٢٧]

ألا فليعلم الحكام والملوك والأشخاص الذين كانوا حكاما فى الولايات الفلانية قبلنا، أننا قد عينا فلانا قاضيا لتلك الولاية وتوابعها، حتى تعرض عليه كل قضية أو أمر أو مهمة ليحكم ويقطع فيها برأى، ويحافظ جيدا على أموال البشامى والغائبين. ومحظور على أى مخلوق كائن من كان أن يتدخل فى عمله. والشخص الذى يزج به فى السجن الشرعى لا يطلق سراحه أى مخلوق، ولا تغالقه الجماعة التى يعهد إليها بالقيام بالمهمات والشئون الشرعية.

ولما كان حكم المرسوم الأعظم لجنكيز خان يقضى بأن القضاة والعلماء والعلميين لا يدفعون الرسوم والضرائب، أمرنا بأن يعفى هؤلاء بناء على هذا من دفع الضرائب، وألا يأخذ الحكام منهم شيئا أو دواب البريد، ولا يمتزلوا فى منازلهم، ولا يسمحوا للرسول بدخولها، وأن يدفعوا لهم مستحقاتهم دون تقصير. وسنة بسنة. وكذلك معاشاتهم طبقا لما ورد فى التوصيات والسجلات. وقد أمرنا شحنة الولاية بأن يجازى كل من يتفوه بكلام عنيف أو يجيب إجابة غير لائقة أمام القاضى، أو يحاول أن ينتقص من حرمة.

مسألة أخرى هى أنه لا ينبغي أن يطالب أى مخلوق القاضى بالحضور عنده. وإذا بت القاضى فى أمر من أمور الشريعة بناء على ما قدمه من دلائل ومستندات، فإن عليه ألا يتقاضى [ص ٤٢٨] شيئا من أى مخلوق فى مقابل ذلك مهما كانت الأعذار والعلل. وإذا كتب وثائق جديدة، فإن عليه طبقا لحكم المرسوم الذى أصدرناه على حدة أن يحضر الوثائق القديمة إلى "طاس العدل"^(١)، ويرميها فيه حتى يحورها، وتزول كتابتها، ولا يستمع للدعاوى القديمة التى لم يبت فيها منذ ثلاثين سنة، ولا يهتم كذلك بالوثائق القديمة التى دونت قبل ثلاثين سنة، وذلك بمقتضى حكم المرسوم والشرط الذى نصصنا عليه على

(١) طاس العدل عبارة عن وعاء كبير مملوء بالماء تلقى فيه الوثائق الخطية كى صحن وتلف.

حدة في هذا الباب. وعندما يحضرون إليه مثل هذه القبالات القديمة لا يعطيها الخصوم والمنتازعين، بل يفسلها في طاس العدل.

مسألة أخرى هي ألا يستمع لقضية المزور المدلس. والشخص الذى يقدم على ذلك تخلق لحيته، ويحمل على ثور، ويظاف به فى المدينة، ويعزر تعزيراً^(١) تاماً. وبعد هذا لا يدون له محضر. وإذا دون لا يؤخذ به، ولا يلتفت إليه.

ومسألة أخرى وهي أنه إذا مثل خصمان أمام القاضى، وجاء كلاهما فى حماية أحد الأشخاص، أو أنهما أحضرا معهما إلى دار القضاء جماعة من ذوى النفوذ بقصد الوقوف إلى جانب الخصمين أو أحدهما، ومحاولة الضغط والتأثير على القاضى، فإنه فى هذه الحالة لا يستمع لقضيتهما، ما لم يغادر هؤلاء قاعة المحكمة. وقطعا لا ينظر القاضى فى القضايا الشرعية ما دام حماة الخصوم حاضرين.

مسألة أخرى بخصوص الدعوى بين اثنين من المغول أو بين مغولى ومسلم. وبخصوص القضايا التى يصعب القطع والفصل فيها قال السلطان: لقد أمرنا بأن يجتمع يومين فى كل شهرين الشحن والملوك والكتاب والقضاة والعلماء فى المسجد الجامع بديوان المطالعة حيث يستمعون إلى الدعاوى ويتعمقون فى فحصها. ثم يفصلون فيها طبقاً لأحكام الشريعة، ويكتبون محضراً، ويدونونه فى السجلات. ثم يوقعون بشهادتهم على صحة ما كتبوه؛ [ص ٤٢٩] حتى لا يكون بعد ذلك مجال لظن أى مخلوق، ولا يستطيع إبطال ما أيرم.

مسألة أخرى تتعلق بالعقار الذى يدور حوله كلام وادعاء وينشب شجار ونزاع، فإنه لا تتدخل بشأنه أمهات الأحفاد ولا الخواتين والأبناء والبنات والأصهار، وأسراء التومان والمزارع والصدع والدهه (أى قواد الكتاب المكونة من عشرة آلاف وألف ومائة وعشرة)

(١) يقول للاوردى عن التعزير: "التعزير تأديب على ذنوب لم تشرع فيها الحدود. وأما صفة الضرب فى التعزير فيجوز أن يكون بالعصا والسوط. ويجوز فى نكال التعزير أن يجرى من ثيابه إلا قدر ما يستر عورته ويظهر فى الناس وينادى عليه بذنبه إذا تكرر منه ولم ينب. ويجوز أن يخلط شره ولا يجوز أن تخلط لحنه. واختلف فى جواز تسويد وجوههم فبجوزة الأكثرين، ومنع منه الأقلون (الأحكام السلطانية ص ٢٣٦ - ٢٣٩ بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م).

وكذلك المغول الكثيرون وكتاب الديوان الكبار والقضاة والعلويون والعلماء والشيوخ والرؤساء، فلا يشترطون هذا العقار. وطبقا للمرسوم الذى أصدرناه يحتاط القاضى الفلانى احتياطا بليغا، فلا يحرر قبالة باسم هذه الجماعات المذكورة، وذلك فى حالة كل عقار أو معاملة تكون محل خلاف ونزاع. وإذا رأى شخصا آخر يحرر هذه القبالة، فإن عليه أن يمنعه.

مسألة أخرى بخصوص الصداق (المهر) الذى يؤخذ عند الزواج قال السلطان: "تقد قررنا قبل هذا أن يكون الصداق "تسعة عشر دينارا ونصف دينار"^(١)، ولا يؤخذ أزيد من هذا الصداق.

مسألة أخرى تتعلق بالولاية التى تتبع القاضى فلان، وينظر فى قضاياها. تبحث هذه القضايا فما كان منها بعيدا عن المدينة فى هذه الولاية، ومن المناسب أن ينصب لها قاض للنظر فيها، يعين قاض ثقة هذه المدينة، ويؤخذ منه الحكم على النحو المذكور. وعليه فى كل شهر أن يتخذ سبيل الاحتياط عند النظر فى شئون المتقاضين كى يحافظ على طريق الشريعة وغيرى الصديق، وذلك بموجب المرسوم الذى أصدرناه حتى لا يكون غافلا عن ذلك، وأن يأذن بتحرير القبالات، وينفذ حكم الشرع، وترسل إليه نسخة فى كل شهر. أما النواحي الداخلة فى نطاق القرى، ونصب لها قاض، فإنه ليس له حق النظر فى الدعاوى والقضايا، ولا يحكم فيها، ولا يدون سجلات العقارات. [ص ٤٣٠] كذلك لا يحرر ورقة أخرى قط فيما عدا ما يتعلق بقراءة الخطبة، وصكوك القروض ووثيقة الصداق. وإذا تصادف أن وجدت قضية معقدة أو دعوى خطيرة، فعلى القاضى أن يأتى إلى المدينة ويعرضها على قاضيه كى يفصل فيها.

مسألة أخرى: ينبغى أن يعين رجل ثقة متدين ليحرر تاريخ الوثائق، ويكون له سجل وعليه أن يحتاط احتياطا تاما عندما يحاول شخص آخر أن يفعل ذلك. وهذا الشخص المخالف تخلى لحيته ثم يظاف به فى أغماء المدينة. كذلك إذا عرف مسجل التواريخ شيئا عن هذه القضايا وفهمه، لكنه أخفى الحقيقة، فإنه يكون أشما، ويستحق الإعدام.

تحريرا فى التاريخ الفلانى. والسلام.

(١) اختلف أهل العلم فى المهر فقال بعضهم: للمهر على ما تراضوا عليه، وهو قول سفيان الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق. وقال مالك ابن أنس: لا يكون المهر أقل من عشرة دراهم. (انظر سنن الرمذى، ج ٢، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ص ٣٩٠، المدينة المنورة، بدون تاريخ).

نص المرسوم المتعلق بعدم النظر فى القضايا التي مضى عليها ثلاثون عاماً

بسم الله الرحمن الرحيم

بقوة الله تعالى وميامن الملة المحمدية

فرمان السلطان محمود غازان

فليعلم قضاة البلاد أن كل همتنا مصروفة ومقصورة على أن نرفع عن الخلق الظلم
والتعدي والادعاءات الباطلة والخلافات والنزاعات وأن يمضى العالم والعالمين وقتهم، وهم
فارغو البال، فارغو الحال، وأن تصل آثار عدلنا إلى الخاص والعام والبعيد والقريب، وتصير
عامة شاملة، وأن يقضى على مواد الخلاف والنزاع من بين جمهور الخلائق وأن توضع
الحقوق فى موضعها، وتغلق نهائياً أبواب التزوير والتزويه والاحتيال. ولهذا السبب أرسلنا
مراراً المراسيم إلى جمهور القضاة والعلماء الذين تقلدوا الأمور الشرعية، وتصعدوا للأشغال
الدنية حتى يفصلوا فى الدعاوى، ويقضوا على الخصومات بين كافة الخلق على نحو يكون
متفقاً مع مقتضى قواعد الشريعة، وموجباً لقوانين العدل. ويمكن أن يكون خالياً من
الشوائب والتزوير والمداينة [ص ٤٣١] والميل والهووى. ومن بين ما هو أهم وأجدر أن
يمعنوا النظر فى المحاضر المزورة والصكوك والسجلات الموهمة، ويتقصوا حقائق الأمور
والأحوال ويصلوا إلى غورها.

وإذا ما بدت على تلك الحجج مظاهر قدم العهد، ولم يراع ذلك جيداً القضاة والحكام
السابقون فإن على القضاة الحاليين الحذر التام؛ بحيث لا يتهاونون بدقة واحدة فى اتخاذ
شروط الاحتياط. وكذلك فيما يتعلق بالحجج التي مضى عليها ثلاثون سنة ولم يست فيها
واعتبرها كل مزور ومغرض سنداً وحقاً مكتسباً، وصار يعتب الناس، ويشق عليهم، ولم
يستطع القضاة تدارك ذلك رغم الشروط المنصوص عليها. وكذلك قبل هذا فى عهد
السلطين السابقين ذكر فى كل فرمانات والمراسيم، ألا يستمع إلى الدعاوى التي مر عليها

ثلاثون عامًا. ورغم هذا فإنه حتى الآن لم يتفد هذا الشرط، ولم يصلوا إلى كنه الموضوع ولم يتداركوا ذلك تداركًا كليًا. أما في هذا العهد فقد تفحصنا هذا الأمر من قضاة الإسلام فعرضوا علينا بالحق والصدق حقيقة الأمر. وحيث إننا أردنا أن نحكم تلك الأمور بين المتخاصمين وبين القضاة من جهة أخرى، حتى لا يستطيع أحد قط أن يصر على الباطل ولا يستطيع أن يقنن الحجاج القديمة الباطلة التي مضى عليها ثلاثون سنة. ولتلافى هذا أشرنا على قضاة الإسلام بأن ينظروا في الوثيقة التي تناسب الشرع والصدق. وحتى لا يحيد شخص قط عن الحق، ولا يستطيع أيضًا جماعة الأقوياء المستبدين الإلحاح والتأثير عليهم؛ وذلك بأن يسألوا أسئلة مضلة وغير مشروعة، ولا يستطيعون أن يشقوا على القضاة والأئمة. ولقد كلفنا المرحوم السعيد القاضي فخر الدين المراتي بأن يدون صورة الحجة وأن يكتب على ظهرها ذلك المرسوم؛ بحيث لا تطرأ زيادة أو نقصان على ما هو مقرر. ثم نحضر هذه النسخة إلى الخزانة لتكون نصب أعين المسؤولين. والغرض من هذا فرمان وتلك الوثيقة المسطر على ظهرها المرسوم أن تكون دليلًا للخاص والعام، فيخشى الجميع التحريف والتبديل، ولا يستطيع الأقوياء المستبدون الإلحاح على القضاة كي يتركوا الدعاوى الباطلة والمتنازع عليها، ولا يحوموا حول كل ما هو خارج عن هذا الحكم وتلك الحجة المنصوص عليها في ظهر الوثيقة. وإذا خالف القضاة ذلك عزلوا من مناصب القضاء ويكونون أشبه إلى أن يعرفوا الحقيقة. وأنا لن أستمع إلى أى عذر منهم. وإذا ألغ عليهم شخص قوى مستبد، وأصر على رأيه، ولم يراع [ص ٤٣٢] القضاة هذه التعليمات المدونة على ظهر الحجة ولا يحكمون بموجها، فعلى المسؤولين أن يكتبوا أسماء هؤلاء المستبدين ويرسلوها إلينا كي نعتبر هؤلاء الأشخاص مذنبين ونعاقبهم ليكونوا عبرة للعالمين.

كتب في الثالث من رجب الأصم في سنة تسع وتسعين وستمئة (١٢٩٩هـ - ١٢٩٩م) في موضع "كشف".

نص الوثيقة التي كتبت على ظهر المرسوم المذكور

لما كانت الفحة العالية والرأى السديد لملك العالم والعالمين وملك ملوك الإسلام والمسلمين، المخصوص بعناية الرحمن، غازان خان لا زالت دولته الحالية متمتعة بالدوام آخذة في الزيادة، غير بالغة النهاية. ومنذ بدء ظهور دولته، وهمته مقصورة ومصرفة إلى أعمال الخير والبر، وعنان عنايته وعاطفته موقوفة ومعطوفة نحو إصلاح حال الرعية؛ بحيث إنه في عهد دولته وزمان حكمه وسيطرته، يمضى العالم والعالمين أيامهم، وهم فارغو البال مرفهو الحال. وإن أثار كمال عدله ونخائل وفور عاطفته ومرحمته لتشمل الخواص والعوام والبعيد والقريب والترك والتازيك. كذلك تنحسم بل تزول مواد الخلاف والتزاع من بين جمهور الخلق في كل المعاملات، وتستقر الحقوق في مواضعها، وتسد أبواب التزوير والمكر والاحتيال سدًا نهائيًا.

ولهذا السبب توجه السلطان بمخاطبة جمهور القضاة والعلماء الذين يتقلدون الأمور الشرعية، ويتصدون للأشغال الدينية، وذلك في مضامين المراسم السلطانية ومدلولاتها والمختومة بالأختام المباركة لا زالت نافذة في مشارق الأرض ومغاربها. فالسلطان في حديثه إلى هؤلاء يحثهم على أن يفصلوا في القضايا، وينهوا الخصومات بين عامة الخلق حسب ما تقتضيه قواعد الشريعة، وتوجه قوانين العدل والإنصاف، حتى يمكن أن يكون حكمهم مقدسًا وبعيدًا عن شوائب التزوير والتمويه والميل والهوى والمداعنة. ومن جملة ذلك أيضًا عليهم أن يمعنوا النظر في المحاضر المزورة والصكوك والسجلات الموهمة، ويكشفوا عن حقيقتها ويوصلوا إلى غور الأمور بقدر الاستطاعة والقدرة [ص ٤٣٣].

وإذا ما بدا على تلك الحجج مظهر قدم العهد، فإن على القضاة الحاليين - على سبيل حسن الظن بالقضاة والحكام السابقين - ألا يهملوا دقيقة قط من شروط الاحتياط ومراسمه، والتحقيق والتفتيش، فلا يعولوا على تلك الحجج؛ إذ إن كثيرًا ما يحدث أن يمتلك شخص عقارًا أنشأه وأحدثه أو أنه آل إليه عن شخص آخر. وقد دونت وثائق وحجج شرعية تدل على ملكيته واستحقاقه. وبناء على حكم القضاة وحكم الشرع صار

العقار مؤكداً ومسجلاً. وبعد مدة مدبرة انتقل منه إلى غيره بناء على حكم شرعى، ثم انتقل من ذلك الشخص إلى آخر، وهلم جرا. هذا على حين أن تلك الحجج بقيت فى منزل المالك الأول. ثم مضت إلى أبدى عدد من الورثة. وبعد مدة طويلة وعهد متكامل ينتهز أحد الورثة هذه الفرصة، ويظهر تلك الحجج ويحتج بها قائلاً إنه فى التاريخ الفلانى، كان هذا العقار ملكاً لجدى، واليوم آل إلى بحكم الإرث. ثم تشهد جماعة بتأثير جماعة أخرى على صحة استحقاقه. وبذلك تطول بينهم المنازعات والمجادلات، الأمر الذى يترتب عليه أن بعض القضاة فى بعض الولايات ممن لم يكن لهم قدم راسخة ونصاب كامل من الدين والتقوى وعلم الفقه والفتوى لا يصلون إلى غور الأمور، ولا يميزون بين الحق والباطل. ويمكن أن يصدروا حكماً يؤدى إلى ضياع حقوق المستحقين.

بناء على هذه المقدمات فإنه قبل هذا، حكم السلاطين السابقون - سقى الله ثراهم وجعل الجنة مثواهم - متجنبين أمثال هذه الاحتمالات بحيث إنهم لا يسمعون ولا يعتمدون على القضايا التى مضت عليها مدة ثلاثين سنة، وهى التى يطلقون عليها "جبالاً واحداً" ولا يصدرون حكماً قبل اتخاذ الحيلة والتحرى. ومن بعد هؤلاء السلاطين صدر مرسوم الإلهام الأعظم أرغون خان، يقضى بتنفيذ تلك الأحكام.

وحيث إنه كان يرجع فى هذا الخصوص إلى أقوال الأئمة واجتهاد العلماء، علم أن جمعاً صغيراً، وآخر كبيراً من الأئمة والعلماء [ص ٤٣٤] قد اتفقوا واتخذوا فى الرأى على أنه إذا كان هناك شخصان فى مكان واحد، وكان أحدهما متصرفاً فى عدة ضياع. وكان يوجد فى ذلك الموضع حاكم عادل وقاض نافذ الحكم، ولم يكن هناك مانع أو وازع آخر من إقامة الدعوى وإظهار الاستحقاق، ومضى على ذلك ثلاثون سنة كاملة، ولم يدع أحدهما على الذى كان متصرفاً وواضعاً يده على العقار، ولم يتمكن بعد ذلك من إقامة الدعوى فإن القاضى فى هذه الحالة لا يستمع لدعواه ولا يقبلها. وقد نص على هذا صراحة بقوله: "والآن أنا القاضى فلان، وحاكم الشرع فى الولاية الفلانية قد حررت هذه الوثيقة، وتعهدت بأن أنفذ من بعد هذا التاريخ كل ما هو مسطور فى هذه الرقعة وألا أتجاوز ولا أحيد عن الاستماع إلى الدعوى، والفصل فى المرافعات والبت فى الخصومات بما يقتضيه الشرع المحمى، وأن أجد وأجتهد بقدر المستطاع والإمكان، وبذل أقصى

الغاية والنهاية في تحرير الدعاوى وتنقيحها، وتفتيش الحجج والوثائق الشرعية وتحقيقها ولا أسمع أى شكوى تعرض بعد مدة ثلاثين سنة بتلك الأوصاف التي سبق ذكرها، ولا أعيرها التفاتاً، ولا أهتم بها. وإذا ما خالفت شرطاً من هذه الشروط، فإني أصير مستوجباً الزجر والتأنيب، ومستحقاً الضرب والعزل. وقد أشهدت على هذا جماعة من العدول والثقات، وذلك في تاريخ كذا.

نص المرسوم بخصوص إثبات ملكية البائع قبل البيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بقوة الله تعالى وميامن الملة المحمدية

فرمان السلطان محمود غازان

فليعلم الحكام والملوك والقضاة والكتاب والنواب والأئمة والأعيان والسراة والوكلاء وجمهور رعايا الولايات أنه بموجب نص قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾^(١)، وقول المصطفى صلوات الرحمن عليه: "عدل ساعة خير من عبادة أربعين سنة"^(٢)، تكون كل همتنا وعزيمتنا [ص ٤٣٥] ورأينا السلطان مصروفاً إلى رفاهية عموم الخلق. وإن إرادتنا هي أن ينتشر في العالم عدلنا وإنصافنا، وألا يستطيع أى قوى أن يظلم ضعيفاً ويضطهده، ولا يظلم حق أى مستحق بطريق الاحتيال وأنواع التدليس والتزوير، وأن تزول أنواع المنازعات من بين الخلق.

(١) الآية بأكملها: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ تُنْزَلُ الْحِسَابُ﴾ (سورة ص، آية ٢٦).

(٢) وردت صيغة هذا الحديث على هذا النحو: "عدل يوم واحد أفضل من عبادة ستين سنة". رواه الديلمى عن أبى هريرة، وأسنده من طريق أبى نعمان باللفظ: "عدل حكم ساعة خير من عبادة سبعين سنة". (انظر كتاب كشف الحفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على لسان الناس للمفسر المحدث الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوانى الجراحى، ج ٢، ص ٥٨، دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٣٥٢هـ).

ولما كنا نفكر في شئون الإدارة والإعداد والترتيب ووضع قاعدة لكل أمر، تبين لنا أن واحداً من جملة معظمات الأمور وأنواع المنازعات والخصومات بين العالمين هو الادعاء الباطل بسبب القبالات القديمة والصكوك والأملاك الأصلية الخالصة المكررة التي تبقى في يد كل شخص. وتوضح ذلك أن شخصاً يمتلك عقاراً، ولمصلحته أعد قبائته من نسختين أو أنه يمتلك أملاكاً كثيرة، هباً لها وثيقة جامعة جعلها من نسختين؛ بحيث يمكن بعد ذلك أن تقسم التركة بين ورثة ذلك الشخص، ثم تنتقل تلك الأملاك إلى أناس آخرين مختلفين عن طريق البيع والانتقال. ثم يمر عليها زمن، وتبقى تلك المجموعة من القبالات والصكوك والأملاك الخالصة الأصلية أو بعض منها في يد البائع أو ورثته. ولكن بعد مدة لعدم أمانة هذا البائع راح يدعى أنه لا زال يمتلك هذه العقارات. ولا شك أنه فكر في هذا الأمر طويلاً، وعرف على أى نحو يقيم دعواه، وكيف يخرس الشهود على إثبات أحقيته. ولقد مهر في ذلك وأحكم خطه واختلق ألف شعوعة وحيلة. ومن المحتمل أن يكون قد غلط الشهود وموه عليهم الحقيقة، أو استشهد بجمع ممن لا أمانة لهم ولا دين. وإذا لم يقم البائع أيضاً بإقامة تلك الدعوى، فإن ورثته يهدون تلك الحجج في منزله، ولا يعرفون على وجه التحقيق أن أملاكه قد انتقلت إلى غيره، فيدعون ملكيتهم لها حسب ما ذكر. وحيث أن القبالات المسجلة محكوم بأنها للشخص الحي، وقد تعرض على القاضى مع الشهود، فثبت صحتها عنده؛ لأنه يعرف أنها انتقلت إلى الغير بطريق شرعى. ومن المشهور أن القاضى يعجز بشهادة شاهدين. وإذا ما اعتمد عدد من القضاة المتقدمين الثقات المشهورين تلك الصكوك وسجلوها وكان الشهود العدول المشار إليهم أحياء وحاضرين، ولكنهم غافلون عن أنه قد حدث بيع بعد ذلك، وانتقل [ص ٤٣٦] ذلك العقار وبقيت تلك الصكوك المكررة أو غير المكررة في يد البائع، ولم تسلم للمشتري، فيدلون بشهادتهم بالضرورة فيسجلها القاضى ويحكم بصحتها. ثم يذهب المدعى. واستناداً إلى معاونته الأقرباء المستبدن، وبموجب القبالة التي حكم بصحتها حديثاً وتم تسجيلها بتصريف فيها، أو أنه يبيعها إلى هؤلاء الأقرباء فيتضرر المشتري بسبب ذلك. ونتيجة هذه الأوضاع ينشب النزاع ويطول الخصام بين هؤلاء الأطراف.

وحيث إن صكوك الملكية تثبت بشهادة الشهود العدول، يكون تصرف المالك مراعى
صامًا فى الشرع، ونظرًا لأن الصكوك كثيرًا ما تتكرر وتبطل فى يد كل شخص، يصير
الاعتماد عليها أمرًا مشكوكًا فيه ومبهمًا. ولما كان بعض ذوى النفوس يميلون إلى التزوير
ويمارسونه فإن أفضل الوجوه أن يمثل أمام القاضى البائع منهم والمشتري وذلك عند بيع
العقارات، وعليهما أن يحضرا الشهود العدول مع الصكوك التى تكون فى حوزتهما، فيثبت
البائع ملكيته، ويشهد الشهود العدول الثابت صدقهم على أن ذلك العقار خاص بالبائع
وتحت تصرفه، ويقولون: إننا لم نسمع ولم نعلم أن لأى شخص دعوى شرعية بالنسبة إلى
ذلك العقار. ثم تغسل تلك الصكوك فى الماء. وإذا لم يكن لدى البائع والمشتري صكوك
فإن على الشهود أن يشهدوا طبقًا لما هو مذكور، ويقرروا أن هذا العقار كان تحت تصرف
البائع أو المشتري قديمًا أو حديثًا، ويقر البائع بأنه ليس لديه صكوك. وإذا ظهرت بعد ذلك
تكون باطلة. ثم يسجل العقار له، وتكتب شهادة الشهود، ويسجلها القاضى ويحكم
بصحتها. وبعد ذلك ينص على ثبوت الملكية أسفل حجة المبايعه. وإذا أقر أحد بحق فى
النقل الشرعى، فإنهم يعترفون به أيضًا. وإذا ظهرت بعد ذلك بعض الصكوك لذلك العقار
أو الملك الخالص أو المقسم بين البائع وأولاده أو أقاربه أو الآخرين، كل واحد منهم كائنًا
من كان، [ص ٤٣٧] فإن أى قاض من قضاة الإسلام لا يعيرها اهتمامًا. وعندما يراها فى
يد أحد يأخذها منه بالحاح وعنف ويمحوها. وإذا كان لأمثال هؤلاء سند قوى، أو كانوا
فى حماية بعض الأشخاص، ولم يسمعوا كلام القضاة، فإن عليهم أن يبلغوا شحنة تلك
المدينة كى يأخذها منهم بالعنف والزجر، ثم تغسل فى دار القضاء. وإذا قصرُوا فى ذلك
فإنهم يكونون مدانين. وينبغى أن يقوم كتاب دار القضاء وحدهم لا غيرهم بكتابة الحجج
والقبالات الخاصة ببيع العقارات. وعندما يجلس القاضى للحكم فى دار القضاء، فإنه من
الضرورى أن يحضر طامسًا مملوءًا بالماء موضوعًا على كرسي، أسميناه "طاس العدل". ثم
تطلب صكوك كل مبايعه ودعوى يتم البت فيها وتغسل بالماء. وإذا باع البائع جزءًا من
أملكه الخاصة الخالصة، وأبقى بعضها فى حيازته، فإن ذلك الجزء الذى قد تم بيعه، يكتب
على ظهر الحجة بحضور القضاة والعدول، ويبين فيها أنه قد بيعت هذه المساحة من هذه
العقارات المذكورة فى الحجة إلى الشخص الفلاتى فى التاريخ الفلاتى، حتى تكون تلك

الحجة ثابتة في يد المشتري. كذلك ينص في حجة للمشتري أن للبائع عدة أملاك، وأنه قد بيع بعض منها إلى هذا الشخص، ويظل يمتلك البعض الآخر. ولهذا السبب يبقى في يد البائع صك غير محو (غير مغسول).

مسألة أخرى: هي أنه إذا أدى شخص شهادة أو حرر كتابة تتعلق بمبايعة أو رهن. ثم أقام ذلك الشاهد في وقت آخر دعوى على ذلك المشتري أو المرهون، فإنه لا يستمع له، وتخلق لحيته، ويركب حمارًا، ثم يطاف به في أنحاء المدينة. وإذا باع شخص عقارًا لآخر كان قد رهنه قبل هذا، أو أنه أقر بحق شخص آخر فيه أو باعه فإن هذا التصرف يعتبر حالة من حالات التمويه، وإقرارًا بالغش، فلا يستمع له، وتخلق لحية الشخص المدعى كذبًا ويركب حمارًا ثم يطاف به في أنحاء المدينة. وإذا باع شخص عقارًا أو رهنه ثم عاد ذلك الشخص نفسه مرة أخرى، وباعه لآخر أو رهنه فيكتشف هذا التزوير، ويتأكد من ذلك فإن أمثال هؤلاء الأشخاص يعدمون.

[ص ٤٣٨] موضوع آخر هو أننا قررنا ألا يتوقع القضاة أن يأخذوا من أحد دافعًا واحدًا نظير قيامهم بالتسجيل والنظر في الدعاوى حسب العادة المعهودة، وأن يقتنعوا بالمرتب الذي قررناه لهم، وأن يأخذ الكاتب الذي يحرر الحجج درهمًا واحدًا عن كل حجة تبلغ قيمتها مائة دينار. أما ما يزيد على مائة دينار فإنه يتقاضى عنها مبلغًا يصل إلى دينار واحد، ولا يأخذ ما يزيد على ذلك أبدًا. ويتقاضى المدير الذي يقوم بمهمة الإشهاد نصف دينار عن كل حجة يتم تسجيل الشهادة عليها. ويكون هذا الرسم من النقد المتداول. ومهما تكررت الدعاوى، فإنه ينعق بهذا المبلغ. وكل محام^(١) يأخذ شيئًا من كلا الطرفين يعز أولًا ثم تخلق لحيته، ويعزل من الوكالة.

مسألة أخرى بخصوص القضايا المحددة بفترة ثلاثين عامًا، أفردنا لها مرسومًا خاصًا، وبيننا شروطها، فينبغي مباشرة العمل بموجبها. وكل قاض يحكم بخلاف المراسيم والأحكام التي أصدرناها يعاقب ويعزل. وأمرنا الحكام والملوك في كل الممالك والمدن بأن يحضروا القضاة في هذه المناطق، ويستردوا منهم الوثائق بموجب المرسوم الذي أرسلنا صورة منه، ثم يعيدونها.

(١) المقصود المحامي الذي تمهينه المحكمة للدفاع عن المتهم.

والآن ينبغي استدعاء فلان وفلان من القضية هناك وبمقتضى نص المرسوم المرسل تسترد
منهما الوثائق، وترسل إلينا بصحبة هؤلاء الرسل.
كتب في شهر كذا وسنة كذا.

نص المرسوم بخصوص تأكيد الأحكام السابقة وتمهيد الشروط اللاحقة

بسم الله الرحمن الرحيم

بقوة الله تعالى وميامن الملة المحمدية

فرمان السلطان محمود غازان

[ص ٤٣٩]

ليعلم قضاة البلاد أننا عندما أدركتنا أن استقامة حال العالم والعالمين منوط بالتزام الأمور الشرعية، أرسلنا قبل هذا مرسوماً إلى كل الأطراف والجهات من البلاد ابتداء من نهر جيحون إلى حدود مصر بخصوص تدارك الخلل الذي يقع عند الفصل في القضايا بحتم على القضاة التأني والاحتياط التام في تحقيق وتدقيق الأحكام الشرعية، وبنههم إلى ضرورة مراعاة اللوازم والشروط فيما يتعلق بفحص شئون المحاضر والحجج والوثائق والسجلات. وعند تنفيذ أحكام القضايا بحذرهم مما قد يشوبها من التزوير والتمويه والغش والتفويض وأنواع الخيل الأخرى، وأنهمهم وجوب عدم الالتفات إلى مجرد قدم الحجج أو إلى أحكام القضاة السابقين؛ إذ ربما لم تكن تخلو من تساهل أو تحيز، والزمهم العمل - بقدر المستطاع - بالتزام الضوابط والدقائق الضرورية لسلامة البدن والنجاة في الآخرة وصيانة العرض. وقرر هذه القواعد في كل البلاد على رموس الأشهاد مرة كل شهر؛ حتى ترسم وتتوطد بالتكرار في الأذهان، ويتزجر أصحاب الادعاءات الباطلة من تلقاء أنفسهم ويسلكون طريق السلامة، ولا يبقى أيضاً مطمع للأقوياء ذوى النفوذ في أن يحملوا القضاة على إصدار حكم بعيد عن جادة الصواب؛ خصوصاً بعد أن أكدنا ذلك الحكم. وأمر السلطان كذلك بأن تؤخذ خطوط كافة القضاة، حتى لا ينظروا بعد هذا إلى رغبة أي مخلوق، ولا يراعوا جانباً قط غير جانب الحق جل وعلا وأن يذللوا أقصى الغاية في تنقيح الدعاوى وفحص الحجج والوثائق حتى يكونوا بمنجاة من فتن التزوير والتلبيس، وألا يتعرضوا للنظر في كل دعوى مر عليها ثلاثون عاماً رغم تمكن المدعى، وبشرط عدم

الموانع التي تعترضها. وإذا قدمت دعوى بعد انقضاء تلك المدّة، فلا يستمع لها بتاتاً، ولا يحكم فيها؛ لأن فساد مثل هذا الادعاء ظاهر وواضح، وسماعها أمر مستهجن.

وقبل هذا واجه سلاطين السلاجقة هذا الأمر. ويعون اجتهد أئمة الوقت منع سماع مثل هذه الدعاوى وبعد ذلك كتب الأئمة والقضاة وعلماء الإسلام رسائل مستقلة في هذا الشأن [ص ٤٤٠]، وأكدوا تلك الأحكام. كما أن نسخها منتشرة في الأطراف. كذلك صدرت مراسيم آباءنا في هذا الشأن، ويجرى العمل بها لغرضين:

الغرض الأول: تأكيد تلك الأحكام، حتى يتحقق الرفقاء من شدة عنايتنا واهتمامنا باستقامة أمور الدين، وتزول من النفوس نقيصة التساهل والتهاون في شئون الشرع، وتحل محلها فضيلة الصلابة وثبات القدم.

وليعلم الجميع على وجه التحقيق أن كل من يجرد عن هذه التعليمات سوف يعامل بنفس المعاملة التي عومل بها قاضي أردبيل، فإنه لما لم يحترز في تنفيذ القضايا المزورة الموهوة، أجهزوا عليه بالسيف على أبشع صورة، وأشنع حالة.

الغرض الثاني: حيث إن خاطرنا منصرف ومهتم دائماً باستقامة أمور العالم وانتظامها وموجه إلى تحصيل وتكميل أسباب ذلك أردنا أن نلحق بالأحكام السابقة عدة أمور ضرورية نبلغها فضاء البلاد ونغتهم على وجوب العمل بها، حتى يسيروا بمقتضاها، ولا يتجاوزوها.

فأولاً وقبل أي اعتبار آخر ينبغي تأكيد الاحتياط بخصوص الاستماع للشهادة^(١) التي يتوقف عليها مدار أكثر القضايا؛ إذ تبين أن القضاة يبدون تساهلاً في هذا الشأن، ولا يجتهدون في تحري الدقة فيصدرون حكمهم بناء على هذه الشهادة دون توقف، أو دون أن يتطرق اطمئنان إلى نفوسهم، أو يغلب الظن ويغطي الشك على صحة الشهادة وسلامتها ويتمسكون بذلك، ويقفون عاجزين أمام شاهدين، ولا يخشون مغبة هذا الإهمال. وقد

(١) الشاهد يعاون القضاء على أداء رسالته الاجتماعية، فمن غير الممكن أن يفصل في دعوى على الوجه السليم ما لم يدل الشاهد بشهادته؛ ويعني ذلك أن الشاهد يخلق مصلحة اجتماعية ترجع على من تستند إليه الواقعة في الشرف والاعتبار. (انظر الوجز في قانون العقوبات: القسم الخاص تأليف الدكتور محمود نجيب حسني، ص ٥٧٢ الفاعلة ١٩٩٣م).

يتفق أن تكون القضية في ذاتها خطيرة. ولكن لأنهم لا يعرفون الحقيقة ولا يحسبون يصدر عن حكمهم على هذا النحو، فيقضون بذلك على طائفة من الناس الوجهاء الأثرياء. ونتيجة لهذا يشتد ساعد المدعين؛ ذلك أن ثبوت الحق شرعاً، ولو أنه متوقف على شاهدين^(١) [ص ٤٤١]، إلا أن الشهادة مقيدة بشرط توافر العدالة. والعدالة أمر عظيم لا يتوافر إلا في أفراد البشر، وعلى سبيل التدرج؛ إذ إن هوى النفس يستولى على أكثر الخلق. وإذن على القاضي أن يفكر دائماً في أن شهادة زيد أو عمرو لا تخلو من هوى النفس، أو انحياز إلى إحدى الجهات أو مراعاة جانب شخص من الأشخاص، ولا يجوز أن ينخدع بجرده أن الشاهد يبدو في سمته وصفة الرجال الصالحين، وبزمن ظاهره بزخرف القول. وينبغي أن يستعمل سلامة التفكير ولطائف الحيل وصفاء الذهن في استنباط حقيقة الحال واستخلاص ما في باطن القضية. وفي هذا الإطار ينبغي أن يوضح كيفية الحال وإزالة الإبهام والإشكال. ولما كانت حكمة الباري عز اسمه في خلق الكون قد اقتضت أن الباطل مهما خفي أمره في الباطن، فإن آثاره تبدو في الظاهر من فحوى ألفاظ القتال كما قال أمير المؤمنين على (رضي الله عنه) "كل ما يكون مستترًا في باطن الأحق يتضح من فلتات لسانه". وإذن فكل من يتعرض للغوص في أعماق شخص من الأشخاص بذهن سليم، يستطيع أن يستشف الحقيقة من كلامه.

وبناء على هذه المقدمات، أمرنا بأن يتبع القضاة سبيل الاحتياط في استماع كل شهادة يتفالج الحاضر ريب في قبولها. وينبغي أن يسأل كل من الشاهدين على انفراد كي يتبين التناقض في أقوالهما لأن التثبت بتحقيق الأمور متوقف على تناقض أقوال المتكلمين. وبناء على هذا يسأل كل شاهد عدة مرات في المجالس المختلفة، وتكتشف الأحوال من زوائد الكلام، ثم توضع الأسس بغية الوصول إلى التكات التي تكون في الأسئلة المفيدة مثل التعرض للأزمنة والأمكنة وكمية المقادير وكيفية أحوال القضية، ولطائف الأسئلة التي يكون في تحقيقها والوصول إليها مدخل لتحقيق الهدف، وحتى يظهر من هذا الاجتهاد أحد الغرضين المطلوبين، إما الصحة التي يمكن إصدار الحكم بموجبها. ويمكن الاعتماد

(١) يقول الله تعالى: ﴿واستشهدوا شهادتين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأبى الشهداء إذا ما دعوا﴾ (سورة البقرة، آية ٢٨٢).

عليها. وإما الشبهة التي توجب التوقف عن إصدار الحكم، ويكون ذلك سبباً في النجاة من ورطة [ص ٤٤٢] الحكم بالباطل. ولما كان أكثر الخلل الذي يحدث في القضايا يقع بسبب تركية المزكين الذين هم أنفسهم يفتقدون التركيبة ينهى اتخاذ المزيد من الاحتياطات في هذا الأمر. كذلك يلزم الرجوع إلى الفصل الذي كتب خصيصاً لشئون التركيبة.

مسألة أخرى تتعلق بضرورة التأني والتروي في إبرام الأمور بشأن إصدار الأحكام وختمها؛ إذ إنه تقع شبه كثيرة في هذا القسم. وأكثر القضايا التي تنفذ في دوائرها ومناطقها، يقوم أصحابها بإثباتها لدى قضاة الولايات الأخرى. ونظراً لأنه في تلك المناطق الغريبة، لا يقع اطلاع دقيق على أسباب تلك القضايا وظروفها، ويغني على القضاة صحتها وسقمها، إذ يختمون الوثائق دون تحرر، ويرسلونها إلى القضاة الآخرين ليفتحوها ويصدقوا عليها، ويحكموا بصحتها. وبذلك يروج الباطل في صورة الحق. ولا شك أن طريق الخلاص من هذه الورطة هو أنه في حالة عدم اطلاع القضاة على ماهية القضية، وضرورة رفعها في موضع قريب، ولم يخطوا بظروفها إحاطة تامة، لا يسجلونها ولا يختمونها. وعلى الذي يفتح وثيقة الحكم، ألا يسارع بفتحها، وإصدار الحكم بشأنها، ما لم يعرف ضرورة الحكم لدى ذلك القاضي الذي ختم الورقة بختمه.

موضوع آخر يتضمن الاحتياط في الأمور التي تتعلق بتحرير الحجج والوثائق وأنواع الكتب وأصناف التصديق على الأحكام والسجلات لأن ما يمرر في أكثر الأحوال لا يخلو من خلل. كما أن سرمان ضرر عدم الاحتياط يؤدي إلى إثبات الأباطيل وإبطال الحقوق. وهذا الخلل إنما يرجع إلى جهل الكتبة بلوازم الكتابة وشروطها. أو إلى تخكم الميول الشخصية أو محاباة جانب وترجيحه على جانب آخر. ولما كان من الواجب تدارك مثل هذه الأمور تداركاً تاماً، أمرنا جميعاً من القضاة والأئمة والعلماء الذين كانوا متصفين بدقة النظر بأن يقوموا متضامنين بمحصر [ص ٤٤٣] أعداد أنواع المكتوبات التي تكتب على سبيل الإجمال في المحكمات؛ فحروا نسخة لكل نوع وجمعوا المطالب كلها في مجلد واحد يكون كامل الشروط، جامع الدقائق بعيداً عن مواقع الطعن، واحتمال المعارضة، موشحاً بتمهيد مناسب ينطوي على فوائد كثيرة. ثم اعتمد هذا المجلد كبحار الشخصيات وأعيان العلماء بتوقيعاتهم، وشهدوا على صحة تلك المقاصد. وعندما تم هذا الغرض استنسخوا من

ذلك نسخًا كثيرة، وأرسلوها إلى أطراف البلاد، حتى إذا ما دعت الحاجة إلى تحرير أى نوع من الفتاوى والأحكام والوثائق، أقدموا على كتابتها على تلك الصورة، وذلك بعد صدور حكم المحاكم، وبناء على إشارته. ويجب على قضاة البلاد أن يمعنوا النظر فيها أولاً على سبيل الاحتياط. وعندما يرونها مطابقة للمقصود، وتستقيم مع جادة الشرع المطهر يعتمدونها ويصادقون عليها بتوقيعاتهم، ويلتزمون بتنفيذ شروطها؛ حتى لا يتجاوزوا - فى المستقبل - ما نص عليه فى كل باب منها، ويكتبوها حرفاً حرفاً. وحيث إن هذا الأمر قد تأكد سابقاً، وهو أنه عندما ينص على أن حكم المحاكم قد صدر بتحرير هذه الأحكام، لا يقوم الكتبة بذلك بناء على التكليف الصادر إليهم، بل يشعرون أيضاً بأنهم فى مثل تلك الأمور إنما يحققون محض الرحمة.

مسألة أخرى: فكما هو معلوم أن تساهل بعض القضاة وتراخيهم وعدم نزاهتهم قد بلغ حدًا خطيرًا؛ بحيث إنهم راحوا يصدرون حكمين متناقضين فى قضية واحدة بين خصمين كلاهما مسجل، ولم يفكر هؤلاء القضاة فى قبح ما يقدمون عليه، ولم يحترزوا من اكتشاف أمرهم. ولتلافى ذلك أمرنا بالآسروا فى المستقبل على هذا المتوال، لأى سبب أو تصريح وأن يهتموا بتلافى ما حدث. وإذا ما وقع مثل هذا الأمر فى محضر أى قاض فإن عليه أن يحضر الحكمين، ويحدّ فى الاحتياط لتحرى الحقيقة فى كل ما يتعلق بالقضية. وإذا كان محتاجاً إلى معاونة الأئمة، فليعقد اجتماعاً لتوضيح الأمر وفق القانون الصحيح، وضكين أى طرف يتضح ويلوح الحق إلى جانبه، وبغسل الحكم الآخر فى طاس العدل. وإذا لم يُفصل فى تلك القضية فى حينها، ولم يصدر قرار حاسم بشأنها تودع على سبيل الودعة [ص ٤٤٤] لدى أمين المحكمة، ولا تسلم ثباتاً للخصمين، بل توقف حتى يفصل فيها؛ إذ إن ترك أمثال هذه الوثائق بيد الخصوم، لا يترتب عليه شيء قط سوى الفساد والفتنة والاختلال. وليس هناك شك فى أن كل خصم أو ورثته سوف يظهرون تلك الوثيقة عندما يجدون مجالاً للشبهة والالتباس فى وقت من الأوقات، ويبادرون بإقامة الدعوى. وربما لا تنافر لدى القاضى الجديد الدلائل والشواهد على تلك القضية، فيحكم بالباطل. أما إذا احتفظوا بالوثيقتين، وتحقق الخصمان من أنهما لن تعادا إليهما، فإنهما سوف يحضران بالضرورة للمقاضاة، ويفصل فى الدعوى على النحو المقرر على وجه التحقيق. وبهذا يستقر الحق فى نصابه.

مسألة أخرى: سبق أن حكم السلطان ملكشاه بناء على اتفاق أئمة العصر واجتهادهم واستصوابهم، ودون ذلك من أجل مصلحة الناس. وقد نص على أن كل من وقف وقفًا خفية، أو كتب إقرارًا بتمليك أحد سرًا، وأخفى ذلك، ثم باع هو نفسه أو ورثته ذلك العقار المنصوص عليه في الوقفية أو المذكور في الإقرار. وبعد مدة أظهر هو أو ورثته تلك الوقفية أو ذلك الإقرار مدعيًا أنه قد اشترى ذلك العقار، فإن على قضاة البلاد ألا يستمعوا لتلك الدعوى، ويطلبوا الوقفية والإقرار. كذلك يجب عليهم تأديب المدعى وتعزيره. وعليهم أن يقرروا الملكية للمشتري.

وبعد أن اجتمع جماعة من مشاهير الأئمة فترة من الوقت في قروين سجلوا بالاجتهاد مسائل الإصلاح التي أعدوها، والمنوط بها صلاح الخلق فوجب على القضاة العمل بها. ومن جعلتها أن كل عقار يكون شرعًا في يد أحد الملاك لا يسترد منه، [ص ٤٤٥] بسبب ظهور عقد مخالف له، بل يقونه في يده.

وغن أيضًا قد أمرنا قضاة البلاد بأن يسيروا على هذا المنوال، وألا يتجاوزوا هذا الحكم الذي اتفقوا عليه، وطلبوا بواسطته إقرار الحق.

مسألة أخرى: نتلخص في أننا سمعنا أن بعض قصار النظر الذين تتول إليهم الأوقاف بشرط الواقف، يبيعون حق توليتهم إلى شخص آخر، ويفوضونه بسبب خديعة بعض العوامين، فينشأ عن ذلك إلحاق الخراب والضرر بالواقف واختلال حاله. ولتلافى ذلك أمرنا بأن من يكون قد فوض إليه وقف بشبهة تتخذ وسائل الاحتياط في مثل هذه الحالات، وذلك بالرجوع إلى شرط الواقف. فإذا كان الوقف متضمنًا إذن التفويض، فلا يتعرض لمن فوض إليه هذا الوقف، وإلا فإن على المسؤولين أن يطلبوا هذا التفويض وأن يغسلوا وثيقة التفويض في طاس العدل. وبعد هذا لا يعطون أى مخلوق مجال التفويض الذي لا يتضمن شرط الواقف فيه جواز ذلك. وجميع الذين يخالفون هذا سواء أكانوا مفوضين أم قابلين للتفويض أم محررين يؤخذون ويعزرون.

موضوع آخر نقول فيه: إنه لا يخفى على الجميع أن غايتنا من تنفيذ هذه الأوامر ليست إلا رعاية جانب الحق جل وعلا وتقوية الشرع الإسلامى لا زال معظمًا وانتشار

الحق والعدل وراحة الرعية. كما أن هدفنا من التنبه هو أن يقتضى القضاة آثار الحق والعدل، كما أن هدفنا من التنبه هو أن يقتضى القضاة آثار الحق والعدل، وغرضنا من تكرار التحذير والتخويف هو جبر لحال الإنسان وليس تحطيمه، ورفع قدر القضاة لا الخط من شأنهم، وتكريمهم لا إهانتهم. وإذن فالأولى أن يستمعوا لهذه التعليمات طائعين، وأن يتفعوا بما جاء فيها، وأن يتأكدوا من أن كل من يعمل بها، ويرجع جانب الحق، ويصون منصب الشرع الشريف من شين التلبيس، ويتخذ الاحتياط التام فى الفصل فى القضايا سوف يكون مشمولاً بعطفنا إلى جانب الأجر الجزيل والذكر الجميل.

[ص ٤٤٦] أما كل من لم يؤثر فيه العديد من البلاغات والبيانات والتأكيدات والتشديدات؛ فإننا لن نهتم بعد هذا بتجديد المرسوم بخصوص هذه الأمور. وسوف تتبع مع المخالفين طريقة "السيف أصدق أنباء من الكتب" لتصريف الأعمال حتى يعرف الجميع الحقيقة. وفى ذلك كفاية لمن يعتبر. فعلى الأمير القلانئ والحكام الذين يصل إليهم هذا المرسوم مع نسخة من الدستور أن يسلموهما للقضاة، وبأخلوا بهما إيصالاً. ثم ينسخون صوراً من كل منهما، ويسجلون عليها صحة المقارنة، ويرسلونها إلى الولاة والأكابر وقضاة الولايات. ثم تودع لديهم ليطلعوا عليها ويقوموا بالحجة على المذنب، ويسيروا فى المستقبل على هذا المثال. وهكذا يعملون حتى تتحقق هذه الأمور، وتتضح لدى الجميع.

الحكاية الخامسة عشرة

فى منع تحرير القبالات غير المشروعة وإبطال الحجج القديمة

قبل هذا فى عهد الخلفاء والسلطين - أنار الله براهينهم - كان المستولون يذلون كل ما فى مقدورهم بخصوص ازدهار شئون القضاء وقوانين الشريعة ويحتاطون احتياطاً تاماً فى هذه الأمور، ويختارون الرجال المتدينين من العلماء والفضلاء من أهل الثقة الجديرين بتقليد منصب القضاء. وكان هؤلاء أيضاً بدورهم يحرصون على أن يجعلوا المتدينين الشرفاء من العلماء المشهورين يلزمون دار القضاء. فلا غرو أن كانت الأمور الشرعية والقضايا الدينية تيرم وفقاً لأوامر الله تعالى ورسوله عليه السلام. وبذلك استقرت حقوق الخلق فى مواضعها، وأغلقت تماماً أبواب الظلم والحيف.

وعلى هذا لم بعد هناك مجال للأغساء والمارقين الطامعين والفضوليين المزورين كى يحوموا بأى وجه حول أمثال هذه الأعمال الخطيرة متفرعين بأنواع الخيل والتليس. وعلى هذا لم يكن لثل هؤلاء الأشخاص قدرة على التردد على الجماع والمجالس، ولم يلفت إليهم أى مخلوق.

ورغم ذلك الضبط والترتيب الذى كان متبعاً فى عهد السلطان السعيد ملكشاه - طاب ثراه فإنه لا يزال فى أهدى الناس كما هو الحال الآن أيضاً كثير من القبالات القديمة المكررة والخالصة الملكية فكانوا يعملونها إلى القضاء، وبلجأون إلى الخيل [ص ٤٤٧] التى تلزم القضاء بضرورة الاستماع إليها والنظر فيها. وعن طريق تقديم بعض الهدايا^(١) للتواضعة يستطيعون ترويح الباطل فى صورة الحق. ولما كانت المتاعب تحمل بالناس لهذا السبب، ثم يتضح بعد ذلك أن تلك الدعاوى كانت باطلة، وأن الوثائق ومستندات الأملاك

(١) يقول الثاوردى: "وليس لمن تقلد القضاء أن يقبل هدية من خصم ولا من أحد من أهل عمله. وإن لم يكن له خصم لأنه قد يستعديه فيما يله". (الأحكام السلطانية، ص ٧٥).

القديمة والخالصة الملكية قد انتقلت من قبل إلى الآخرين، بلغت تلك الدعاوى والشكاوى مرات ومرات مسمع السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك، فتأكدوا أن الذريعة التي يتمسك بها هؤلاء المزورون إنما هي القبالات القديمة المكررة والخالصة الملكية التي بقيت بعد أصحابها الأول في يد المالك أو ورثته. وبتمادي الأهم، لم يقف على أحوالها أحد. وفجأة يبرز أحد أبناء المالك تلك القبالة، فيقيم الدعوى. ويمكن أن يشتري تلك الأملاك أو ورثته لم يروا تلك القبالات، أو تكون قد فقدت، أو أنها نهبت أثناء الغارات، أو أنها أيضاً تكون قد سرقت من آباء المشتري وسلمت للبائع. وهؤلاء لعلمهم أن القبالة المنتقلة الشرعية ليست في أيديهم ومع هذا يقيمون الدعوى بقبالتهم القديمة، ويثبتون بها أحقيتهم زوراً. وهكذا فإن أمثال هذه الحالات كثيرة ومتعددة.

وقصارى القول فإن السلطان ملكشاه والوزير "نظام الملك"^(١) عندما وقفا على تلك الأوضاع، كتبوا منشوراً حسب ما يقتضيه الشرع. وقد صرح السلطان بأنه ليس لأحد أن يقيم الدعوى، ولا أن تُسمع دعواه استناداً إلى القبالات القديمة التي مر عليها ثلاثون عاماً. ثم سلم ذلك المنشور إلى جميع مفتي خراسان والعراق وبغداد؛ فأنفوا فيه وفقاً لأحكام الشريعة. بعد ذلك أرسله إلى دار الخلافة لتوقيعه ولا زال ذلك المنشور موجوداً حتى الآن ونسخه منتشرة في الأطراف. ولما كان القضاء وأصحاب دار القضاء على هذا النحو الذي ذكرناه فإن مثل هؤلاء القضاة المتدينين الثقات والسلطان والوزير تحيروا من أفعال هؤلاء الأشرار، فاضطروا إلى إصدار مثل هذا المرسوم.

(١) للحصول على تفاصيل عن الحواشي نظام الملك الطوسي وزير السلاجقة الكبير انظر: المؤرخ الإيراني الكبير غياث الدين خوانسار كما يدعو في كتابه دستور الوزراء تأليف وترجمة وتعليق الدكتور حربي أمين سليمان ص ٢٤٥ ٢٦٧ لمجلة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠م؛ الوزارة في عهد السلاجقة تأليف عباس إقبال وترجمة الدكتور أحمد كمال الدين حلمي، ص ٦٩ ٨٣، مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٨٠م؛ سياستنامه أو سير الملوك، تأليف نظام الملك الطوسي وترجمة الدكتور يوسف حسين بكار، مقالة الدكتور غلام حسين يوسف بعنوان: نصير: السياسي المعجز، ص ١٣ ٤٢، الدوحة ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م؛ مجلة الدراسات الأدبية في الثقافتين العربية والفارسية: مقالة بعنوان المدرسة النظامية في بغداد للأستاذ سعيد نفيسي، ص ٦٧ ٩٣، الجامعة اللبنانية؛ قسم اللغة الفارسية وآدابها، السنة التاسعة العددان ٢٠١ الربيع والصيف ١٩٦٧م.

وقد اتفق أنه في عهد المغول علم بالتدريج أن القضاة والعلماء يُعرفون بمجرد لبسهم العمامة والدرّاعة^(١). ولكن من المقلوع به [ص ٤٤٨] أن المغول لم يكونوا يعرفون كيف يميزون هذه الطبقة من غيرهم. ولهذا السبب ارتدى الجهال والسفهاء الدراعة والعمامة بكل وقاحة وراحوا يلازمون المغول. وسرعان ما نالوا شهرة لديهم، وذلك بأنواع التملق والتزلف والرشوة. وقد تدخلوا في شئون القضاء وتقلدوا المناصب الشرعية، وحصلوا على المرسوم في هذا المجال.

ولما استمر الحال مدة على هذا النحو كف العلماء الكبار المتدينون ذور الشرف أيديهم عن تلك الأشغال والأعمال؛ إذ كيف يوافق الرجال الكبار على أن يضعوا أنفسهم في محيط هؤلاء الأشخاص غير أن الوزراء والحكام التازيك لم يكونوا يتخلون عن طائفة العلماء الكبار الشرفاء، والذين كانوا في قمة الشهرة، فصاروا يثنون عليهم دائماً، ويمنعون كل شخص مفسد يحاول أن ينال منهم. ولهذا السبب بقي بعض القضاة الكبار المشهورين في مناصبهم. وكانت أحوال الكثيرين منهم على النحو الذي شرحناه.

ولما كان الجهال والسفهاء الذين يبدون في صورة العلماء كثيرين في البلاد وكانوا يرون أن أمثال هؤلاء يتقلدون مناصب كبيرة، طلقوا يعارض بعضهم بعضاً. وقد لفت نظر المغول كثرة نزاعهم ومجادلاتهم. كما اتضحت وقاحتهم للجميع؛ فظن المغول أن جميع العلماء على هذا النحو، وبذلك ضاعت حرمة وهبة كبار الشخصيات بل زالت كرامة أمة الإسلام بسبب هؤلاء الجهال، وصار الجميع سيئ السمعة أذلاء محقرين. وكان كل أمير وعظيم يحمي واحداً من هؤلاء الأشرار. وفي كل فترة ينصب أحدهم قاضياً، ويعزل آخر. وقد بلغ الأمر ببعضهم أنهم كانوا يتقلدون منصب الفقهاء بالضمآن، ويجب على القاضى أن يحكم بشفاعة هذا الأمير أو ذاك، وبناء على إلحاحه، ولا يأخذ شيئاً من أحد.

ولما كان منصب القضاء يؤخذ بالضمآن والمقاولة، فإننا يمكن أن نعرف كيف كانت الأمور تجري على أي وجه. وقد وضع هذا في عهد گيخاتو خان الذي كان وزيره صدر الدين، ولقب نفسه بصدرجهان (صدر العالم) هذا على حين أن أخاه نصب قاضياً للقضاة

(١) الدراعة: ثوب من صوف. وجبة مشقوفة اللقثم. (انظر للمعجم الوسيط، ج ١ ص ٢٨٠).

ولقب بلقب "قطب جهان" (قطب العالم). وتقلد الشيخ محمود منصب شيخ المشايخ وأسند إليه النظر فى بعض الشئون الدينية، فبلغت غاية الكمال. كذلك كانوا يعهدون بالأعمال الشرعية إلى أشخاص عن طريق المقاوله. ولغده الأسباب أدى الأمر فى السنوات الماضية إلى فتح طريق الدعاوى الباطلة [ص ٤٤٩] وكل غلوق امتلك أو حاز عقاراً، صار وبالأعلى عليه. وكان أسوأ وأخطر من مائة عدو؛ لأن المفسدين المختالين الجبايع كانوا يستغلون دائماً القبالات القديمة وشهود الزور، ويلجأون إلى أنواع الحيل والتليس التى لا نهاية لها ويشقون على جماعة الرؤساء ذوى المناصب والجاء ويفضحونهم.

ولما كان القضاء بالضمآن والمقاوله صارت تلك الأمور ملائمة لطبع القضاة والمشرفين على دار القضاء، فكانوا يثيرون المدعين ويتقدمونهم بالوعود، ويهملون القضايا، ويؤجلون الحكم فيها شهوراً بل سنوات. وخلال تلك الفترة، كانوا يجنون ثرة هذا التسويف وينالون بغيتهم من الجانبين. وهكذا تسمر الدعاوى والمنازعات، ويظل كثير من الأملاك موضع خلاف ونزاع لعدة سنوات. وكانت دار القضاء تنفق كل سنة مبالغ أكثر من العوائد التى تحصلها. وكان كل شخص يراوده الأمل، ويقول فى نفسه: إن دعاوى لا تزال قائمة فعلى أن أدفع مبلغاً آخر حتى أنال بعض حقوقى عن طريق الوساطة والرشوة. ومن بين هؤلاء المنتفعين كان المتسولون يحصلون على هبات الخدمة وينالون الشهرة المزيفة. وحيث إنهم كانوا يرون أمثالهم قد صاروا فى مصاف العظماء عن طريق الدعاوى الباطلة، وأن كبار القوم يمنحونهم شيئاً لصيانة أعراضهم، ولا يذهبون إلى دار القضاء. وهناك أيضاً جماعة يذهبون إلى دار القضاء مضطرين، فيأخذون شيئاً. ولقد فكر هؤلاء فى أنفسهم أيضاً قائلين: حيث إننا لا نستطيع أن نحصل درهماً واحداً فى كل يوم مع ما نستعمله من حيل كثيرة ومشقات بالغة، ليس هناك أفضل من هذه المهنة وهذه الصنعة. وبناء على هذا سلك الجميع هذا المسلك، فاحتفظ بعضهم بقبالاتهم القديمة، وصار البعض الآخر يقف إلى جانب غيره يؤيده بالوقاحة والسفاهة، وآخرون يتفقون مع شخص يستطيع تقليد أنواع الخطوط المشابهة لخطوط الآخرين ويجرون القبالات المسجلة، ويعاون أحدهم الآخر فى هذا السبيل. هذا على حين أن هناك طائفة أخرى راحت تقلد المنشورات الصادرة عن السلاطين السالفين، وكذلك القبالات القديمة المكتوبة بخطوط مجهولة، والتى مر عليها مائة وخمسون سنة. ولو لم يكن للقبالة شاهد عدل، فإن كل واحد [ص ٤٥٠] من هذه

الجماعة، كان يذهب إلى المحكمة في حماية رجل مغول أو واحد من أصحاب النفوذ ويتنازع الناس. وإذا لم يصدر القضاة حكمهم في مثل هذه القضايا، فإنهم يلزمون الصمت مراعاة لمصلحتهم الشخصية، ولا يتطرقون بكلمة الحق، ويلفونهم الحكم سرًا على لسان أعوان المجلس قائلين: إن هذه الجماعة باطشة أيديهم، ولا نستطيع أن نجيب إجابة صريحة. وهكذا كانوا يعضون يومهم بهذه الطريقة. وفي مقابل ذلك كانوا يأخذون شيئًا، وإذا هذه القضية كانت مثل الطاحون كلما زاد دوراتها تصير أحدًا وأقوى. وقد وصل الأمر إلى حد أن ظهرت في البلاد دعاوى كثيرة باطلة لا تعد ولا تحصى.

وعندما كان المدعى بالباطل يمتنى بأحد أصحاب الأيدي القوية فإن المدعى عليه المسكين والمالك الحقيقي للعقار يضطر إلى الاستعانة بحماية رجل آخر من ذوى السلطان خوفًا على ماله وعرضه، فيستعج ذلك بالضرورة أن ينشب النزاع وتسود الخصومة بين الشخصين القويين. وهذه طبيعة الزمان منذ قديم الأيام أن يستعمل السيف من أجل المحافظة على الملك. وقد بلغ الشؤم بهؤلاء القوم إلى حد أن أكثر ذوى النفوذ شرعوا هم الآخرون يتنازع الواحد منهم الآخر، ونشبت بينهم الخصومات مما يؤدي إلى استعمال السيف. وكان أكثر تلك المنازعات يحدث بوجه خاص إذا ما باع المغتصب القرية - التي يعادل شأنها عشرة آلاف دينار وهي ملك لصاحبها الحقيقي - لأحد ذوى النفوذ بثلاثين أو مائة دينار ذهبي. وقد استقر في ذهنه أن هذه القرية كانت ملكًا له. وهي الآن على حد قوله "في حيازتي". كذلك راح بعض خطباء القرى وغيرهم يؤيدونه جهلاً ومروقًا، ويقولون: "إن هذا البيع صحيح والقرية ملك خاص لك".

وحيث إن المغول على خلاف ما كانوا عليه في العهود السابقة قد ظهرت فيهم رغبة اقتناء الأملاك، واشتد سعيهم في هذا السبيل فأدى الأمر إلى أن برزت مشكلة الأملاك دفعة واحدة، وصارت في مقدمة القضايا المقلقة، وأصبح جميع الناس غير آمنين على أعراضهم وأرواحهم، وعجز القضاة المتدينون من أفعال تلك الفئة من المفسدين المزورين ولم تكن لهم قدرة على تدارك تلك الأوضاع. فصاروا دائمًا يلتمسون الخلاص [ص ٤٥١] من حضرة الحق تعالى.

فلما وصل العهد المبارك لسلطان الإسلام خلد سلطانه وشاهد ذلك الأسلوب المذموم، فكر في تداركه، فأصدر فرمائنًا، وكلف نقلة الأخبار الثقافات بأن يذهبوا إلى كل

ولاية أيهما يوجد أى مزور، يظهر فيها تزويره، ولا يدعون الآخريين يعملون على إخفاء هؤلاء المزورين أو حمايتهم، وطلب فى الحال استدعاء هؤلاء الذين افتضحت أمورهم فعاقبهم بعد ثبوت جرمهم.

وبهذه الطريقة اكتشف كثير من محاولات التزوير والقبالات الكاذبة التى كانوا قد حرروها، وأعدم هؤلاء المزورون طبقاً لعدل وإنصاف سلطان العالم غازان خان خلد سلطانه. وهذا هو مغزى الحكاية التى كتبتها عن السلطان ملكشاه، ومضمونها هو عدم الاستماع للدعاوى التى مر عليها ثلاثون عاماً.

وفى عهد هولاكو خان شرح له الوزراء التازيك هذا الوضع. وبناء على ذلك صدر مرسوم فى هذا الشأن. ولقد استمر العمل بهذا المرسوم فى عهود أباقاخان وأرغون خان وغيخاتو خان. ولكن لم يظهر أثر بخصوص تنفيذه، وذلك لسببين:

السبب الأول: أن هناك شروطاً كثيرة شرعية وعقلية وعرفية لها أهميتها فى هذا الشأن لم تذكر فى تلك الأحكام. وحيث إنهم بخصوص القبالات القديمة نصوا - بصورة مطلقة - على عدم سماع الدعاوى التى مر عليها ثلاثون سنة، فإن ذلك لم يكن أمراً مشروعاً بقى مهملًا.

السبب الثانى: هو أن أحكام المرسوم ينبغى أن ينفذها الحكام والأئمة ولما كان أغلبهم يريدون شراء أملاك كثيرة بأسعار زهيدة، لم يكن يتسنى لهم ذلك إلا بهذه الطريقة. وإذا فكيف كان يمكنهم تنفيذ نص ذلك المرسوم؟ لقد كان من الطبيعى أن يهملوا هذه الأحكام رغم أنهم أقروها.

وعندما أراد سلطان الإسلام خلد ملكه أن يوقع ذلك المرسوم أمر بتحرير صورة منه باتفاق ومشورة القضاة الكبار والعلماء الفطاحل ذوى الكفاءة. ولقد كتب نص ذلك المرسوم المرحوم مولانا فخر الدين قاضى هراة الذى كان من فحول العلماء والفضلاء المشهورين فى عصره، [ص ٤٥٢] والذى كان يتحلى بفتون الكمالات، والمشار إليه بالبنان وقاضى قضاة عصره، ووحيد دهره فى الإنشاء. كتب هذا العالم صورة ذلك المرسوم بحيث يكون مشتملاً على عدة قيود وشروط ينبغى مراعاتها فى هذا الباب. ولقد نفذ المرسوم على هذا النحو.

كذلك صدر الأمر بأن يتقلد منصب القضاء في كافة البلاد من يتفق الوضع والشريف على أحقيته واستعداده لمباشرة هذا العمل الخطير. كذلك قرر هؤلاء القضاة مرتبات مجزية كي يقتنعوا بها ولا يأخذوا شيئاً قط من أحد لأى سبب من الأسباب، وأصدر السلطان مرسوماً شمل كل باب من أنواع الاحتياطات ثم أرسل إلى الجهات المختصة بمجموعة القوانين التي اتفق الأئمة على صحتها. وإن كل نصوص تلك المجموعة من القوانين بالإضافة إلى نص ذلك المرسوم كُتبت في الفصل السابق، وليست هناك حاجة تدعو إلى تكرارها.

الحكاية السادسة عشرة

فى إبطال الحيازة والغصب وإزالة أنواع المصادرات

حكايات عن وقائع الأفعال وظلم حكام الولايات

نذكر هنا على سبيل الإجمال بعضاً من الحكايات والأحوال، ونبين كيف أن الجباة فى كل ولاية كانوا يحصلون أموال الديوان ومستحقاته وما أكثر أنواعها. كما نذكر طرفاً من سوء تدبير الوزراء، وفنون الظلم والجور التى كانوا يتخذونها وسيلة لتخريب البلاد، وإفقار الرعايا كى يتشتوا ويفرقوا، ولن نبالغ فى هذا الموضوع؛ لأن القراء يعرفون أن المظالم كانت تجرى أضغافاً مضاعفة عما كانت عليه من قبل. ولكن الناس فيما بعد سوف يتمتعون بالرفاهية والراحة بسبب عدل وإنصاف سلطان الإسلام خلد سلطانه وينسون أيضاً تلك المتاعب والمشقات. أما الأطفال والأشخاص الذين يأتون بعد هذا، ولم يكونوا قد رأوا ذلك الظلم والجور، فلا بد أنهم يتصورون أن تلك الأمور قد كتبت على سبيل المبالغة والتهويل. ولهذا السبب نوجز حديثنا عن هذا الموضوع فيما يلى:

[ص ٤٥٣] لقد وقف سلطان العالم على أحوال العراق العجمى وأذربيجان والولايات التى كانت تجبى منها الضرائب، وتسدد حقوق الديوان. ونحن نبين هنا كيف كان الخلل قد تطرق قبل هذا إلى هذا النظام، وعلى أى نحو تداركه السلطان وأصلحه.

وتفصيل ذلك أنهم كانوا يُقْطِعُونَ الحكام هذه الولايات، ويربطون على كل واحد منهم مبلغاً معيناً، يحصلونه منه. فكان الحاكم يستغل هذه الفرصة، ويحصل الضرائب من الرعية عشر مرات فى سنة واحدة. وفى بعض المواضع عشرين وثلاثين مرة. وقرار الحاكم فى هذا الشأن هو أن يحصى الضرائب التى دخلت فى حوزته. وعندما يجيء رسول إلى الولاية من أجل إنجاز مهمة كلف بها أو للمطالبة بمال أو الحصول على ما يلزم، كان يتخذ ذلك ذريعة، ويتنزهها فرصة. وكلما كان الرسل يصلون بكثرة، وكانت نفقاتهم وطلباتهم لا حد لها، كان الحاكم يفرح بوصولهم، ويأخذ فى تقسيم الضرائب وتخصيلها وفق هواه فمرة باسم إنجازات المهمات، ومرة باسم العلف والمؤن وسداد النفقات، ومرة باسم

التعهدات وإجابة الملتزمات وكان يتفق بعضًا منها في إنجاز المصالح، ويعطى الشحن والكتاب بعضًا آخر، ليصيروا أعرافًا وشهود زور له. ورغم المبالغ الكثيرة التي كانوا يأخذونها من الرعية، لا يرسلون قسطًا منها مطلقًا إلى الخزنة.

على هذا النحو صارت أموال الولايات تبدد، وتضيع باسم النفقات المقررة وبعض الحوالات. وفي خراسان كان قد بقى من تلك الحوالات شان أو عشر. وكان الرسل وأصحاب الحوالات يلجأون إلى الديوان، وفي أيديهم الحوالات، فيجيبهم المسئولون: "إن المال موجود في الولايات، فكيف لا يسلم إلى أصحابه؟" ثم يؤكدون ذلك بنجم الحوالات مجددًا بالختم الأحمر (التمغا) كي تصرف لهم حقوقهم بسرعة، فيذهب هؤلاء إلى الحاكم مرة ثانية، ويترتب على ذلك تحمل نفقات أخرى، فيتخذ الحاكم من ذلك ذريعة، ويفرض على الرعية ضرائب جديدة. وكان الحاكم يقول للرعابا: "أنتم ترون أن رسلًا عديدين قدموا إلى هنا. وإذا لم تكن هناك نفقات ولوازم معدة لهم، فإنه لا يمكن إجابتهم إلى مطالبهم. ولم يكن أى مخلوق يمرؤ على أن يقول له: ينبغي أن تعطينا أموالهم [ص ٤٥٤]. أو أن يقول: إنك قد أخذت أول العام ضرائب مضاعفة وبددتها، إذ وزعت أربعة أسداس منها فيما بينكم، وأبقيت سدسين لنفقات الرسل. وفي النهاية يعودون يخفى حنين. وهكذا ظلوا يترددون مرات عديدة إلى أن صارت تلك الحوالات في أيديهم أورقًا بالية. وأخيرًا ينقطع الأمل في صرف قيمتها، وتظل سنوات عديدة في محافظتهم وحفاظتهم.

وجريًا على المعتاد لم يكن أى مخلوق يعرف على الإطلاق ما هي حقيقة المبالغ التي تدفعها كل ولاية، ولا الجهة التي يمكن تحرير الحوالات إليها حتى يحصل قيمتها. وكانوا يحررون الحوالات للمتابعة إلى الأطراف حسب الطلب.

ولما كان الوزراء والنواب يعلمون علم اليقين أن المبالغ لن تصل، ظلوا يماطلون ويسوفون، ويمنون الناس بقصد جذب قلوبهم قائلين: إننا نكتب هذه الحوالات مراعاة لحاظكم. وبهذه الألاعيب كانوا يصرفونهم راضين مسرورين. ولم يسفر هذا الوضع عن نتيجة سوى خراب الولاية. وخلال ذلك يجد النائب والوزير مبررًا لاستغلال الموقف فيعرضان على حضرة السلطان قائلين: إن الجباة كثيرون في الولاية. ويجب أن يزودوا

الخزانة بقسط من الأموال. وفي الحال يستصدرون مرسومًا مضمونه أنه على كافة أرباب الحوالات ألا يدفعوا شيئًا إلا كذا وكذا من النفقات، وتلك المبالغ المحدودة التي تخصص لتقديم هبات وعطايا للوزير والنائب، وهدايا للحكام. وهذه ينبغي وصولها.

بعد ذلك كان الحاكم يكتب رسالة يقول فيها: حيث إننا منعنا الجباة من التصرف في الأموال، ينبغي أن تصل النفقات الخاصة بسرعة من الولاية. وبهذه الحيلة كان يأخذ تلك الهدايا نقدًا. وكذلك كان الوزير يتواطأ مع حكام الولايات. وإذا لم ير الحاكم التأشير على الحوالة أو الرسالة، فإنه يمتنع عن دفع تلك الأموال. ومرة ثانية كان الرسل والجباة يعدون حيارى. ومرة ثالثة كان الوزير يمن عليهم وعلى الأمراء [ص ٤٥٥]، ويكتب من جديد رسالة يبين خلالها سطورها أن مصلحة الوزير قد أنجزت وأن غرضه قد تحقق.

وأما حكام الولايات فنتيجة لتواطئهم مع الوزير ومراعاة لحاظه تجرأوا واشتد بطشهم وضادوا في ممارسة أنواع الظلم والغلو في الاعتداء. وكان يضيع هدرًا كل سنة جزءان أو ثلاثة من مجموع الضرائب ورسوم التمتع في المدينة لسد نفقات الرسل والوفاء بالتراماتهم. وكان الناس يتعجبون لهذا التصرف ويقولون: لماذا يمتنع الحاكم عن صرف رسوم الدفعة النقدية لمستحقيها، هذا على حين أنه ينفقها في مثل هذا الغرار؟ ولكنهم في غفلة عن هذا الأمر وهو أن الحاكم قد اختار تلك الطريقة بسبب سوء فعله، ولكي يستطيع بهذه الحجة أن يأخذ أضعاف تلك النفقات ويسلبها. وعند تصفية الحساب يوفد اثنين أو ثلاثة من المندوبين من أجل نفقات الرسل. وبهذه الحجة لا تصل حقوق الديوان. وفي الحقيقة لم يكن يصل على الإطلاق من تلك الولايات إلى الخزنة داتق ذهبي واحد. وكذلك الحال بالنسبة إلى النفقات المقررة التي أنفقت من أصل الحوالات، فإتهم لم يدفعوا منها دينارين من عشرة دنانير. ولم يكن أحد مطلقًا يرى التمتعجي^(١) يباشر عمله؛ لأنه كان دائمًا هاربًا، أو أنه وقع أسيرًا في أيدي الجباة يُضرب بالعصا. ولهذا كان بقدر ما يستطيع يرسل أشخاصًا في الخفاء، يذهبون ليلاً إلى منازل الرعايا كالتنقيبين ليستوفوا رسوم الدفعة من الناس.

(١) الشخص المكلف بوضع الدفعة.

وبحكم الضرورة كان يرضى بأن يحصل منهم نصف الرسوم المقررة يقدمونه له خفية. ولهذا السبب كانت رسوم الدفعة تهبط وتتناقص، وما كان يحصل منها يصرف لسد نفقات العلف لدواب الرسل. هذا على حين أن خدمهم كانوا ملازمين لهم كظلمهم ويحصلون منهم على نصيبهم. وحيث إن النقود لم تكن تصل إلى الجميع، كان هؤلاء الخدم يتشاجرون فيما بينهم؛ فمن كان أكثر قوة، فاز بالنصيب الأكبر. وأما أجور العمال والنفقات المقررة للولاية مما يمكن أن يتوقف عليه عمرانها، وبدونها لا تسير شئون الملك، فإنه بسبب تأمر الحكام كان يزيد أغلبها على أصل المال المقرر، ورغم هذا لم يعطوا مخلوقاً قط دانقاً واحداً.

وفي أول العام يحتجون بأنهم يبدرون بإعداد أموال الخزانة. ولكنهم بعد ذلك كانوا يقولون [ص ٤٥٦] إننا سندفعها وقت الرخاء. ولما كان الرسل والمحصلون الكثيرون الذين لم تكن أمورهم قد أنجزت بعد، يحضرون دائماً، كان الحكام يتحمل الأعذار ويقول: إن أفواجاً عديدة من الرسل ملازمون لي، وينبغي إنجاز مهامهم قبل غيرهم. أما أرباب الأجور والرسوم والصدقات وغيرهم، فإنهم يقضون الوقت من أول السنة إلى آخرها في الماطلة من جانب المسؤولين والتسويق إلى اليوم والغد. وهكذا كان هؤلاء الضحايا يجلسون عرايا جوعاً. أما الأشخاص الأكثر نشاطاً فقد التجأوا إلى نواب الحكام. وبمزيد من الإلحاح والتوسط يبيعون نصيبهم الواحد بنصف ثمنه. وفي المقابل يشترون البضائع بضعفي ثمنها بحيث إن حقوقهم في النهاية تصل إليهم بمشقة بالغة. ويألف حيلة إلى ربع ما كانوا يستحقون. ومن أتاحت له هذه الفرصة، كان يعتبر نفسه عضواً فعالاً وسعيداً. أما الآخرون فيبقون محرومين حرماناً تاماً يحسدون زملاءهم المظلومين. وإذا استطاع أحد المحرومين أن يصل بمشقة بالغة إلى بلاط السلطان لعرض شكواه، فإنه كان يأخذ رسالة من الدهوان الأعظم مضمونها كما يقول المسؤولون: إننا قد قررنا صرف مستحقاته قبل الجميع، فلم لم تصل إليه؟! وهنا يتحمل الحكام عذراً قاتلاً: إن على الولاية أموالاً متأخرة، ولهذا لم أصرف له حقوقه. وسوف أحرر له رسالة يتسلمها، فكان ذلك المسكين يأخذ الحوالة مضطراً بالبقايا المتأخرة. ولما كان الحكام قد استوفى الأموال الطائلة - التي سبق ذكرها -

بالزيادة، كيف تكون لديه بقايا؟ وتلك البقايا التي كانت متأخرة إنما هي من الضرائب الإضافية التي فرضوها على الرعايا. وهناك بعض الرعايا الذين لم تكن لهم طاقة على سداد الضرائب المتكررة، فيضطرون إلى ترك قراهم ومساكنهم ومهربون، أو إذا كان هناك أشخاص ذوو نفوذ أو حيية، فإنهم يمانعون في سداد المبالغ الإضافية، وهؤلاء كانوا يرضونهم بقولهم: لن نطالبكم بسداد هذا القسط الأخير، أو إننا سوف نخفض لكم نصف المطلوب. وكان المحصل والكتاب قد سجلا في السجل مجموع الأقساط على الرغم من أن المقرر تحصيله لا يزيد على ضريبة واحدة. [ص ٤٥٧] ونظراً لأن آخرين قد سدّدوا وبعضاً لم يسدّدوا، أو دفعوا أقل من المطلوب، يتبقى شيء من القسط الأخير، سموه "البقايا". ولما كان المحصل والكتاب شريكين في إضافة تلك الأقساط المكررة واختلاسها، كانا يسجلانها، ويشهدان على صحة ما كتبا شهادة غامضة.

وإذا ما سأل الحاكم نائب أو وزير قائلاً: هل هذا الباقي من أصل المال، أو أنه من الإضافات التي أضفتها؟ يبين حقيقة الأمر. ولكن حيث إن الثواب والوزراء يعرفون هذه الحقيقة، وهي أنهم يتقاضون من الحكام تلك الإضافات كنوع من الجملة، كانت تقصر ألسنتهم. وهكذا فإن هذه التصرفات التي شرحناها كان يقدم عليها كل واحد من الوزراء السابقين. لكن هذا الأسلوب كان حرفة "صدر الدين الجلاوي"^(١) وصنعه. فقد اكتسب مهارة فائقة في ذلك التدليس بحيث إنه أوصل الفساد والجور إلى عنان السماء، وألحق الضرر البالغ بكل شئون المملكة والإدارة. وفي عهده لم يتطلع أى مخلوق أن يحصل على قيمة حوالة من الحوالات من إحدى الولايات، ولم ينل حقه أى مستحق لأجر أو رسوم ذلك أن كل الحوالات الصادرة عنه كانت محض تضليل وخداع. وكثير من الفقراء والمستحقين والشيوخ الذين كان يتاح لهم الوصول إليه، كان يمرر للواحد منهم حوالة

(١) صدر الدين "الجلاوي" هو صدر الدين أحمد الحفافي الزماني وزير جيخانوحان (٦٩٠ هـ/١٢٩١ م)

(١٢٩٤ م) والذي أفتت السلطان باستعمال هذا النوع من العملة الورقية (چانو) بدلاً من التعامل بالذهب والفضة وذلك لتفريغ الأثرمة المالية التي حلت بالبلاد. ولكن ثبت فشل هذا النظام فشلاً قريباً فقرر إلغاءه والعودة إلى التعامل بالذهب والفضة. ولهذا لقب الوزير بلقب "جلاوي" على سبيل السخرية والاستهزاء. (انظر كتاب الشرق الإسلامي ص ٢١٠ وما بعدها).

بمبلغ خمسمائة دينار بناء على التماس أو غيره من وسائل التذلل والإلحاح. ولأن هذا الشخص الفقير لم يكن قد رأى مطلقاً مائة ألفجة^(١)، كان يسمى ذلك سخاء، ويفرح لذلك أشد الفرح. وعندما كان يذهب لطلب هذا المبلغ كان يفكر في نفسه قائلاً: إن لي خمسمائة دينار، فلاأقترض الآن مائة دينار أنفقها في التنقل وإنجاز المصالح وما يلزم من نفقات الطريق. وبعد أداء قيمة القرض، يتبقى لي أربعمائة دينار. وعلى هذا الأمل، كان يتردد كثيراً لتحصيل هذا المبلغ، وينسى أنه شبح لا طائل وراه. وما كان يحينه من وراء ذلك هو أنه كان يتعلم عمل الساعة والجباة والعيارين؛ غير أن كل هذه المحاولات لم تحقق له أية فائدة. وعاقبة الأمر أن المقرض كان يهرب من هذا البلد.

ولا شك أنه نتيجة لسوء التدبير والتدمير جلا أكثر الرعايا في البلاد عن وطنهم، وأقاموا بيوتهم في بلاد أخرى غريبة. وبهذا خلت المدن والقرى من السكان، وبقيت خلوية على عروشها. [ص ٤٥٨] وإذا ذهب رسول لإحصاء الغائبين وجمعهم، فإنه كان ينزل بهم كثيراً من المشقات ويأخذ عليهم تعهداً بسداد أضعاف الضرائب المقررة عليهم. ورغم هذا لم يكن لهم ميل مطلقاً في العودة إلى بلادهم، وكانوا نافرين منها أشد النفور. ورغم محاولات العديدين من الرسل الذين يذهبون في أوقات مختلفة إلى الأطراف لجمع الغائبين لم يستطيعوا حمل واحد من الرعية على العودة إلى مقره. وأما أولئك الذين كانوا قد بقوا في مدنهم، فقد سدوا أبواب منازلهم بالحجارة، وضيقوا مداخلها. وكانوا يروحون ويحيثون عن طريق أسطح منازلهم، ويهربون خوفاً من الجباة. وعندما يذهب هؤلاء الجباة إلى منازل الرعايا، يبحثون عن أحد الأشقياء المحتالين الذين لهم إحاطة تامة بعناوين المساكن. وإرشاده كان مرافقو الجباة يسحبون الناس من الأزقة والسراديب والحدائق والأماكن الخفية. وإذا لم يستطيعوا إلقاء القبض على الرجال، فإنهم كانوا يعتقلون نساءهم ويسوقوهن كقطعان الغنم من محلة إلى أخرى، ويلقون بهن أمام الجباة. وكانوا يعلقونهن من أرجلهن، وكثيراً ما شوهد الجاني يصعد سطح المنزل، حتى إذا ما وجد صاحبه جرى وراءه إلى أن يلقي القبض عليه. فكان الرجل يهرب على غير هدى يدافع العجز الشديد والبؤس الذي لا حد له

(١) عملة صغيرة.

يلقى بنفسه من سطح المنزل إلى الأرض، فكان يدركه المصبل ويمسك بتلابيه، وتأخذه الشفقة عليه والرأفة به؛ فيستعطفه ويستحلفه ألا يلقى بنفسه من فوق السطح حتى لا يهلك. ولكن حيث إن الزمام قد أفلت، والفرصة قد ضاعت، يكون قد سقط بالفعل وكسرت رجله.

من جملة هذه الولايات التي تعرضت لهذه المآسى ولاية يزد^(١) التي آل أمرها إلى حد أنه إذا تجول شخص في كل قراها، فإنه قطعاً لن يرى فيها مخلوقاً يتحدث إليه أو يسأله عن الأحوال. أما الأشخاص المودودون الذين بقوا فيها، فقد عينوا لهم حارساً؛ حتى إذا رأى أحداً من بعيد، أخطر الباقين، فيختفون جميعاً في القنوت وبين كتيبان الرمال. [ص ٤٥٩]

وكل واحد من أكابر الملوك يمتلك أملاكاً في يزد، إذا ما ذهب إلى هناك، وأراد أن يتفقددها، لا يرى أحداً من فلاحيه، حتى يسأله عن أحوال بساتينه وأبن توجده. وفي أكثر المدن خشية أن ينزل الرسل في منازل السكان كان هؤلاء يعدون أنفاقاً تحت الأرض لها ممرات ضيقة ومتعرجة بحيث تجعل الرسل لا يميلون إليها ولا يرغبون في ولوجها. وقد أقدم السكان على ذلك؛ لأن الرسل إذا نزلوا داراً، كانوا فضلاً عن عزيق السجاجيد وثياب النوم، وتحطيم أدوات المنزل، أو استعمالها استعمالاً سيئاً، يحملون منها كل ما أرادوا، أو يسرقها خدمهم. وإذا كان رب البيت قد جمع قليلاً من القوت والتفقات والأحطاب، فإنهم كانوا يستولون على هذه الأشياء، كما كانوا يستعملون الأبواب للوقود، فيحرقونها بدلاً من الحطب. وهكذا صاروا يخربون كل ما تقع عليه أيديهم.

(١) يزدى رشيد الدين اعتماداً خاصاً بولاية يزد لما يدل على ارتباطه الشديد بهذا البلد؛ إذ تروى المصادر أنه كان يمتلك في يزد أملاكاً وضائعاً وعقارات عديدة، وقف الكثير منها على أعمال الثقافة والر والحرير. كذلك استقدم عدداً من الفلاحين من أعمال يزد ممن لهم خبرة وتجربة في أعمال الزراعة والقلادة ليعملوا في ضياعه وأراضيه الواسعة في تبريز. وفي مقدمة هذا كله كانت تربطه صلة مصاهرة ونسب ببعض الشخصيات المرموقة في هذه المدينة.

لكل هذه الاعتبارات كان رشيد الدين أقدر من غيره على الوقوف على حقيقة الأوضاع في ولاية يزد. (انظر مجموعة خطابه هـى تخليقي در باره رشيد الدين فضل الله هملاني: مقاله الأستاذ ارج المشر بعنوان: رشيد الدين فضل الله يزد، ص ٢٥ - ٣٦، طهران ١٣٥٠ هـ.ش).

ومن جملة ما سمع أن أحد أئمة يزد، كان يمتلك منزلاً في هذه المدينة. وفي شهور سنة خمس وتسعين وستمائة (١٢٩٥هـ/١٢٩٥م) نزل في هذا المنزل سلطان شاه بن نوروز على أنه رسول، وكانت معه والدته وأتباعه. وكان ذلك في عهد عظمة أبيه نوروز. وقد أقاموا هناك أربعة أشهر. وبعد أن استولوا على الأمتعة الثمينة ولم يتركوا منها شيئاً يذكر، ورحلوا باليمن والبركة، حضر مثنو العقارات في المدينة، وسلخوا سبيل الاحتياط في تحديد ثمن محتويات الدار التي بلغت قيمتها خمسين ألف دينار. وكانت قد أحرقت أبواب المنزل التي هي في غاية اللطف والأناقة، والتي كان يقدر ثمنها بما يزيد على ألفي دينار. كما خربت أماكن أخرى.

فإذا كان - على هذا النوال - حال دار رجل معمم يتولى منصب الإفتاء في المدينة وينتمي إلى هيئة القضاء فإنه يمكننا أن نفيس على ذلك كيف تكون أحوال الأهالي والأفراد والرعايا؟! إن الأمر الذي لا شك فيه أنه لن تكون للسادة والأكابر والأصاغر من الرعايا قضية أصعب وأعقد من هذه. [ص ٤٦٠] وبمجة إيفاد الرسل كانوا يسلبون الآلاف العديدة من السجاجيد وثياب النوم وقدر طهي الطعام والأواني وأدوات الناس، ويسوقون الدواب إلى بساتينهم. وكانوا يخربون في يوم واحد الحدائق التي كان أصحابها قد عمروها بمائة ألف مشقة خلال مدة تزيد على عشر سنوات. وإذا تصادف أن كانت هناك قناة في ذلك البستان وسقطت فيها دابة يمتلكونها، كانوا يعتقلون صاحب البستان، ويقطعون الأشجار في الشتاء للتدفئة. وإذا رأوا شجرة باسقة في إحدى الحدائق، فإن الحكام والأشداء يقطعونها بمجة أنها تصلح لصنع رماح الجند. وفي بعض الولايات كان هناك كثرة هائلة من الجبابة والعلماء وساداتهم من القواد، وهؤلاء يكونون في الحقيقة ضعف عدد أفراد السكان.

وقد ذكر أنه في سنة إحدى وتسعين وستمائة (١٢٩١هـ/١٢٩١م) كان عليخواجه بن عمر شاه السمرقندي حاكماً على ولاية يزد، فذهب أحد الملاك إلى قرية تدعى "فهرزآباد"، وهي من أهم وأعظم القرى هناك كي يحصل شيئاً من عوائد ملكه الذي كان يمتلكه. ومهما سعى هذا الرجل في سبيل ذلك ثلاثة أيام بلياليها، لم يستطع العثور على أي مخلوق قط من الأعوان. هذا على حين أنه قد أقام في القرية سبعة عشر من المخلصين

وأصحاب الحوالات. وقد قبضوا على أحد الحراس واثنتين من السكان من الصحراء وأحضروهم إلى القرية، وقيدوهم بالحبال، وصاروا يضربونهم، وذلك كى يحضروا الآخرين، وحتى يحصلوا على طعام لهم. ولكن لم يتيسر لهم ذلك مطلقاً. وكان من اللازم لجمع هؤلاء المحصلين وأتباعهم الحصول على العلف والمؤن والشراب والسراري. ويمكن أن نقيس على هذه التصرفات: كيف كانت أنواع الظلم الأخرى. وينبغي التفكير فى أن هذه البدع الكثيرة والرسوم السيئة التى أصبحت يمرور الأيام عادة أهل سوء كيف يمكن تداركها فى وقت قصير؟ خصوصاً وأنهم فى كل زمن أرسلوا المراسيم إلى الأطراف بخصوص استمالة الرعايا، [ص ٤٦١] ودفع بعض الظلم عنهم. ولكن لم يعمل بها فى أى وقت، وبس منها كافة الخلق.

وفى هذا الوقت الذى يمثل العهد المبارك لسلطان الإسلام غازان خان - خلد الله سلطانه، وأدام عدله وإحسانه - وجه رأيه المبارك الذى هو محض العدل والخير، وصرف كل همته إلى تدارك الخلل الذى كان قد تطرق إلى شئون الملك، والقضاء نهائياً على البدع والمفاسد. وقد سعى سعياً جدياً فى سبيل أن يعيش الناس دائماً فى راحة تامة، وصرح بأن الفائدة من حاصل عمر المرء فى الدنيا إنما تكون فى تحقيق هذه الأمور، وألزم نفسه أن يجد ويبحث إلى أقصى حد فى هذا المجال لتدارك هذه العيوب المذكورة فى الولايات التى تدفع الضرائب، وقال فى هذا الصدد: فى الوقت الذى فسدت فيه القوانين، تعطلت السياسة وتطرق إليها خلل بالغ، فينبغى البدء بتنظيم الأمور الصغيرة قبل أى شئ آخر حتى يعرف أهل العالم أن المؤاخذه والعقوبة إذا وقعت بسبب الأمور البسيطة فإن العقاب على الكبار يكون بالضرورة أضعافاً مضاعفة. وهذا من شأنه أن يرغم الناس على أن يكفوا أيديهم عن ارتكاب هذه المخالفات. وقال أيضاً: إن أساس كل عمل، وأصل الوصول إلى كل غرض هو المحافظة على كل الجزئيات داخله؛ لأن المسؤولين إذا تداركوا تلك الجزئيات واحدة فواحدة إلى أن تستقيم واحدة منها، ثم شغلوا بإصلاح جزئية أخرى، فإن ما تم إصلاحه أول الأمر قد يختل مرة أخرى، ويتعذر إصلاحه. ثم أضاف السلطان قائلاً: إن قومًا تعودوا على طريقة ما زمناً طويلاً، وصارت طبيعة لهم، يصعب جداً منعهم من انتهاج هذا السلوك، وانتزاع تلك العادة من طبيعتهم. كما أن الحكام المستبدين الذين اعتادوا فى هذه

الأموال الإسراف في الجور على الرعايا والاستيلاء على الأموال مضاعفة، ولا يعطون الديوان شيئاً منها قط. وكل سنة يحالون إلى المقاضاة والمحكمة، وبرشون ويقضون فترة من الزمن في اختلاق الحكايات العديدة. وإذا قتل أيضاً نفر من هؤلاء يظن الآخرون أن قضاياهم وقعت صدفة، ولا يعثرون ويتعظون، بل يقولون: إن الشخص الفلاني لم يساعدهم ويهتم بهم. وإلا فلو كان ما وقع من أجل المال والرقابة عليه، لكان يلزم اتخاذ هذا الإجراء [ص ٤٦٢] مع العديد من الأقوام الأخرى.

وصفة القول أننا إذا عاينا نصف هذه الجماعة، فليس من الممكن أن يرتدع الآخرون فيكفوا أيديهم عن الظلم والاعتداء، ويظل الرعايا على هذا النحو في عذاب دائم، ولا تصل أموال قط إلى الخزانة والجند. وإذن فالمصلحة تقتضي أن نفكر في طريقة تكف نهائياً أيدي حكام الولايات عن التصرف في الأموال، حتى لا يجذوا بالطبع منفذاً إلى التعدي تحت أية حجة أو ذريعة، فيكون مثلهم مثل الثعلب الذي قال: سوف أخلص نفسي من الكلب بألف حيلة وحيلة. ولكن أفضلها هي ألا أراه ولا يراني. وإذن فالأفضل أيضاً في هذه القضية هو ألا يستطيع متصرفو الولايات تحرير حوالة على الرعية ولو بدائق ذهبي واحد.

وبناء على هذا أمر السلطان غازان خان بأن يذهب كاتب نشيط إلى كل ولاية، ويكتب بالتفصيل مجموع المناطق التي تضمها تلك الولاية قرية قرية، وأن يقرر الضرائب بالتساوي بموجب الحسابات السابقة، ولا يتقيد بالزيادة والنقصان. وعلى هذا النحو يعمل حتى يصبح الرعايا مرفهين هانئين. كذلك أمر السلطان بأن يتفحص الكتاب كل أملاك الخاصة (ابنحو) والأوقاف والملاك الذين كانت في حوزتهم هذه الأملاك دون منازع منذ ثلاثين سنة، ويكتبوها موضعاً بها أسماء الحكام ويثبتوها في سجلات القوائين؛ حتى إذا ضاعت قبالة من أحد الأشخاص، أو أراد شخص آخر أن يستولى عليها فإنه يمكن الرجوع إلى تلك السجلات، والالتزام بما هو مدون بها. وبهذا لا يبقى لأى مخلوق مجال للتلبس أو التعدي. وعلى هذا ذهب الكتاب إلى البلاد حسب الأوامر الصادرة إليهم. ورغم أن الرجال الموثوق بهم تماماً والصالحين قليلون فقد سعى هؤلاء الكتاب بقدر المستطاع، ودونوا قوانين الولايات وأحضروها. وبعد ذلك أمر بالآلا يؤشر مطلقاً أى ملك أو حاكم أو كاتب بقلمه

على ورقة لتحرير حوالة. وإذا كتبت حوالة، فإن الحاكم الذى أذن بكتابتها، يقتل وتقطع يد الكاتب الذى حررها، حتى يراه الكتاب الآخرون، فيأخذوا من ذلك العظة والعبرة. كذلك عين لكل ولاية كاتباً يكون ملازماً هنا للديوان الأعظم. وفي أول العام يكتب الحوالات الموجهة حسب ما نص عليه القانون، قرية فقيرة [ص ٤٦٣] مع ذكر الأسماء والتفاصيل الأخرى اللازمة. ثم يؤشر عليها نواب الديوان الأعظم، ويؤكدونها بالختم الرسمى للدولة أى الختم الذهبى (التون صفرا). وبعد ذلك ترسل إلى الولاية كى يسدها الرعية على قسطين مع العشر ونصف العشر وحق الخزانة، وأتعاب جابى الضرائب الذى ينصب فى كل ولاية. وهو الذى يصرف لأصحاب الحوالات بعضاً مما حصله نقداً بموجب الحوالات المختومة بالختم الرسمى للدولة (التون صفرا)، ويرسل الباقي إلى الخزانة العامة، ويسلمه للخزنة مع سداد رسوم الخزانة. وإذا حمل الجابى أو الرئيس الأموال أحياناً إلى ملتزمى الضريبة، فإن عليه أن يسلمها نقداً مع عشر ونصف عشر الدانق، ويدفع عن مائة دينار نصف دينار رسوماً للخزانة، وإلا فإن هؤلاء الجبابرة يحضرون المال نقداً، ويسلمونه للخزنة مع رسوم الخزانة.

وأمر السلطان كذلك بأنه إذا ما سدد الرعايا الضريبة نقداً ذهبياً فإنه لا يجوز للجباة أن يستبدلوا به بضاعة عينية، ولو بدينار واحد. وإذا جاء أحدهم ببضاعة بدل النقد، فإن عليه أن يحملها إلى السوق ويبيعها، ويأتى بثمنها نقداً إلى الخزانة. وعلى المسئولين أن يدفعوا أموال المرتبات والرسوم والتنفقات المقررة المعمول بها فى كل مكان، ولا ينتقص منها دانق واحد؛ حتى يقوم الرعايا كلهم بالدعاء للدولة الخالدة. وبموجب الحوالات المميزة بالختم الرسمى للدولة، والتي تُحمل من هنا إلى الولايات، يقف جميعهم على الرسوم المستحقة عليهم، ويعرفون أنه لا ينبغي دفع زيادة ولو بمقدار دانق واحد. كما يكتبون إلى رجال القانون مستفسرين عن جملة استحقاقاتهم، وكيف حسبت لهم.

ولما نفذ هذا الحكم الذى يقضى بالآلا يكتب الحكام الحوالات، ظن ملك "روداور" من أعمال همدان أن هذا الحكم مثل الأحكام السابقة فأجاز للكاتب أن يكتب عدة حوالات على الولاية، فصدر الحكم بقتله وبقطع يد الكاتب. وعندما علم الكاتب بمسير الرسول لتنفيذ هذه المهمة الخطيرة لاذ بالفرار. وبعد ثلاث سنوات، توفى فى المكان الذى كان قد

هرب إليه. وبعد مدة قبضوا على كاتب في نهاوند، وقطعوا يده. كذلك قبضوا على بقال من الشخصيات المرموقة في همدان، كان قد حول لحسابه مئتين من السماق مفضلاً نفسه على شريكه، [ص ٤٦٤] وصدر الأمر بقتله، فتشفع له الكثيرون، وخفف عنه الحكم بالإعدام واكتفى بجلده مائة وعشرين جلدة، ودفع غرامة قدرها ألف دينار.

وفي الآونة الأخيرة كانوا يأتون بالفيلة من الهند، حتى إذا بلغوا همدان، حل الشتاء، ولم يكن يوجد علف. فقال الحكام هناك: يجب الحصول على العلف من البساتين. فلما بلغ هذا الرأي السمع الأشرف لغازان، قال: إننا نوفر العلف للفيلة، ونرصد ميزانية لذلك. وإذا فكيف يؤخذ من بساتين الناس؟! فليشتر أينما وجد، وإذا لم يوجد فكيف يستأج الحصول عليه من البساتين؟! ومهما يكن من أمر فلتسامح هذه المرة. أما إذا أقدم المسئولون بعد ذلك على مثل هذا التصرف فسوف نعاقبهم.

وجملة القول أنه خلال هذه السنوات لم يبق هناك مجال لأى مخلوق فى كل الولايات كى يكتب حوالة بمن من تين أو حبة من ذهب. وبذلك سُدَّ طريق كتابة الحوالات نهائياً. وفى العام الماضى تبين أن الحكام لم يجرؤوا على إضافة شىء على المبالغ المقررة؛ لذلك وزع الرؤساء والعمد فى القرى الزيادات فيما بينهم. ومن الطبيعى أنه إذا علم كل واحد من الرعايا المبلغ المقرر عليه، فإنه لا يدفع شيئاً زيادة على المطلوب. وكذلك لا يستطيع المسئولون مطالبة الغرباء وغيرهم ممن لم ترد أسماؤهم فى السجلات بسداد مبالغ قط.

وبسبب هذه الإصلاحات شغل جميع الرعايا بالدعاء لدولة سلطان الإسلام - خلد سلطانه وعاد الغائبون إلى مقارهم دون أن يسعى أحد فى طلبهم. وقد ترتب على هذا أيضاً أن المنزل الذى كان ثمنه مائة دينار، صار لا يباع الآن بألف دينار. وقد توافرت أموال كل الولايات من مسكوكات "دار الضرب". وفى كل سنة يوافق بها المسئولون الخزانة مرتين أو ثلاث مرات دون إبداء عذر أو تعلل كما يشاهد ذلك أهل العالم. وخلال هذه السنوات المعدودة لم تصدر مطلقاً إلى أية ولاية حوالة بدائق من ذهب أو "تغار" من غلة، أو حمل حمار من تين أو خروف أو من من شراب أو هدية أو حرير أو ذخيرة أو متونة. [ص ٤٦٥] كما لم يؤخذ شىء من هذه الولايات.

وقد منح الحق تعالى البركة فى الأموال وحقوق الديوان؛ بحيث إنه مهما أمر السلطان بالإغداق على الجند، وإجابة المحتاجين إلى ملتمساتهم، والإنعام على المقرين، وسداد نفقات كل طائفة، تكون كلها نقداً من الخزانة. ولم يصادف فى أى وقت أن تكون الخزانة خالية من الذهب والثياب. وإنه معلوم وواضح من السجلات القديمة والجديدة أنه لم يصرف فى أى عهد وزمان هذا القدر من الذهب والنقد والثياب الذى يأمر به ويمنحه فى كل عام السلطان غازان خلد سلطانه كما أن هذا القدر من الأموال لم ينفقه الآخرون خلال خمسة أعوام. والخزانة لا تزال باقية ومليئة بالذهب والثياب وأموال الولايات. وقبل هذا لوحظ أيضاً أنه على الرغم من أن الحكام لم يعطوا أحداً شيئاً بموجب الحوالات والتراخيص؛ فإنهم فى نهاية العام كانوا يكتبون كشفاً بالحساب يبين أن الأموال كلها قد صرفت. وكان الواحد منهم يحصل على مبالغ أخرى إضافية.

أما فى هذا الوقت، فإنه يعم عاطفة السلطان خلد سلطانه وحسن تدبيره، عمرت الممالك، وبقي فى عهده حكام الولايات وفر وزيادة فى المبالغ. كما أن غلة العام الماضى لا تزال جملتها موجودة فى المخازن حتى لا يرغم الناس على شرائها قسراً. ولا ينبغي التسرع فى بيع المحصول الذى ينتضج كل عام. وأما ما كان غير ناضج من الغلال فإنهم كانوا يحصلون عليه بمجرد دفع العربون. والآن تتوافر للديوان كل سنة زيادة فى الغلال الموجودة فى المخازن.

بعد ذلك صرح سلطان الإسلام قائلاً: حيث إننا قررنا هذه التدابير، وكفنا أيدي الحكام عن تحرير الحوالات، وعلم الرعايا بالتفصيل القدر المعين لحقوقهم، صارت تلك القاعدة مقررة ومعتمدة، وسهل على الرعية إلى أقصى حد أداء ما هو مقرر عليهم، وصاروا يؤدونه برغبة تامة.

وما ينبغي التفكير فيه هو أنه فى الوضع الثانى بقيت هذه القاعدة مضبوطة ومستحكمة ومستمرة لا يتطرق إليها وهن بسبب الانقلابات وكثرة الأشغال ووقوع الحوادث والوقائع التى تحدث فى العالم؛ إذ إنه يتوافر هذه الأمور لا تدعو الحاجة إلى كتابة كل هذه الحوالات الصادرة عن الديوان الأعظم، والمطالبة بأموال الولايات على وجه السرعة، أو يتواتى النواب ووزراء العهد عن ضبط هذه المسائل، فيأذنون للحكام [ص ٤٦٦] بتحرير

الحوالات، ويصل المستبدون النهازون للفرص إلى مقصودهم، ويسيطون أبداً التناول
فيتعذب الرعايا من جراء ذلك، ولا يكون هناك مجال للسؤال والجواب، وتبطل هذه
القاعدة الحميدة التي أمكن إرساؤها بمشقة بالغة. وبهذا يخرب العالم مرة أخرى، وتتبدد
أموال الخزائن، ونفقات مؤن الجيش.

وحيث إن السعادة حلت بنا، وكانت عوناً لنا، وصار التوفيق حليفنا أسند إلينا الحق
تعالى أمور السلطنة، ومنحنا القوة والقدرة. فينبغي مداومة السعى، وبذل الجهود الجبارة
وتجنب الإهمال والغفلة. وبذلك تتوطد هذه الضوابط والقواعد، وتصير ثابتة ومؤكدة
بحيث إنه لا يمكن أن يتطرق إليها بأى وجه من الوجوه أى تغيير أو تبديل.

بناء على هذا أمر السلطان بأن يكتب مرسوم مصاغ فى عبارة واحدة، وتخفظ صورة
منه فى كل ولاية. وهكذا يفعلون حتى تكون الأحكام واضحة ومعينة لدى الجميع كبيرهم
وصغيرهم.

وهذا هو نص المرسوم نذكره على النحو الآتى:

نص

**المرسوم الخاص بدخول الولايات الذى يكتبه الديوان
بالتفصيل، ثم يقوم بتوزيعه، ويقضى بألا يكتب الملوك
وحكام الولايات حوالات بتاتا**

بسم الله الرحمن الرحيم

فرمان السلطان محمود غازان

ليعلم حباة الضرائب والملوك والنواب والحكام والقضاة والسادات والأئمة والصدور
وملاك الأراضي والأعيان والوجوه والرؤساء والعمد، وعموم الرعايا وأهال المدن والبلاد
من ضفاف نهر جيحون إلى تخوم الشام والافرنج أن كل همنا وتفكيرنا ونظرنا كان

موفقاً على أن تكون هذه الأيام المعدودة من العهد المبارك لسلطاننا سائرة بمقتضى نص الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(١). وبموجب قوله تعالى أيضاً: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾^(٢). فننهض لإزالة أنواع الظلم (ص ٤٦٧) والتعدي والجور واستبداد المستبدين والظالمين الذين اعتادوا ذلك بمرور الزمن حسب فحوى الآية الكريمة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾^(٣)، فجعلوا دماء المسلمين وأموالهم رزقاً وطعمة لهم، فعلمنا أن تقضى على ذلك قضاء مبرماً؛ بحيث لا يطمع بعدها أحد في الرجوع إلى عادة طمعه وخيائته الأولى، فرتبنا ونسقنا شئون الملك، ودبرنا الأمور؛ بحيث تعود فوائدها عاجلاً أو آجلاً إلى كافة خلق الله تعالى، وتكون سبباً لرفاهيتهم وراحتهم، وحتى يحصل لنا ببركة ذلك حسن السمعة في الدنيا والآخرة. وذلك بموجب قوله (صلى الله عليه وسلم) "من سنَّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها"^(٤)؛ إذ قد تحقق لدينا أنه لا توجد فائدة في العالم أعظم من العمل بمقتضى قول النبي ﷺ: "عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة". فلا يمكن الحصول على زاد للآخرة أفضل من هذا الوجه.

والآن قد تحقق وتبين لأهل العالم أنه يتوفيق الحق تعالى، وعملاً بما جاء في الحديث النبوي الشريف "أحب الناس إلى الله تعالى وأقربهم إليه السلطان العادل، وأبغضهم إليه وأبعدهم منه السلطان الجائر"^(٥)، قد خرج ذلك إلى حيز التنفيذ. وبقدر الوسع والإمكان

(١) الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ بِعَظَمِ لَكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. (سورة النحل، آية ٩٠).

(٢) الآية: ﴿يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾. (سورة ص، آية ٢٦).

(٣) الآية: ﴿وَكُلُّكُم مَّا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾. (سورة الفرقان، آية ٢٣).

(٤) ورد في مسلم بعبارة "من سن في الإسلام سنة حسنة" (باب الزكاة ص ٦٩ وباب العلم ص ١٥)؛ النسائي: (باب الزكاة، ص ١٦٤؛ ابن ماجه: المقدمة، ص ١٤).

(٥) ورد هذا الحديث في كتاب سنن الترمذي على هذا النحو: "إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر". (سنن الترمذي، وهو الجامع الصحيح للإمام أبي عيسى بن سورة الترمذي، ج ٢، ص ٣٩٤، حلقه وصححه عبد الرحمن محمد عثمان، المدينة المنورة بدون تاريخ).

أمكن تدارك بعض تلك المظالم والاعتداءات التي كانت مستمرة قبل هذا. وقد تعين شرح وتفصيل ذلك على حدة:

من جملة هذه الإصلاحات تعيين وتقرير أموال وأحوال الممالك وإزالة الحيازة، والقضاء على المضاربات، وإلغاء الضرائب الاستثنائية وأنواع الحجوزات الديوانية، ومنع تحصيل نفقات توفير العلف لدواب الجبابة والرسل الذين كانوا يوفدون تباغاً إلى كل ولاية لجمع الأموال. وكانت تصرفاتهم سبباً رئيسياً فيما لحق بالرعايا من أنواع المشقات والتخريب.

من أجل هذا أرسلنا الكتاب إلى كل الممالك، كى يكتبوا بالتفصيل أسماء الولايات والنواحي والقرى، ويحددوا ما عليها من الأموال والضرائب؛ بحيث يكون جميع الخلق مستريحين من ذلك الإصلاح، وشاكرين راضين؛ إذ إنه قبل هذا كان المستبدون والظالمون يأخذون أضعاف تلك الأموال باسم الإتاوات والضرائب الاستثنائية والمؤن وأمور أخرى كثيرة؛ بحيث إننا لو رحنا نكتبها، فإن الشرح يطول. ؟ [ص ٤٦٨] ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن أكثر العمال وكذلك الأراذل والقواد كان يسلبون الأموال ولا تعود فائدة تذكر على الديوان وبيت المال، بل كان ذلك يؤدي إلى الخلل وخراب الملك وتبديد المال. ثم إن الأشخاص الذين كانوا يقبلون أموال الديوان وفق نظام الإقطاع والضمان، وغرضهم أن يصيروا ملاكاً يفعلون ما يريدون، فكانوا يستولون على أضعاف أموال الإقطاعية، ولا يؤدون جزءاً منها إلى الديوان. ولهذا السبب لم تكن هناك أموال للإنفاق منها على تجهيز الجيش والحفاظة على الثغور وإبرام مصالح الملك، فكانت الضرورة تدعو إلى مصادرة الأموال وفرض ضرائب استثنائية على كافة الناس، وإرغامهم على تقديم إعانات.

ولهذا السبب كان الملك دائماً وكذلك الولايات والرعايا فى زعزعة وعدم استقرار وتعب ومشقة، والجيش بلا مثونة وضعيف الحال. أما الآن فقد تيسر بمعونة الحق تعالى واتساح المجال كى ندون كل القواعد والقوانين بالتفصيل عن أكثر مواضع الممالك قرية فقيرة، بصورة لم يسبق لها مثيل مطلقاً فى أى عهد، ولم يجمع نظيرها من السجلات والكتب. كذلك قررت أموال تلك المواضع ورصدت. ولو أنه لا يستطيع أى شخص مطلقاً أن يأتى بما يساوى هذه المجهودات وذلك بسبب عدم الاطلاع عند بعضهم، وبدافع الأغراض والمطامع عند البعض الآخر. وقلما يوجد الشخص الذى لا تكون فيه هذه

الصفات الذميمة. ولكن القوانين دونت بقدر ما تيسر. ثم عرضت علينا. وإذا كان فيما عرض قد حدث تفاوت فاحش أو سهو واضح من أحد الأشخاص، فإن نواب الديوان الأعظم قد تداركوه. وأكثر المواضع الديوانية التي تقتضيها المصلحة وتوجبها الضرورة قد سلمت للعاملين من القضاة والمزارعين ورجال القانون، بشروط مؤبدة مخلدة وموشحة بالتوقعات الديوانية، وممهرة بختنا الرسمى للدولة كي يتصرفوا بموجبها، ويؤدوا حقوق الديوان سنة بسنة.

وحيث إنه قد زالت أنواع الظلم والاعتداء والضرائب الاستثنائية والأعباء الديوانية التي كانت موجودة قبل هذا، فإن ما وقع من تفاوت وسهو لم يقدّم له وزن بالقياس إلى المظالم والأضرار التي كانت موجودة سابقاً. وعلى هذا لم يضايق الناس الواحد منهم الآخر. [ص ٤٦٩] وصار جميع الخلق شاكرين راضين مادحين. وقد تخلصوا من متاعب الحياة والاستيلاء والضرائب الاستثنائية والأعباء الديوانية التي يكثّر عددها ويطول شرحها. أما الأشخاص الذين كانوا لا يخشون الله والمارقين وقصار النظر فلكي تكف أيديهم عن تخريب الحوالات التي يستعملونها في جذب أموال الناس وامتصاص دمائهم أمرنا - بخصوص تلك الأموال المفضلة والمقررة على كل موضع بموجب القانون - بالآلة بتدخل الحكام والولاة في الولايات في كل ما يتعلق بشئون الحوالات حتى تقصر أيديهم نهائياً عن تخريبها ومنعهم من إصدار التراخيص. وبهذا الإجراء تغل أيدي المستبدّين وقواد الجيش الكثيرين الذين يزيد عددهم على عدد الرعايا ممن يدفعون الضرائب. ولما كانت عوائلهم وأقواتهم من دماء وأموال الرعايا العاجزين الذين يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾^(١) وكانوا لا يخرجون من أكل ذلك المال الحرام. ومن الضروري كذلك أن يزول هؤلاء أعمالاً من قبيل التجارة والفلاحة وزراعة البساتين وأنواع التعمير من أجل الحصول على رزق حلال، وهم بهذه الأعمال الشريفة والرزق الحلال يكتفون عن العادات السيئة. وإذا ما انصرفوا عامين أو ثلاثة عن الأعمال السيئة إلى الأعمال الصالحة، فإنهم ينسون تلك العادات والتصرفات والحركات المذمومة، وتسود العالم

(١) الآية بتمامها: ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾^(١) وكانوا لا يخرجون من أكل ذلك المال الحرام. ومن الضروري كذلك أن يزول هؤلاء أعمالاً من قبيل التجارة والفلاحة وزراعة البساتين وأنواع التعمير من أجل الحصول على رزق حلال، وهم بهذه الأعمال الشريفة والرزق الحلال يكتفون عن العادات السيئة. وإذا ما انصرفوا عامين أو ثلاثة عن الأعمال السيئة إلى الأعمال الصالحة، فإنهم ينسون تلك العادات والتصرفات والحركات المذمومة، وتسود العالم

قواعد ونظم جديدة؛ ذلك أن الانقطاع عن المألوف أمر صعب. ومهما فكرنا فيه لا يمكن تداركه إلا بهذه الطريقة لا بالسيف والضرب والزجر والحبس. وكان الحكام والمستبدون فى الولايات قد اعتادوا أيضاً أنه فى حالة ما إذا منح سلطان الزمان شخصاً قرية أو موضعاً على سبيل الإحدرار أو التعطف أو الإقطاع أو الخيرات أو الهبات والإنعامات أو أنه أوقف وقفاً، أو أن إحدى الخواتين أو واحداً من الأمراء الأتباع والأمراء قد حمى شخصاً وأقطعته موضعاً، ولم يؤد حقوق الديوان، أو تصادف أن خربت قرية فإن هؤلاء يتخذون ذلك ذريعة لفرض أضعاف النفقات [ص ٤٧٠] المطلوبة للديوان الأعظم، ويسجلونها فى الحسابات، ويستولون عليها لأنفسهم. وإذا لم يكن لنواب الديوان الرئيسى علم تفصيلى بالخدمات اللازمة لكل موضع، فكيف يعرفون ما يدعيه الحكام فى تقاريرهم وبياناتهم؟! كذلك الذين كانت لهم مآرب خاصة صاروا يدفعون الحكام كى يشهدوا زوراً. وبهذه الوسيلة كانوا يبددون مبالغ طائلة من النقد العينى.

أما الآن فلأنه وردت تقارير وتفصيلات عن كل موضع بموجب قانون الديوان الأعظم لم يبق بعد مجال لأى شخص كى تمتد يده إلى مثل هذا التمويه والتخليط، وتكون أيضاً مثل هذه الأمور المذكورة وغيرها سهلة وواضحة لدى ملوك العصر ونوابهم، ولا يستطيع أى شخص فى عهدهم أن يظلم غيره أو يشق عليه؛ إذ إن فوائد ذلك القانون مفصلة والإحصاءات المالية واضحة بينة لدى العقلاء والمطلعين، وتؤدى إلى الغرض المطلوب. وإذن ليست هناك حاجة تدعو إلى التطويل والإسهاب فى شرحها وبيانها.

ولما صار التوفيق حليفاً، ونجحت التجربة، وتحقق أن القانون قد نفذ فى كل موضع وتيسر لهذا السبب تحرير الحوالات بالتفصيل وصدورها عن الديوان الأعظم، محتومة بالختم الذهبى الرسمى للدولة. وقد ظهرت شرة ذلك؛ إذ استراح الرعايا، وعمرت البلاد وتحقق سر فحوى الآية الكريمة: ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليه الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾^(١). ولم يبق مجال لأى مستبد انتهازى كى يتصرف فى دائق

(١) الآية بنعامها: ﴿يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا حملناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾. (سورة الحج، آية ٥).

ذهبي أو من واحد من الثمر. وقد علم رعايا كل قرية وموضع، مقدار المال المقرر عليهم. وكل شخص يأخذ منهم ما يزيد عليه، يكون ضالاً عديم الإنصاف. ولا سند له. وخلاف حكم المرسوم وإجازة الديوان الرئيسي الذي لا يبنى فائدة تذكر من ذلك الضلال وتلك الزيادة، ولا يشعر بغبطة. وعلى الرعية أيضاً ألا يطيعوا أوامر الظالمين، ويسدوا ما تقرر عليهم فقط بموجب الحوالات المختومة بالختم الذهبي الرسمي للدولة. ثم يعود مجموع ذلك النقد إلى الخزانة والجيش وبيت المال.

وفي هذا الوقت فكرنا قائلين: "حيث إن الغرض من هذا التدبير والترتيب هو رفاهية الخلق ونيل الثواب، كان علينا أن نسعى بقدر ما نستطيع حتى نصير تلك القاعدة أكثر استحكاماً وثباتاً، فيزداد ثواب تلك الإصلاحات، ويستمر بقاؤها مدة أطول. [ص ٤٧١] ومع أننا قد نصبنا في كل ولاية كاتباً في الديوان الأعظم لتحرير الحوالات المفصلة؛ وذلك حتى يقوم النواب بتوضيح الحوالات المكتوبة بالتأشيرات الدنيوية، ويختتموها بختمنا الذهبي فإن وضع الإشارات على الحوالات وختمها يحتاج إلى وقت وتفريغ تام. وقد لا تيسر كتابة عدد وفير من الحوالات المفصلة، والتأشير عليها وختمها بسبب تبدل الزمان والانقلابات وإبرام الأمور الضرورية للملك والثغور والاضطرابات والمشقات التي لا يمكن أن يخلو منها عالم الكون والفساد. وحيث إنه من المتوقع أن يتطرق إليها عائق أو يحدث إهمال، تدعو الضرورة - لهذا السبب - إلى أن تكتب الحوالات المقررة على الولايات بصورة مجملة فينفسح المجال بهذا - مرة أخرى - للانتهازين ليكتبوا الحوالات وشد إليها أيديهم ويتجرأون ويغريون العالم بنفس الطريقة، وجرياً على العادة القديمة. وبهذا يلحق الكساد بيت المال على نحو ما كان عليه الحال سابقاً، وينفذ ما فيه من نقد، ويؤجل أيضاً تدبير النفقات المقررة للبلاد التي يصرف منها على ضروب الإصلاحات من قبيل تشييد العمارات وتنفيذ المشروعات، وتوفير المنح والإعفاءات والصدقات وغيرها بحجة أن الأموال لا تصل مطلقاً إلى الخزانة، ويسوقون أعذاراً أخرى وحكايات مقنعة جرياً على عادتهم. وبهذه الذريعة يمضون وقتهم سنة بعد سنة، ويبقى الجميع محرومين. ويترتب على هذا أن تبطل هذه القاعدة التي كان قد مهد لها خلال مدة طويلة وبجهود بالغة؛ فكان أن استراح أهل العالم لهذا السبب. أما هؤلاء الانتهازيون فإتهم بحرصون على الظلم ويتجرأون ويسخرون

الرعايا العاجزين. ومرة أخرى يتعذر تدارك الأمر، فتكسد كل الأموال والمعاملات وتستهلك، ويؤول الحق على النحو الذى كان سائداً حتى الآن. ومن الطبيعي ألا يكون هذا الوضع ملائماً للملك العصر ولا الجند ولا الرعية. وقد فكرنا فى تدارك هذا الأمر فقررنا بموجب القانون ما على الولايات قرية قرية وموضعاً موضعاً، وذلك بالتفصيل والتفنين. ثم أمرنا بجمع كل السجلات الخاصة بالولايات وإيداعها المكتبة الملحقة بالقبة والخانقاه وأبواب البر التي أقعناها فى تيريز. وقد أودعت لدى المسئولين الثقات، وصدر المرسوم بالمحافظة عليها، وخصصنا للمكتبة وفقاً لما جاء فى شروط الوقفية. كذلك كتبت "وثيقة اللعنة" نص فيها على لعنة كل من يبطل ما جاء فى هذه السجلات [ص ٤٧٢] التى يرجع إليها فى كل مشكلة تقع بعد ذلك. وإذا ما فقدت نسخة أو لائحة كانت قد أعطيت لأحد الأشخاص، فإنه يزود بنسخة أخرى من المكتبة؛ حتى يحصل بذلك الثواب. وقد أودعنا نسخة منها فى الديوان الأعظم، وواحدة مثلها فى كل ولاية. وتوجد نصوص اللوائح والقوانين فى يد القضاة والملاك والرعايا. كذلك أمرنا بكتابة هذه البيانات على النحو الذى قرر فى كل قرية وموضع على رقعة أو حجر أو صحيفة من النحاس أو الحديد حسب رغبة الأهالى، وذلك بأن ينقشوها عليها. وإذا رغبوا، فلهم أن يكتبوها بالخط الخفوق، ويعلقوها على باب القرية أو المسجد أو المئذنة والمواضع الأخرى التى يقع عليها اختيارهم. وتعلق هذه البيانات لليهود والنصارى على أبواب معابدهم، وفى القرى والمواضع التى يربدونها. كذلك تقام لسكان البادية فى المواضع التى يرونها صالحة لذلك.

أما المبالغ المقررة على الولايات، فتعلن بياناتها للأهالى دون زيادة أو نقصان بحضور القضاة والسادات والأئمة والعدول والأكابر فى المدينة، ويُتَزم كل واحد من السكان فى كل قرية وموضع بأن يسدد سريعاً الأموال والرسوم وفق كل قائمة معلنة فى تلك الولايات، وذلك خلال عشرين يوماً. وكل ذلك بموجب القانون على النحو الذى سبق ذكره. ثم تثبت هذه القوائم بالخط والسامير فى المواضع المختلفة؛ بحيث تبقى سنوات عديدة، لا يغيرها أو يبدلها أى مخلوق على أن يخصص موضع لبيان الأموال العينية، وكذلك البضائع المقررة ومقدارها؛ بحيث يكون سداد كل قسم من تلك الأقسام فى الموعد المحدد. كذلك تُعين رسوم الدفعة كى تسجل على اللوح وفى كل قسم من تلك الأقسام المسجلة

على اللوح، تكتب له مسودة الرسوم على ظهر هذا اللوح حتى يُعرف أن كل قسم خاص بالأموال المختلفة في الولايات الثبانية مقنن ومعين وعلى أى نحو ينبغي أن يكتب، ثم يحدد موعد سداد كل نوع، وكيف يكون الإيداع والتسليم. وينبغي أن يسجل كل قسم على لوح على نحو ما هو مذكور في المسودة [ص ٤٧٣] كى يتخذ وجوه القوم من الرؤساء والرعايا في كل قرية أماكنهم في موعد الموسم المعين، فيحضرون إلى الميدان؛ إذ إن المقرر أن يقيم المحصل خيمة وسط المدينة. ومنذ بداية الموعد المحدد حتى اليوم الذى تنتهى فيه المهلة يلقى الطبل خمس مرات كل يوم. ثم يستدعى موظف الخزينة والمستول عنها الذى عيناه في كل ولاية كى تسلم له الأموال كلها أو بعضها. وقطعاً لا يتقاضى المحصل من أى موضع شيئاً آخر باسم المؤن أو الخدمة وغير ذلك. كما لا يرسل المستولون الحوالات من الديوان بأى وجه من الوجوه، ولا أى محصل إلى أى موضع أو ولاية. وإذا أعمل الرئيس والرعايا وتهاونوا، ولم يسلموا أموال الضرائب في الموعد المحدد، فإن المحصل يقبض عليهم ويأخذ منهم ديناراً واحداً عن كل مائة دينار من أصل الضرائب المقررة. وكل من يقصر في هذا الشأن يجلد سبعين جلدة إلى أن تبقى هذه القاعدة مضبوطة ومحكمة، وتعم فائدتها الخاص العام، وحتى لا يقع بسبب الإهمال والتغافل والجهل عدد من الناس مرة أخرى فريسة جور المستبدن والمارقين والذين لا يخشون ربهم.

والآن حيث إن مواعيد جمع الأموال العينية والمحاصيل قررت وحددت بمقتضى القانون المؤيد للمخلد على النحو الذى سبق شرحه قمنا بترتيبها وتعيينها على هذا النسق:

موعد سداد الضرائب العينية لكل ولاية تختلف أقسامها كى يكتب كل قسم معين منها على الألواح في موضع خاص بذلك النوع الذى صار مقتناً، والممولون يستجيبون لهذا النظام، ويسددون ما عليهم على النحو التالى:

١ الضرائب والرسوم التى يدفعها الرعايا من سكان القرى. وقد جرت العادة على أن يؤدوها على قسطين كل سنة.

٢ من جملة الرسوم السنوية التى تقررت لكل موضع اشترط أن يؤدى نصفها من بداية حلول "النوروز الجلال"^(١). وتستمر هذه المهلة عشرين يوماً بالكامل. أما النصف الآخر

(١) النوروز الجلال نسبة إلى السلطان جلال الدين ملك شاه السلجوقي. يقول ابن الأثير في ذيل حوادث سنة ٦٧٩هـ/١٢٧٩م: "فيها جمع نظام الملك والسلطان ملك شاه جماعة من أعيان التجّمين، وجعلوا النوروز أول نقطة =

فيؤدي ابتداء من طلوع الشمس في أول برج الميزان، وتستمر هذه المهلة عشرين يوماً بالكامل.

[ص ٤٧٤]

٣ الضرائب والرسوم التي يدفعها سكان الصحراء التي جرت العادة على أن يستجيبوا لدفعها مرة واحدة في أول العام.

٤ خراج المال الذي كان مقرراً من قديم أن يدفع كضريبة عينية، تقرر سداده مرة واحدة في أول السنة من بداية (التوروز الجلالى). وتستمر المهلة عشرين يوماً.

٥ خراج الضرائب العينية تقرر أن تسدد في بعض المواضع مثل بغداد وغيرها وقت حصاد المحاصيل الصيفية.

٦ رسوم الدفعة بموجب ما تقرر أن تسدها كل ولاية على حدة. ويكون هذا مناسباً لها، وذلك على النحو المكتوب على ظهر المنشور الذي يوضع على باب كل موضع خاص بالدفعة حتى تسلم على أفساط وفق هذا الترتيب. وليس لأى مخلوق أن يتحدث بدعة أو يضيف رسماً جديداً، ولا يأخذ الجباية حالياً أكثر من الرسوم المقررة بحجة أنهم أضافوا زيادة جديدة على الدفعة، كما لا يتحدث رسماً جديداً.

٧ موعد وكيفية تسلم وتسليم أنواع المحاصيل الخاصة بالمناطق الحارة والمناطق الباردة من صيفية وشتوية، وبعضها خاص بالصحراء التي ليس فيها صيف؛ وشروط ذلك على هذا النسق والنوال المسجل والمشرح.

٨ الاتفاقية الخاصة بالولايات الواقعة في المناطق الحارة من شتوية وصيفية. وذلك على النحو الآتى:

— من الحمل. وكان اليوم قبل ذلك عند حلول الشمس نصف الحوت. وصار ما فعله السلطان مبدأ التقويم. (الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ١٢١، الطبعة الأزهرية، تحقيق الشيخ عبد الوهاب النجار، القاهرة ١٣٤٨هـ). وبما هو جدير بالذكر أن شاعر الرياضات الفاتح الصيت عمر الحيام كان من بين العلماء الذين عهد إليهم بوضع هذا التقويم. (انظر براون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسى إلى السعدى) نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين الشواربي، ص ٢٢٦).

أ الشتوية: من القمح والشعير وغيرهما. وكل ما تقرر لكل موضع من المواضع المستنثة. وهذه المحاصيل يجب نقلها على الدواب من أول الشهر إلى مخزن يعين في تلك الشواحي، وتسلم للصراف. وأقصى مهلة لتسليمها عشرون يوماً.

ب الصيفية: من الأصناف المستنثة بموجب القانون. ومن المقرر أن تنقل في شهر...^(١) على الدواب إلى المخزن المعين في تلك المنطقة؛ حيث تسلم للصراف. وأقصى مدة لتسليمها عشرون يوماً.

٩ الاتفاقية الخاصة بالولايات الواقعة في المناطق الباردة، ولها محاصيل صيفية، وتلك التي ليس لها محاصيل صيفية، فهي لا شك تدرج ضمن المحاصيل الشتوية فحسب، بموجب ما قرره القانون. وذلك على النحو الآتي:

[ص ٤٧٥]

أ الشتوية: بموجب ما قرره القانون. فعلى المزارعين بعد حصاد محاصيلهم أن ينقلوها في شهر...^(٢) بالتمام والكمال بدوابهم إلى المخزن المعين في تلك المنطقة، وذلك خلال مهلة أقصاها عشرون يوماً.

ب الصيفية بموجب ما قرره القانون. فعلى المزارعين بعد حصاد محاصيلهم أن ينقلوها في شهر...^(٣) بالتمام والكمال بدوابهم إلى المخزن المعين في تلك المنطقة، وذلك خلال مهلة أقصاها عشرون يوماً. وهكذا يكون الوضع في كل ولاية منح فيها الخواتين والأمراء الأنجال والأمراء أراضي ومزارع أو إقطاعيات أقطعت للجنود. وكذلك ما أعطيناه بمقتضى الرسائل والمراسيم والإعفاءات، وما أعطى على سبيل الإحسان والإنعامات والمبات والصدقات لتكون تحت تصرف كل شخص. وبمقتضى القانون، عليهم أن يضعوا لوحاً في كل موضع كى لا يستطيع الجباة المذكورون أن يأخذوا - وفق أهوالهم - زيادة على حقوق الديوان، وأيضاً لا يتحمل أهالى ذلك الموضع مشقة تذكر ذلك أن عدل الملك ينبغي أن يكون كالشمس تسطع في كل مكان، وتعلو رؤوس أهل العالم.

(١)، (٢)، (٣) هكذا في النص.

(بيت من الشعر العربي في الأصل):

كالشمس في كبد السماء وضوؤها بغشى البلاد مشارقاً ومغارباً

وحيث إن الغرض من هذه الجهود في العهد المبارك للسلطان كان رفاهية الخلق، وضبط شئون الجند، والمحافظة على الثغور، وترويح أموال الخزانة وبيت المال، ودفع المفسدين واللصوص والانتهازيين أثبت التجربة أن الرعايا صاروا راضين ومستريحين وداعمين بالخير. وقد نظمت هذه الأمور التي سبق ذكرها على هذا الوجه؛ بحيث إن ما يحصل الآن من الأموال صار أضعاف ما كان يصل سابقاً إلى خزائن آبائنا، ولم تعد هناك حاجة إلى المصادرة والتشدد في المطالبة.

ومن المؤكد أن هذه الإنجازات التي مر ذكرها تكون مناسبة لجميع السلاطين الذين اتصفوا بالعدل، وذوى الرأى السديد والتدبير الحكيم. وكذلك بالنسبة إلى الأمراء والوزراء والنواب الأمناء المشفقين والأكفاء المحتكين في كل عصر وزمان. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لَأَوَّلَى الْأَكْبَابِ﴾^(١). «ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون»^(٢). أما إذا ما تجاوزوا ذلك، فإنه يصير موجباً لسوء سمعتهم، وإزالة العقاب بهم. وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾^(٣)؛ فلا غرو أن صار الخير العام والترتيب والضبط مبادئ جارية وسائدة. [ص ٤٧٦] وبسبب ذلك أيضاً عاش الرعايا وكافة الخلق في رفاهية وأصبحت الأموال مقررة ومعينة. وإذا استساغ ظالم أيضاً أن يغير ويبدل، فإن عليه أن يخشى آلام القلب وتأتب الضمير، والنشيع عليه، وتقعج الخلائق منه؛ إذ إنه لا يتصور أن تكون هناك عاقبة أو غم وجحيم، أشد إبلاماً من ذلك. «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»^(٤). كذلك لا يرضخ أهل العالم لمثل هذا التصرف، ويتلون قوله تعالى:

(١) الآية بتناسها: ﴿لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَ عَنْ يَصَافِرِ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ جَاءَ بِهِ ذُرّاً مُعْتَلِفاً أَلْوَانَهُ ثُمَّ يَهْبِجُ

فَرَاهٍ مُصَفَّرًا ثُمَّ يُجْعَلُ حَبَلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لَأَوَّلَى الْأَكْبَابِ﴾ (سورة الزمر، آية ٢١).

(٢) الآية بتناسها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لَأَوَّلَى الْأَكْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ

وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ (سورة يوسف، آية ١١١).

(٣) سورة المؤمنون، آية ٧. وقد وردت أيضاً في سورة العنكبوت، آية ٣١.

(٤) سورة الشعراء، آية ٢٢٧.

﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾^(١). فلا جرم أن كل شخص يغير ويبدل يكون مستحقاً للعة الخالق، وسخط الخلاق. ﴿فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه. إن الله سميع عليم﴾^(٢).

وعلى هذا التوال أصدرنا مرسوماً إلى الممالك، وأرسلناه إلى ولاية..^(٣) حتى تكتب نسخ من كل قسم من الأقسام المتعلقة بالأموال والمعاملات في تلك الولاية على النحو المعين، وعلى المسئولين أن يسجلوا مسودة كل منها على ظهر المرسوم. ثم يكتب على اللوح ذلك القسم المناسب لتلك الولاية كما تم شرحه، وينجز ذلك بسرعة. وكل من يقصر في ذلك يكون آثماً.

كتب هذا المنشور في أواسط شهر الله الأصم "رجب" سنة ثلاث وسبعمئة (١٣٠٣هـ/١٩٠٣م) في مقام أولجايو "يونوق" بهولان موران. والحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله.

وأما عن تلك الولايات التي تجبى منها حقوق ورسوم الديوان من المصايل الزراعية والنقود العينية، فإن أكثرها كان يحصل بالحيازة والتجزئة، وكان هناك مجال واسع في هذا الباب لأهواء الحكام والعمال والمتصرفين في الأموال. وكانوا قد أخذوا رسوماً وقواعد في كل عهد، وعينوا عمالاً كثيرين بأسماء مختلفة. وفي أكثر السنوات كانوا يطالبون بالأموال قبل حلول الميعاد المحدد لتحصيلها. وعند وضع التسعيرة كانوا يشقون وينقلون على الرعايا والمزارعين إلى أقصى حد؛ بحيث إن أنواع تلك المظالم وأساليبها كانت تفوق حد الحصر. وقد حدث هذا في بغداد وميراز تلك المدينتين المعظمتين.

غاص السلطان غازان في أعماق هذه الأوضاع، وأمر بتدارك وتلافى ما فيها من نقص فحدد المسئولون الرسوم طبقاً للقانون، وأسندت المناصب إلى القضاة والجباة على سبيل التأييد والتخيلد وذلك بطريقة تتيح للأموال أن تصل بصفة مستمرة، وبأضعاف ما كانت عليه سابقاً. وبهذه الإجراءات صار المزارعون والملاك والرعايا مستريحين شاكرين

(١) سورة البقرة، آية ٤٢.

(٢) سورة البقرة، آية ١٨١.

(٣) هكذا في النص.

[ص ٤٧٧] وكفّت أيدي الحكام نهائيًا عن المطالب غير المشروعة، وقضى على ظلم المستبدن دفعة واحدة. وقد سُجِّلَت أنواع الخلل الذي كان مستشريًا في ذلك الوقت. وإن بيان طرق التخلص منها مشروحة ومفصلة في المراسيم التي كتبت لتلك الولايات. وكانت واضحة ومشهورة لدى الجميع. ولهذا ذكرت باختصار.

فليمتع الحق تعالى هذا السلطان الراعي والباسط العدل بطول العمر ودوام الإقبال أبد الدهر، وليمنحه مثرات هذه الحسنات في عهده المبارك، تلك الحسنات التي يحسده عليها دارا وارداوان ويغبطه عليها أردشير وأتوشروان. والسلام.

الحكاية السابعة عشرة

فى المحافظة على الرعايا ورعايتهم ودفع الظلم عنهم

لما كنا قد شرحنا فى الفصول السابقة أنواع الظلم والجور والتطاول؛ تلك المظالم التى كانت تنزل بالرعايا، ووضحنا المتاعب من كل صنف تلك المتاعب التى كانت تحمل بهم - نتجنب الآن التكرار. وقياسًا على تلك الحكاية تبين أنه كان للتوافه والمهملات أهمية كبيرة فى نظر الحكام وغيرهم. على حين أن هذه الأهمية لم توجه للرعايا. والواقع أن الأشواك الملقاة فى الطرق العامة لم تكن تجد ذلك الإعياء والتعب ما تجده الرعية.

أما سلطان الإسلام غازان خان - خلد سلطانه - فإنه بسبب كمال عدله، سير غور الأحوال، فنهض لتدارك هذا الخلل. وبفضل بمن معدله، استراح الجميع على النحو الذى سبق ذكره. وما غصه بالذكر فى هذا الفصل هو أن السلطان كلما شاهد بنفسه، أو عرض عليه أن أحدًا من المقرين أو الجند قد ألحق بالرعية مشقة أو أذى، أو اغتصب شيئًا أمر فى الحال بأن يستردوه منه بضربه بالعصى والمراوات؛ ليكون عبرة للعاملين. وعندما كان يركب باليمن للصيد، ويصل الركب إلى إحدى القرى، يأمر أتباعه بأن يشتروا بالعملة الذهبية الخراف والدجاج، وكل ما يحتاجون إليه مما يستعمله الخاصة [ص ٤٧٨] وكذلك ما يلزم من القطعان أو من بيوت المغول، وذلك بأن يدفعوا دينارين أو ثلاثة لكل ما يساوى دينارًا واحدًا.

وللقصود من ذلك أنه عندما يرى الآخرون هذا السلوك يلزمون حدودهم، ويتجنبون الجور والظلم، ويقتدون بتلك الطريقة الممودة. وفى كل وقت يبدو للرأى الأعلى أن أحد الأمراء أو الجند أطلق يد البطش فى إحدى الولايات، وبالحق فى استبداده، أمر بمؤاخذة الأمراء الصغار، وضربهم بالمراوة، وعاتب الكبار ووبخهم. وذات يوم صرح بقوله: أنا لا أحابى الرعية التازيك. وإذا كانت هناك مصلحة لأن أغير على الجميع، فليس هناك من هو أقدر منى على القيام بهذه المهمة. ولكن إذا توقعتم منى بعد ذلك زائدًا أو طمعًا، أو التمستم هذا أو ذاك، فسوف أغلظ لكم فى القول، وأخذكم بالشدة والعنف. وينبغى أن تفكروا

جيداً أنكم لو أثقلتم على الرعية، وأكلتم لحوم أبقارهم، واستوليتهم على بذورهم وغلالهم فما عساكم تفعلون بعد ذلك؟ كما أن عليكم أن تفكروا في أنكم إذا ضربتم نساءهم وأطفالهم وأذنتموهم فإن عليكم أن تفكروا كيف أن نساءنا وأبناءنا أعزاء علينا وأن حال فلذات أكبادهم تكون هي نفس حال أطفالنا، وهم أيضاً آدميون مثلنا تماماً. وقد فوض الحق تعالى أمرهم إلينا، وسوف نسأل عما يصيبهم من خير أو شر. فكيف نجيب، ونحن عندما نؤذيتهم نكون جميعاً شبيعى، ولن يعود علينا ضرر نتيجة وجودهم. فما الداعى إذن إلى إيذائهم وإلحاق الضرر بهم، وأية عظمة وشهامة تحصل لنا من وراء ذلك؟ وماذا نجنى غير الشؤم الذى سوف يحيق بنا نتيجة سوء عملنا، ولن ننجح فى أى عمل نقوم به. يجب أن يظهر فرق واضح بين المطيع والعاصى من الرعية. والفرق بين الخائتين هو أن الرعايا المطيعين فى أمان من الحاكم، والعصاة غير آمنين. وإذن فكيف يجوز ألا نؤمن المطيعين فيكونون منا فى عذاب ونصب؟ لا بد أن تستجيب دعوتهم بلعنتنا والدعاء بالسوء لنا.

وعلى هذا ينبغى التفكير فى هذه الأمور، وأنا دائماً أسدى إليكم هذه النصائح، وأنتم عنها غافلون. ولكن بواسطة أمثال هذه النصائح بقى واحد من ألف من تلك المتاعب التى كانت تلحق بالرعايا قبل هذا. فلا غرو أن ازداد جمهورهم فى مختلف الممالك توجهاً بالدعاء للدولة. فليكن هذا الدعاء مقروئاً بالاستجابة بحق الحق وعزته.

الحكاية الثامنة عشرة

فى إبطال تسخير دواب البريد، ودفع أذى الرسل ومنع المتاعب التى ينزلونها بالخلق

ولو أن إيفاد الملوك الرسل والسفراء إلى الأطراف والجوانب يكون أمراً ضرورياً، ويمكن أن تقوم وتنظم بهم شئون المملكة، لكن المعتاد أن يوفد الرسل لإبلاغ أخبار الأمن والسلامة، وإيصال التحف والهدايا، ومن أجل مهمات الثغور وشئون الجند وأسرار الملك. ومن البديهي أن الحاجة كانت تدعو إلى إيفاد الرسل عدة مرات كل سنة لإنهاء تلك المصالح.

وقبل هذا كان الأمر قد وصل بالتدريج إلى حد أن جميع الخواتين والأمراء الأنجال وقواد الجيش وأمراء (التومان والمزاره والصدّه)^(١) وحكام الولايات والمشرفين على السلاح والبزة وسياس الخيل والمشرفين على الذخيرة، وذوى المناصب الأخرى الذين تُصوّبوا للقيام بكل عمل، كانوا يوفدون رسلاً قليلين أو كثيرين إلى الولايات لتصرف كل مهمة. وقد جرت العادة أن أخذ الناس يقدمون أبناءهم إلى الخواتين والأمراء الأنجال والأمراء ليكونوا غلماناً ومعاونين فى التجارة. وكانوا يرضون بأجر ضئيل. وكان كل واحد منهم يوفد رسلاً لإنجاز مهماته بطرق مشروعة وغير مشروعة. هذا على حين أن مديونهم قد بلغت روحهم التراخي من شدة المتاعب والتشريد؛ فكانوا يلجأون مضطرين إلى حماية آخرين، ويرسلون رسلاً، ويجازونهم على سوء أعمالهم. وهؤلاء بدورهم كانوا يوفدون رسلاً مرة أخرى. وبواسطة هؤلاء القوم كان الرسل يترددون على هؤلاء وهؤلاء. وكذلك يرسل حماتهم الرسل بجدة تام. وهناك أيضاً طائفة أخرى، كان إذا مات منهم شخص، واختلف ورثته مع بعضهم البعض، فإن كل واحد منهم طمعاً فى زيادة الميراث كان يحتجى بشخص قوى من ذوى النفوذ فيوفد هذا، الرسل تباغاً الواحد تلو الآخر. وهكذا كانوا يشغلون طوال حياتهم بذلك الأمر، ويتندى بهم أناس آخرون؛ بحيث إن ذلك صار عادة وحرفة للجميع.

(١) المقصود الفرق المكونة من عشرة آلاف (التومان) والألف (مزاره) والمائة (صدّه).

[ص ٤٨٠] وشة طائفة أخرى هم رؤساء القرى، كان كل منهم يبحث عن شخص يحتذى به. وبسبب خلافهم وتنازعهم على الرئاسة، كانوا يصحبون الرسل إلى الولايات. وهناك طائفة أخرى كانوا يأخذون الرسل بحجة أنه يمكن الحصول على التحف النادرة من الولاية الفلانية. وبهذا كانوا ينفقون أضعاف أضعاف ما كانوا يحضرون. كذلك كان المشرفون على شؤون الخرابين، يرسلون بعض الرسل إلى الولايات بحجة إعداد الذخيرة والطعام، وتقديم الخدمات؛ بحيث كانت الدواوين في المدن تحتفظ بهم. وكان هذا شأن أمراء السلاح والاصطبلات والدواب وغيرها؛ حتى وصل الأمر إلى حد أن الرسل في الطرق كانوا يزيدون على أفراد القوافل وجميع المسافرين. ولو كان هؤلاء الرسل خمسة آلاف حصان في كل مرحلة لما كفاهم؛ فلا جرم أنهم كانوا يستولون على كل قطعان المغول التي كانت ترعى في المصايف والمشاتي ويسوقونها. وكانوا ينزلون جميع أفراد القافلة والمسافرين عن ظهور دوابهم ممن يجيئون من جهات الخطأ والمند والنواحي الأخرى القريبة والنائية. كذلك كانوا يفعلون بالأمراء والحكام والملوك والكتاب والقضاة والسادات والأئمة وأرباب الحاجات الذين كانوا يترددون على المعسكر السلطاني، فينزلونهم عن ظهور دوابهم ويستولون على خيولهم، ويتركونهم على قارعة الطريق. كما يتركون بعضاً منهم في الأماكن الموحشة.

ولكثر ما كان الرسل يمارسون هذه الأعمال وصل الأمر إلى حد أن اللصوص كانوا يظهرون على هيئة الرسل، ويقفون على قارعة الطريق قائلين: "إننا رسل". ثم يستولون على خيولهم، وفجأة يقبضون عليهم ويقدونهم وينهبونهم. وكثيراً ما كان الرسل يستولون على خيول زملائهم بحجة أن طريقهم أطول. وقد أدى الأمر إلى أن كل من له أتباع كثيرون، ويتمتع بنفوذ زائد، كان يستحوذ على حصان الآخر.

وحيث إن اللصوص قد اطلعوا على هذا الأمر، صاروا يقولون للرسل الموفدين الأقل منهم عدداً: "إننا رسل". ثم ينتزعون منهم خيولهم بالقوة وينهبونهم. **[ص ٤٨١]** كذلك يستولون على ما معهم من مراسيم وپايزات^(١). وقد انتهى الأمر إلى حد أن أكثر اللصوص

(١) انظر ترجمة الحكاية الثانية والعشرين.

استطاعوا بما استولوا عليه من اليازيات والراسيم أن يوقفوا الخيول أثناء سيرها وكانوا يذهبون إلى مفترق الطرق للسرقة، وذلك بالخيلة والمكر وبمجة أنهم موفدون لتبليغ الرسالة صاروا يدهمون أفراد القبائل ويسلبون دوابهم وملابسهم. وكان الرسل لا يكتفون بالخيول والعلف، بل يتذرعون بأنواع الخيل لا يتزاد ما بيد كل شخص مهما كان تافهاً، وينزلون بالناس شتى المناعب، ويسلبون أموالهم. أما سياس خيولهم فكانوا يأخذون ملابس الناس وعملاتهم، وكل ما يرونه في أيديهم ويتعمدون الاستيلاء على المزيد من الخيول، ثم يبيعونها، ويقتصبون كل ما يجدونه في القرى. وإذا مروا ذات يوم في الطريق بعشر من القرى أو عشرة اصطبلات فإنهم يطالبون بالثقونة من تلك المواضع عشرة أضعاف ما يجيزه الشرع والقانون. ولما كان ما يستولون عليه يزيد على ما يلزم لطعامهم، كانوا يبيعون الفائض. وكان اهتمامهم دائماً مصروفاً إلى التعامل ببيع العلف، بحيث إن تجار الخطأ والمند لم يفعلوا مثل هذا في ذهابهم وإيابهم.

وبالكشف عن هذه الأمور تتضح هذه الحقائق التي تدعو إلى التساؤل: كم ألفاً من الرسل كانوا يروحون ويجهنون كل سنة، وكم من الخيول وأطنان المؤن قد استولوا عليها بغير حق، وكم من الخلق ضربوهم وعلقوهم وأزلوا بهم التعب والألم؟ ولما كانت الرعية طوع أمهرم صاروا يحققون مطالبهم من المؤن، ويلبون رغباتهم الأخرى، ويقومون ليلاً بحراسة دوابهم وأمتعتهم. وعلى هذا فإن المرء ليعجب كيف يمكن أن يتصور أن هذا القدر من الزراعة يتوقف عليه قوت الناس يكون كافياً وميسراً اللهم إلا بالبركة التي تكرّم بها الحق تعالى على عباده؛ فلم يحرمهم من الرزق.

ومن بين حيل الرسل أيضاً أنهم كانوا يسرون متفرقين على غير هدى وعلى غير أساس، وأنهم حينما حلوا كانوا يقولون: إننا أبناء أو إخوة الأمير الفلاني الذي يذهب لأداء مهمة دقيقة خطيرة. وكان موظفو البريد والحكام والرؤساء والرعايا يعرفون أن كل ذلك كذب محض لا طائل وراءه. [ص ٤٨٢] وإذا تصادف أن رسولاً عظيم الشأن كان يذهب لأداء عمل هام، فإنه قياساً على الآخرين، لم يكن له وقع يذكر في نظر الناس، كما لم يكن له اعتبار في قلوبهم. ولهذا الأسباب لم يبق احترام قط للرسل. وكانوا هم أسوأ الخلق في نظر الرفاق. وحيث إنه بسبب هذا اللبس لم يكن قد بقي قط وقع في

النفوس للرسل الحقيقيين، ولم يكن أحد يعابى بهم، ولم تعد لهم خيول للبريد، أو أنهم كانت تقدم لهم هزيمة عجيبة. وكان المسافرون وسكان الصحراء قد صاروا خائفين فزعين فاجتازوا الطرق على غير هدى، وأقاموا منازلهم بين الجبال.

ولهذه الأسباب فإنه عندما يقوم رسول بأداء مهمة دقيقة تخص مصالح الدولة، لا يستطيع الوصول إلى الجهة المقصودة إلا بعد فوات الوقت بيومين أو ثلاثة. ولا بد أن تنشأ أضرار عن ذلك. ودائماً ما يجب مؤاخذه سعاة البريد بسبب ما يصيب الخيول من هزال. ورغم أنهم كانوا يربطون خمسمائة حصان في كل محطة للبريد، لم يكن يوجد اثنان منها يصلحان لركوب الرسل. وفضلاً عن ذلك فإنهم كانوا يأخذون العديد من التومانان من كل مدينة لسد نفقات محطات البريد ومتطلبات الرسل. ولهذا السبب فإن حكام الولايات كانوا يأخذون من الرعايا مبالغ أخرى من الأموال، يتفقون بعضها، ويسلبون بعضها. كذلك فإن حصيلة الدفعة التي كانت أوفر الأموال في البلاد، وفي كل الولايات، كانوا دائماً يخصونها لسد نفقات الرسل، ولم تكن تكفى لتتقلاتهم. وكان الحكام يكتبون حوالات بنفقات المؤن تصرف من أموال الدفعة ثم يهربون. ولما لم تكن حصيلة الدفعة كافية لسداد قيمة الحوالات، كان متعهد الدفعة يختفي أيضاً. كذلك كان الخصام يقع بين الرسل فتكون العاقبة أن من كانت له الغلبة يستولى على الأموال. ولما كانت هذه الغلبة تستلزم كثرة الأتباع، كان الرسل يسعون في أن يجتمع حولهم أتباع كثيرون، يختارونهم من أقاربهم وأصدقائهم. وفي الطريق كانوا يستولون على كل ما في أيدي الناس من أصناف. وكان الرعايا والسفلة يتبعونهم. وقد أدى الأمر إلى أن الرسول الذي يعرفه الملك والأمراء الكبار كان يصطحب معه في أقل مهمة كلف بها مائتين أو ثلاثمائة فارس، وبعض الرسل الذين كانوا أكثر تقريباً وشهرة، [ص ٤٨٣] كان يذهب معهم حتى خمسمائة فارس بل ألف فارس. وقد يتصادف أن يضعوا ما يقرب من مائتي كرسي في الدبوان بإحدى المدن لجلوس الرسل. وكان الحكام يقولون: "إننا نقدم في الجلوس هنا كل من تكون مهمته أكثر ضرورة". ولهذا السبب صار الرسل يتنازع بعضهم بعضاً، فمن كانت له الغلبة يجد الحكام - اعتماداً على حمايته - الخلاص من أذى الآخرين. وعلى هذا يمهلونه قليلاً؛ وينجزون له مهمته. على حين أنهم يمهلون سواه. وهكذا صار الحكام يمشون وقتهم. وفي نهاية

السنة، كان جميع هؤلاء الرسل يعودون بخفي حنين دون أن ينجزوا أعمالهم. هذا على حين أنهم ينفقون نفقات باهظة. وفي الواقع فإن أنواع الخلل والضرر التي كانت تقع بسبب هؤلاء الرسل تفوق الحد الذي لا يمكن شرحه.

ولكمال معدلة سلطان الإسلام خلد سلطاته أوجب على نفسه ضرورة تدارك تلك العيوب، فقال في هذا الشأن: إن أمرًا استفحل ضرره بالتدريج حتى وصل إلى هذا الحد واعتاده الناس جميعًا، لا يمكن القضاء عليه دفعة واحدة، وإنما علاجه يتيسر عن طريق الثاني. ثم بدأ بالفعل في تدارك هذا الخلل. وفي العام الأول قال: ينبغي أن نخصص لنا محطة واحدة للبريد، يقصدها الرسل مسرعين لتصرف عظام الأمور، والقيام بمهمات الثغور ولا يتطلب أي شخص آخر جواد البريد حتى يتميز هؤلاء الرسل على الآخرين، ويصلوا إلى مقصودهم سريعًا. ثم أصدر مرسومًا يقضي بإنشاء محطة للبريد في الطرق الهامة. وعلى بعد ثلاثة فراسخ يربط فيها خمسة عشر حصانًا سمينًا سليمًا، ويقل هذا العدد في بعض المواضع التي لا تدعو الحاجة إلى ذلك. كذلك أمر بالآلا يعطى أحد حصانًا ما لم يكن هناك تصريح عليه تأشيرًا بالخط المبارك، ومختوم بالختم الذهبي الخاص. ثم عهد بكل محطة للبريد إلى أمير كبير يشرف عليها وترك للأمراء التصرف في الإنفاق على مختلف المصالح في تلك الولايات المعنية، بحيث تزيد هذه النفقات عما تدعو إليه الحاجة؛ وذلك حتى لا تبقى هناك حجة لأحد. وقال في هذا الصدد: إني أعطيتكم زيادة عن المطلوب من النفقات؛ حتى لا يقع تقصير. فأنفقوا هذه الزيادة لتصرف مصالحكم الخاصة، وحتى لا تصدر كل يوم وشاية مؤداها أن النفقات كانت كثيرة عما تدعو إليه الحاجة، وهذا يؤدي إلى اختلال العمل، أو أن يقال: كان ينبغي أن يوكل هذا العمل إلى شخص آخر. [ص ٤٨٤] فيختل بهذا نظام البريد. وبما أنكم أمراء كبار، فإنه لا مانع من زيادة النفقات لكم. ويجب عليكم أنتم أيضًا أن تنظموا المهام التي تسند إليكم. ولما كان من الضروري أن يرسل أمراء الثغور إلى محطة البريد ييأنا عن أحوال الرسل كان على الأمير أن يعطى كل رسول عدة رسائل، وعليها التأشير المعهودة، ومختومة بالختم الذهبي. ثم يعطى بعض الرسل جوادين وبعضهم ثلاثة أو أربعة جياد. ويتعين على رجال البريد أن يعرفوا أنه لا ينبغي أن يعطى الرسول حصانًا ما لم تكن التأشير مكتوبة على الرسالة التي يحملها. ثم قال: إن الغرض من إيقاد الرسول العذاء هو أن يصل بسرعة لإنجاز المهمة المكلف بها. وإذا كان ابنًا لأحد الأمراء، فإنه لا يحصل على أكثر من أربعة جياد. وصرح السلطان أيضًا بقوله: إنه إذا كانت المهمة تستلزم

الإسراع إلى أقصى حد، فإنه يجب تحرير رسالة مختومة، ثم ترسل على يد رجال البريد الموجودين في محطة البريد كي يغذوا السير، ويكتب في أعلى الرسالة عبارة: "من المكان الفلاني إلى المكان الفلاني". كذلك أعطى كل أمير من أمراء الثغور الدفعة الخاصة بالفرسان كي يضعها على تلك الرسالة. ورجال البريد السائرون في الطريق يعرفون أن هذه الرسالة قد أرسلت من قبل الحضرة. وحيث إنه توجد محطة البريد على بعد ثلاثة فراسخ، فإن سعاة البريد العدائين يقطعون عدوًا في اليوم بأكمله ليل نهار ستين فرسخًا، فتصل الأخبار سريعًا من خراسان إلى تبريز في أربعة أيام. أما في السابق، فكان إذا قدم رسول، فإنه لا يستطيع الوصول قبل ستة أيام. كذلك خصص السلطان شخصين من السعاة في كل محطة للبريد حتى إذا طرأت مهمات في الولايات، فإن عليهما أن يضعا طابع دفعة البريد على الرسائل ثم يختم، ويكتبان عبارة تفيد أن الرسالة أرسلت من الموضع الفلاني إلى الموضع الفلاني. وقد أثبتت التجربة أن السعاة يعدون في اليوم بأكمله ليلاً ونهارًا من موضع إلى آخر ثلاثين فرسخًا. وبهذا يبلغ كل خير في زمن قصير. ثم قال السلطان بعد مدة: إن خراسان وملازمي حضرتنا يلزموننا ليلاً ونهارًا في الحر والبرد، أثناء الصيد والحرب، ويسرون نجيوتهم ومؤنهم. فلماذا لا يركب الأشخاص الذين يكلفون بأداء أعمال للدولة، ولا يحصلون على المؤن؟! وإذا ما حلوا بالولاية فإن عليهم أن يقدموا الكشف بالنفقات وحيث إن هذا يكون أمرًا معقولًا، نفذت أحكام الرسوم الصادرة في هذا الشأن، ومضت مدة على تطبيق هذا النظام، وألغيت محطات البريد الأخرى البالغ عددها عشرة آلاف وبذلك عادت إلى الخزانة، [ص ٤٨٥] الأموال التي كانت تنفق سلفًا، ولما لم تكن هناك حيول مخصصة للرسائل الذين يوفدهم السلطان، فإن علينا أن نتصور: كيف يمكن للآخرين أن يأخذوا غيولًا؟! ولقد صدر فرمان السلطان أيضًا، ويقضى بالآي برسل أي مخلوق رسولاً إلا أن يكون من قبل السلطان. ولهذا السبب صار إيفاد الرسل من قبل الآخرين أمرًا مرفوضًا. كذلك صدر أمر ينص على أنه إذا أوفد شخص رسولاً - لمصلحته الخاصة - إلى إحدى الولايات أو الأماكن الأخرى، فإنه لا يعطى علفًا. وعلى الحكام أن يعتقلوا ذلك الشخص ويقيده ويحسوه؛ فترك هذا العمل الأشخاص الذين كانوا يستدعون الرسل لإنجاز مصالحهم.

بعد ذلك صرح السلطان قائلاً: إن الرسل الذين يذهبون إلى الولايات نعطهم نفقات السفر من الخزانة ذهبًا وإيابًا، حتى لا يأخذوا شيئًا من أحد في أي موضع. وعندما يصلون

إلى المكان المحدد، يتناولون الطعام في المبنى المعين. وكل رسول أوفد إلى إحدى الولايات يعطى نفقات السفر نقداً من الخزانة. وقد ذاع هذا الأمر واشتهر في كل الولايات والأماكن. وإذا كان الرسل الذين يوفدون بأمر السلطان خلد ملكه لا يملكون نفقات السفر فكيف كان الناس يعطون غيرهم؟ ولهذا السبب ألغيت خلال هذين العامين نفقات علف الخيل ومثونة الرسل من المدن والقرى والحظائر، بل إنه لم يعد أى مخلوق يرى رسولاً في البلاد؛ ذلك أن الرسل الذين يغذون السير بسرعة فائقة ليلاً ونهاراً يكونون منشغلين بقطع المسافات، وليس لديهم فراغ لتناول القليل من الطعام. وبلا شك يسير من تلك الولايات ثلاثون رسولاً تقريباً. وحيث أنه ليست هناك أوامر بأن يأخذوا زاداً في الطريق لا يميزهم أحد عن المسافرين الآخرين.

بمثل هذا العدل الشامل، يكون كافة الخلق في راحة. فالمنقول والبدو يكونون فارغى البال في مواطنهم، ويصير التجار مطمئنين، وتكون البضائع الصادرة والواردة آمنة في الطرق، ويدعو جميع الرجال مع نسائهم وأطفالهم من أعماق قلوبهم وأرواحهم بدوام إقبال السلطان. فليستجب الله هذا الدعاء. وأمر السلطان أيضاً بأنه في حالة الضرورة وإذا لزم الأمر أن تعطى جماعة عدداً من الجياد أو الحمير [ص ٤٨٦] كى ينتقلوا من ولاية إلى أخرى، فإنه يدفع لهم ثمنها كى يصير ملكاً لهم. ومن المقطوع به أن اسم خيل البريد لم يكن وارداً من قبل. وقبل هذا كان الصيادون ومتعهدو التمور والأسود يحضرون الحيوانات والفهود من الولايات بواسطة خيل البريد، فأمر بأن يدفع لهم ثمن هذه الحيوانات، وكذلك نفقات الذهاب والإياب، حتى لا يأخذوا في الطريق شيئاً مطلقاً، وتصير الدابة التى كانت قد بقيت بعد الوصول ملكاً لهم.

بهذه الأنظمة عمرت البلاد ووجدت من جديد الرفاهية والنظام. والأموال التى كانت تنفق على دور البريد، والنفقات المخصصة للرسل كانوا يأخذونها إما بالزيادة وإما تنول إلى الخزانة. وما كان يضيع على الرعايا بتلك الخيل يبقى لدى رؤسائهم.

فليوصل الله تعالى بركات هذه المعدلة إلى أيامه المباركة بمشئ وجوده وخفى لطفه وكرمه.

الحكاية التاسعة عشرة

فى القضاء على اللصوص ونطاع الطرق والحفاظة على الطرق منهم

لا يخفى على أهل العالم إلى أى أحد بلغ قبل هذا تناول قطاع الطرق واعتداء اللصوص على الناس. ورغم أن أجناسهم كانت كثيرة لا تحصى من قبيل المغول والتازيك والمرتدين والكرد والور والشول والسورين، فإنه كان ينضم إليهم أيضاً الغلمان الماريون من سادتهم. ويدخل فى زميرتهم كذلك بعض القرويين وسكان الأطراف. وكانوا يَدْعُونَ بأنهم مرشدون. وكان لهم جواسيس ينهون إليهم أخبار كل طبقات الناس. وإذا ما وقع فى مأزق فى وقت من الأوقات حيث ظلوا يهددون الطرق مدة طويلة ونالوا شهرة فى هذا العمل، فإن طائفة من الناس تسرع لحمايتهم قائلين عن كل واحد منهم: كيف يمكن إعدام مثل هذا البطل!؟ ينبغى الإبقاء عليه ورعايته. ولهذا السبب صار اللصوص الآخرون يزدادون وقاحة وجراً ورغم أن القانون السابق كان يقضى بأن يتحد جميع أفراد القوافل والرسل وغابرى الطرق فى مواجهة اللصوص عندما يظهرون ويقاومونهم، فى خلال تلك الحقة لا تعاون تلك الأقوام بعضها البعض عندما يهدد اللصوص الطرق. [ص ٤٨٧]

وأكثر من هذا فإن اللصوص كانوا يعرفون أحوال تلك الجماعة بالتفصيل، فيجأهرون بقولهم: ليس لنا شأن هؤلاء الذين لا يملكون شيئاً أو يملكون القليل؛ فكان أفراد تلك الجماعة ينفضلون عن بقية الطوائف، ويتحون جانباً؛ فينتهز اللصوص الفرصة ويهاجمون الآخرين ويقتلونهم. وكان اللصوص إذا سطوا على بعض المواضع، ونهبوا مجموعة من الخيول أو قرية أو مدينة، فإن سكان تلك النواحي لا يتحدون بل يلتزمون الحياد؛ رغم أنهم قريبون بعضهم من بعض، ومن الممكن مقاومة هؤلاء اللصوص. وقد انتهى الأمر بأن صار للصوص أعوان وشركاء بين كل قوم من سكان البوادي والقرى. وكان هناك أناس كثيرون مطلعون على أحوال اللصوص، غير أنهم كانوا يخفون الحقيقة. وأحياناً إذا انكشف أمر هؤلاء اللصوص فإن الناس لا يعرضون على الحضرة ما حدث فى الوقت المناسب. ويمدد الرؤساء وبعض عمد القرى الذين كانوا مقربين إليهم وأصدقاء لهم، يحصل هؤلاء

للصوص على كل ما يلزمهم من نفقات. وكثيرا ما كانوا يذهبون إلى منازل تلك الجماعة ويتزلون ضيوفا عليهم. كما كانوا يلجأون إليهم عند الخوف والفرع. كذلك كان لهم أشخاص مقيرون إليهم في المدن يبيعون بضائعهم للناس. وكانوا يعاشرهم أوقاتا قد تمتد شهرا أو شهرين، ويقسمون الأموال المسروقة فيما بينهم. وقد بلغ اعتداء اللصوص إلى حد أنهم كانوا يسطون فجأة أثناء الليل على منزل أحد الأمراء ويغيرون عليه. وكان رجال الأمن وحراس الطرق لا يقلون عن اللصوص ظلما؛ إذ كانوا يستولون على كل ما يريدون من المسافرين وكانوا يمتنعون القوافل من السير بحجة أن بين أفرادها لصوصا وأوغادا فيعرف اللصوص ذلك، ويسرون إليهم، ولا يتعقبهم الحراس مطلقا. وفي الحقيقة لم يقلق الرالحون والغادون من اللصوص بقدر قلقهم من رجال الأمن وحراس الطرق؛ ذلك أن ضرر اللصوص يقع أحيانا ومصادفة لكن هؤلاء الضحايا كانوا يقعون فريسة في يد القائلين على الأمن والحراسة في موضعين في كل مرحلة. [ص ٤٨٨] وما أكثر القوافل التي كانت تختار السير في الطرق المجهولة والثالية إلى أقصى حد، والمليئة بالأهوال والمشقات كي تتخلص من رجال الأمن وحراس الطرق.

إزاء هذه الأوضاع رأى سلطان الإسلام خلد سلطانه أن من الواجب عليه تدارك هذه الأمور، فقرر أولا أن كل مخلوق ينفصل عن رفاقه وقت هجوم اللصوص، ولا يتعاون مع الآخرين في العمل على مقاومتهم يكون مذنبا، وتقع عليه إراقة دماء رفاقه وإزهاق أرواحهم.

وأصدر قرارا ثانيا يتلخص في أن كل موضع من المرباط والقرى يتعرض لسطو اللصوص تقع مسئولية اقتفاء أثرهم والعتور عليهم على عاتق من يكون أقرب إلى المكان الذي تعرض للسرقة خصوصا إذا أخبروا بهجوم هؤلاء اللصوص؛ فإنه يكون لزاما عليهم أن يتعقبوهم فرسانا ورجالا سواء أكان الوقت ليلا أم نهارا حتى يعثروا عليهم.

كذلك أصدر قرارا ثالثا مؤداه أن كل مخلوق من المغول والرعابا المسلمين يكون قد توطأ مع اللصوص في المرباط والقرى والمدن، وثبت عليه ذلك يقتل فوراً دون محاباة.

وقد عهد السلطان غازان خان بمهمة تنفيذ هذه الإجراءات إلى الأمير أيتقول أحد المقربين إلى الحضرة، والمشهور بصراحته ونزاهته وهو لا يخفى أحدا على الإطلاق، فقبض

على كثير من طائفة اللصوص وأعدمهم جميعاً، وقد بعضهم نصفين، وجعل الشخص الذى كان يشى بهؤلاء اللصوص "طرخانا"، وأصدر أمراً بأن يكون شغله الشاغل التحرى واستقصاء أخبار هذه الطائفة. ولما كان السلطان قد استحسن إقدام الأمير أيتقول على قتل هؤلاء اللصوص، منحه كل أموالهم ودوابهم، وأمر بإعدام كل مخلوق يسرق ولو بقدر دائق واحد.

بهذه الإجراءات ظهر الخوف والرعب فى البلاد، بحيث إنه لم يجرؤ - بعد ذلك - أى مخلوق على التواطؤ مع اللصوص. ولما عرف هؤلاء أنه لن يتيسر لهم معين، ولن تنهيا لهم الوسائل والمقام، قتلوا سرفاتهم وساد الأمن إلى حد كبير. [ص ٤٨٩].

بعد ذلك قرر أن يربط حراس الطرق فى كل البلاد، وفى كل موضع يكون مخوفاً موحشاً، وأن يؤخذ نصف درهم من القافلة عن كل أربعة من الحمير المحملة، وعن كل جملين نصف درهم أيضاً، وذلك باسم الضريبة وقطعاً لا يؤخذ أكثر من هذا. أما الدواب غير المحملة، وما ينقل من المأكولات والغلال، لا يطلب عنها شيء قط. وإذا حدث سطو فإنه على كل حارس للطريق يكون أقرب من مكان الواقعة أن يقبض على اللص، وإلا فعليه أن يسدد من ماله الخاص قيمة الشيء المسروق. وبموجب هذا أخذت منهم جميعاً إقرارات خطية.

وقد عهد بالإشراف على جميع حراس الطرق إلى الأمير بورالغى وهو ابن الأمير جنتقور الذى كان أميراً كبيراً للدرك فى عهد أرغون خان. وأمر السلطان بأن يعهد الأمير بورالغى إلى شخص موثوق به لحراسة كل طريق. والباعث على ذلك هو اتخاذ الحيلة والحذر حتى لا يتوقف الحراس فى المواضع الآمنة، ويرابطوا فى الأماكن السهلة، ويتركوا المواضع المخوفة المحفوفة بالأخطار معطلة، ولا يربطوا أيضاً فى المواضع مدة تزيد على الضرورة.

وأمر كذلك باتخاذ الحيلة والحذر، وذلك بإقامة أعمدة من الحجارة والجص فى المواضع الضرورية. ثم يوضع على كل عمود لوح مثبت تثبتاً محكماً، ويسجل عليه عدد الحراس المكلفين بحراسة ذلك الموضع، وشروط القاتون المخصص فى هذا الشأن؛ وذلك حتى لا يتجاوز الحراس تلك المواضع، والعدد المعين للحراسة، ولا يتقاضوا ما يزيد على الرسوم المقررة. ويطلق على هذا اللوح اسم "لوح العدل". وأمره واضح وظاهر.

وقبل هذا كان كل مخلوق يدعى أنه من رجال اليريد، ويرابط في مفترق الطرق. وكان يأخذ الإتاوات بطلا السباح بالمرور. أما الآن في هذا الزمان، فلأنه قد كتب صراحة على اللوح أن كل مخلوق يربط خارج هذه المواضع المحددة يعتبر لصاً، لم يستطع أى شخص من المغول والتازيك أن يربط في مكان آخر [ص ٤٩٠]. وخلال هذين العامين عندما أصدر السلطان هذا القانون، هاجم اللصوص طرقاً قليلة في البلاد. وإذا اتفق أحياناً وحدث سطو فإن اللصوص يساقون ومعهم الأموال التي اغتصبوها ويقتلون. وعلى هدى هذه الإجراءات، انتهج جميع أقوام الترك هذا الأسلوب، فعم الأمان، واستتب الأمن في الطرق.

كذلك أصدر السلطان قراراً آخر يقضى بأن أفراد كل قافلة وكذلك المسافرين الذين ينزلون في الطرق الكبيرة بالقرب من إحدى القرى أو في دار اليريد عليهم أن يسألوا أكثر أشرف القوم الموجودين في هذه المناطق: "هل يوجد لصوص أو لا؟" فإذا أجابوا: نعم يوجد، فإن على هؤلاء المسافرين أن ينزلوا في دار اليريد أو في القرية. ويجب على المسئولين ألا يمنعوهم من النزول هناك. أما إذا قالوا: لا يوجد لصوص، وهم ينزلون في الصحراء وتصادف أن ظهر لصوص وسلبوا شيئاً، فإن المسئولية تقع على عاتق هؤلاء القوم. لكن هذا الحكم لم ينفذ في أطراف المدن، لأنه يتعذر تنفيذ ذلك هناك.

وحيث إن الطرق نظمت على هذا النحو، وزُود الأمير بورالغى بأسماء حراس الطرق ورؤسائهم بالتفصيل، فبلغ عددهم ما يقرب من عشرة آلاف شخص؛ بحيث إنهم صاروا يكونون جيشاً معيّناً إعداداً تاماً، وجنود هذا الجيش يقومون بهذه المهمة خير قيام. كذلك صدر أمر بالآلا يشتغلوا بعمل آخر، وعليهم أن يحافظوا على حياة جمهور المسافرين وأموالهم وذلك على نحو يتيح لهم أن يروحوا ويحيثوا في أمان واطمئنان. وهم فارغوا البال مطمئنون الخاطر، يدعون لسلطان الإسلام بإخلاص تام.

فليكن دعؤهم مقروئاً بالاستجابة بمن الله ولطفه العليم.

الحكاية العشرون

فى تخليص عيار الذهب والفضة من الشوائب بصورة لم يسبق لها مثيل مطلقاً وليس من الممكن أن يوجد أفضل منها

لا يخفى أن السكة لكل الممالك منذ قديم الأيام حتى الوقت الحاضر لم تكن فى أى عهد قد ضربت كلها باسم ملك واحد كان يسيطر على كل العالم؛ وخصوصاً فى العهود التى كانت هذه الممالك فى يد عدة ملوك وسلطين. وكان عيار الذهب والفضة مختلفاً دائماً فى هذه المواضع. وقد أرادوا أيضاً فى عدة ممالك أن يضبطوا المسائل الخاصة بالعمله وذلك بأن يجعلوا العيار فيها متساوياً. ولكن هذه المحاولات لم تتحقق برغم الأحكام الصادرة بشأنها، ولم يستطيعوا ضبطها. [ص ٤٩١].

وليس هناك شك فى أن أحد نواميس الملوك أن تكون الخطية والسكة باسمهم. وحتى هذا الوقت كانت السكة تضرب فى بلاد الروم وقارس وكرمان وجورجيا وماردين بأسماء الملوك والسلطين هناك وبعمارات مختلفة. وفى عدة مواضع فى عهد أرغون خان وغيخاتو خان صدر مرسوم يقضى بأن تضرب هناك سكة الفضة ذات عشرة عيارات بتسعة عيارات. وكان هذا من الناحية الاسمية فقط؛ إذا الواقع أن العشرة عيارات لم تزد عن سبعة عيارات أو شاتية. والعمله الرومية التى كانت أحسن بالنسبة إلى غيرها من المواضع الأخرى وصلت إلى حد أن عيار الفضة فيها لم يزد عن دينارين فى كل عشرة دنائير. وكانت البقية كلها نحاساً. وكان رسل المغول يذهبون مرات عديدة مع الكتاب التازيك إلى الولايات المختلفة لفحص العيار بناء على حكم المرسوم. وكانت تصرف نفقات طائلة فى هذا السبيل. وهم يؤدون واجبهام اسماً فقط دون أن يعاقبوا أى مجرم. ولم يستحووا من أن يسكوا مثل هذه العمله التى تبدو نحاساً دفعه واحدة دون أن يظهر فيها أثر من زيادة تذكر من الفضة. ولأنها كانت ترسل بالعدد كانوا يقتطعون من العمله الفضية حواشيها. ولما كان العيار فى الولايات مختلفاً كان التجار يتاجرون فى الأقمشه الحريرية على سبيل الضرورة.

وكان يشترون الذهب والفضة من أى بلد يذهبون إليه حيث كان العيار فى الموضع الذى يقصدونه؛ لأن الفائدة من ذلك تكون لهم أزيد. ولهذا السبب لم تكن الأتمشة الحربية موجودة فى أغلب المواضع. وقد أدى الأمر إلى حد أنهم كانوا يشترون النقود بأقل من قيمتها الحقيقية، وإلا ما كانوا يأخذون شيئا. وكل من أراد أن يأخذ معه مائة دينار لينفقها فى بلد آخر كان يخسر من هذا المبلغ ما يزيد على عشرة دنانير. وكثيرا ما كانت الخسارة تصل إلى عشرين دينارا. وليس هناك غرامة أفدح من أن يخسر غير التجار من المال - الذى ينفى بحاجاتهم الضرورية - كل شهرين أو ثلاثة أشهر عشرة أو اثني عشر دينارا. ومع هذا كانوا مضطرين إلى تحمل مشقات كثيرة حتى يستوفوا تلك النقود منهم لا سيما فى القرى ومضارب البدو وسكان الصحراء الذين لا يعرفون العيارات، ويترددون فى أخذها عاجزين عن إدراك ما هو أفضل لهم.

وفائدة وجود الذهب والفضة إنما تتمثل فى أن حاجات الناس تقضى بواسطةهما وسرعان ما يحصلون على الأشياء التى يريدونها. وعندما يصير حال الذهب والفضة على هذا النحو [ص ٤٩٢] تروج الأقاويل وتظهر المشايخ، ولا يقبل أحد هذه العملة وقت الصرف، فيكون ذلك خللا لوضع العالم وطبعه.

فكر سلطان الإسلام خلد الله ملكه فى أن يتدارك هذا الخلل وذلك على الوجه الآتى:

أولا ضرب السكة وفق طبعه، ووضع عليها علامة لا يتيسر لكل شخص تقليدها وأمر بأن تضرب السكة فى كل البلاد من الذهب والفضة كى ينقش عليها اسم الله واسم الرسول واسمه هو أيضا. وفى جورجيا^(١) كذلك لم تكن السكة هناك تحمل على الإطلاق

(١) خضعت إمارة جورجيا للمغول فى إيران، وكانت تدفع لهم الخراج نقدا أو عينا، وتعمل جامعة لتبنى نفس السياسة التى اتبعها المغول. وكان على الكرج أن يمدوا المغول بعدد من جنودهم فى زمن الحرب. وقد اعتبر المغول الجيش القادم من جورجيا جيشا مثاليا وكفئا كما أن للمغول أظهروا ميلا وولعا بالكرج بسبب مهارتهم العسكرية ولكونهم الحراس الطبيعيين للحدود القوقازية. وفى مقابل ذلك سمح لهذه الدولة بفسط وافر من الاستغلال فى الشؤون الداخلية والمالية، وكان باستطاعتهم أيضا البت فى شئونهم العسكرية دون تدخل المغول. (انظر كتاب العالم الاسلامي في العصر المغولي، تأليف برنولد شيلر، نقله آل العربية خالد اسعد عيسى، راجعه وقدم له سهيل زكار، والطبعة الأولى / ص ٦٨-٦٩، دمشق ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م).

اسم الله واسم الرسول، فسكت غازان على سبيل الضرورة على النحو المقرر عند الكرج (المرج)، إذ لم يكن يروج عندهم غير تلك العملة. وكان نظام التعامل قبل ذلك يسير وفق ما تعارفوا عليه؛ إلى أن دعت الضرورة إلى أن تضرب هناك أيضا هذه السكة المعمول بها في إيران؛ وإلا فإن تقدمهم ما كان يتداول في أي موضع آخر. هذا على الرغم من أن السكان هناك كانوا عصاة متعربين. وهكذا تقرر ضرب السكة من الذهب والفضة وتداولها في كل البلاد على النحو المذكور.

ثانياً فيما يتعلق بتقرير العيار، قال: إنا لو سمحنا بإنقاص شيء قليل من عيار الذهب الشرعي المتداول كالنقد الخليفي والمصري والمغربي، لأنقصوا كثيراً من العيار بمجرد الترخيص، وبالحيل والتليس يظهر أن ذلك العيار بشكل آخر. ولم يكن مفتشونا على علم بذلك، أو أنهم يتقاضون رشاً فيهملون الأوامر.

وإذن فالمصلحة تقتضي أن تضرب النقود بصورة مطلقة من الذهب الخالص؛ بحيث يمكن سكه بالورق. وإما الفضة الخالصة فيمكن تحليلها بالزئبق، حتى إذا داخلها تخليط ولو بقيد شعرة فإنه يمكن إظهاره ومعرفته إما من اللون، وإما من ..^(١)، وإما من النعومة. وإذا صهرت بالنار فإن التخليط يظهر في الحال، ويسهل على كل شخص معرفة قيمتها. وحيث إن السلطان أراد أن يكون العيار في كل البلاد على هذا النمط، وكانت مواضع التفاوت كثيرة في العيارات أمر قائلاً: "إذا نفذ هذا القرار فجأة فإن كافة الخلق سوف يلحقهم الضرر، ويضجون بالشكوى. فالأولى إذن أن يسك كل درهم بأربعة دنانير من غير أن تكون هناك مصلحة من وراء ذلك، ولو بنصف أو ربع دانيق. [ص ٤٩٣] ولم يكن هناك سكة يضربونها في هذا الزمن بنصف مثقال مما كان يساوي نصف الدانق خالصاً، ونصفه الآخر مزيفاً. أما الآن فيساوي نصف مثقال فضة خالصة. وحيث إن قيمة الذهب والفضة تكون بمقدار عيارهما فإن كل شخص يملك نصف نصف دانيق أي (ربع دانيق) خالصاً والنصف الآخر مزيفاً، ثم يصرفه بدرهم واحد، أو يجعله خالصاً في نصف مثقال، يصرفه بذلك الدرهم الواحد. وبالتدقيق تبين أنه قريب من القيمة المحددة، ولا يحدث ضرر كبير. ومن هنا أخذ الناس يستبدلون راضين كل ثلاثة مثاقيل فضة خالصة مسكوكة بثلاثة مثاقيل

(١) هكذا في النص.

ونصف مثقال من الفضة التي كانت في أيديهم. وكان السلطان يستفسر عن قيمة الذهب المتداول ويأمر بسكه وتلمينه على نحو مرضى؛ بحيث لا يحدث تفاوت قط. وأما الذهب المرموزى الذى لا يستطيع أحد تمييزه عن المزيف المطلي بالذهب، وكذلك أنواع الذهب الأخرى القليلة العيار، والأقل قيمة، فإنه أمر بأن يسعر بسعر أرخص ومقصوده من ذلك أن الصبارفة عندما يدركون أن فى صهر الذهب ربحا لهم يشترونه كله، ويصيرونه ذهباً خالصاً. ومتى عرفوا تلك القائدة فإنه خلال عام واحد لم يعد أحد يرى فى البلاد مثقالاً واحداً من الذهب القليل العيار.

ولما كان الذهب الأحمر (الإبريز) الخالص يوجد نادراً فى الأسواق فيما مضى فإنه إذا توافر منه قدر محدود فإنه مائة مشتر كانوا يظهرون لشرائه. وكان المشهور أن الثياب والأقمشة المنسوجة وما شابهها تلك التي كانت توشي بالذهب، وتستهلك كثيراً من الخيوط الذهبية متوافرة فى عصر المغول. كما أنها من البضائع التي تروج فى الهند وتعمل إلى هناك. ولهذا قل الذهب فى ذلك الوقت. أما الآن فإن الذهب الأحمر يتداول بكثرة فى الأسواق بيد كل قروى، ولا نهاية له، وبه تنجز كل المعاملات. وعلى هذا لم يبق فى البلاد من الذهب والفضة غير المضروبين بهذه السكة.

ثالثاً: بالإضافة إلى ذلك صدر قرار يقضي بأنه إذا عثر على ذهب وفضة مزيفين فى يد أحد الأشخاص فإنه يعتبر مجرمًا. وجرياً على العادة القديمة لا يقولون: دلنا على ذلك الشخص الذى أعطاك هذا الذهب؛ إذ إنه فى ذلك الزمان كانت أنواع [ص ٤٩٤] الذهب المزيف موجودة. أما فى هذا الزمان (أى فى عهد غازان) فالأمر يقتضي ألا يتعامل أى مخلوق بغير الذهب والفضة. ومن لا يعرف الذهب يعرضه على شخص آخر كي يختاط لنفسه. وحيث إن الأمر يجرى على هذا المتوال لا يقدم أى مزيف على تزييف الذهب؛ لأنه يعرف بالتأكيد أنه لن يقبل منه؛ ولأن الجميع يختاطون. وفى هذه المدة التي نفذ فيها أمر عظيم كهذا فى كل البلاد، لم يكن الأمر محتاجاً لأن يقتل أحد جزاء مخالفته. ولقد ذاع الخبر وانتشر فى كل البلاد، ويقضي بالآ يكون هناك سكة أخرى قط ولا عيار آخر غير المذكورين. وأمر أيضاً بالتعامل بالفضة المسكوكة، بحيث يزن الدينار المتداول ثلاثة مثاقيل حتى لا يزيغه أى مخلوق.

ولما صار النقد متساويا في كل البلاد استراح الناس، وأخذ التجار يستبدلون الأمتعة بالنقود التي كانوا يدخرونها. والآن يحملون أنواع البضائع إلى كل بلد. وقد رخصت أسعارها، ونمت جميع الناس بفوائدها، وانتشر اسم سلطان الإسلام خلد سلطانه وذاع بالاستحسان والثناء. وقد قرئت الحظية وضربت السكة باسمه المبارك. كذلك أمر السلطان غازان بسك عملة من أجود أنواع الذهب، تزن كل واحدة منها مائة مثقال، ونقش عليها اسمه بخطوط كل الولايات، حتى يعرف الجميع عندما يقرأونها في كل المواضع أنها من ضربه. وقد نقش عليها آيات القرآن الكريم وأسماء الأئمة الاثني عشرية (رضي الله عنهم). وكانت هذه العملة تتناز بالجودة واللفظ إلى أقصى حد؛ بحيث إن كل شخص يعثر عليها، لا يعيل إلى تركها. وقطعا يريد أن يحتفظ بها. وعلى سبيل الشهرة وإذاعة الصيت صرح السلطان قائلا: "عندما نعم على أحد نعطيه من تلك العملة الممتازة"^(١). مثل هذه الاعمال العظيمة التي لم تنح لأى واحد من الخلفاء والولاة السابقين قد تيسرت ومهدت لسلطان الإسلام خلد سلطانه وهي لازمة لراحة الخلق. فليبقه الله تعالى أبد الدهر بمنه وكرمه.

(١) يبدو أن هذه العملة كانت للإهداء فقط وليست للتداول. هذا ويذكر شوبر أنه لم يعثر حتى الآن على نموذج من هذه للسكوكات (تاريخ مغول در ايران، ترجمة دكتور محمود مير تقاب، ص ١٩٤ - ١٩٥).

فى تعديل أوزان الذهب والفضة والأحمال والمقاييس والمكاييل والمساحات والأوزان الأخرى وغير ذلك

قبل هذا كانت أوزان الذهب والأحمال والمكاييل والمساحات والأوزان الأخرى مختلفة فى البلاد، بل حتى هذا الزمن، كانت تختلف أيضا فى نواحي كل ولاية. ولهذا السبب كان يقع خلل كبير فى محيط الأسعار. وكان التجار يقللون من شراء البضائع؛ لأنهم كانوا كلما حلوا نقودا من موضع إلى موضع زادت قيمتها. وبمجرد ما كان الوزن يتفاوت كان يتحقق الربح للتجار. وقد ترتب على هذا أن كسدت سوق البضائع فى بعض الولايات وانعدم وجودها فى بعضها كذلك. وكانوا يتعاملون بالأصغر منها مع الغريب، وبالأكبر فيما بينهم. وإذا كان الغريب يعرف ذلك أو لا يعرف فإنه للضرورة يرضى بالأمر الواقع. وكان القرويون يشهد الواحد منهم للآخر كذبا وزورا على أن المكىال عدل وصحيح. أما مكاييل الحبوب التي كانت تعطى للجنه، أو تقدم كهدايا، والتي ينبغي أن يزن كل مكىال مائة من فإن ما يظهر منها سبعون أو ستون منا فقط، بل أقل من ذلك أيضا. لكن الأشداء يأخذون حقهم كاملا، بل ولزيد أيضا، وذلك بضرب المراواة. ولهذا السبب كان الناس دائما فى شقاق ونزاع.

عن هذه الأحوال المختلة قال سلطان الإسلام: "حيث إن كل الممالك طوع أمرنا، فما الداعي إذن لوجود هذا الاختلاف؟! علينا أن نضبط تلك الأمور ونصلحها؛ بحيث تكون كل المواضع متساوية ونعمل حتى لا تبقى أوزان مختلفة فى الأسواق والولايات والقرى كي لا يستطيع التجار التلاعب والسرقة.

وبخصوص هذا الموضوع أعمل السلطان فكره المبارك، فأصدر مرسوما ينص على وجوه الإصلاح والتدبير والترتيب على النحو الذى نسجله ونوضحه ونبينه فيما يأتى:

[ص ٤٩٦] نص المرسوم الصادر بشأن عيار الذهب والفضة الذى أمر به السلطان على الوجه الذى هو أفضل كل الوجوه

بسم الله الرحمن الرحيم
بقوة الله تعالى وميامن الملة المحمدية
فرمان السلطان محمود غازان

ألا فليعلم الشحن والملوك والكتاب والنواب والقضاة والسادات والأئمة والصدور والأعيان والوجوه والمشاهير وكافة السكان والمسافرون وتجار الممالك أن كل أنظارنا وهمنا السلطانية متجهة إلى رفاهية أحوال الرعايا وجميع الخلق، ونشر العدل والصدق فيما بينهم وإقامة الأعمال الخيرية وترديد أن نزول من بين سكان العالم الظلم والجور والبدع والأكاذيب التي انتشرت آمادا مديدة بين الخلق. ذلك أن كافة الناس صاروا فى تعب ومشقة، ومثار اعتراض وجدال ودعاوى باطلة، وحروب وخصومات؛ فترغب فى أن نرفع عن كاهلهم أنواع التزوير والمظالم كي يتخلصوا فى هذه الدنيا من الفتن والمشقات، وفى الآخرة من العقوبة ومن نار جهنم.

فى هذه الآونة عندما كنا نتفحص شئون الملك ومصالح الخلق، ونضع قانونا لكل أمر تبين لنا أن كل شخص يعد لمصلحته ومنفعته أوزانا من الحجارة واللبن والحديد وغير ذلك يستعملها فى أسواق المعسكرات والمدن. وفى كل وقت يزيد وينقص فى الوزن حسب هواه. وهكذا يبيع ويشترى بهذه الطريقة، فيصير الفقراء مغبونين ومتضررين. هذا التصرف لم يكن مناسباً لرأينا الذى يزين الدنيا، ولم نستحسنه، فصدر أمرنا بتعديل أوزان الذهب والفضة والأحمال والمكايل والمقاييس، وذلك فى كل البلاد الممتدة من ضفاف نهر جيحون حتى حدود مصر، وأن تصنع كلها من الحديد. ثم تختم وتضبط بحضور الشخص الذى عيناه لهذه المهمة. وبموجب هذا النظام يباشر الناس أعمالهم فى كل البلاد، ولا يحيدون عنه. وإن تفصيل وبيان ذلك إنما يكون على هذا النحو الذى نشره فيما يأتى:

[٤٩٧] أولا: يجب أن يكون وزن الذهب والفضة في كل البلاد موازيا ومساويا لوزن

تبريز كي لا يستطيع أحد أن ينقص أو يزيد فيتحمل مظالم الناس، وأيضا لا ينقل النقود من ولاية إلى ولاية أخرى بسبب تفاوت الوزن. ومثلما يتساوى عيار الذهب والفضة في المملكة تتساوى الأوزان أيضا. ولهذا السبب عينا الأستاذين فخر الدين وبهاء الدين كي يصنعا أوزان الذهب والفضة بالشكل المثلث وأن يعينا من قبلهما في كل ولاية اثنين من الثقات وأميننا من قبل قاضي تلك الولاية كي يعدلوا الأوزان بحضور المختص، ويتم ترتيب وضبط ذلك، على نحو يراعى فيه أن تكون سنجات الذهب مضمنة الشكل طبقا للنموذج الذى وضعه فخر الدين وبهاء الدين الخراساني. فأى شخص في كل ولاية يحتاج إلى أن يعد لنفسه وزنا، عليه أن يصنعه بالشكل المعين من الحديد الخام. ثم يذهب إلى الأربعة الثقات المذكورين الذين عينوا في كل ولاية كي يعدلوا العيار باحتياط تام، ويضعوا عليه السكة، ويسلموها لأصحابها، ولا يصنع تلك السكة أى شخص آخر كائنا من كان، ولا يضعها على حجر الوزن. أما الشخص الذى يصنع تلك السكة وفق هواه، ويضع العلامة على الحجر على سبيل التمييز فيعتبر مجرما ويستحق الإعدام.

ثانيا: يجب على كل شخص يعطى السنجات والسكة أن يسجل اسمه في السجلات حتى لا يستطيع الآخرون تزيف الوزن حسب هواهم، وأن يتفحص المسئولون كل شهر - على سبيل الاحتياط - كل السنجات لكافة الناس، ويقارنوها بالأصل، فإذا ما زاد عليها شخص أو نقص منها، أو أخفاها أو وضع السكة خفية أو سرا حسب هواه، أو استعمل وزنا آخر ليس عليه ذلك الختم وتلك النقوش ثم تداوله أو أنه زيف تلك الأوزان - فإنه يقبض على ذلك الشخص ثم يساق إلى الشحنة كي يعاقب بموجب حكم المرسوم.

ثالثا: أوزان الأحمال لها نفس الحكم والترتيب والطريقة. ولكن المقرر هو أنه في كل موضع يكون الوزن أقل من وزن تبريز يعدل ليكون مناسبا ومساويا لوزن هذه المدينة.

[ص ٤٩٨] وكل ما كان حتى هذا الوقت زائدا على وزن تبريز يطبق عليه القرار المتبع بالنسبة إلى السنجات ومراعاة الاحتياط حتى يتركوا وزن تلك الولاية. لكن ينبغي أن تصنع كل تلك الأوزان من الحديد بشكل مضمن طبقا للنموذج، وأن يراعى الاحتياط فوضع عليه السكة، ثم يقر المسئولون الثقات الإجراءات على هذا النحو من الضبط والترتيب.

وينبغي أن تصنع أوزان الأحمال ابتداء من عشرة أمان حتى الدرهم الواحد في إحدى عشرة قطعة وفق هذا الترتيب: عشرة أمان خمسة أمان منان من واحد نصف من ربع من شمن من عشرة دراهم خمسة دراهم درهمان درهم واحد. وعندما يكون الحمل ثقيلًا ومكونًا من قطعة واحدة يجب على موظفي الدفعة في المدن أن يصنعوا قبانًا معتمدًا عليه، يوزن به الحمل؛ بحيث لا تكون هناك زيادة أو نقصان في الوزن.

رابعًا: بسبب اختلاف المكاييل في كل بلد من كيل وقيز وجريب وتغار قمح أو شعير ونظرًا لاصطلاحاتها الكثيرة فإنهم يزدون وينقصون فيها، وكل شخص يصنع مكيالًا وفق هواه. ولا شك أن ضبط ذلك كله أمر صعب. ثم إن كل شخص لا يدرك ذلك، وبخاصة أفراد القوات المتطوعين من المغول. وكذلك التجار والغرباء الذين يصلون إلى كل ولاية. وقد ينشب الخلاف بينهم وبين الرعايا فيما يتعلق بشراء مكيال الديوان وتسلمه. على أن كل من له غلبه ونفوذ يأخذ بالقوة ما يزيد عن المقرر. أما الأشخاص الضعفاء فيعطون أقل من المعهود. وهذا من شأنه أن يسبب النقصان والخسران والمشقة والويل والقال بين الناس أجمعين.

هذه الأسباب أمرنا بأن يكون الكيل متساويًا في كل البلاد. وكل كيله تساوى عشرة أمان بوزن تيريز، ويساوى المن الواحد ٢٦٠ درهما، وكل عشر كيلات تساوى تغارا واحدا. وباستثناء الكيلة والتغار المذكورين لا يستعمل أى مكيال أو اصطلاح آخر بين الخلق حتى تكون المعاملة والمحاسبة صحيحة، ولا يَحْتال الواحد منهم على الآخر. وعند تسليم التغار يقدر بالمكيال حتى لا تكون فيه زيادة أو نقصان. ولما كانت الحبوب من القمح والشعير والأرز والحمص والبقول والسمسم والجاورس وغير ذلك، وبعضها أخف أو أثقل من بعضها الآخر، ينبغي أن يصنع لكل نوع من تلك الحبوب [ص ٤٩٩] مكيال خاص به، بحيث يعادل عشرة أمان بالضبط. ثم يكتب اسم محتوى كل مكيال على أربع جهات بعنوان "مكيال الحب الفلاني"، على أن تفرض دار القضاء "المعتمد" للقيام بهذا العمل، إذ إنه الشخص الذى عهد إليه بالإشراف على أوزان الذهب والفضة والأحمال. وعلى المسؤولين أن يحافظوا لذلك المكيال بالاتفاق مع المحتسب، وأن يضعوا على أطرافه أيضا علامة خاصة به، بحيث لا يمكن حدوث أى تزوير أو محاولة للنقصان أو الزيادة.

وكل شهر تتخذ الحبيطة فى المدن والولايات؛ بحيث إن كل شخص يصنع مكيالاً بغير العلامة الخاصة به، ويكون فى حوزته، يقبض عليه ويسلم للشحنة، ويعتبر مجرمًا، وتقطع يده، ويؤخذ بجرمه وجنايته. وبأى حال من الأحوال، ولأى سبب من الأسباب لا يكون هناك بعد ذلك فى كل الممالك ابتداء من ضفاف نهر جيحون إلى غنوم مصر أى مكيال أو قفيز أو جريب سوى المكيال ذى العشرة أمان، والتغار ذى المائة من. وإذا وجد فإنه لا يهتم به، ولا يصنع مكيال أو مقياس آخر. وإذا أريد صنع نصف ذلك المكيال ذى خمسة أمان فإنه يجوز ذلك؛ بحيث يتكون من العشرين ونصف المكيال تغار واحد.

خامسا: يجب تخديد مكيال الدبس والخل والسمن، بحيث يكون كل مكيال عشرة أمان مساو لوزن تيريز. وإذا أريد صنع نصف مكيال فإنه يجوز ذلك؛ بحيث يكون خمسة أمان بوزن تيريز. وأما قرب الدبس فما كان يقدم منها طعاما للجنود أو الإهداء فإن الواحدة منها تقدر بخمسة مكيات، وتزن خمسين منا. وأما ما يقدم فى المآدب والحفلات فإنها تكون أربعة مكيات تزن أربعين منا.

سادسا: تقاس كل الأذرع التى يقيسون بها الأقمشة بالذراع التيريزى، ولا يقيسونها بالذراع الرومى الذى يختلف كثيرا عن الذراع التيريزى. لكن يوضع على أعلى كل الأذرع الختم الذى صنعه الأستاذان فخر الدين وبهاء الدين الخراساني: أما النموذج الذى يعطى للمستولين، فإنه يوضع على طرفى الذراع ويكون تنفيذ ذلك على النحو الذى سبق شرحه. وفى المدن يشرف على هذه العملية المعتمدون المذكورون. وكل من يغير ويبدل فى المقاييس يعد مجرما ويستحق الإعدام.

أوصل الله تعالى بركات مثل هذا العدل والإنصاف إلى أيام السلطان المباركة الميمونة.

المكايبة الثانية والعشرون

فى تنظيم شئون المراسيم والفايزات وتسليمها للناس

[ص ٥٠٠] بخصوص المراسيم قرر السلطان أن يعرض عليه فى الوقت المناسب كل كلام فى حالة صحوه و بقطته. ولو أن سلطان الإسلام خلد ملكه - حتى وقت تناوله الشراب أيضا لا يستطيع أى مخلوق أن يموه عليه على سبيل الخيلة والتليس والمغالطة. كما لا يستطيع الحصول على إذن يسمح له بعرض كلام غير مستساغ ولا جنوى منه. ولا يمكن أن يعرض عليه موضوع غير منطقي لا فائدة منه، أو أن يطلب إليه البت فى أمر على سبيل العجلة والتسرع؛ فلم يأذن بأن يعرضوا عليه كلاما فى مثل هذه الأحوال.

كذلك أمر السلطان بأن بعد الأمراء صور المراسيم بعد عرضها عليه، إذ إنهم يعرفون مصالح الملك، ويدركون كل أمر. وإذا كانت هذه المراسيم غير معقولة وبعيدة عن العمل الذى يمارسونه، فعليهم ألا يكتبوها بناء على التماس كل شخص. وهناك أيضا كثير من المهمات التى ينبغي أن تراجع بشأنها السجلات الدىوانية مع ذكر المواضع والمبالغ. ويجب الاحتياط عند كتابة المسودة، فيقرأونها لفظا بلفظ بحضور كتاب المغول، ثم يعرضونها على الحضرة، حتى إذا لزم إصلاح فإنه يصحح بقلم السلطان المبارك أو بلفظه المبارك. وبعد تبيض المسودة يعرضونها عليه مرة أخرى، ثم يختتمونها، ويقولون: إن المرسوم الفلاتي الخاص بفلان قد عرض فى اليوم الفلاتي وقرئ فى اليوم الفلاتي، وذلك حتى يؤذن لهم بوضع الدمغة.

وقبل هذا كان مفتاح صندوق أختام الدمغة الكبيرة فى يد الكتاب. أما الآن فهو فى عهدنة الحضرة المبارك، ويسلم وقت الحاجة كي يختتم به الكتاب المراسيم متفقين، ثم يعيدونه إلى موضعه. كذلك عين السلطان أربعة أمراء من أربع فرق، وأعطى كل واحد منهم على حدة ختما أسود (قرا شغا)؛ حتى إذا ختموا به المرسوم سجلوا ذلك على ظهره بحيث لا يمكن إنكاره مطلقا، أو أن يقولوا: إن ذلك لم يتم بمعرفتنا. بعد ذلك تعرض هذه المراسيم على الوزراء وأصحاب الديوان مرة أخرى كي يحتاطوا للأمر ويتأكدوا متسائلين: هل حدث تلاعب أو لا؟ وهؤلاء يضعون أيضا دمغة الديوان على المرسوم، ويسلمونه

للشخص المعين. ثم عين كاتباً كي يكتب فى السجل صورة المرسوم لفظاً بلفظ ويختتمه ويذكر [ص ٥٠١] اليوم الذى ختم فيه بالدعغة، ومن كتبه، ومن عرضه. وبعد انتهاء العام ينشأ من جديد سجل آخر تسجل فيه المراسيم؛ بحيث يخصص سجل جديد لكل سنة. والمقصود هو ألا يتيسر حدوث تزوير أو تخليط، ولا يستطيع أحد قط أن ينكر عرض المرسوم أو كتابته وختمه. وكذلك إذا أعطى أحد مرسوماً، ووجده شخص آخر، وأراد أن يحصل على حكم يخالف ما نص عليه المرسوم فإنه يرجع إلى السجل كي تعلم الحقيقة، ولا يحدث خلاف ما عرض. وإذا ما اتهم صاحب المرسوم فإنه من ذلك السجل، يمكن معرفة ما إذا كان قد أدخلت زيادة على ما هو مقرر له أم لا. وبناء على هذا يؤخذ هو أو من اتهمه؛ وذلك حتى تنتظم أمور الأحكام بصورة دائمة، وتغلق أبواب الاعتراضات المغرضة. وأمر السلطان كذلك ألا يأخذ الرسل من أحد شيئاً فى مقابل ختم المرسوم بالختم الأحمر. والحق أنهم بهذه الإجراءات قللوا كثيراً من أولئك الذين كانوا يطمعون بالنسبة إلى ما كان عليه الحال قبل ذلك.

كذلك عين لكل أمر هام دعة خاصة؛ فالدعة الكبيرة المصنوعة من اليشم^(١) خصصت لحكومات السلاطين والأمراء والملوك العظام ومعظمت الأمور. وخصصت للقضاة والأئمة والمشايخ دعة أخرى من اليشم أيضاً، وهى أصغر قليلاً. أما للأمور المتوسطة فقد خصصت دعة كبيرة من الذهب وهى أقل قيمة من اليشم. ومن أجل ركوب الجند ونزولهم تستعمل دعة خاصة من الذهب بنفس ذلك الخط والنقش المعهودين، على أن ينقش على أطرافها صورة قوس وهراوة وسيف. ويقضى الفرمان بألا يركب الجنود أو ينزلوا بناء على كلام الأمراء أو أى مخلوق ما لم يروا تلك الدعة، وذلك باستثناء جنود الطليعة الذين يقومون بمباشرة مهمات الثغور وحراستها. كذلك هناك فئة قليلة من الجند لمراقبة الطرق على سبيل الاحتياط، فعلى هؤلاء أن يركبوا وينزلوا بناء على أوامر أمرائهم. واتخذوا أيضاً ختما ذهبياً صغيراً تختتم به حوالات الخزانة والولايات وملحقاتها والمفاوضات والرسائل الدبلوماسية التى تكتب بخصوص المعاملات والرى والفلاحة؛ وذلك بعد أن يكون كتاب الديوان قد كتبها بموجب التأشير، وكتبوا على ظهرها عبارة مختصرة بالخط المغولى حسب التعليمات حتى يختتموها بتلك الدعة.

(١) اليشم: مصطلح عام يشمل مجموعة من المعادن الصلبة التى تتدرج ألوانها من الأبيض تقريباً إلى الأخضر الأداكن وتتكون من سليكات الكلسيوم والفضيوم غير المتبلورة. (انظر المعجم الوسيط، ج ٢ ص ١٠٦٥).

والآن عندما تتجمع الحوالات والرسائل الكثيرة [ص ٥٠٢] تعرض على الحضرة فيأخذ المسؤولون مفتاح الصندوق ليختتمها الوزراء ونواب الديوان بمعرفة "صاحب الدفعة" (صغايجي). هذا على حين أن الآخرين يثبتونها في السجل المحفوظ أيضا في ذلك الصندوق حتى تتضح معرفة أى شخص ختمها بالدفعة، وفي أى وقت تم ذلك. ومع توافر مثل هذا الضبط والترتيب كيف يبقى بحال يمكن معه كتابة حوالة بدائق من الذهب دون الإذن المبارك !!

وعندما قررت هذه الضوابط ونفذت غطر للفكر المبارك أنه لما كانت مهمات الملك ومصالحه وملتمسات الناس أكثر من أن تتيح الفرصة الكافية لقراءة كل مسوداتها؛ ينبغي أن يفكر في اتخاذ قرار آخر في هذا الشأن حتى لا تعطل مصالح الناس، ولا تلحق مشقة بأرباب الحاجات لهذا السبب. وحيث إنهم أيضا يكتبون صورة لكل مهمة فلا بد ألا تبقى في ذهن الكتاب مضامينها لكثرة ما يكتبون؛ ومرة أخرى يحدث اختلاف في العبارات ويظهر الاختلاف في تلك الأحكام التي تكون قد كتبت لمهمة واحدة. ولتلاقي هذا النقص أمر بأن تضبط أنواع المهمات وملتمسات الناس مما قد يمكن وقوعه؛ وذلك اعتمادا على القياس وإعمال الفكر، وأن تكتب لكل منها صورة تشتمل على جملة الشروط اللازمة لتلك المهام بتفكير تام وعناية فائقة.

وعندما دونت كل هذه القواعد والشروط، استدعى السلطان الأمراء وقال لهم: إن الأحكام التي تصدر إنما هي بأمرى، وتعرض بواسطتكم. وحيث إنه يجب على كل مخلوق ألا يكون قادرا على إحداث تغيير في هذه الشروط بسبب ثلونه وعدم ثباته يلزم أن نقرأ هذه المسودات، ونعمل الفكر في كل باب من تلك الأبواب، بحيث نحاط للأمور، ولا يبقى أى شيء مهما دق أو صغر، ويترك مهملا وغير مرعي. وبذلك يكون ما نقره موافقا لرأينا ورأيكم، ونجعله دستورنا. بعد هذا نبت في كل القضايا على هذا النحو، ونحكم بناء على ذلك، حتى تجرى كل الأمور على منوال واحد وقانون واحد، ولا يتطرق اختلاف إلى أقوالنا. ويجب على المسؤولين أن يتشاوروا في الأمر. وعلى سبيل الاحتياط يصلحون ما يرونه في حاجة إلى إصلاح؛ بحيث يستقر رأيكم بالإجماع على قرار واحد. وبعد ذلك يقرأ ما كتب مرة أخرى بحضوركم؛ فإذا ما بدا لكم شيء من خلل فعليكم أن تتشاوروا وتصلحوه. [ص ٥٠٣]

وبعد إتمام هذه الخطوات الإصلاحية استقر الرأي حسب الأوامر الصادرة على أن تكتب كل تلك المسودات في سجل، سماها "قانون الأمور"، وأمر بأن تنسخ الأحكام فيما بعد من تلك المسودات دون زيادة أو نقصان. وإذا اتفق - وهذا نادر - أن وجدت صورة لم تذكر في السجل فإنه تعد لها مسودة ثم تعرض. وأحيانا إذا لزمَت إضافة جديدة تتناول الشخص والموضع واقتضاء الحال والوقت فإن على المسؤولين أن يكتبوا - على حدة تلك الألفاظ القليلة، ثم يعرضونها.

وحيث إن مثل هذا الضيق والترتيب لم يكن لهما مثيل في أى عهد سدت أبواب الجهادلات والمنازعات التي كانت تحدث في الأحكام نتيجة اختلاف العبارات. وبذلك انتهت حيرة أصحاب الحاجات، وتهيأت لهم الفرص المناسبة، واستراح الخلق، وتحقق للجميع وثوق تام في شئون الأحكام، ورسخت حرمة المراسيم وعظمتها في القلوب. وقد زال سعي وأراجيف المفسدين والفضوليين الذين كانوا يستنبطون الأحكام وفق أهوائهم ووضعت مراتب الخواص والعوام والحكام والمحكومين والظالمين والمظلومين. ولا شك أن منافع هذه الضوابط أكثر من أن توصف.

أما بخصوص ترتيب وتدبير منح الهيازات^(١)، فقد أمر السلطان بصنع هيازات كبيرة خاصة بالسلطين والملك والشحن، وهي مستديرة على هيئة رأس الأسد، ومكتوب عليها اسم ذلك الشخص الذى يمنح الهائزة. ثم يسجل ذلك فى السجل، وتظل فى يده طوال مدة عمله. ثم تسترد بعد عزله؛ إذ إن الهائزة تظل سنوات عديدة مخصصة لتلك الولاية. ومن المقطوع به أنها تمنح للملك بعينه، ولا تعطى شخصا آخر غيره. وكان المعتاد قبل ذلك أنهم إذا كانوا يرسلون - خلال عشرين سنة - عشرين حاكما إلى إحدى الولايات، فإنهم يمنحون كل واحد منهم هائزة. وكان كل حاكم يعتقد حتى بعد عزله أن الهائزة أصبحت ملكا له، فكان يرسلها فى الخفاء إلى أحد الأماكن لإنجاز مهماته الخاصة.

(١) الهائزة لوحة من الذهب أو الفضة أو الخشب حسب رتبة المهدة إليه. وهى تشبه الميدالية فى العصر الحديث. وينقش على وجهها اسم الله واسم صاحب الخان الناتج وعلامة خاصة. وقد أمر غازان بأن يكتب عليها أيضا اسم الشخص الذى يمنح الهائزة. أسى أنواعها ما كانت تزيه صورة الأسد. وهذه خاصة بالملك. وتهدى الهائزة إلى من يشق بهم الملوك من كبار الشخصيات ورجال الدولة، ويتمتع حاملها بالهيازات خاصة فله الطاعة على كل من فى دولة الملوك.

وأما بخصوص الملوك والشحن ذوى الرتبة المتوسطة، فقد خصص لهم بايزات أصغر من السابقة. وهى ذات نقش مخصوص ومكتوب عليها اسم الشخص الذى منحه له البايظة وفقا للضوابط المذكورة، ومنع ما كانوا يعطونه قبل هذا من وسائل كي يصنعوا الباييزات فى الولايات وعين السلطان صائغا يلازم البلاط، وهو الذى يصنع الباييزات. وعند تسليم البايظة المصنوعة من الفولاذ ينقش عليها نقش معين؛ بحيث لا يستطيع شخص أن يقلده بسهولة. ويشترط أن يتم ذلك فى حضرة السلطان، ثم يطرق بالطريقة حتى يثبت عليها [ص ٥٠٤] والمقصود هو أن تظهر البايظة المزورة بواسطة تلك العلامة.

وبخصوص الرسل الذين يركبون خيول البريد فقد خصصت لهم نفس الباييزات المستديرة، ويكتب عليها بايظة الخزانة ثم يسجل اسم الرسول فى السجل. وعند عودته تسترد منه.

وأما بخصوص الرسل الذين يذهبون بالبريد الرسمى للدولة، فقد أمرهم السلطان ببايظة مستطيلة على رأسها صورة القمر، ومنح هذه البايظة أيضا وتسترد وفقا لهذه القاعدة. وعندما تقرر إيفاد أمراء الثغور دعت الضرورة إلى استخدام البريد الرسمى، كما تقرر أن يمنح كبارهم خمس بايزات مصنوعة من النحاس. أما ذوى الرتبة المتوسطة، فيمنحون ثلاث بايزات يسلمونها للرسل السريعى العدو.

وقبل هذا كان أمام كل واحد من الأمراء الأتجنال والخواتين والأمراء أنواع من الباييزات. وكان هؤلاء يسرون الرسل تباعا إلى الولايات لإنجاز كل عمل يريدونه. وقد ثبت واتضح للجميع كيف ظهر أثر هذا التدبير المحكم وكيف ظفر الناس بأى نوع من الراحة.

أوصل الحق تعالى بركات هذا العدل والإنصاف إلى أبهام السلطان المباركة.

الحكاية الثالثة والعشرون

فى تدابير استعادة المراسيم والهايزات المكررة التي كانت فى أيدى الناس

تقتضى طبيعة العالم أنه فى عهد كل ملك توجد طائفة من الناس تناسب أساليب حكمه، وتتفق مع عاداته وميوله. وهؤلاء القوم صاروا مقدمين على غيرهم، وإليهم تفوض شئون الملك والولاية، وهم ينفذون الأحكام على طريقة ذلك الملك إن عدلا وإن جورا ويسلمون للناس المراسيم والفرمانات. وعندما ينتقل الحكم إلى ملك آخر فلا مفر من أنه يرغب فى إحالة تلك المهمات إلى أشخاص يسيرون وفقا لعاداته ورسومه، ويصدرون أحكاما بصورة تناسب مع طبيعة عهده؛ ذلك أن كل عهد يقتضى نوعا خاصا من الحكم. والمشاهد قبل هذا أنه فى عهد آباء وأجداد سلطان الإسلام - خلد ملكه - أن كل ملك إذا ما أراد أن يجمع المراسيم والهايزات السابقة التي كانت فى أيدى الناس بالحق أو بالباطل فإنه يسير [ص ٥٠٥] رسلا مشهورين يحملون الأوامر المحكمة العظيمة والمصوغة فى أسلوب من المبالغة والتحويل. ويجعل الفرمانات هو أن من يخفى مرسوما من المراسيم أو هايزة من الهايزات يعتبر مجرما. وكان هؤلاء الرسل ينفقون نفقات باهظة فى طريقهم إلى الولايات بحيث لا يحتويها الحصر والعد، وصاروا يعتقلون جميع من عندهم مراسيم ومن ليس عندهم. وكانوا يضربونهم ويرتكبون فى ذلك المخالفات. ولكن حامل المرسوم الذى سحب منه فإنه على الرغم من أن هذا المرسوم لم يكن يصلح له، لكنه فى سبيل المحافظة على كرامته، وحتى لا يبدو فى نظر الناس حقيرا ينفق نفقات باهظة كي يعيدوا إليه المرسوم. وبذلك يتحقق له الإجلال والاحترام.

وبخصوص الهايزات كان يحدث مثل هذه التصرفات. وكان الرسل يطوفون حول العالم بصورة مستمرة، ويحصلون بهذه الطريقة على أموال طائلة. ومع هذا لم يكونوا يستطيعون إحضار مرسوم واحد من مائة مرسوم. ومع ذلك كانوا يحضرون هذه المراسيم فى تلك السنوات. ثم يكتب الكتاب مراسيم أخرى لتأييد المراسيم التي بأيديهم. ومع أنهم كانوا يستردون المراسيم الباطلة صاروا يعطون كل شخص مراسيم كثيرة مختلفة متناقضة

لأن الطريقة المتبعة في ذلك الزمان فيما يتعلق بإعطاء المراسيم، كانت تتطلب لجوء كل واحد من الناس في العالم إلى أحد الأمراء، ويأخذ مرسوما حسب رغبته. وبسبب اختلاف المتازعين، وتعصب الحماة كانوا يرسلون كثيرا من المراسيم المتتالية المتعاقبة مما لا يمكن شرحه. وهكذا كانت تضي الأيام بتلك الطريقة، ويموت هؤلاء الخصوم وهؤلاء الأمراء ثم يحيى أبنائهم، ويسلكون نفس السلوك، ويبد كل واحد منهم مرسوم، بحيث إنهم إذا حضروا للتحقيق معهم فإنه - خلال عشرة أيام - لا تتضح صورة أحوالهم، ولا كيفية حصولهم على المراسيم. وستة بعد أخرى لا يفهمونها، وإذا ما فهموها اتضح أنها كلها على غير أساس وباطلة. وقد كتبوا بدافع التعصب، أو أنها عرضت عن طريق الرشوة، أو أنها صدرت بغير إذن السلطان، ودون إشارته. وكثيرا ما كان يحدث أيضا أن يتفق الأمراء الكبار، ويعرضوا مرسوما معينا لمصلحة أحد الأشخاص، فكانوا يعطونه التأشير، وتكتب صورة المرسوم على وجه التحقيق. ولكن ذلك الشخص يضيف عدة ألفاظ مختصرة يدخلها على المرسوم، فيغير ذلك القرار الذي اتفق عليه الأمراء تغيرا كلياً [ص ٥٠٦] يوافق مصلحته. وكان يحتال كي يضيف هذه الزيادة إلى الصورة، أو يعطي الكتاب هدية قيمة حتى يكتبها ثم يتمسك بها. وكثيرا ما انتهر الكتاب الصغار الفرصة وأعطوا كل شخص مرسوما وفق رغبته دون مشورة الأمراء الكبار. كذلك الحال عندما يعطي أحد مرسوما بأمر السلطان، ووجد شخص آخر يماثله في منزلته وصنعتة، فإن الكتاب يتشبثون بذلك، ويعطون أيضا ذلك الشخص مرسوما على غرار زميله؛ فكان يترتب على تلك القضايا الألف المتناقضة مائة ألف إشاعة وفتنة بين الناس. ولما كان الخصوم جميعهم أصحاب مراسيم فإن المحققين والحكام والقضاة مهما أرادوا أن يتتوا في قضية واحدة، ويحكموا فيها حكما قاطعا، اختلط عليهم الأمر وغمض، وذلك لكثرة ما بيد كل واحد منهم من المراسيم والهايزات. وقد أدت المتازعات إلى حد أنه في كل سنة كان يقتل كثيرون من الأشخاص بعضهم بعضا. بالإضافة إلى ذلك صار تجميع تلك المراسيم والهايزات المكررة واستردادها أمرا عسيرا. ومع هذا كانوا يعطون الناس عددا كثيرا منها بنفس الطريقة المذكورة

أما الآن فقد أعمل السلطان غازان - خلد ملكه - فكره المبارك في تدارك هذا الخلل وأمر بإصدار المراسيم إلى كافة الممالك، وكلها مصوغة في عبارة واحدة مضمونها أنه على

الشنن والملوك وحكام الولايات أيضا ألا يقبلوا على الإطلاق ما يقدم إليهم من الهيازات القديمة والحديثة التي في أيدي الناس، وألا يهتموا بها؛ إذ إننا أصدرنا أمرنا بإلغائها كلها. وكذلك المراسيم التي منحناها، وصدرت خلال الأعوام الثلاثة الأولى من حكمنا عندما كنا لا زلنا منهمكين في تدبير وترتيب شئون الجند، وإزالة الفساد، والقضاء على الاضطرابات والفتن التي حدثت، ولم نشغل بجزئيات الأمور. ولا شك أن تنفيذ الأحكام السابقة كان أمرا ضروريا لتطهير خواطر الخلق كي تستقيم الأمور.

وبناء على هذا فإن المراسيم التي منحها الناس نوروز وصدر الدين والنواب الآخرون وفق مرادهم وهواهم [ص ٥٠٧] كلها باطلة حتى هذا التاريخ الذي باشرنا فيه بأنفسنا ضبط أمور الممالك؛ فقررنا أن تعرض المرسوم علينا، ثم يسلم للناس. وينبغي أن يعترف الجميع بصحة كل ما يصدر من المراسيم بعد هذا التاريخ المذكور، وألا يهتموا فقط بالمراسيم الأخرى التي صدرت عنا وعن السابقين علينا، فتقدم كلها إلى حضرتنا لنقرر ما فيه المصلحة. ولا شك أن مراسيم الملوك السابقين كانت حسنة ومعتدلة، وما دمننا قد وقعنا على المراسيم التي ينبغي أن تكون حماية وسندا وناموسا وبركة، فكيف يجوز لنا أن نستردها؟! إننا سوف نضع دفعة معينة على ظهرها، ونعطيها الرؤساء لتكون في أيديهم وتكون أكثر تدعima. وسوف نعد هيازة بشكل آخر. وكل من يجوز هيازة، عليه أن يحضرها ويسلمها خلال ستة أشهر، وذلك حتى نعطي هيازة جديدة كل من يسلك طريق الصواب. وبعد ستة أشهر سوف يقبض على كل شخص تكون في حيازته هيازة قديمة، ويعتبر مذنباً وتسترد منه.

ولما أصدرنا هذا القرار دعت الضرورة جميع الناس إلى إحضار مراسيمهم لتجديدها. وكل ما كان منها صحيحا يعتمد بالتوقيع، وكل ما لم يكن صحيحا يسترد من حائزه. وبهذا الإجراء ظهر الحق من الباطل والصدق من الكذب، وتخلص أرباب النواميس من عار خسة الدخلاء. وحيث إنه لم تعد هناك أهمية للمراسيم القديمة لا سيما المكرر منها، لم يستطع أحد أن يظهرها إذا كانت لا تزال في يده، ففضلا عن أنه لن يلتفت إليها، توقع صاحبها في الذنب. وتخضع الهيازات أيضا لمثل هذا النظام. وما أن نفذ هذا القرار حتى اختفت مجموعة تلك المراسيم والهيازات؛ لأن أصحابها أخذوا بعضها مجددا، ولم يجرؤوا

على إبراز بعضها الآخر. ولقد ذاع القرار وانتشر، وبتص صراحة على عدم الالتفات إلى المراسيم واليازات القديمة في أى عهد من العهود؛ إذ إن الناس يعلمون على وجه التحقيق أنه لو كان هذا الإجراء صحيحا لاتبع على الفور فى عهد مثل هذا السلطان العادل. ولاشك أن هذه الطريقة الصحيحة هي دستور جميع الملوك والأمراء والحكام فى كل عصر. وإذا كانت قد بقيت بايزة ذهبية أو فضية فى حوزة أحد الأشخاص فإنه ما لم يسلمها فلن يعطي أخرى عوضا عنها. وإذا كان متبصرا بعواقب الأمور فإن عليه أن يبادر بتسليمها [ص ٥٠٨]، وإلا فإن عليه أن يصهرها وينفق ما صهره.

ومن المؤكد أنه سوف يصل الأمر عن قريب إلى حد أنه لن تبقى واحدة من اليازات التي أخذت خلال مدة سبعين سنة بعلل وأسباب مضللة. وهكذا نفذ سلطان الإسلام مثل هذا العمل العظيم بتدبير يسير قرره بقطنته وكياسته. أدام الله ظل معدنته. والسلام.

الحكاية الرابعة والعشرون

فى منح جند المغول الإقطاعيات فى كل ولاية

قبل هذا لم يكن لكافة جنود المغول مرتبات وملابس وإقطاعيات ومؤن. وكان بعض الأكابر منهم يأخذون قدرا من الزاد، والأغلبية لا يأخذون شيئا. كما أنه فى العهد السابق عندما كانت عادات المغول ورسومهم لا زالت مرعية كان جميع الجنود يمنحون كل سنة مراعى للخيول والأغنام والأبقار، وتزود العسكرات كما يزود الجنود الفقراء المعدمون باللباد واللين الخثير.

بعد ذلك فى أوائل عهد هذا السلطان كانوا يعطون الجنود المرابطين فى أقرب مكان قليلا من المثونة، ثم تزداد تدريجيا، وأضاف إليها سلطان الإسلام - خلد ملكه - مقادير أخرى. ولما كانت تلك المؤن تحول إلى الولايات، ويحتال المتعهدون فى صرفها، كان المغول يتعقبونهم. وبسبب مطالبة هؤلاء المتعهدين بالمؤن كان الظلم الفادح يلحق بسكان الولايات لأنهم يتحملون نفقات باهظة يدفعونها باسم الدواب والزاد والعلف. وفضلا عن أن الحكام والمتعهدين كان يلحقهم نصب ومشقة من جراء ذلك فإن الرعايا كانوا يضيقون ذرعا بما يطالبون به من تقديم المؤن. ومع هذا لم تكن تصل مؤن كافية إلى الجنود. وكان بعضهم فى نصب بسبب مماطلة المتعهدين، وبعضهم بسبب المشرفين على تصوين الجيش، إذ إنهم كانوا يأخذون هدايا ثينة ويهملون أداء واجبهم، وبعضهم بسبب أن الكتاب العسكرين لم يعدوا الحوالات فى وقتها المناسب، فيعجز الجنود عن التحصيل. [ص ٥٠٩]

وأخيرا كان المتعهدون يشترون المؤن لأنفسهم بنصف الثمن. وكانت الحوالات دائما بيد الجنود، وهم فى نزاع وجدال مع المتعهدين. وكانوا دائما يعرضون تلك الأحوال على السلطان فتزعج لذلك مسامعه المباركة، وتكون عاقبة الأمر أن أكثرها يسقط من الحساب ويضاف إلى القضايا القديمة. هذا على حين أنهم كانوا يحوزون حوالات كثيرة مستحقة للصرف.

شاهد السلطان هذه الأوضاع مدة أربع سنوات أو خمس، فأمر بأن يجمعوا المؤن فى كل ولاية أثناء الشتاء والصيف، وقت جني المحاصيل ويقوموا بتخزينها فى المخازن وتودع فى

عهدة شحنة الولاية، ثم تسلم من المخازن إلى المسؤولين بعد سداد قيمة الحوالة نقدا، ولا يأخذ المشرفون على تعيين الجيش هدايا في مقابل أداء واجبهم، ولا يطلبون زادا ولا علفا. فكانت تسير الحوالات على هذا النوال. وكان السلطان يعطي نقدا ذهبيا من الخزانة، بحيث إنه خلال ثلاث سنوات أو أربع لم يستطع أحد أن يقول: لقد بقي لي على الديوان من واحد من المتونة. وبعد ذلك في أوائل شهور سنة ثلاث وسبعمئة هجرية (٧٠٣هـ / ١٣٠٣م) هداه تفكيره المبارك إلى أن يصرح قائلا: إن كمية المؤن التي عينت للجنود لا تكفى شخصين من كل عشرة أشخاص. وإني أريد أن يكون إنعاما عاما للجميع. كما أن الجند عند مسير الاحتياطيين منهم إلى الولايات يسيرون الثعالب لسكان الولايات. وأيضا يقول كل واحد منهم سواء بالحق أو بالباطل: إنني لا أملك شيئا؛ فيحدث الإخفاق والعجز. ويقول أيضا: لقد نفقت دوابنا بسبب البرد وانتشار طاعون الماشية والأقنات الأخرى. وهنا تدعو الضرورة إلى جمع المال في كل وقت وإعطائه المتضررين؛ لأن العالم لا يخلو من الأحداث. وقد يحىء وقت لا يتيسر فيه تحصيل المال بسرعة. وهذا ما يحتم العمل دائما على تدبير وترتيب نفقات الجند ومؤنهم. وهناك ولايات في الممالك تقع على طريق عبور الجند، وفيها مصابفهم ومشاتيهم، ودائما ما يسلكون سلوكا معيبا في تلك الولايات ويستولون على القرى قوة واقتدارا، ويستبدون بالرعايا. وإذا فمن المصلحة أن تقطعها بأكملها للجند، ونعين نصيبا لأفراد كل كتيبة، ليكونوا هم المتصرفين في هذه الأراضي ويعتبرونها ملكا لهم. وبذلك تشبع عيونهم وقلوبهم.

ولما كان أكثر الجنود في هذا العهد يميلون إلى اقتناء الأملاك والزراعة فلا شك أنهم يحققون رغبتهم عندما يملكون إقطاعا. وبذلك لا تكون هناك حاجة إلى الخزانة [ص ٥١٠] للإئناق على مصالحهم؛ لأن كل واحد منهم يحصل على حصته ومعاشه من الإقطاعية، وتتوافر لهم عمارات كثيرة أخرى، ويكون لهم أتباع وخدم وأبقار وبذور ويحصلون على الثمن والشعير. وإذا حدث أيضا وباء بين الدواب فإن كل واحد يستطيع أن يربط اثنين أو ثلاثة من الخيول، يحتفظ بها بدينة قوية، حتى يستطيع - عند الحاجة - ركوبها في وقت أسرع؛ إذ إن أكثر الخلل الذي يلحق بجنودنا إنما ينتج عن هلاك الدواب لأنهم في هذا العهد لا يمدونها بالماء والعلف بالقدر الكافي.

وإذن فنحن إذا سلمنا الولايات للجنود بوجه من الوجوه، وأعدنا محطات القوافل الضرورية، ووفرنّا الطعام للأمرء الأتجال والحواتين، وكذلك اللوازم الأخرى الضرورية وسلمناها لهم وأصبحت كلها تحت تصرفهم، فسوف نقل نفقاتنا، وبقل المتقاضون وأرباب الحاجات. أما الولايات الأخرى التي ليست معبرا ومقاما للجنود فإنها تبقى فى موضعها لسد النفقات الخاصة، وهذه يمكن ضبطها دون تعب أو مشقة، ويكون المال الذى يحصل منها كافيا. وعلى هذا النحو تضبط الأعمال الكبيرة التي يقوم بها الجنود وغيرهم. وفيما بعد تبقى الأمور مرتبة طبقا لهذه القاعدة، وتعم فوائدها كافة الملوك والأمراء والوزراء والجنود والرعايا.

وعلى هذا النمط أعمل السلطان فكره، وعين لجميع الجنود إقطاعيات من ضفاف جيحون حتى تخوم مصر خلال شهرين أو ثلاثة، وفصلها تقصيلا. وفى هذا الصدد نفذ حكم المرسوم. ونحن ثبت صورته فى هذا الفصل حتى إذا قرأه الناس، فإنهم يطلعون على الدقائق التي روعيت فى هذا الباب إن شاء الله العزيز.

نص المرسوم بخصوص منح جنود المغول الإقطاعيات

بسم الله الرحمن الرحيم

[ص ٥١١] بقوة الله تعالى وميامن الملة المحمدية

فرمان السلطان محمود غازان

فلتعلم الأمهات، وليعلم الأحفاد والحفيدات والحواتين والبنون والبنات والأصهار وقواد العشرة آلاف (تومان) والألف (هزاره) والمائة (صده) والعشرة (دهه) والساطين والملوك والكتاب وعموم أمال كل الولايات من ضفاف جيحون حتى تخوم مصر أن جدنا الأكبر چنگيز خان اختص فى بدء الفطرة بالتأييد الإلهي والإلهام الرباني. وكان يراعي دستور بهناية تامة أدق من الشعرة، ولم يترك الجمال لأى مخلوق من بني آدم حتى ينحرف برأسه عن ربة أمره أو أن يخرج قدمه عن جادة الاستقامة، فلا جرم أنه استطاع - بهذه الوسائل -

أن يسخر ساحة الدنيا مشارقها ومغاربها، وأن يتنقش على صحائف الدهر اسمه الطيب وصيته الخالد. وقد تحمل كل أنواع المشقات والشدائد فى سبيل زيادة رقعة المملكة وفسحتها، وأورث أبنائه وذريته جميع الطوائف والرعايا والمالك، وصيرها لهم بمهدة مرتبة وذكرى حسنة منه.

بعد ذلك سلم أبائنا الحبرون تلك الممالك لأبنائهم على نفس النسق والترتيب؛ فاستطاع كل واحد أن يضبط قوانين الملك ونظمها، ويضمن التكفل بإدارة شئون حكم العالم. بهذا خلد هؤلاء الأبناء لهم ذكرا جميلا على صفحات الدهر. أما أولئك الذين لم يحافظوا على رعاياهم، ومارسوا الظلم والتعدي فإنهم بلا شك قد خلفوا لهم سمعة سيئة.

"إن آثارهم تدل عليهم فانظروا بعدهم إلى الآثار"، ولما كان صدق هذه المعاني ثابتا ومقررا ومعينا لنا، وعلمنا أن البقاء الأبدى وخلود الحياة فى هذه الدنيا أمر غير ممكن للجميع، وأنه لا يتصور أن تكون هناك فائدة من هذه الدنيا سوى ادخار الاسم الحسن. لما كان ذلك كذلك فكرنا نحن أيضا فى هذه الأيام القليلة المعدودة عندما وصلت نوبة الملك إلينا فى ادخار السمعة الطيبة، فنشمل بمزيد من الراحة والرفاهية مجموع الرعايا الذين سلموا قيادهم لنا، حتى نكون [ص ٥١٢] قد سجلنا على صفحات الدهر الذكر الجميل والثواب الذى هو عبارة عن الحياة الباقية والعيش الخالد، ويبقى صيت معدلتنا على الأيام دائما ومؤبدا وباقيا ومخلدا. والله يوفقنا بلطفه ويؤيدنا بنصره. والآن لا يخفى على الجميع أنه قبل هذا فى عهد آبائنا الصالحين كان رعايا المغول مطالبين بكل أنواع المطالب والالتزامات والمشقات من قبيل سداد ضريبة المواشي والإبقاء بمحاجات دور البريد الكبرى وتحمل أعباء الياسا القاسية، ودفع النفقات اللازمة للمحافظة على سلامة الجنود، تلك الأعباء ألغيناها كلها دفعة واحدة فى زماننا هذا.

فى ذلك الوقت كان الرعايا محرومين مما احتوت عليه المخازن من الذخائر والمؤن. ورغم وجود تلك الأعباء كانوا يرحلون برضاء الحاطر، ويقومون بواجب الطاعة ويتحملون مشقات الأسفار البعيدة. ومع هذا كانوا قانعين. والأمر الذى لا شك فيه أنه حتى هذه اللحظة لم يتوافر لجند المغول زيادة ملموسة فى الجاه والمال.

والآن وقد أنعم الحق تعالى علينا بالرعايا والممالك التي حكمها أبائنا، ومنحنا سرير ملك العالم وعاصمته الكبرى، بذلنا كل الحمة، وصرنا كل حرصنا السلطاني في سبيل الإصلاح حتى تنظم وترتب مصالح الرعايا الكثيرين على نحو نظمنا إليه؛ بحيث إنه بعد ذلك لا ينسى أبدا جميع أفراد القوات الاحتياطية في جيوش المغول - ما توالدوا وتناسلوا - هذه الجهود، ويقضون أياهم في رفاهية ورغد من العيش. وبعد أن يحل دور غيرنا نكون قد سلمنا له المملكة والجيش؛ بحيث لا يقف في سبيله أى عائق، ويحل وضع يؤدي إلى الاستقرار واستقامة أمور المملكة والرعية، ويؤدي إلى الخلود والذكر الجميل ودوام حسن السمعة، وازدياد دعوات الخير. ولا يخفى على الجميع أنه قبل عهدنا كان المسؤولون يعطون جميع المتطوعين من جنود المغول ممن يقيمون في المناطق الممتدة من ضفاف نهر جيحون إلى غور مصر قدرا محددًا من المؤن، ونادرا ما كانوا ينعمون على بعض منهم في كل وقت. هذا على حين أن أكثرهم ظلوا محرومين وبقيوا بغير نصيب. [ص ٥١٣] ولعلاج هذا الوضع أمرنا في الوقت الحاضر بمعاملة أفراد قوات المغول الاحتياطية معاملة واحدة فتشملهم عاطفتنا وتعمهم عطايانا؛ حتى لا يبقى أى واحد منهم محروما من إنعامنا. وعند رحيل الجنود وزحف الجيش تتوافر لهم القدرة والحركة والطاقة للمحافظة على الممالك ذلك أن استقامة شئون الملك وانتظامها منوط بهم

وبناء على هذه المقدمات أمرنا بأن يقطعوا لهم الأراضي في الولايات والقرى، ويوفروا لهم المياه مما يكون قريبا ومناسبا لهم من أملاك الخاصة وأملاك الديوان والمزارع العامة والحرثة حسب ما هو مثبت في السجلات والقوانين، ويعينوها باسم الإقطاع في كل كتية مكونة من ألف جندي، ثم يسلمونها لهم كي يتصرفوا فيها؛ وذلك على النحو المفصل في الكتية الغلاتية.

وأما عن الأحكام الخاصة بهذه الإقطاعية وشروطها وكيفية كل قسم من أقسامها فإنها تكون على النحو الذى نشرحه فيما يأتى:

أولا: ما يتعلق بأملاك الخاصة وأملاك الديوان من المواضع: تقرر أن تبقى فيها تلك الجماعة من الرعايا الذين كانوا يقطنونها من قديم الزمان، وكانوا يزرعونها. فهؤلاء يستمرون في زراعتها جريا على تلك القاعدة بشرط أن يعطوا الجنود المتطوعين نصيبهم

بصدق وأمانة، وأن يسدوا دون زيادة أو نقصان الضرائب والرسوم الديوانية، وذلك حسب التعهدات والتفصيل الذى مر ذكره.

ثانيا: يجب ألا يتدخل جنود الاحتياط فى شئون أملاك الملاك ومياهم وأراضيهم وأصحاب الأوقاف، ولا يتصرفون فيما تنتجه، وأن يدفعوا بصدق وأمانة الأموال والضرائب والرسوم الديوانية بموجب سجلات القانون وطبقا للتفصيل المذكور.

ثالثا: القرى والمزارع والمواضع التابعة للديوان التي تخرب، وتدخل فى حيز مواطن هؤلاء الجنود، عليهم أن يحرثوا منها ما صار مزارع صالحة للزراعة، ويتركوا الأراضي الباقية لأسراهم وغلماهم يزرعونها ويحصدون محاصيلها، ومعهم أبقارهم وثيرانهم وبذورهم. وإذا ظهر مالك لذلك الموضع الخرب، وأقام دعوى بملكيته أو بتوليته وقيته [ص ٥١٤]، وظل مدة طويلة تحت تصرفه، وثبت استحقاقه له بموجب الشرع المطهر. وكان هؤلاء المتطوعون قد زرعه بواسطة أسراهم وغلماهم، فإن عليهم أن يدفعوا العشر من عوائده للمالك، ويأخذوا الباقي لهم ولمزارعيهم.

رابعا: السكان الذين منحوا قرى عامرة أو خربة، ثم تفرقت منذ ثلاثين عاما، ولم تدخل فى حساب وقانون الولايات الأخرى ولا زال يحتفظ بها كل واحد منهم، عليهم أن يعيدوها. وإذا كان سكان الولاية الأخرى يعملون عندهم أيضا فإن عليهم أن يعيدوهم. ومن المقلوع به ألا يقبلوا بأى وجه سكان الولايات والمواضع الأخرى وألا يرتبطوا بالغرباء بحجة أنهم سكان الولايات البعيدة، ولا يجمعوهم بأى وجه ولا يجمعوهم، ولا يسمحوا لهم بالدخول فى قرأهم. وعلى المتطوعين ألا ينقلوا سكان القرى التي أقطعت لهم من غيماهم فى إحدى القرى إلى القرى الأخرى، ولا يقولوا إن كلنا المزرعتين والقرتين ضمن إقطاعنا، وسكانهما هم رعايانا. وعلى سكان كل قرية أن يزرعوا فى مناطقهم المحددة لهم، ولا يقولوا إن سكان هذه المناطق التي أقطعت لنا إنما هم أسراتنا؛ إذ إنه ليس للجنود على الرعايا أكثر مما لهم على زراعة قرأهم، وعليهم أن يأخذوا منهم بالحق ما هو مقرر عليهم من المال ورسوم الديوان، وألا يسخروا السكان فى عمل آخر سوى أن كلا منهم يزرع فى الموضع المخصص له. أما السكان الذين لا يعرفون الزراعة أو لا يمارسونها فلأن أصحاب الأراضي قد تسلموا حقهم من المال المعين المقرر لهم من الديوان لا يصح أن يجبروا هؤلاء السكان على الزراعة بالقسر والعنف ولا يظلموهم، بل يعاملوهم بالحسنى.

خامسا: على المتطوعين من الجنود ألا يتدخلوا فى شئون القرى الواقعة على حدود قراهم والمجاورة لهم، فلا يزرعوها، ولا يستولوا على الماء والأرض بحجة أنها واقعة فى موطنهم، [ص ٥١٥] وألا يمتنعوا ذلك المقدار من الأعشاب التي هى مرعى لأبقارهم وأغنامهم وحميرهم.

سادسا: حيث إننا منحنا المتطوعين الأنعام والعطاء، وعينا لهم هذه المواضع باسم الإقطاع، وأنعمنا عليهم بها، يكون غرضنا هو راحة كافة الخلائق، وابتغاء الذكر الجميل والقانون والعدل. وهم جميعا مؤيدون ومغتبطون بهذه المحبة وتلك الرعاية. وقد قدم قواد الفرق المكونة من عشرة آلاف وألف ومائة وعشرة، والمتطوعون الكثيرون وثيقة خطية يتعهدون فيها بأنهم بقدر ما فى وسعهم وقدرتهم سوف يذلون جهدهم فى نفاذ العدل ونشر الصدق، ولا ينحرفون من بعد عن جادة الصواب ولا يعتدون ولا يضطهدون الناس، ولا يقدمون على أنواع الظلم والجور وتلك الأفعال التي كانوا يمارسونها من قبل. هذا وينبغي أن يكونوا عند كلمتهم، ولا يطلبون من الرعية شيئا باسم الهدايا والمؤن والضرائب على السلع وغير ذلك

سابعا: تقرر كذلك ألا يكتبوا لأى سبب من الأسباب حوالات من الديوان على الإقطاعيات، وألا يحولوا إليه شيئا أبدا. وبموجب ما تقرر يسلم لكل شخص من الجنود المتطوعين خمسين منا بوزن تبريز من المستودعات الخاصة، ولا يطلبون من الرعايا شيئا آخر غير ذلك .

ثامنا: أمرنا كذلك بأن توزع الإقطاعيات وما يلزمها من ماء وما تشتمل عليه من أراض خربة وعامرة على أفراد الكتيبة المكونة من ألف جندي، وذلك على النحو الذى سبق تفصيله. ثم يحضر جماعة من تلك الولاية ممن هم أهل الخبرة مع هذا الكاتب فلان الذى عيناه، وتقسّم هذه الإقطاعيات إلى عشرة أقسام. ثم تجرى قرعة بالسوط. وبعد ذلك تقسم بين الفرق المكونة من مائة، وتجرى القرعة أيضا بالسوط.

وهذا الكاتب الذى فوضناه باسم "العارض" يسجل فى السجل نصيب كل واحد من المائة والعشرة خرابا كان أم عامرا، وذلك على انفراد وبالاسم، ويحفظ بالسجل، ويسلم نسخة منه للديوان الأعظم، وأخرى لأمرى للفرقة. ثم تسلم سجلات الفرق المكونة من مائة لأمرائها.

بعد ذلك يتفحص ذلك الكاتب العارض هذه السجلات كل سنة ويعرض علينا اسم ذلك الشخص الذى جد واجتهد فى الزراعة، أو اسم ذلك الذى قصر. كما يعرض علينا ما سجله عن خراب وعمران كل جزء محدد؛ حتى يختص برعايتنا ذلك الشخص الذى أبدى اجتهادا ونشاطا. أما ذلك الذى قصر وخرّب، فإنه يؤخذ بذهبه.

[ص ٥١٦] ولا يبيعون هذا الإقطاع الذى منحناه إياهم، ولا يعطونه هذا أو ذاك، ولا العبيد والكبار والصغار والأقارب والأصهار وغيرهم. وكل من يقدم على هذا العمل يعتبر مجرما ويقتل.

وإن صدّق المرأة بمقتضى الحديث النبوى الشريف كما نغذّاه بصورة مستقلة بمقتضى المرسوم الصادر فى هذا الباب، وهو ما تقرر أن يكون تسعة عشر دينارا ونصف^(١).

تاسعا: ليكن معلوما أيضا أن هذا الإقطاع قد خصص للجنود المتطوعين الذى صاروا حراسا ثم رحلوا. وإذا توفى شخص من تلك الجماعة، فإنه يقوم مقامه أحد أبنائه أو أسرته فيقطع إقطاع المتوفى ثم يسجل. وإذا لم تكن له ذرية فإنه يسلم لأقدم غلمانه. وإذا لم يكن له غلام أيضا فإنه يعطى من يكون أجدر من بين الفرقة المكونة من مائة جندى. وإذا كان من بين المائة أو العشرة من يغير القانون، فإنه أمراء الألف والمائة يعتبرونه مذنباً، فيعطون الإقطاع شخصا آخر يستطيع التنقل ويسجل باسمه. ثم يعرض السجل علينا كل عام. كذلك أمرنا بأنه إذا طالب المتطوعون بشيء يزيد عما هو مفصل من الأموال والضرائب وغير ذلك، وعما هو مدون فى سجلات القوانين والتعهدات، فإن العارض يمنعهم من ذلك. وإذا ما أخذوا الإقطاع بالعنف والقوة، فإن على العارض ألا يخفى الحقيقة، بل يسجل اسمه ويعرضه علينا.

عاشرا: عندما يسير هؤلاء المتطوعون بعد عرضهم بموجب حكم المرسوم يطلع الكاتب القلاتي أولا أمير المائة، وبعد ذلك أمير الألف، ثم أمير التومان - على السجل المخصص الذى كتبه، ويواجههم ويعرض عليهم. ثم يطلع عليه قائد المتطوعين. وتقرر أيضا أنه عندما

(١) الحديث هنا عن صدق المرأة فيه استطراد وبعد عن الموضوع الرئيسى الذى يعالجه رشيد الدين، وهو الذى يتناول منح غلزان خان جنود الملوك الإقطاعيات، هذا من جهة ومن جهة أخرى لم يرد نص صريح عن النبى صلى الله عليه وسلم يحدد فيه صدق المرأة، وإنما نهى عن المغالاة فى الصدق، وحث على البساطة (انظر قضية تحديد الصدق، تأليف الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود، ص ٦، النسخة ١٣٩٦هـ).

يعين إقطاع أمير الألف ويخصص له، لا يتصرف فى إقطاع المتطوع. وحيث إننا أقطعنا العارض كذلك من ولاية أخرى، لا يكتب حواله على إقطاع المتطوع، ولا يحول إليه شيئا. لقد قررنا كل هذا، وأنعمنا على المتطوع بإقطاع على النحو المذكور. وإذا ما أخذ المتطوعون أيضا شيئا من المزارعين يزيد عما هو مذكور ومدون بالتفصيل فى سجل القوانين، [ص ٥١٧] أو تعرضوا للمزارعين الذين لم ندعهم تحت رحمة المتطوعين، أو أنهم حرموا المزارعين فى الولايات الأخرى وآوهم، أو أنهم اعتدوا على مواضع الماء والأراضي الواقعة على حدود قراهم أو اغتصبوا الأراضي الزراعية ومراعى الأبقار والأغنام والحمير ولا يعلنون كل سنة عدد الحيوانات وإنتاجها وتلكأون ويتحللون الأعذار، ويرسلون أشخاصا آخرين بدلا منهم تحت اسم المتطوعين. وإذا حدث شيء من هذا فإن هؤلاء أيضا يصيرون مجرمين.

وعلى الشخص الفلاني الذى عيناه للقيام بأعمال الكتابة فى الكتيبة المكونة من ألف جندي أن يضبط جيدا كل الأقسام التي ذكرت فى هذا المرسوم، وبين كذلك المواضع التي لم تدخل فيها، وكل من قام بتعمير وإصلاح فى محال الإقامة، ويكتب أيضا بالتفصيل كل ما صار بوار تماما من الأراضي، وذلك على حدة وبالتحديد والتفصيل، ثم يحضر هذه المعلومات إلى الديوان كي يثبت فى السجلات، وتجمع فى قسم الإضافات.

ولقد سلمنا هذا المرسوم للكتيبة الفلانية حتى يعتبر الجميع من الآن فصاعدا نفاذه مؤبدا ومخلدا، ولا يدخلون عليه تغييرا ولا تبديلا (فمن بدله بعد ما سمعه فإننا إشه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم)^(١).

حرر هذا المرسوم فى الشهر الفلاني والسنة الفلانية وفى المكان الفلاني.

(١) سورة البقرة، آية ١٨١.

المكايبة الخامسة والعشرون

فى كيفية إعداد جيش خاص مستقل للسلطان غازان خان

قبل هذا كان جيش المغول أقل منه الآن نسبيا، فزاد سلطان الإسلام - خلد ملكه - بتدبيره وكفافته جنود المغول والتازيك، وقال: إن حدودنا وثغور ممالكنا هى: خراسان وفارس وبغداد وديار بكر وبلاد الروم ودريند^(١)، وهى متباعدة جدا الواحدة عن الأخرى. ورغم أنه قد أقيم فى كل موضع من تلك المواضع جيش مستقل للدفاع عنه، فإنه إذا ما دعت الحاجة إلى انتقال جند من ناحية لمُدّ ناحية أخرى يتأخر وصول [ص ٥١٨] القوات بسبب بعد المسافة. وفضلا عن أن الجنود كانوا يتعرضون للجوع والعري، وتهزل دوابهم وتفقد، لا يؤدى هذا بالقطع إلى نتيجة حاسمة. ولهذا السبب أمر السلطان بتعيين شخص واحد أو اثنين إضافيين من كل منزل فيه ولدان وأخ وسائس خيل، وكون من مجموعهم جيشا مستقلا، وعينهم مددا للأطراف ليرابطوا مع الآخرين. كما عين جند التازيك للرباطة على المضائق والأماكن الوعرة على الحدود التى يمكن أن يحافظ عليها المشاة، ومنح الجميع المرتبات والإقطاعات. ولم يكن هؤلاء الجنود يخضعون من قبل لأى نظام مع أن قوادهم كانوا يتقاضون عدة مرتبات وذلك بانتحال الأعذار المختلفة. هذا على الرغم من أنه لم يكن هناك جنود قط.

وفى هذا الوقت أيضا أمر بتعيين الكتاب والفرق منهم، وكتابة أسماء الجنود ورتبهم فى السجل، وهم مطالبون بالعرض فى كل شهر لتفقد عتادهم وعددهم من فرسان ومشاة بموجب الضبط والقانون السارين، وبمحكم المرسوم الصادر فى هذا الشأن. كذلك أمر بإعداد جيش المغول على هذا النمط الذى يبناه فى الفصل السابق. وفى المرسوم الذى سجلناه بخصوص إقطاعات الجنود. فما الحاجة إذن إلى التكرار؟

كذلك عين لكل ثغر عددا من الجند يكفى لحمايته. أما الجنود الذين لهم موطن ومحل إقامة فى الولايات فقد عين منهم من يكون أقرب إلى الثغور، ليكونوا عوناً للجنود الذين

(١) "دريند" يسبها العرب باب الأبواب، وتقع فى أقصى شمال بلاد شروان. وهى أعظم موانئ بحر قزوين. (انظر

بلدان الخلافة الشرقية، ص ٢١٤ - ٢١٥).

يدافعون عنها وقت الحاجة. وهكذا نظم الأمور بحيث إنه فى أى وقت لا يسرع طرف لتجدة طرف آخر بغير ضرورة ملحة. وزيادة عن المعهود أعد جنودا آخرين ليكونوا مرابطين وعلى أهبة الاستعداد.

بهذه الإجراءات استمال السلطان الحراس والقواد وحشهم على أن يختار كل منهم واحدا أو اثنين من إخوته وأولاده الذين ليسوا ضمن تعداد الجيش الرسمي، فزاد بذلك كل ألف جندى مائة أو مائتين، وأحضروهم جميعا خلال عام واحد. وقد أمر لهم سلطان الإسلام خلد ملكه بالإنعامات و المرتبات والإقطاعات [ص ٥١٩] ومنذ عدة سنوات نشب نزاع وخلاف بين أعقاب جوجي و چغتای وأوگتای الذين هم بنو أعمام السلطان خلد ملكه، فكان جنودهم يغير بعضهم على مواطن البعض، ويأسرون أبناءهم ويعتقونهم للتجار، بل إنه بسبب الفقر كان كثير منهم يبيعون أولادهم أيضا. فأخذت سلطان الإسلام الغيرة من تلك التصرفات، وقال: كيف يجوز لأقوام المغول، وأغلبهم من نسل الأمراء العظام الذين رحلوا فى عهد چنگيز خان، وأعقابهم فى هذا الزمان ولا زالوا يبيعون أنفسهم عبيدا للتازيك، أو أن أغلبهم يضطرون إلى التسول؟ ولإزالة هذه الأمور السيئة يلزم رعاية حقوق تلك الجماعة، وإحفاظة على شرفهم؛ إذ إنه بدون هذا تنحطم الصلات وتضيع هبة جنود المغول التي كانت قد وصلت إلى نجم العيوق (أى إلى عنان السماء) ويصبحون محتقرين فى نظر التازيك، ويحمل أكثرهم أيضا إلى الولايات النائرة.

لذا كله أمر بأن يشتروا لحساب الحضرة كل من يحضرونه من أبناء المغول، وأن يدفعوا أثمانهم بالنقد الذهبي حتى يحصل الذكر الطيب، ويتحقق الثواب، ويتكون منهم الحرس للجيش الخاص للملازم للحضرة. وقد اشترى السلطان خلال هذين العامين كثيرا من أبناء المغول، وعين لهم المرتبات والمؤن، وألزهم فى ولاية "مراغة" وعهد بإمارة كتيبتهم المكونة من عشرة آلاف جندى إلى بولاد جينگسانك. كما عين قواد الفرق المكونة من الألف والمائة من المقربين إلى الحضرة. وبذلك اجتمع ما يقرب من عشرة آلاف جندى وهم يشترون وفقا لهذه القاعدة كل من يجلبونه منهم حتى كونوا منهم كتيبة كاملة، بل ما يزيد على ذلك، وصار جميعهم حرسا خاصا وملازمين السلطان. وفى أى عهد من العهود لم يكن هناك جيش يمثل هذا الإعداد والترتيب على النحو المتبع الآن فى هذا الزمان. وقد

الحكاية السادسة والعشرون

فى منع إقراض المال بالرّبا والقضاء على التعامل بالربح الفاحش

عندما بسط سلطان الإسلام خلد ملكه ظل معدلته وتفحص بنظر البصيرة مصالح الخاص والعام عرف على وجه التحقيق أن الإقراض بالرّبا وأنواع المعاملات غير المشروعة تؤدى إلى اختلال أحوال الجمهور، وعصوفا فى هذا الزمن الذى انحرّف فيه الناس دفعة واحدة عن جادة الإنصاف، وامتدت أيديهم إلى ممارسة الأعمال غير المشروعة. فقال فى هذا الصدد: إن تدارك هذا الخلل من الواجبات حتى لا يؤثر ولا يسرى شؤم هذا العمل غير المشروع، والمؤدى إلى الخلل إلى كل الشئون. وقد نفذ السلطان أحكام الرسوم المطاع فى العالمين حتى لا يقدم أى مخلوق على تلك القعلة المذمومة غير المشروعة. ولما كانت الفوائد العظيمة التى تضمنها هذا الحكم ليست خافية على أبناء هذا الزمان وأنها إذا ذكرت فى الكتاب فإن الجميع يدركون أنها محض الصدق وسيعرفون فى المستقبل أن حكم سلطان الإسلام خلد ملكه يقضى باستئصال مفاصد عديدة استحصلا كليا.

لهذا السبب نسجل هنا عدة أنواع من المفاصد، حتى يعرف أهل العلم أن ارتكاب عمل واحد منها أمر غير مشروع، ويتولد عنه كثير من الخلل والفساد والانحراف. وتوضيح ذلك على النحو الآتى:

أولا: فى عهد آبا قاخان الذى اشتهر بين الجمهور بأنه كان ملكا عادلا. وفى أيامه كان الناس آمنين مستريحين، لأنه أبقى على نظم والده هولاكو خان الذى كان فى الحقيقة "صاحب قران"^(١) العهد، وذلك من حيث مراعاة القوانين وتوخي العدل، وانتهاج سياسته. وكان الأمراء وأركان الدولة ووزراء أبيه، وبعض ممن دخل الخدمة فى أيام حكمه يزاولون

(١) لقب يوصف به من تعتقد نظلته أو يولد عند اقتران كوكبى المشترى وزحل على حسب الأصول الفلكية القديمة وتأثيرها فى الوجودات؛ فكانوا يعتقدون أن مثل هذا الولود سيكون له شأن عظيم (القاموس الفريد فى العصر الجدي، تأليف الشيخ أحمد النجفي، جلد دوم (دعظ) ص ٨٨٢، تهران ١٣٥٤ هـ.ش).

أعمالهم. وفي ذلك الوقت أعد بعض التجار على نفقتهم الخاصة عدة مجموعات من الأسلحة تضم الجواشن والخيول المدرعة وآلات الحرب [ص ٥٢١] وبعضاً من الخيول الفارغة، وقدموها إلى حضرة أباقاخان. وبواسطة أمراء السلاح والمشرفين على الاصطبلات أخذوا أشماتها بطريقة كان فيها ربح لهم. وعندما شاهد الآخرون تحقق ذلك الكسب اقتنوا بهم. وقد وصل الأمر إلى حد أن هؤلاء الذين لم تكن لديهم ثروة، كانوا يقترضون الأموال بالربا، وأخذوا ينفقونها في هذا الغرض ظانين أنهم سوف يسددون الدين من الربح ويحققون من رأس المال منافع لهم. وقد جرت العادة أن كل ما يودعونه بحمله أمراء السلاح والمشرفون على الاصطبلات إلى الديوان، ويأخذون به الحوالات ويطالبون بتحصيل قيمتها نقداً. وبهذه الوسيلة أتبح لكثير من الرعاع وكذلك الأشخاص الذين لم يكونوا يملكون شيئاً قط في عالم الله أن يحصلوا على أرباح طائلة سدّدوا منها ديونهم، وصاروا من جملة الأكرباء، وفجأة ركبوا الخيول العربية واليغال المريجة السريعة وارتدوا الملابس الفاخرة وجمعوا حولهم الغلمان الملاح والخدم الكثيرين. وكانوا يسكرون باليغال والإبل المحملة ويطوفون بالطرق والمدن والأسواق.. فكان الناس يتعجبون من أحوالهم ويسألون: من أين وكيف توافر هؤلاء بهذه السرعة مثل هذه السلطة؟! وعندما يقفون على حقيقة الأمر تتحرك في نفوس الشحاذين والمفلسين ولع ممارسة ذلك العمل، ويسيطر على رؤوسهم ذلك الهيام والولع. وهناك عدة آلاف من المسلمين واليهود من الخصافين واليائعين الجائلين الذين كانوا يعلقون في أعناقهم الغرارات المختوية على الكمون والكزبرة والأشياء البالية وبيعونها. وكذلك صغار النساجين الذين لم يكونوا قد رأوا مطلقاً بأعينهم دانقا واحداً من النقود، ولم تكن بطونهم قد شبت من الخبز. هؤلاء أيضاً قد شغلوا باقتراض المال بالربا ولم ينفقوا ما اقترضوه في تهيئة السلاح وإعداد الخيل، بل صاروا يصرفون كل أموالهم في شراء ملابسهم والاهتمام بمظهرهم، أو يقدمونها رشوة إلى الأمراء المذكورين، ويأخذون صكاً ينص مثلاً على أن ألف مجموعة كاملة من السلاح وعدداً كبيراً من الخيل قد تم تسليمه. ثم يحملون ذلك الصك إلى الكتاب. [ص ٥٢٢] ورغم أن هؤلاء كانوا واقفين على حقيقة الأمر فإنهم التزموا الصمت، لأنهم أخذوا شن صمتهم، فكانوا يكتبون المراسيم والحوالات بالأموال النقدية للولايات. ونظراً لأن الأمور قد تسرت لتلك الجماعة، وصاروا في نعمة

وثراء، شرعوا يقرضون الآخرين بالربا. ولهذا السبب اتخذوا أغلب الناس هذا العمل حرفة
 هم وسلموا كل ما كان لديهم من الدراهم والدنانير والمشغولات الذهبية والآلات
 والملابس، وأنواع الأموال من "صامت وناطق"^(١) للناس الذين كانوا يطعمون في تحقيق
 الفائدة. وما كان يرضى الشحاذون ببيعه بعشرة تومانات أى مائة ألف دينار، وصل إلى
 درجة أنهم لم يرضوا ببيعه بمائة تومان. وأولئك النصابون الذين أطلقوا على أنفسهم اسم
 تجار ورجال أعمال أخذوا يجلسون في الدار كل مخلوق كان له إلمام بمعرفة الخط المغولى
 كي يكتب هم الصكوك كما يريدونها، وليضع تأشيرته كل أمير كانوا يطلبونها، ثم
 يحملونها إلى الكتاب الذين كانوا على علم بمقدار ما يدفعه هؤلاء الناس عن كل تومان
 حتى يكتسبوا هم المراسيم والحوالات. وقد تضاعفت قيمة التومان؛ بحيث إنهم اعتبروه
 لا شيء.

بعد ذلك كانوا يقدمون تلك الدعاوى إلى الديوان، ويعرضونها على حضرة آباغاخان.
 وكانت الحوالات والصكوك من الكثرة؛ بحيث إنهم لو جمعوا كل ما فى ممالك العالم من
 الذهب والفضة، وضموا إليه كل ما هو فى باطن المناجم لما وفى بهذا المقدار. والعجيب
 فى الأمر أننا إذا فرضنا أن ألف رجل يجمعون فى إحدى الصحارى مجموعة من الأسلحة
 تبلغ ارتفاع جبل فإنه لا يستوعبها مائة مستودع، أو أن عشرة آلاف حصان تكاد تستوعبها
 إحدى الصحارى والمزارع، فكيف أن مائتين أو ثلاثمائة ألف رجل مسلح، ومائة ألف أو
 مائتي ألف رأس من الخيول، وهم كانوا يدعون أضعاف ذلك مائة مرة وزيادة، وكانت
 يدهم المراسيم والحوالات؟!

ولما كانت علو الهمة والعظمة من شيم الملوك، لم يفكر آباغاخان فى أن يسأل: أين
 عرضوا كل هذه الخيول والأسلحة التي لا حصر لها؟! [ص ٥٢٣] وعلى أى الجيوش
 وزعوها؟ وفى أى خزانة؟ أودعوها؟ وفى أى مرعى يرعونها؟ أما الأمراء وأركان الدولة
 الذين كانوا واقفين على حقيقة الأمر؛ فقد رضوا بحق السكوت المختصر، ولم يكن لهم مجال
 لتدارك الأمر بسبب تلوثهم. وكان كل واحد من أولئك الأفاقين قد تشبث بأحد الأمراء

(١) الصامت: الذهب والفضة، والناطق: الإبل والغنم. (انظر الصحاح للجوهري، ج ١، إعراد وتصنيف نديم
 مرعشلى، وأسامة مرعشلى، ص ٧٣٢، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٧٤م).

أو بإحدى الخواتين، وصار يؤدي لما أحقر الخدمات كي ينال رضاها بما يقدمه لها من خروف أو قنينة شراب. ولما تجاوز الأمر حده، أراد الصاحب السعيد الخواجة شمس الدين صاحب الديوان - رحمة الله عليه - أن يتدارك هذا الخلل، فجمع هؤلاء الأفاقيين، وقال لهم: إن هذه الأموال التي تطالبون بها، لا توجد في العالم كله. وأنا أعرف أنكم لم تتفقوا شيئا أكثر من تقديم الهدايا. والآن أصير شريكا لكم، وسوف آخذ من الملك (المقصود أباقاخان) مائتي دينار في مقابل كل ألف دينار تنقاسها فيما بيننا. وحيث إنهم لم يكونوا قد صرفوا نصف دينار في مقابل كل ألف دينار، رضي الجميع بذلك. واسترضى هو نفسه الأمراء، وعرض عليهم قائلا: سوف أوفر ثمانية تومانات، وأكتب حوالة على الولاية بتومانين، بحيث تسلم للتجار، فوقع هذا الحل موقع الاستحسان. وكان صاحب الديوان يتسلم مراسيم ويكتب في الحوالة تومانين في مقابل كل عشرة تومانات بالنسبة إلى المبالغ التي يأمل تحصيلها. ولما كان نصفها عائدا إليه كان يعطيهم حصتهم من البضائع التي لم تكن تساوي ربع ثمنها، ويتسلم هو نصيبه نقدا. أما الجماعة الذين كانوا يقترضون النصاين بالربا فقد ظلوا يطالبون مدة بقروض أخرى، حتى إذا استوفوا مطالبهم من المال، سدّدوا ما عليهم دفعة واحدة، لكن الدائنين كانوا بالسين من الحصول على الربح ورأس المال، فلم يدفعوا لهم شيئا.

في هذا الوقت الذي حدث فيه هذا السلوك مع صاحب الديوان وراجت هذه الإشاعة التي تقول: إن الأموال تصل تباعا، فسر جميع المتعاملين، وأعطوهم كل ما معهم من البضائع بالمشاركة. فكان هؤلاء المختالون لشدة حرصهم وجرائهم يمتثلون في بيوتهم، ويمررون الصكوك ويحملونها إلى كتاب المغول، وبأخذون المراسيم والحوالات. فأدرك صاحب الديوان هذا الأمر. ولكنه ظل عاجزا. ومن بين تلك الجماعة، كان هناك رجل يهودي يعمل خصافا^(١)، التجأ إلى العسكرات في عهد هولاكوخان [ص ٥٢٤] وأحضر معه جمعا من المغول إلى صاحب الديوان يطالبون بأموال المشاركة فسأله الصاحب: كم مستحقاؤك؟! أجاب خمسمائة تومان. وأطلعه على المرسوم والحوالة، فتعجب صاحب الديوان، وسأله: أملك منزلا في تبريز؟ قال: بلى. فعاد وسأله: أكبر هو أم صغير؟! أجاب: صغير. فقال

(١) الخصاف من تصف النعال. (العمد الوسط، ج ١، ص ٢٣٨).

الصاحب لو حمل مبلغ خمسمائة تومان من الذهب إلى سطح منزلك لتشرها عليه فهل يستوعبها أو لا؟ فاعترف اليهودى بأنه لا يستوعبها، وهكذا كان تعسف هؤلاء القوم على هذا النمط. وقد أخفق صاحب الديوان أيضا فى معالجة أمثال تلك القضايا، ولم يستطع تداركها. ولما انتشرت هذه الإشاعة كان الناس ينفقون يوما بعد يوم كل ما فى أيديهم فى هذا الشأن. وإذا لم يكن لديهم مال كانوا يقترضون؛ إلى أن صار أكثرهم فقراء معدمين. وعلى أمل الحصول على تلك التومنات المثبتة فى الحوالات، صاروا يضيعون وقتهم عبثا. وبعد مدة نظرا لأن تلك الأموال لم تكن تصل إلى التجار يش المتعاملون معهم، وكثفوا عن مساعدتهم لسد حاجاتهم، وذلك بالحصول على قرض أو نقد. وأخيرا انتهز النصابون هذه الفرصة وقالوا لعملائهم: إننا لا نخفى عليكم شيئا، ولأن لكم أنواعا من الحقوق علينا لن نسب لكم ضائقة مالية. لقد أعطونا بموجب المرسوم حوالات مختومة بالدعغة لصرف مبالغ كبيرة من الأموال العينية محولة على حساب الممالك، فنشارككم فيها. وسوف نأخذ رسولا من الخاتون الفلانية أو من الأمير الفلانى حتى نحصل على أموالنا، ونعطيكُم نصيبكم. ولكن الخرص كان يسيطر عليهم عندما يرون المراسيم والحوالات التى كانت تتضمن أضعاف المبالغ التى اقترضوها، والتى اتفقوا على مشاركتهم فيها فصاروا يذبحون ما يحتاج إليه هؤلاء القوم. ولما كان يتحتم عليهم أن يقترضوا بالزيادة باعوا أملاكهم، وذهب معهم أكثر عملائهم إلى الولايات. وهكذا اتبعوا هذه الطريقة، فكانت عاقبة الأمر أنهم لم يصلوا إلى شيء قط وغسروا ديارهم ومقومات حياتهم، وظلوا مفلسين مدينين.

وبعد عهد السلطان آباقاعان أى فى عهد أحمد (تكودار) وأرغون وغيخاتو استمرت تلك الجماعة تجدد وتسعى فى طلب الأموال. وكان كل من الخواتين والأمراء الأنجال والأمراء يتخذ رسلا يقيلون عروضاً جوفاء، ويذهبون إلى الولايات، فكانت الأموال النقدية اللازمة للارتحال إلى الممالك تستهلك فى توفير العلف للوابههم وسداد نفقاتهم. كما أن حكام الولايات راحوا بدافع الطمع يعطون الصنف الذى يساوى عشرة دنانير بثلاثين دينارا أو أربعين. وينبغى أن تسدد الأموال نقدا للخرانة. [ص ٥٢٥] ومن مظاهر طمعهم أيضا أنهم كانوا يعطون العملاء الأحزمة المرصعة واللؤلؤ والأصناف الأخرى بأثمان مرتفعة وهؤلاء كانوا أيضا يرضون بذلك لأنهم إذا كانوا يأخذون حتى الحجارة والخزف لسداد

تلك النفقات، فإنهم يعتبرون ذلك بلا مقابل. ولهذا السبب كانوا هم أيضا يبيعون تلك المرصعات بثمن بخس، وكانوا يرهنونها في مقابل شيء حقير. وقد ترتب على شؤم تلك التصرفات انحطاط قيمة الجواهر وكساد سوقها كسادا تاما، ومع هذا لم يستطيعوا الحصول على دخل أكثر من هذا؛ بحيث بقي بسداد نفقات الرسل وتعهداتهم.

وعاقبة الأمر أن التجار المنحرفين وعملاءهم ظلوا جياعا عراة. ولهذا السبب كانوا يعجزون عن القيام بأى عمل يحصلون به على الكفاف لمعيشتهم. وكانت أموال الخزانة تعرض للتلف والتبديد، ولم يستطع شخص قط أن يتدارك هذا الحلل.

وعندما وصلت نوبة الحكم إلى سلطان الإسلام غازان خان خلد ملكه أمر:

أولا: بعدم إقراض المال بالربا، فكفت تلك الجماعات أيديها عن التعامل به، ولم تكن لديهم أية حيلة أخرى يلجأون إليها. وفي هذه السنوات القليلة اختفى المرابون العديدون مع كل المراسيم والحوالات، وتركوا تلك المعاملات التي لم يكن لها سند ولا أساس على الإطلاق، ولم يذكرها أحد. وهكذا انصرفت تلك الجماعة التي كانت تراول هذه الأعمال وعاد كل منهم إلى حرفته الأولى، وظهر الفرق بين الكريم والشحاذ، والشريف والوضيع. وقد انقذت تلك الطوائف القناعة شعارا لها، وهم يتوجهون بالدعاء لدولة سلطان الإسلام - خلد ملكه -.

وبعد، فهذه كانت إحدى مساوئ التعامل بالربا على النحو الذى شرحناه.

ثانيا: الأشخاص الذين كانوا يتعاملون بالربا خلال هذه الفترة الطويلة أكثرهم من المغول والأويعور. والحقيقة أن الناس إذا اقترضوا المال بالربا، فكيف يستطيعون أن يكونوا سعداء؟ عاقبة الأمر أنهم كانوا يعجزون عن أداء ديونهم، فيظلون فى ذل أسر مدينهم مع نسايتهم وأولادهم. ولكن يمين معدلة سلطان الإسلام خلد ملكه زالت تلك المذلة عن أهل الإسلام.

ثالثا: مسألة أخرى تتعلق بتخلل خطير كان يحدث خلال هذه الفترة الطويلة حينما لم يستطع الملوك وحكام الولايات ممن كانوا أناسا يتصفون بالأصالة والشرف - أن يتعهدوا بتحصيل أموال الولايات حسب المقرر. [ص ٥٢٦] وكانوا يتجنبون تلك الأعمال. وإذا كان الشحاذون والأشرار يستطيعون أن يعيشوا عشرة أيام فى نعيم الملوك بدلا من عشر

سنوات يقضونها مفلسين فإنهم كانوا يأخذون المال بالربا، ويقدمون الهدايا الثمينة ويتسلمون الحكم فى الولايات، ويصلون إلى مناصب الملوك والسلاطين المشهورين ويجمعون لأنفسهم ضرائب باهظة من الولاية. ولما كان عليهم أن يدفعوا نفقات المعسكر وشن الغلمان والدواب والملابس الفاخرة والكماليات الأخرى كان من الضروري أن يقترضوا المال بالربا. وحيث إن ذلك الشخص الذى كان يقرض المال يعرف أنه يعرض ماله للتلف فإنه لا يعطى هذا المال إذا لم يتصور أنه يحقق له ربحا كثيرا إلى أقصى حد. فلا شك أنهم كانوا يستطيعون أن يأخذوا ثلاثة دنائير أو أربعة نظير كل دينار يقرضونه. وعندما كانوا يذهبون إلى الولايات كان مجموع إيرادات الديوان لا يفى بسداد قروضهم. ولهذا كان من الضروري أن يأخذوا من الرعايا أضعاف المقرر عليهم؛ فتقع آلاف عديدة من الناس من عباد الله ومولى الضرائب فى تعب ومشقة، ويقون معذبين. ولما كان أصحاب الديوان مطلعين على عدم استقامة تلك الجماعة. ولأنه كان ينبغي أن تكون الأموال موجودة، فبددها كلها هذا الحاكم، ولوث سمعتهم. وما دام ذلك كذلك فإنهم ما كانوا يستطيعون منعه. وقد كان هو أيضا شخصا مفلسا. وبالإضافة إلى ذلك سمح مضطرا للرعايا العديدين بأن يأخذوا مالا أزيد مما يستحقون. وقد أبدى فى ذلك إهمالا وتغافلا. كذلك كان يلزم أن يقدم هدايا شينة للشحنة وكتاب الولايات حتى لا يمنعه. وإذا لم يأخذوا لما تسر الدفع. ومع هذا لم يكن يصل مطلقا أى مبلغ من النقد إلى الخزانة. وإذا أحضروا أحيانا بعض البضائع فإنه لم يكن ثمنها يساوى ربع قيمتها. ولهذا السبب كانت شئون الجيش مضطربة بسبب ندرة المئونة. وسنة بعد أخرى كانوا يتسلمون منهم الولاية بهذه الطريقة. وكان الكبار المحترمون مطلعين على أفعال أولئك المفسدين الأخساء، ومع هذا لا يسند إليهم عمل مطلقا. وقد قال كبار الحكماء: إن الملك يختل ويذول عندما ينحى الأشخاص الأكفاء عن مزاوله الأعمال المناسبة لهم، وتسند إلى غير الأكفاء. [ص ٥٢٧]

وقد ظلت هذه الطريقة متبعة فترة من الزمن. وعندما صار صدر الجاوى وزيرا، وصل أمر الإقراض بالربا إلى حد يصعب تصديقه إذا حاولنا الشرح والإفاضة، بيد أننا نرى أن ذكر نبذة عن الموضوع أمر ضرورى، إذا ما أردنا الإحاطة به. وحيث إن جميع أهل الزمن الحالى قد شاهدوا هذه الأحداث لا يمكن أن نقول جزافا. أما بالنسبة إلى القراء فى الأزمان

المقبلة، فسوف يبدو لهم ذلك أمرا مستبعدا وتوضيح ذلك أنه فى عهد الوزير صدر الدين كان المتعهدون فى الولايات أحسن أبناء عصرهم. وحيث إنهم كانوا يعرفون عادته، وهى أنه يبيع بقرة بعجل صغير. وكان المتعهد يقترض المال بالربا، ويقدم الهدايا على سبيل الرشوة؛ فما كان يساوى عشرة دنائير يأخذه صدر الدين بعشرين دينارا. ثم يعطيه له بثلاثين، فكان يرضى بذلك. ثم يقول له: ينبغي أن يدفع قسط من المال للدبوان، فينطلق المتعهد قائلا: هنا يقترض المال بالربا. وإن ذلك المقدار الذى أعطيته على سبيل الهدايا قد تيسر بصعوبة بالغة (بألف حيلة)، فكان الوزير يقول له: لن يصيبك ضرر. وإذا أخذت مالا فلسمه لنا. وبمجرد أن كان ذلك الشخص يسلم القبالة ويحسب الأصل والربح من المال يأخذ بسهولة كل ما يساوى عشرة دنائير بثلاثين دينارا. ثم يعطيه إياه بأربعين. وفى الحال يصرف تلك الدنائير العشرة المتوافرة. ولما كان صدر الدين يريد الحصول على المال بسرعة قال نوابه: إن هذا الشيء يساوى عشرة دنائير، لكنهم لن يشتروه بأزيد من ستة دنائير ويحصلون لأنفسهم على الدنائير الأربعة الباقية.

والخلاصة أنه لم يكن يصل إلى صدر الدين أزيد من ستة دنائير من أربعين دينارا هو أصل المال. وذلك أيضا هو مال الدبوان الذى كان يبدده. وكان من بين عملائه شخص اشترى من أحد التجار عدة آلاف من الغنم لخاصة صدر الدين، ثم كل رأس منها خمسة دنائير. وقد أعطى التاجر مهلة شهرين لسداد الثمن. ولما حل ميعاد الدفع لم يكن النقد موجودا. وكان أكثر ما تبقى من تلك الأغنام قد صار هزyla غنيفا فأمر ببيعها كلها بثمن بخس، وإعطاء التاجر ربح شهرين بالإضافة إلى ثمنها. ثم أحوالوا القبالة الأصلية وفق هذا القرار إلى شهرين آخرين. فلا جرم أنه بشؤم تداول مثل هذه الأرباح تبذرت أموال الممالك، ولم يسلموا للخزانة شيئا منها قط. وكل حوالة أصدرها جيخاتو باسم المروءة والسخاء لم يكن يصل منها مطلقا دائق واحد [ص ٥٢٨] لشخص من الأشخاص. وكذلك الحال بالنسبة إلى المؤن والمرتبات والتنفقات المقررة. ولهذا السبب نقر الجند من جيخاتو. ورغم كل هذا ظل صدر الدين مقلسا دائما. ولما قتل كان فى عتقه الآلاف المؤلفة من مظالم الخلق. وما أكثر الديار المليئة بالأموال والنعم التى صيرها خاوية على عروشها. أما ولاية الأقاليم من السلاطين والملوك الذين كانوا يقصدون البلاط فقد صاروا

بهذه الطريقة مدينين يفترضون من مائة ألف مسلم ومغولى. وعلى هذا النحو تبددت أموالهم جميعا. ولقد توفى بعض هؤلاء القوم والمظالم فى أعناقهم. وعلى هذا المتوال عسر بعضهم أهلهم وأملاكهم وأثاثهم مثلما رأى الجميع بأعينهم وسمعوا بأذانهم. وقد أدرك الجميع أنه لم تكن هناك مبالغة بل إن هذا القول إنما هو مثال وقليل من كثير بالنسبة إلى الواقع.

وعلى هذا النحو صار من الصعب تدارك مثل هذه الأمور العظام التى رسخت فى أدمغة الخواص والعوام. وبسبب الأغراض والأهواء المذكورة، فإن جميع الأمراء الأنجال والخواتين والأمراء والوزراء والكتاب والأكابر والأثنياع كانوا يرعون هؤلاء المفسدين وكان لبعضهم ديون عليهم، وكان بعضهم يقبل الهدايا منهم. وليس هذا فقط، بل إن بعضهم صاروا شركاء لهم. ومهما يكن السلطان عادلا وذا سياسة وصاحب شوكة فإنه يكون من الصعب أن يستطيع التغلب على هذه الصعاب إلا إذا كان مزودا بالحكمة والكفاءة والعقل الكامل.

أما سلطان الإسلام خلد ملكه فقد فكر فى فكرة مباركة؛ إذ عرف أن أس كل هذه المفاسد هو التعامل بالربا. فإذا منع ذلك فإنه يكون قد قوى الشرع الإسلامى من جهة، وأخرج الخلق من ورطة الضلال إلى جادة الهداية من جهة أخرى. وببركة منع الربا قضى السلطان على كثير من الأضرار الجسيمة.

وعلى أثر اعتدائه إلى تلك الفكرة أصدر مرسوما فى شعبان سنة ثمان وتسعين وستمائة (١٢٩٨هـ/١٨٨١م) يقضى بالآلا يتعامل أى شخص بالربا فاستكر ذلك أكثر الناس الذين كانوا قد اعتادوه، وصار بعض الأكابر من ذوى النفوذ يقولون: إنه بصدد هذا المرسوم سوف يغلق طريق المعاملات نهائيا. فرد عليهم سلطان الإسلام - خلد ملكه - إننا قررنا إغلاق طريق المعاملات المذمومة. كذلك قال بعض الجهال من أصحاب الغرض والهوى [ص ٥٢٩] إنه يلزم للخزانة أموال نقدية فى كل وقت، وإذا لم يقرضوا حكام الولايات فسوف يعجزون عن أداء المال، فقال سلطان الإسلام ووزراؤه: إننا لن ندع أى شخص يتعامل بالربا فى مصالح الديوان، أو أن يأخذ أى شئ من أصل المال أو ربحه. وقد نبه السلطان مرارا على الخواتين والأمراء والأنجال والأمراء بالآلا يقرضوا على الإطلاق تلك الجماعة.

وعلى هذا أمر المستولين بأن ينادوا صراحة بأننا لن ندع أحدا قط يقرض هذه الفضة مالا، أو أن يطلب شيئا منهم أثناء حياتهم أو من تركاتهم بعد مماتهم؛ لأننا لا نريد منهم مالا نأخذه كسلفة. وإذا ما بددوا أموال الديوان، فسوف نصادر امتعتهم وأموالهم في مقابل ذلك.

رابعا: مسألة أخرى هي أن المعارضين قالوا: إن القروض ضرورية لأرباب الحاجات لإغجاز مهماتهم. وقد رد عليهم السلطان بقوله: لماذا يبيع الشخص الذي لا يملك نفقات الطريق وما يحتاج إليه السفر؟ وأية فائدة تعود علينا منه، أو تعود عليه منا؟ يجب أن يجلس مسترخيا في منزله لا يبرحه. وحيث إنهم كانوا يسوقون تبريرات أخرى من كل نوع، كان يرد عليهم بقوله: إن الله تعالى والرسول عليه السلام يعلمان مصالح العالم أفضل منا. أو كان ينهى أن نرد عليهم غن بالضرورة بهذا المعنى فنقول: هذا ما أمر به الله^(١) ورسوله، ولن أسمع قط كلاما يخالف ذلك. ومنذ ذلك التاريخ لم يعطوا مالا أى مخلوق أراد الاقتراض بالربا. وإذا ما استبد شخص ذو نفوذ فإنهم يمنعونهم بحكم المرسوم.

ولأن الناس جميعا فى زماننا هذا لا يتعاملون بالربا بحمد الله ومنه زالت كل الأضرار التى كانت تحدث، واستقامت المعاملات، وعم الإنصاف الناس، وصار أكبر الأموال النقدية يصل إلى الخزنة ذهباً أحرأ؛ لأن القانون لا يسمح تسليم الأموال العينية بدلا من النقدية. كذلك ثبتت قيمة الجواهر والمرصعات. وكل من يملك مالا لا يسلمه ليد مفسد من المفسدين فيبتره بالحيلة. وبذلك صار أكثر أرزاق الخلق حلالا، وعمت البركة، واشتغل [ص ٥٣٠] أكثر الناس بالزراعة والتجارة والحرف النافعة. وبهذه الوسيلة انتظمت أمور العالم من جديد، ووجدت رونقا وبهاء. ولا شك أن أهل هذا الزمان يدركون قيمة هذه الأمور؛ إذ إنهم شاهدوا هذه المفاصد. أما الذين يعيشون بعد هذا، ولم يروا حقيقة ما حدث فأنى لهم أن يدركوا فائدة هذا القانون؟ وخلال هذه المدة التى نفذ فيها هذا الحكم كان بعض الناس ممن سيطرت عليهم لذة التعامل بالربا يبيعون بالقروض كثيرا من البضائع بأشأن باهظة، بحجة أن ذلك من قبيل التعامل والبيع المشروع، ولأنه لم يتخذ شكل الربا.

(١) نهى الله خلقه عن التعامل بالربا فقال فى حكم كتابه: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْطِئُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّقِهَا فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة البقرة، آية ٢٧٥).

وعاقبة الأمر أن هؤلاء الغرماء كانوا يأتون إلى الديوان ويقولون: لقد باعوا لنا بضائع بهذه الطريقة، وأنهم يطلبون شئها، فغضب السلطان خلد ملكه وقال: إنهم إذا لم يتركوا هذه الحيل والتزويرات فإننا سوف نأمر بأن كل شخص يأخذ قرضا بهذه الطريقة لا يعيد على الإطلاق رأس المال ولا ربحه. فإذا وجد المال متوافرا أمام الناس فما الداعى لإقراضه؟! ينبغي أن يشتروا به أملاكاً، ويستثمروه في التعمير والزراعة والتجارة فصار الناس خائفين من ذلك، وقل التعامل بالربا، كما قلت المعاملات المصحفة. ومن المؤكد أنه سوف يقضى نهائياً على هذه الطريقة وفي أسرع وقت.

فليوفق الحق تعالى هذا السلطان كي يقضى دائماً على هذه الرسوم المذمومة، وحتى يجعل قواعد الشرع الشريف ممهدة وراسخة.

الحكاية السابعة والعشرون

فى منع المخالفة فى صداق الزواج

قال سلطان الإسلام: إن الحكمة الإلهية فى تشريع الزواج هو أن يكون هناك تناسل وتوالد بين الآدميين. ولهذا السبب فإن حكم الشريعة يقضى بأنه إذا تفوه شخص بكلمة الطلاق سواء أكان جادا أم هازلا، وسواء أكان راغبا أم غاضبا فإنه يقع الطلاق فى الحال لأنه إذا لم يكن هناك وفاق بين الزوجة وزوجها [ص ٥٣١] فالأولى أن يتفصلا، وإلا فسوف يؤدى عدم الوفاق إلى الحدة والغضب. وإن استمرار الحياة مع الغضب لى عادة الوحوش، ولا محالة أن ذلك يؤدى إلى النفور، ولا يتحقق التوالد والتناسل مع وجود النفور. ولهذا السبب أصبح طريق الطلاق مفتوحا دون مانع قط.

أما إذا عقد النكاح على امرأة بصداق باهظ فلن يستطيع أى مخلوق أن يبادر بطلاق زوجته، وذلك خشية أن يدفع المال الكثير. وإذا كانت علاقة الزوج بزوجته ليست على ما يرام وغير محتملة فإن الزوج يضطر إلى التحمل. وهذا الأمر خلاف المشروع والمعقول ذلك أنه بموجب ما تقرر، تقتضى حكمة الشارع أنه إذا ما تردد شخص فى إظهار محبة لزوجته، ولم يحرص على اتفاق وجهات النظر بينهما فإنه يستطيع أن يتفصل عن زوجته دون جدال أو تفكير أو مانع.

كذلك تقتضى حكمة الشارع أن تكون رعاية الناس لأبنائهم وتوفير مؤنهم ولوازمهم أمرا واجبا على الآباء. وهؤلاء الآباء معرضون فى كل وقت لمنع الإعانات عنهم، أو أن بعضهم يرحل كجنود احتياطيين بعيدا عن أولاده. فإذا ما استهلك صداق الزوجة فمن أين يتوافر المال لتربية الأبناء، وسد حاجات الباقين ورعاية شئونهم؟

وبناء على هذه المقدمات، ولأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد استحسّن المهر القليل فى الزواج ينبغى أن يخفض الناس الصداق إلى أقصى حد؛ بحيث لا تجب عليه الزكاة. وبناء على هذا تقرر ألا يزيد كل الصداق على تسعة عشر دينارا ونصف؛ ذلك أنه ليس هناك إثم قط فى الصداق القليل. ولا شك أن الشخص الذى يحب زوجته لا يمكن التفريق بينهما

مهما بلغ التحايل والإجبار. أما الزوجان اللذان لا يوجد بينهما وفاق فممن الأولى أن يتفصلا بأسرع وقت ممكن كي يتخلصا من المتاعب، ويستفيد كل منهما؛ لأنه ثبت بالتجربة أن بعض الزوجات لا يحبهن أزواجهن، فإذا ما طلقن فإن الآخرين يتزوجون منهن ويحبوهن، فتكون هناك فائدة للطرفين.

لهذا السبب أصدر السلطان مرسوما بخصوص هذا الموضوع.

والسلام.

الحكاية الثامنة والعشرون

فى إقامة المساجد والحمامات فى القرى بكل البلاد

لا يخفى أن احتياج الناس إلى الحمامات والمساجد من الأمور الضرورية. وفى بعض من ولايات الممالك لم يبن فى القرى شئ من كلا النوعين، ولم يدبر ملوك الإسلام ذلك من قبل. ومن المؤكد أن الأهالى فى تلك الأماكن لا يقيمون صلاة الجماعة، ولا يتيسر لهم غسل الجنابة والتنظيف، كما هو مشروط شرعاً، مما يسبب خللاً فى دينهم.

ولعلاج هذا النقص أمر السلطان وأصدر مرسوماً يقضى بإقامة مسجد وحمام فى كل قرية من قرى كل الممالك. ويعتبر مجرماً وأثماً من لا ينفذ هذا الأمر. وخلال ما يقرب من عامين أقيمت فى كل البلاد المساجد والحمامات فى الأماكن التى لم يكن فيها مساجد ولا حمامات. وفى هذا الزمان تحصل أجور مرتفعة من تلك الحمامات، فأمر السلطان بأن يتفق منها على ما يلزم تلك المؤسسات، وعلى شئون المساجد من تعمیر وفرش وإنارة وصرف أجور للخدم.

وبمجرد أن تم هذا النموذج الدال على حسن التدبير الذى أمر به السلطان جرى مثل هذا العمل الخيرى فى عدة بقاع من بقاع الممالك، وظهر شعار الإسلام، ونعم الناس بالهدوء والراحة.

أوصل الحق تعالى بركات ومثوبات ذلك إلى أيام السلطان المباركة.

الحكاية التاسعة والمشرون

فى منع الناس من احتساء الشراب

حيث إن أكثر الخلق فى الممالك يقدمون على شرب الخمر وتناول المسكرات وكانوا ينهمكون فى العريضة والعبث بسبب سكرهم فى الأسواق والمجتمعات؛ فيؤذى بعضهم البعض، أو يُجرح بعضهم أو يمل بهم الإعياء والإرهاق مما يوجب محاكمتهم. والمسكرات حرام ومنهى عنها فى كل المذاهب والملل^(١). وبسبب ما تقرر عنها، وما ورد من ذمها بحصر المفاسد التى تنتج عنها، نرى أنه لا داعى إلى الإطناب فى ذلك. يكفى أن أطلق عليها "أم الحيات".

وبخصوص تدارك هذا الخلل، قال سلطان الإسلام خلد ملكه بما أن المشرع عليه السلام وسائر الأنبياء قالوا بتحريم الخمر [ص ٥٣٣] وأن النصوص قاطعة فى ذلك الشأن هذا على حين أن الخلائق لا يترجون ولا يتركون الشراب، وإذا غن أبشاً منعنا الشراب مطلقاً، فمن المؤكد أنه لن ينفذ ذلك. بناء على هذا قررنا أن نكتفى حالياً بأن يقيض على كل شخص يحدونه شلاً فى المدن والأسواق، وأن يعرى، ثم يربط إلى شجرة^(٢) وسط السوق حتى يمر عليه الناس، ويؤذوه فينتبه ويتزجر.

وبخصوص هذا الموضوع أصدر مرسوماً وأرسله إلى أطراف الممالك. وفى هذا الزمان لا يجرو أى عقول على أن يخرج إلى الطرق شلاً. وإذن فكيف يصل به الحال إلى حد الجنون والعريضة؟! وبهذا قضى السلطان على الفساد الناجم عن احتساء الشراب وعلى مشاجرات السكارى وخصوماتهم فى الأسواق والمجتمعات.

(١) ورد فى الحديث الشريف قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "جنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر". رواه الحاكم والبيهقى عن ابن عباس ورواه الطبرانى عن النعمان بن بشير بلفظ: "جنبوا كل مسكر". (انظر كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للمجلونى، الجزء الأول، ص ٤٩، حلب بدون تاريخ).

(٢) يذكر الوصاف أنه فى عهد غازان إذا ركب شخص شرب الخمر، فإنه يعذب فى السوق، ويقام عليه الحد الشرعى، ويعلق فى شجرة يطلق عليها أهل شيراز "عمروس السكارى" (عمروس مسان) (انظر تاريخ الوصاف ص ٣٧٨، طبع بهى).

كذلك أمر السلطان بألا يدخل أى مخلوق منازل الناس للبحث عن السكارى حتى لا يسلط العسس سلوكاً يتجاوز حد الاعتدال، وحتى لا تحمل المتاعب والمشقات بالخلق. ليوفق الله تعالى هذا السلطان الحامى الدين حتى يصدر دائماً هذه الأحكام.

والسلام

المكايبة الثلاثون

فى إعداد نفقات الطعام الخاص والشراب لجيش السلطان المعظم

ليكن معلومًا للجميع أنه قبل هذا كان يسود الجدل والتزاع دائمًا بخصوص إعداد نفقات الطعام. وكان الكتاب والمتعهدون يوقع بعضهم بعض، ويتهمون بعضهم بعضًا. وكانوا يغالون فى ذلك الأمر، فكان على الأمراء أن يشغلوا باستجوابهم ومحاكمتهم. وكانت نفقات الشراب والطعام فى أيدى جماعة يتفقون مبالغ تزيد كثيرًا عما صرفوه بالفعل. كذلك كانوا يضيفون بعض النفقات التى لم تكن لها صلة بتوفير الطعام وذلك من قبيل الصدقات ومعاشات الناس وغذاء الحيوانات والفهود وكذلك العلف ومشروب الرسل ورواتب بعض الأمراء الأنجال والخواتين ولوازم البيوت وأدوات المطابخ وأمثال ذلك. وهذه الأسباب تضخمتم ثروات طائفة من هؤلاء المستغلين. يضاف إلى ذلك ما كان يتفق على شئون المآدب وإقامة الحفلات. وأكثر هذه الأموال لم تكن فى الحقيقة تنفق فى هذا الغرض. كذلك حددوا للأصناف المختلفة أسعارًا مرتفعة. [ص ٥٣٤] وكانوا يحيلون كل تلك النفقات على الولايات لتتولى تدبيرها. وفى نفس الوقت كانت الشئون المتعلقة بأموال الديوان غير مضبوطة ومضطربة. وفى نية الحكام والمتعهدين ألا يعطوا الديوان شيئًا قط وذلك على النحو الذى وضحنا فيه أسباب تلك المفاسد.

لكل هذا اختلت شئون الولايات اختلالًا كبيرًا. ولم تكن النفقات اللازمة لتوفير الطعام تصل فى وقتها. وكان الرسل الذين يذهبون لتحصيل تلك النفقات يهملون أداء واجباتهم مقابل ما كانوا يأخذونه من هدايا على سبيل الرشوة. كذلك كانوا يعطون المتعاملين معهم فرصا كثيرة لسداد ما عليهم، وأيضًا كانت الحوالات تصدر مرة ثانية إلى ولايات أخرى. وهكذا سار الرسل على نفس الطريقة. وفى كل عام كان يذهب العديد من الرسل لتحصيل نفقات الطعام، وكانت تزيد نفقاتهم وعلف دوابهم على أصل المال المخصص للغذاء. ومع هذا لم يكن المال يصل أيضًا رغم أن نفقات توفير الطعام قد حددت؛ بحيث تكفى كل من يعمل لتحصيلها، بل كانت تكفى أشخاصا كثيرين آخرين. ولكن حيث إنها

لم تكن تصل في وقتها، وكان المتعهدون يقترضون المال بربح فاحش. وقد قوموا مائة من الشراب بعشرة دناتير. وإذا كانوا يعملون بتدبير، فإن المتحصل يصير خمسة دناتير. وأحياناً كانوا يشترون مائة من عشرين أو أربعين ديناراً.

ونتيجة لذلك فإن المال الكثير الذي كان يصل إليهم، والمبالغ التي كانت تزيد على نفقات توفير الطعام، أصبحت غير كافية. إذن فكيف تكون قيمة الخوالات التي كانت في أيديهم، وتأخر سدادها عامين؟ ومن جملة ذلك ما كان لا يزال باقياً على الأماكن المختلفة. وأما الخلل الأكبر حقاً، فإنه يمثل عندما كان الكتاب يسألون عن النفقات الخاصة بتوفير الطعام. عندئذ كان حكام الولايات يتدخلون بحجة أن أمر تدبير الطعام مسألة خطيرة، ويقولون: إننا نبادر بمحصر تلك الأموال، ويكلفون الرسل بمهمة أخرى. وهذه العملية أيضاً لا تخرج إلى حيز التنفيذ. وهكذا كانت تضيق النفقات الأخرى، فتم الخسارة. وبسبب تعطيل الرسل وتأخيرهم كانت تضيق سدى المبالغ المخصصة للمصروفات. وإذا عزل الحاكم في نهاية العام فإنه كان يتحل عذراً قائلاً: إن المال في عهدة الولاية، أو أنه ضاع. وإذا لم يعزل فإنه يتحجج بالحساب والتحقيق ومراقبة رؤساء الديوان بحجة مشاركتهم الرسل، وأخذهم الهدايا على سبيل الرشوة. وهكذا يمضي الوقت عبثاً.

ولا شك أن أثر تلك القضايا وسوء التدبير إنما كان يرجع إلى تصرف المتعهدين الذين كانوا في نزاع دائم مع موظفي الديوان. وكان كلا الطرفين يتبادل التهم، [ص ٥٣٥] ويلقى بالتبعة والذنب على عاتق الطرف الآخر، وظلت الوشايات والسعايات قائمة فيما بينهم. ولم يتفق مطلقاً أن تعد المؤن لمدة عشرة أيام متتالية ولو أنهم رجعوا إلى السجلات واحتاطوا للأمر، لوجدوا أن الأموال الكثيرة قد ضاعت بهذه الطريقة بحيث إنه لا يمكن شرح ذلك. وكيف يمكن أيضاً إدراك حال المؤن التي تعد بهذه الطريقة؟ كذلك كانوا دائماً ينقلون الأطعمة والمشروبات مكرهين. وكانت تلور المشاحنات والمشاجرات بشأنها. وعندما كانت تصل إلى الجند وقت مغادرتهم المعسكرات، كانت تبقى متروكة مهملة. وعند الانتقال إلى المصايف والمشاتى كانوا يهتمون بتقديم الهدايا أكثر من اهتمامهم بتوفير المؤن. وفي أثناء ذلك كانت تضيق النفقات المخصصة لها وتذهب. وعندما كانوا يشترون

المشروبات من بائعى الشراب، والأغنام من القصابين، فإنه كثيرا ما يحدث ألا يدفعوا لهم ثمنها. ودائما كانت تلك الجماعة تصبح وتنوح خلفهم. كما كانوا يركعون أمام الأمراء فى ذلة ومسكنة، ولكن دون جدوى. ولهذا السبب أشهر كثير من بائعى المشروبات والقصابين إفلاسهم. وهكذا فإن أمثال هذه المفاسد كانت تزيد على الوصف.

ولندارك هذا التقص قرر السلطان أن يكون الإصلاح على هذا النحو الذى يقضى بتوفير نفقات المؤن والأطعمة يوميا لمدة ستة أشهر، على أن تعطى هذه النفقات نقدا من الخزانة كسلفة لشراء ما يحتاجون إليه من السلع. ثم ينقل كل ما يكون معدا فى إحدى الولايات. وكل ما يشتري بتمن أرخص يبقى فرق السعر رصيدا للخزانة. ولا يتوقع أى مخلوق أن يستفيد من تفاوت أسعار المشروبات والأغنام والسلع وينبغى أن يشتروا أرخص من الأسعار المحددة فى السجلات. أما ما كانوا يأخذونه قبل هذا من النفقات غير الضرورية ومن المآذب والحفلات العديدة التى لم تنفق عليها كثيرا، وكل ما يتبقى من ألبام تقل فيها النفقات، فإن هذا كله يكون رصيدا للخزانة. ومن وفورات ذلك كله، تجمعت فى مدة عامين أموال كثيرة اشتروا منها خمسمائة ناقة وخمسمائة بغل، وأودعوها لدى الحمالين والسياس الرحاء حتى تكون دائما معدة لتلبية متطلبات المشروبات والأطعمة. وكل ما كانوا يدفعونه كل سنة لتأجير الدواب، ينفقون بعضا منه فى شراء العليق ورعاية الدواب، [ص ٥٣٦] ويشترى بأقل من خمسة دناتير الشراب الذى يقدر بمائة من وكانوا يتناعون قبل ذلك بثلاثين أو أربعين دينارا.

والآن صارت المشروبات المؤن والأغنام والحوالج واللوازم الأخرى معدة ومتوافرة. وإذا أرادوا الحصول على أضعاف المقرر فإنهم يجدونه بسهولة ودون صراع أو نزال. وقبل هذا كان سعر الشراب الذى يشتريه المتعهدون من بائعى المشروبات مرتفعا جدا. هذا على حين أنه الآن متوافر فى الأسواق وفى حالة كساد. كذلك لا يذهب أى رسول أو محصل إلى الولايات للمطالبة بنفقات المؤن. ولهذا السبب لا تلزم مصروفات ولا تنبذ أموال، بل يأتى النقد إلى الخزانة. كذلك أصبحت الشئون المتعلقة بتوافر المؤن وتهتبه أسبابها وترتيبها ونقلها تتم بصورة منسقة ومضبوطة لم يسبق لها مثيل دون شك فى عهد أى سلطان من السلاطين. ومن المقطوع به أنه لا يصرف أكثر من ربع ما كان يتبدد قبل هذا. ولو وضع

في الحسبان أيضاً النفقات التي كان يتطلبها إيفاد الرسل، فلن تكون المصروفات الحالية أكثر من العشر.

ولا شك أن ترتيب هذه الشئون إنما هو أمر منوط باهتمام النواب ووزير البلاد الخواجه سعد الدين، فهو لا يدع دافعاً واحداً يتعرض للتلف والضياع.

ليسط الحق تعالى أهد الدهر ظل هذا السلطان الكامل العقل، الصائب الرأي.

والسلام

الحكاية الحادية والثلاثون

فى إعداد نفقات المؤن للخواتين والجنود

فى عهد هولانكو خان كانت نفقات توفير المؤن للجنود والخواتين تجرى على ستر المغول وعاداتهم، ولا يمكن زيادة هذه النفقات وتلك المقررات. وعندما كانت تجلب الغنائم من حروبهم فى ولايات الأعداء يعطى الجنود شيئاً منها. وكان لكل واحدة من الخواتين عدد من التجار يقدمون لها شيئاً من المال كربح أو أن شخصاً يهديها هدية. وكانت تشتلك عدة قطعان ولها أيضاً نتائجها ومنافعها. ومن هذه الأشياء كانت تتوافر للخواتين النفقات اللازمة لتوفير المؤن وما يحتاجن إليه. وكُن قانعات بذلك.

وفى أواخر أيام آباقاخان ظهرت زيادة طفيفة فى المؤن. وبعد ذلك فى عهد أرغون خصص لكل معسكر مبلغ من المال. وكانت هذه النفقات تحول على الولايات لتحصيلها. [ص ٥٣٧] وعندما كان الرسل ورؤسائهم يذهبون لتحصيل هذه المبالغ، لا يدفعها الحكام، متذرعين ببعض الأعذار التى شرحناها فى عدة مواضع. وكانوا يشغلون أوقاتهم بأخذ العلف والالتزام بتنفيذ الوعود وتقديم الهدايا. وإذا حصلوا على مبلغ ضئيل، كانوا يبدونه فيما بينهم. وحيث إن نفقات توفير الطعام للجنود تجرى على هذا النمط، فإنه يتبين لنا كيف كانت تسير الأمور فى ظل هذه الأوضاع. وفى عهد كيكخاتو كان الحال أيضاً يجرى على هذا النمط. وهكذا ضاعت مبالغ كثيرة من الأموال على يد حكام الولايات وكبار الشخصيات.

أما فى العهد المبارك لسلطان الإسلام خلد سلطانه فقد وقعت الخصومة بين قواد الجيش. ولهذا كان يكيد الواحد منهم للآخر، فعرضوا للاتهامات والحاكمات بسبب هذه التصرفات. وقد بقى بعض تلك الأموال دينا على الولايات، وتبدد بعضها بين كبار الموظفين، فكان السلطان يأمر بمعاقبتهم، وعزل بعض منهم. بعد ذلك صرح قائلاً: لا يصح أن تضيع الأموال بهذه الطريقة، أو يكتسبها حكام الولايات. وبذلك لا تنتظم الشئون المتعلقة بتوفير المؤن للجنود، ولا تصل الأموال إلى الخزانة أو إلى الجند.

ولعلاج هذا النقص أمر السلطان بتعيين إحدى الولايات لكل جيش من أملاك الخاصة تفصل عن الديوان وتسلم لهم. كذلك تقرر أن تصرف الأموال المخصصة لتلك الجهات من الديوان، ويكتب تعهد لكل فئة تفصل فيه النفقات الخاصة بتوفير المؤن والعلف، وما تحتاج إليه الخواتين من ملابس ودواب وكذلك النفقات اللازمة لدور الشراب والاصطيالات والإبل والبغال وملابس البنات والسادة والفراشين والطباخين والجمالين والمكاريين وغيرهم من الخدم والحشم. كما ينص أيضا على ما ينبغي الحصول عليه من اللوازم الأخرى، وأن يحسبوا كلها ضمن مجموع النفقات حسب هذا الترتيب. ثم أمر بإبداع ما تبقى في خزنة كل خاتون، وأن تضبط الحسابات تماما ثم تختم بختم الأميرين المعينين على رأس كل جيش. وعلى الجميع ألا يخرجوا عن حكم مرسوم السلطان حتى يكون هناك دائما رصيد في خزنة الخواتين يستفاد منه عند الضرورة. ثم أضاف السلطان قائلا: إن أملاكى الخاصة تصير من بعدى ملكا خاصا لأبناء الخواتين على أن توقف على أولادهم الذكور دون الإناث^(١). وإذا لم يكن لتلك الخاتون أولاد ذكور [ص ٥٣٨] فإنها تكون من نصيب أبناء الخواتين الأخريات. والآن فإن كل تلك الولايات والأملاك فى يد نواب الخواتين وذلك بموجب تعهدات الديوان. وقد صارت كلها عامرة، وتدر أموالا تزيد عما سبق.

أما النفقات الخاصة بتوفير المؤن للجنود وما تحتاج إليه المصالح فإنها صارت كلها معدة ومرتبعة، وتصل فى وقتها. كذلك وضحت وتعينت الأموال المودعة بخزائن الخواتين. وفى هذا الوقت الذى كانت تدعو فيه الحاجة إلى زيادة النفقات لتصريف مصالح الجنود، أمر السلطان بإعطائهم مبلغ ألف ألف دينار، وحوله إليهم بموجب هذا القرار. وكان هذا مددا كاملا للجنود. وفى الحقيقة لم يتوافر مطلقا مثل هذا الضبط فى أى عهد من العهود.

إن شاء الله تعالى سيظل ملك هذا السلطان وطيدا ومزدهرا أبدا الدهر.

والسلام

(١) هذا الإجراء مخالف للشريعة الإسلامية التى لا تحرم الإناث من أن يرثن أيضا أباهن. قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَى﴾. (سورة النساء، آية ١١).

الحكاية الثانية والثلاثون

فى ضبط شئون الخزنة وترتيب مهماتها ومصالحها

قبل هذا لم يكن معتادا تدوين حسابات الخزائن الخاصة بسلطين المغول، أو يكون لها دخل وخرج ثابتان. ولقد نصبوا عددا من الخزنة كى يأخذوا منهم كل ما يحصلون عليه من أموال، ثم يودعونها متضامين، ويدفعون كل ما يلزم من نفقات بمعرفتهم جميعا. وعندما ينقد الرصيد يقولون: إنه نقد. وكان الفراهون يحرصون تلك الخزائن، ويعملونها ثم يلقونها بعنف. وقد بلغت الأمور من عدم الدقة وسوء النظام درجة كبيرة إلى حد أنه لم تكن هناك خيمة توضع فيها هذه الخزائن، بل كانت تكسد فى الصحراء، ويكتفى بتغطيتها بلباد. وهكذا يمكن القياس على سائر الأحوال. ومن جملة العادات المتبعة عندهم أنه عندما كان يذهب جماعة الأمراء ومعهم أصدقاء الخزنة ويطلبون منهم الهدايا، كانوا يعطون كل واحد منهم شيئا على قدر مرتبته. كما أن الطهارة والسقاة والخدم وسياس الخيل، كان كل منهم يحمل إلى الخزنة كمية من المأكول والمشروب وغير ذلك [ص ٥٣٩]، ثم يطلبون شيئا، فكان الخزنة يتشاورون فيما بينهم، ويلبون طلباتهم. ولأن الفراهين كانوا حراسا للخزنة صار المسئولون يقبلون ملتصقاتهم، ويعطون كل واحد منهم نقودا. كذلك كان الخزنة يتبادلون الهدايا، ثم يتشاورون فيما بينهم، وأخيرا يتفقون على أن يحمل كل منهم شيئا إلى منزله. وبهذه الطريقة كان يضع من تلك الخزائن كل سنة ثمانية أعشار ما تحتويه، ويصل فقط العشران الباقيان من النقود إلى الجهة المطلوبة، فكان السلطان يأمر بإتفاقها. ولأن حكام الولايات قد فهموا هذه الأمور جيدا، كانوا إذا سلموا أموالا لإبداعها فى الخزنة، فإنهم يأخذون بدل الشيء الواحد شيئين. وعندما يحضرون مالا أقل إلى الخزنة فإن ما يحضرونه يجرى ضبطه على هذا النمط. ومن هنا يتضح الموقف فتتساءل كيف يستطيع السلطان أن يتفق عندما تدعو الحاجة إلى الإنفاق؟! وهكذا كان الحال يجرى على هذا المنوال دائما.

وحيث إن حراس الطرق أمروا بالاحتياط، وباعتقال أى شخص يخرج ثوبا أو شيئا آخر من الخزانة، صاروا يحتفلون واحدا كل بضعة سنين، وذلك أيضا لغرض خاص فى أنفسهم فكانوا يتهزون الفرصة كى يوقعوه فى الذنب، ويقدموه إلى المحكمة. وهذا لم يحدث فى كل العهود أكثر من مرتين أو ثلاث مرات. ولهذا السبب يستولون على المرصعات والذهب الأحمر. وإن شرح تلك الأحوال يتجاوز حد البيان.

أما الآن فلضبط هذه الأوضاع وتصحيحها، قرر السلطان أن تكون الخزائن مستقلة فى إدارتها، وأن يضع يده المباركة كل ما يوجد من المرصعات فى صندوق، بحيث إنه لو يحدث أى تصرف فيها، يعلمه فى الحال. كما قرر أن يثبت فى السجل كل صغيرة وكبيرة بقلم الوزير بالتقير والقطمير. ثم أغلق هذا الصندوق بالقفل وختمه بختمه، وعين شخصا من الخزانة ومعه أحد الخدم من الخصيان ليحافظا على الصندوق، ويكون فى عهدهما. وباستثناء هذين الاثنين لا علاقة لأى مخلوق آخر بهذا الصندوق.

أما كل ما يكون من الذهب الأحمر والياب الخاصة التى تصنع فى المصانع، أو الأشياء التى يحضرونها من الولايات البعيدة كالنحف والهدايا فإن الوزير يسجلها بالتفصيل جريا على القاعدة المتبعة، وتبقى كذلك فى عهدة هذين الشخصين المذكورين، وقطعا لا يتصرفان فى أى منها قط ما لم يصرح بذلك سلطان الإسلام تصريحاً مطلقاً. [ص ٥٤٠].

وأما كل ما يكون نقدا فضيا، وكذلك أنواع الثياب التى توزع دائما فقد نصب السلطان خازنا وخداما خصيا آخرين لتكون هذه الأشياء فى عهدهما، على أن يتولى الوزير إحصاءها ثم يثبتها فى السجل. كذلك أمر السلطان بأن يكتب الوزير إذا بما يتقرر صرفه، ويعرضه حتى يؤشر عليه بقلمه المبارك. ثم يثبت ذلك نائب الوزير فى السجل. وما لم تكن التأشير مثبتة على أذونات الصرف، لا يصرف شيء قط لأى مخلوق. وتسمى الخزانة الأولى "تارين" والثانية "بيدون". وحتى لا يلزم التأشير على الأذونات فى كل لحظة تقرر أن يكتب الوزير كل شهر أذونات الصرف بالتفصيل جريا على المتبع، ثم يعرضها واحدا فواحدا على السلطان وقت الخلوة وانتهاء الفرصة حتى يؤشر عليها.

كما أن على الوزير أن يطلب جرد الخزانة كل ستة أشهر أو كل عام حتى يتأكد من أن كل المبالغ موجودة بالخزانة أو لا؛ وذلك خشية أن تكون هذه المبالغ قد نفدت من الخزانة

لسبب من الأسباب الكثيرة. وقبل هذا كان بعض العظماء والأصدقاء يكتسبون أن يصرف لهم قرض من الخزانة. ولكن لأن المرسوم قد صدر بعدم التصرف فى الأموال بغير الإذن المبارك، رفض ذلك الاتماس. كذلك أمر السلطان بصنع ختم خاص يختم به فى الحال كل ثوب يحضرونه إلى الخزانة، حتى لا يمكن إيداله.

وعن السعاة الذين كانوا قبل هذا يتدخلون فى شئون الخزانة، أمر السلطان بأن يشتغلوا بالقراشة فقط، لأن الخزانة فى عهدة هؤلاء الأشخاص الأربعة فقط. وتصفية الحساب ينبغى أن تكون بموجب الإذن الذى يعطى لهم. وأشار السلطان أيضا بألا يكون فى الخزانة عيار الوزن العادى، بل يكون فقط العيار القانونى المختوم الذى بموجبه يكون التسليم والصرف. وليس لأى مخلوق الحق فى أن يعطى أصحاب الحوالات ذراعا من الكرباس فى مقابل نقد ذهبي، أو أن يماطل فى الدفع لحظة واحدة، بل ينبغى أن يدفع المال فى الحال نقدا لأصحاب الحوالات أو القماش. وينبغى أن يسلم نفس الصنف المطلوب المدموغ بدمغة الخزانة، ولا يتوقع القائمون عليها أن ينالوا شيئا من أحد فى سبيل تسهيل مهمته. [ص ٥٤١] وقد تقرر تحصيل دينارين كرسوم للخزانة عن كل مائة دينار من النقود التى يحضرونها من الولايات ولا يأخذون زيادة قط عن المطلوب.

كذلك أمر بتخصيص خزانة أخرى، نصب عليها أحد الحصيان، وعليه أن يأخذ دينارا عن عشرة دنائير من النقود التى يحضرونها إلى الخزانة وأن يسلموه ثوبا واحدا على حدة عن كل عشرة أثواب ليضعه فى الخزانة أيضا. كذلك أمر السلطان بإحضار أموال الصدقات المحولة إلى الخزانة كى يسلمها بيده المباركة للمستحقين. وقد تم ضبط ذلك بنفس الترتيب الذى سبق شرحه. وهذا النظام يطبق أيضا بنفس النسق المذكور على الخزانة المخصصة لمستودع الأسلحة. ولا يمكن أن تحفظ بهذه الصورة وتلك الدقة أموال أى حاكم أو صراف أو تاجر كبير ممن هم مشهورون بالمحافظة على المال، فكيف بخزائن الملوك؟! وقطعا لا يمكن أن تتصور الحياة ولو بدائق واحد من النقد.

وعندما يتوجه السلطان إلى المصيف أو إلى المشتى يراجع الخزانة بنفسه عدة أيام قبل تحركه، ويستشئ كل ما يريد نقله منها. ثم تسجل بالتفصيل الأثقال والأحمال بخط الوزير ويتركها فى تبريز فى صناديق مغلقة ومختومة. وعندما يريد السلطان أن يعرف أحوال

الخزانة من حيث الكم والكيف والدخل والخرج، يسأل الوزير، فيرجع بدوره إلى السجلات، ويعرض المطلوب في الحال. وحيث أن سلطان الإسلام عجلد ملكه مؤيد بالتأييد الرباني. كما أن إمداد المواعب الإلهية بشأته كامل شامعا، وافق أن وزيره أيضا مع وجود كمال كفايته وكياسته وعلمه وفضله، لا يوجد أوثق منه، فلا جرم أنه لا يمكن أن يضع دائق واحد من النقد أو ذراع من الكرباس ولم يعد لأى مخلوق مجال للخيانة.

وإنه لييمن وبركه هذا الضبط، وهذا الصديق اللذين أمر بهما سلطان الإسلام. وبفضل الأمانة والديانة، صارت النقود الذهبية تخرج من الخزانة بكثرة هائلة؛ بحيث إنها لو كانت بحرا لنفد ماؤه. وليس هناك فى سجل قديم أو حديث نطالعه ذكر لمثل هذه الأموال الطائلة والثياب التى لا حصر لها. كما أنه لم يعط أحد مثل هذه المقادير من خزانة أى ملك من الملوك.

ليوصل الحق جل وعلا هذه البركات إلى إمام السلطان المباركة بحق النبى وآله وسلم.

فى ترتيب شئون المؤسسات ودور السلاح

قبل هذا كان يعين فى كل مدينة وولاية صناع كثيرون من قبيل القواسين وشاحذى السهام وصناع الجعبات والسيوف وغيرهم. كما كان للمغول مثل هؤلاء الصناع. وكان كل واحد منهم يصنع آلة أو آلتين. وكانوا يتقاضون أجورهم ومرتباتهم. كما كانوا يتعهدون بتقديم كمية كبيرة من الأسلحة. وكانوا يأخذون شئنا من الحوالات المكتوبة على الولايات. وفى بعض المدن، كانت هناك مصانع يعمل فيها صناع مهرة. وقد خصصت مبالغ من الأموال لهذا الغرض. وكان على رأس هؤلاء نواب أمراء حاملى السلاح. ومن كل الأموال التى تنفق، لم يستطيعوا أن يحصلوا منها على واحد من عشرين وذلك بسبب أن بعض هذه الأموال يتم صرفها بواسطة الحوالات. ومع أن مائة من أتباع الرسل يذهبون إلى الولايات لتحصيلها، كان يضيع أيضا ما يساويها أو ما يزيد عليها شئنا للعلف وسد نفقات هؤلاء الأتباع ونفقات دوابهم. وبواسطة الخيل التى ذكرناها كان يقبض بعض تلك الأموال يتصرف فيها حكام الولايات، وبعضها يتبدد نتيجة أطماع وتصرفات النواب وكتاب المؤسسات، وبعضها يضيع هدرًا بسبب كثرة الأمراء المشرفين على هؤلاء وهؤلاء. وبناء على هذا كان كل واحد يتصرف حسب هواه.

ولما كان الصناع يرون الأمور تجرى على هذا المنوال، تقاعسوا وصاروا لا يؤدّون أعمالهم أداءً كاملاً على نحو ما يملية عليهم الحق والواجب، وصارت أوقاتهم مستغرقة فى النزاع والخسومة فيما بينهم. وكان ينبغي أن تصرف فى السعى والعمل. كذلك دبت بينهم المشاحنات، وكثرت الوشائات. وقد وصلت منازعاتهم إلى حد أن الأمراء - بشؤم هذه التصرفات - اختلفوا فيما بينهم، وانقسموا على أنفسهم وتخاصموا. وكانت التحقيقات تجرى دائماً مع الصناع، ويستخدم الصراع والجدل؛ فترتب على ذلك ظهور العيوب والمفاسد فى شئون الملك. وعندما كانوا يذهبون لمراجعة الحسابات، لم يكن هناك شئ قط. فلا مفر إذن من أن يبقى عجز فى السجلات يقدر بثلاثمائة أو أربعمائة ألف دينار كل سنة، ولا يظهر ما يدل على إنفاق دائق واحد منها.

وعاقبة الأمر أن التواب وكتاب المؤسسات كانوا يقتلون. وعلى أثر ذلك خربت ديارهم. ثم أعقب ذلك القضاء على أسرهم. [ص ٥٤٣] وقد آل أمر المباشرين تلك الأعمال إلى أن صاروا مفلسين وأشرارا وساءت سمعتهم؛ فتدارك ذلك كله سلطان الإسلام خلده ملكه. وقرر على هذا الأساس أن يتنضم أهل كل حرفة من الحرف في كل مدينة إلى بعضهم البعض، وأمر بالآل يعطوا شيئا من العلف والملابس. وقرر كذلك إعداد كميات خاصة من كل نوع من الأسلحة وتقدير شئنها، وقال: رغم أنهم عمالنا وأسرى لنا ويبيعون ما يصنعونه في الأسواق بأثمان يتقاضونها مثلما يبيع الآخرون إنتاجهم فإنهم يحاسبون على ما يصنعون، وذلك على نفقة الديوان. وكذلك نصب على رأس كل طائفة شخصا أميناً وموثوقاً به ليشرّف عليهم ويكون ضامناً لإخلاصهم وأمانتهم. وهؤلاء يأخذون أجورهم سنة بسنة، ويسلمون الأسلحة حسب المقرر المفضل، ويتسلمون بها إيصالا. وقد حدد السلطان إحدى الولايات لتتولى سداد نفقات كل تلك الأسلحة حتى لا تدعو الحاجة إلى إيفاد الرسل إلى كل الولايات لتحصيل هذه الأموال.

بهذه الطريقة تقرر أن تعد الأسلحة الكاملة لعشرة آلاف رجل كل سنة. هذا على حين أنه قبل هذا لم يكن يرى أحد مطلقاً حتى ألفين من الرجال المسلحين. كذلك عين السلطان لحرسه الخاص خمسين رجلاً اختارهم من خواص خواصه. وبالإضافة إلى ذلك أعد عدة آلاف قطعة من الأقواس والأسهم والدروع على نفقة الخزانة لتستعمل عند الحاجة. وعندما عقدت مقارنة بين الماضي والحاضر، تبين أن ما كان يتفق قبل هذا على بند العلف وأجور الحرفيين لا يزيد على نصف ما يدفع الآن شئنا للسلاح. كما أنه لهذا السبب قد استغنى نهائياً عن النفقات التي كانت تتحملها الولايات. ولكن قبل هذا وفي أوقات أخرى، لم يكن يوجد سلاح قط من هذه الأسلحة التي يتوافر وجودها. وبمحسن التدبير هذا تجهز المعدات كل سنة وفق النظام المذكور، وتسلم بموجب إيصال. وبهذا انتهى الصراع وزالت الخصومات، وقضى على محاكمات الحرفيين والكتّاب الذين كانوا يعدمون لهذا السبب. وهم الآن محترمون وموقرون، ويعيشون في راحة وطمأنينة. أما الأمراء الذين كانوا - بشؤم هؤلاء - ينازع بعضهم بعضاً؛ فإنهم الآن جميعاً متضامنون متآلفون وأحباب أصفياء.

وحيث إنه خلال هذه السنوات جرت الأمور على هذا النحو المقرر فكانت مرتبة جيدة، عرض أمراء السلاح على السلطان قائلين: [ص ٥٤٤] "إن أكثر الآلات التي

يصنعها الحرفيون موجودة في الأسواق، ويمكن أن تشتري منها بصورة أنسب وأفضل. وقبل هذا لم يكن الصانع يعرفون رسم وترتيب الآلات المغولية. أما الآن فقد عرفوها في الأسواق. بعد أن كانوا مشغولين بالمفاسد والصراعات والحصومات طوال اليوم، وكانوا يستولون على الأموال والمؤن، ولا يؤدون عملاً يذكر. وأخيراً رأوا من الضروري أن يشتغلوا بحرفهم عندما وجدوا أنفسهم معزولين. وهم الآن في الأسواق يصنعون الآلات والأسلحة على نفقتهم، ثم يبيعونها. ولهذا السبب فإن أنواع هذه الأسلحة موجودة في الأسواق على نحو أحسن وأفضل مما نصنعه نحن الآن. وما أحسن من أن تدفع أموال التعامل نقداً. وبناء على هذا نرى أنه بدلاً من أن نعد نحن الأسلحة ونعطيها الجنود، نوزع عليهم المال كي يشتروا به الأسلحة الملائمة لاستعدادهم، وبأسعار رخيصة، ولا تلتف أبداً. فاستحسن سلطان الإسلام خلد ملكه هذا الرأي، وأمر بصنع عدة أنواع من الأسلحة بتدرج وجودها في الأسواق. أما باقي الأسلحة فتشتري بالمال نقداً.

هذه الحالات من المفاسد والتفاسد التي ذكرناها كانت منتشرة بين الحرفيين الذين كانوا يصنعون السروج واللجم ومعدات الاصطبلات. وكذلك انتشرت بين الصانع الذين كانوا يصنعون آلات عديدة تتعلق بأصحاب المظلات والحزنة. وهؤلاء أيضاً قد تداركهم السلطان وأصلح شأنهم على النحو المذكور.

بهذه الإصلاحات استقامت الآن كل تلك الأعمال، وصارت مرتبة. وكانت العادة قد جرت قبل هذا أنه إذا احتاج السلطان إلى القليل من الآلات أو أدوات أخرى تبلغ قيمتها خمسين ديناراً أو مائة دينار، كانوا يوفدون رسولا لإنجاز هذه المهمة البسيطة. وما يتفق هذا الرسول بربو على خمسة آلاف دينار لتوفير الدواب والعلف بالإضافة إلى مصروفاته الخاصة.

أما الآن فقد تقرر أن يشتري الخازن كل ما يلزم ثم يحضره، أو أن يدفع شنه نقداً ليشتريه شخص آخر، ويسلمه له. وبهذه الطريقة انقطع مجيء خمسمائة من أتباع الرسل والمحصلين كل سنة من الولايات، وبدلاً من خمسمائة ألف دينار [ص ٥٤٥] كانت تنفق مع مائة ألف من المشقات والاضطرابات والتخريب. والأمر الذي لا شك فيه أن ما يلزم لا يتكلف ما يزيد على خمسة آلاف دينار لإنجاز تلك المصالح.

بذلك زالت نهائيا تلك العادات والرسوم، واستمرت القوانين المستحسنة. وإن فوائد
هذه الإصلاحات تبدو في أن هذه الطريقة سوف تنتهج من بعد، وتستمر سنوات عديدة.
إن شاء الله العزيز.

الحكاية الرابعة والثلاثون

فى ترتيب شئون دواب الخاقان

قبل هذا كانت إبل الخاقان وأغنামه فى البلاد تحت إشراف العمال ولم يكن لها حساب وضبط. وكان ينبغي أن يحافظوا على كل ما سلم لهم بفضل ما توافر من أماكن جيدة وكثرة الحراس والرعاة المتفرغين لهذه المهمة. فكان من المتوقع أن تتكاثر، فيصبح كل منها أكثر من مائة. ولكن عندما تفحصوا الأمر وغرخوا الحقيقة لم يجدوا واحدا من بينها، فانتحل المسؤولون الأعذار مدعين أنها نفقت وهلكت بسبب اليرد. فأمر سلطان الإسلام خلد ملكه بأن ينظروا فيما إذا كان يوجد لديهم عدد من إبل وأغنم الخاصة أم لا؟ فلما تفحصوا الأمر أفادوا بأن لديهم الكثير منها. فرد عليهم السلطان قائلا: إن دواب الخاقان كانت أضعاف دوابهم، فكيف هلكت كلها. هذا على حين أن دوابهم لم تهلك بفعل اليرد وطاعون الماشية؟ وبهذا تحقق أنهم يكذبون، وأنهم سرقوها كلها ثم باعوها.

وبناء على هذا صدر المرسوم بإحصاء الدواب، ولكن لم يتيسر ذلك وترك العمال عملهم. ثم إنه بعد تلك التجربة أمر بأن تسلم الإبل والأغنم لأشخاص ثقات يعتمد عليهم. وحيث إنه توافر أماكن جيدة وعمال هم عبيد لنا ومتفرغون لهذه المهمة، أى عذر يمكن أن ينتحلوه بعد ذلك؟ وعلى هؤلاء المشرفين أن يتعهدوا مع العمال بتنفيذ الأصول لهذه المهمة، وإعطاء نتاج تلك الحيوانات عدة مرات كل سنة وذلك على النحو الذى يحقق المنفعة بعد أن كانت ضائعة. [ص ٥٤٦] والآن يكون للعمال الفائدة والوفر فى الأموال. كما أن الأشخاص الذين ليس لهم مواطن خاصة، ولم يكونوا فى زمرة العبيد يفضلون على الآخرين، وتلى طلباتهم بشروط أخف من غيرهم حتى لا يستطيعوا انتحال الأعذار. وعلى هذا النحو ينقرر إقناعهم. وسنة بعد سنة يزداد نتاج هذه الدواب ويكثر توالدها. هذا وقد عين السلطان الإبل التى يمكن استخدامها على حدة لنقل الأحمال. كما خصص مجموعات أخرى لنقل الخزائن والملابس وما تحتاج إليه المعسكرات، وعهد بالإشراف على ذلك إلى أشخاص ثقات. وكذلك الأمر فيما يتعلق بنقل محتويات أماكن الشراب ولوازم المنازل. وقد بلغ ضبط هذه الأعمال وترتيبها بحمد الله تعالى ومنه درجة لم يسبق لها مثيل

فى عهد أى سلطان من سلاطين المغول والمسلمين من حيث التنظيم والتسيق. ولم يتوافر هذا المقدار من الإبل لنقل البضائع وتفريغها. وكثير من الإبل ترعى فى مراعيها دون الحاجة إليها فى حمل الأحمال. وهى دائما فى ازدياد يوما بعد يوم. كما أن تزويدها بالمعدات والآلات أصبح أمرا فى غاية الحسن والجودة.

إن شاء الله يكون تقديم العون إلى هذه الدولة دائما متواصلا.

الحكاية الخامسة والثلاثون

فى ترتيب شئون البازدارية وحراس الفهود

قبل هذا كان البازدارية وحراس الفهود يصطادون الحيوانات فى الولايات. وكان يعين لهم أمين يذهبون فى كل عام، وفى أى موضع يصيدون ثم يحضرون هنا ما يصيدونه ويسلمونه لأمرأى البازدارية وحراس الفهود. وكان مقررا هؤلاء فى كل ولاية مبالغ من النقود يتسلمونها باسم العلف والمثونة والملابس. وكانوا يزيدون هذه المبالغ فى كل سنة عما قبلها عند تحصيلها من الرعايا الأكثر رواجاً، وذلك بضرب العصا وفرض نفقات إضافية على العلف والمثونة، وبأخذون منهم تعهدات بسداد ما عليهم. هذا على حين أنهم يحضرون عدداً ضئيلاً من الحيوانات إلى محطات البريد. وفى الطريق حيثما كانوا يصلون إلى كل مدينة أو محطة للبريد أو قرية، يستولون على خيول كثيرة، فيركبون بعضها، ويحملون بعضها أمتعة خاصة بأتباعهم ومرافقيهم. [ص ٥٤٧] كما كانوا يمنحون أصدقاءهم ومعارفهم، بل أيضاً كل شخص مقرب إليهم من تلك الحيوانات التى يحضرونها. وبواسطة اثنين أو ثلاثة من الطيور المفترسة المدربة على الصيد أو ثلاثة من الفهود يصيدونها، كانوا يحصلون على نفقات كثيرة يحتاج الناس إليها فى الولاية. ثم يبدونها فى الطريق متدريعين بحجة الاتفاق على غذاء خيول البريد وتلك الحيوانات، ولا نهاية لما كانوا يستولون عليه لأنفسهم زوراً وبهتاناً من القرى وطرق عبور المارة والمسافرين. وكانوا يأخذون الأموال حسب إحصائهم هم للحيوانات. ولم يكن يحدد نوعها وعددها وما تقرر صيده منها. وعلى هذا لم يكونوا يحضرون كثيراً من الحيوانات والفهود. كذلك لم يحصوا عدد ما يملكون من حيوانات. وإذا ما اصطاد شخص ضال حيواناً فى صحراء بإحدى الولايات أو أنه اشتراه، وأراد بهذه الذريعة أن يحصل على مرسوم يثبت أنه يمتلك حيواناً، أو يدعى أنه شخصية متميزة فإنه بهذه الطريقة يجور على الناس، ويزيد فى اضطهادهم، ويحصل على مرتب وعلف ومثونة. وفى كل عام كان يعي عدة أشخاص يحضرون اثنين أو ثلاثة من الحيوانات، وبأخذون مرسومها يثبت أنهم يمتلكون حيوانات، فتعين لهم المرتبات والمؤن والعلف ثم يعودون. فأى إنسان يوجد، ولا يختار هذه المهنة؟

وهكذا كان هذا النظام يزداد سوعا سنة بعد أخرى. وكان كل واحد من هذه الجماعة يحصى مائة من الناس ويغضب ألفا. أما البازدارية وحراس الفهود وأمرأهم الذين كانوا يلازمون المعسكر، ويمثلون طيورا مفترسة مدربة على الصيد، فإن بعضهم كان يزود الحضرة السلطانية بالحيوانات دون حاجة إليها. وكان هؤلاء يكونون عدة من الأمراء ومجموعة من الرجال والأثباع ينضم إليهم بعض الطوائف من سياس الحيل والمكاريين والحمالين والقرويين سكان القرى. وقد شد كل منهم عدة ريشات حول وسطه، وهم يضعون في أحزمتهم دهباً حديداً يضربون به رأس كل من يصادفهم عدة ضربات، ثم يتحدثون إليه ويخطفون عمامته أو قلنسوته. وكان بعضهم يقول: ليس هناك قانون (ياسا) يسمح بأن يخطف كل شخص ريش اليوم على قلنسوته، ويتذرع بهذه الحجة، ويخطف القلنسوة. وكان بعضهم يفعل كل ما يريد دون انتحال أى عذر. [ص ٥٤٨] وإذا مر أحد بجوار خيام أو منازل أصحاب حيوانات الصيد، فإنه يرى بعينه ما يرى. أما إذا مر شخص من أفراد القافلة أو غيرهم بمأوى البزاة والبازدارية فى إحدى القرى، فإنه يتعرض لحالة لا تقل عن السلب والنهب. وفى كل قرية كانوا يتزلون بها، يستولون على الأغنام والطيور لطعامهم وطعام حيواناتهم كل على حدة. ناهيك عما كانوا يأخذونه من الثمن والشعر لدوابهم.

وعند سيرهم إلى المصايف والمشاتي، كانوا لا يرضون بتلك الكمية، بل كانوا يكلفون رؤساء القرى الواقعة على معابر الطريق بتقديم الأغنام والدقيق والشعر، وما يحتاجون إليه فضلا عن الثوبة والعلف. وكانوا ينقلونها على دواب الناس إلى مناطق إقامة هؤلاء السادة. وكانوا يحصلون على مبالغ من الأموال عن طريق اغتصابهم الدواب الكثيرة ثم بيعها. كذلك كانوا يطعمون فى الحميم من الفصائل الجيدة، ولا يعيدونها إلى أصحابها. وكانوا يتهبون أيضا كل من راوه فى الطريق. وحتى يشتهر اسمهم ويرهبهم الناس كانوا يخلقون لى بعض الرؤساء والعظماء فى الولاية لأى سبب تافه. وحشما يوجد شخص فتان يتمتع بحمايتهم، كان له أن ينفذ كل عمل يريده سواء أكان سليما أم معوجا حتى ضرب الناس بالعصا بمؤازرة الحكام وذوى النفوذ من الرعايا. وإذا اتفق أن طالب بعض الشحن والحكام أتياعهم بشيء كانوا يكسرون ليلا جناح أحد طيور الصيد، ويدعون أن الرعاع هم الذين

جرحوا هذا الطائر. وبشهاد الواحد منهم مع الآخر. ولا بد أن الملوك إذا ما سمعوا أن شخصا شاذب وكسر جناح طائر الصيد، فإنهم يقضبون، فيكون ذلك حجة وذريعة للشحن والنواب والحكام لأن يقولوا: لقد أقمنا خيمة قاصدين الصيد فى الموضع القلائى. لكن الرعاع شرعوا فى الصيد فى ذلك المكان أو أنهم مروا من هناك؛ ففزعت الطيور. وهكذا انتهزوا هذه الفرصة فكان إذا مر شخص على تلك الخيمة، وكان بعيدا أو قريبا منها، يأخذون منه على الفور، ودون مناقشة - حصانة وملابسه، أو يستولون على مبلغ من المال على سبيل الهدية؛ فكان المسكين يخلص نفسه من تلك الورطة بعد صراع طويل ومشقة بالغة. وتوجد حكايات كثيرة من هذا القبيل يطول شرحها.

فكر سلطان الإسلام خلد ملكه فى تدارك هذه الأمور، فقرر أولا [ص ٥٤٩] أنه يكفى ألف حيوان من حيوانات الصيد وثلاثائة من الفهود مما يحضرونه من الولايات. ثم أمر البازدارية وحراس الفهود بأن يعينوا الأشخاص الذين يرونهم لائقين للقيام بهذه المهمة فى الولايات وأن يكتبوا ذلك بالتفصيل، ولا يؤذن لأى بازدار آخر بممارسة الصيد فى الولايات. ثم حدد مبلغا من المال لما يأتون به من الحيوانات المدربة وغير المدربة؛ بحيث يكفى حاجتهم، ويدخل ضمن ذلك نفقات طعامهم أثناء إقامتهم ورحيلهم وما يلزم دوابهم.

شرح السلطان هذا كله بالتفصيل بطريقة لم يبق معها أى عذر. وقرر بعد ذلك مرتبا لكل من بعثته ألف من حيوانات الصيد هذه، وثلاثائة من الفهود. ثم أصدر مرسوما مختوما بالختم الذهبى، وأعطاه تعهدا نص فيه على ألا يؤخذ من أحد فى الطريق مثونة أو علف أو أى شىء آخر. ثم أرسل هذه الأحكام إلى كل الممالك حتى ينادوا بضرورة تنفيذها. وعندما حسبوا التكاليف، وجدوا أن هذا القدر - الذى قرر لهذه المجموعة من الحيوانات والفهود والمؤن والعلف، وكذلك طعام الدواب ويدخل فى ذلك أيضا ما يحتاجون إليه - قد بلغ كل هذا نصف ما كان يجرى عليه الحال من قبل، رغم أنهم لم يكونوا يحضرون ثلث هذه الحيوانات. وكان ما ينفق على الطعام يبلغ ما يزيد على ضعفين أو أكثر مما عليه الآن. وإذا فكيف يمكن حصر المخالفات وزيادة الأعباء التى كانت تقع على الرعية نتيجة هذا السلوك؟! ١٩

أما الآن فإنهم يحضرون كل سنة دون مشقة ألفا من حيوانات الصيد، وثلاثمائة من الفهود ويسلمونها. ولما ذاع في البلاد أنه لا يحق هؤلاء أن يطالبوا بشيء من الدواب والعلف والطعام سواء أكان هذا سرا أم علنا. وعلى الرعية ألا يعطوهم شيئا، ولا يستطيع أحد المطالبة بشيء من أمثال هذا، فالذى لا يباح له أخذ الزبادات أتى يمكنه أن يسد الطريق، ويمنع السير فيه لو أراد؟! وإذا طالب بشيء من الناس، فالأمر الذى لا شك فيه أنهم لن يعطوه. ومن الضروري تسليم هذا المقدار المعين كل سنة، وإلا فسوف يضيقونه إلى ما تبقى عليهم ويسترد منهم. ونتيجة لهذا تعطل كثير من البازدارية والصيداين، ولم يعودوا يمارسون هذه المهنة. ومن تاريخ صدور هذا القرار لم ينتظم أحد مطلقا فى سلك البازدارية والصيداين، ولم يستطع هؤلاء أن يقدموا ملتصقا فى هذا الشأن؛ لأن هذا القرار قد شملهم جميعا. أما الذين كانوا فى حمايتهم، فقد دخلوا فى زمرة الأتباع. والأمر الذى لا شك فيه (ص. ٥٥٠) أنه إذا أراد شخص أن يبقى موقفه ثابتا، فإن عليه أن يقى بما عليه من التزامات مالية. وقطعا ليس هناك أى استبداد أو مشقة. وقد نسبت تلك الطائفة هذه الأساليب المعوجة، وصاروا من جملة العقلاء المنصفين من البشر.

أما عن تدارك حال البازدارية الملتزمين فقد أمر بأن ينص بالتفصيل على مرتباتهم وطعام الحيوانات التى فى عهدة كل منهم، وأن تدفع لرئيسهم مرتباتهم نقدا من الخزانة، وذلك سنة بسنة، وبالتمام والكمال. ولهذا السبب لم يبق لهم أى عذر أو حجة. وعندما يقسمهم ويسيرهم للصيد فى إحدى الجهات، فإنه يعين معهم عددا من البازدارية والطيور المقترسة المدربة على الصيد، ويأمر بإعطائهم غيولا خاصة كى يستخدموها فى حمل لوازمهم على أن يدربوها ويجربوها حتى لا تبقى متراخية منهكة وغير مدربة. ثم عليهم أن يحسبوا ما يستغرقونه من زمن فى الذهاب والإياب. كذلك قرر أن تكتب فى الخريف والشتاء الحوالات المختومة بالختم الذهبى والخاصة بالعلف والمؤمن مما بهم تلك المواضع. ولما كانت الحيوانات المختومة بالإضافة إلى الطعام العادى تحتاج فى تدريبها على الصيد، وإبان مرضها - إلى الدجاج والحمام، فإنه قرر أيضا أن تهيأ لها بقدر الحاجة هذه الطيور بموجب حوالات، وأن توضع هذه الطيور فى الأقفاص. وكذلك تكتب الحوالات حيث تحمل هذه الحيوانات، موضحا بها العدد المقرر منها.

وحيث إن الأمور تجري على هذا النحو، لم يسق أى سبب للانحراف عن الطريق المستقيم. ولما كانت هذه الأحكام قد انتشرت وذاعت تسيى بأن كل المبالغ من الأموال التى يحتاجون إليها قد عينت وقررت، وأنهم يعطون نقدا من الخزانة، أو أنهم يكتبون حوالات محتومة بالختم الذهبى. لما كان ذلك كذلك فإن هؤلاء الصيادين لا يستطيعون أيضا مطالبة أهالى المواضع المختلفة بشئ يزيد عن المقرر وإذا طالبوا بذلك فإن الناس لوقوفهم على الحقيقة، لا يعطونهم شيئا. وفى أول الأمر حدث مرة أو مرتين أن بعض أمراء الصيد طالبوا بالزيادة أثناء سيرهم فى إحدى الولايات على الرغم من أنه قد عينت لهم المؤن والعلف والشعير لإطعام الخيل. وكانت الحوالات قد كتبت لهم وختمت بالختم الذهبى، وأخذ عليهم تعهد ألا يتقاضوا شيئا. ومع هذا وصل خير يفيد بأنهم تقاضوا ما يزيد عما هو مقرر لهم، فسير إليهم السلطان رسولا موثوقا به، ذهب إلى تلك الولاية التى وقعت بها المخالفة، وحقق معهم، وأثبت إدانتهم، وضرب كلا منهم بالعصا سبعا وسبعين مرة، فاعتبر الجميع، [ص ٥٥١] وتركوا ذلك السلوك. والآن نادرا ما يحدث أن يسلك بازدار أو حارس للفهود سلوكا معوجا. ومع أنه لا يمكن أن يتحول الذئب إلى حمل، إلا أن ظلمهم الفادح قل كثيرا عن ذى قبل.

ولا شك أنه بفضل هذا العدل والوثوق التام سوف ينسى سكان العالم وفى أسرع وقت الظلم والتعدى إن شاء الله وحده.

الحكاية السادسة والثلاثون

فى ترتيب شئون كل الممالك

(الإصلاح الزراعى)

قبل هذا كان ولاية الأقاليم يصرحون دائما: إن أكثر الولايات قد صار خربا، والرعايا أصبحوا فقراء مستضعفين؛ بحيث لا يستطيعون أن يعتمدوا اعتمادا كليا فى زراعتهم على ثيرانهم وبذورهم. وقد بقيت كميات كبيرة من المياه، ومساحات شاسعة من الأراضى مهملة، ولا يهتم أحد بمطالب الزراع، ولا بتدارك أمورهم. كما أن المقادير المحدودة من البذور التى حصلوا عليها من الديوان فى العقود السابقة قد استهلكوها كلها أبان الغلاء فكان هذا سببا فى الإضرار بالديوان والرعية.

فتدارك سلطان الإسلام خلده ملكه الأمر على هذا الوجه الذى يتلخص فى أن يؤخذ من كل حاكم وصاحب إقطاع مقدار معين من المحصول شتا للمعدات والبذور، وما تحتاج إليه الزراعة، وذلك من مجموع ما يجب عليه تقديمه للديوان، ويأخذ أيضا بذلك حتى يباشر المسئولون العمل فى الولايات بموجب تلك العوامل، وحتى تزيد الرقعة الزراعية. وقرر أيضا أن يكون للمزارع بلا منازع النصف أو الثلث من الربيع والإنتاج إذ إن الحاكم أو الوالى كليهما يمكنه أن يزرع الأماكن الأكثر صلاحية للزراعة. كما تناح له فرصة أكبر للحصول على لوازم الزراعة والعمارة. ثم صرح السلطان قائلا: لكتنا تلبية لرغبة الناس، ولكى يكون للحاكم موارد إضافية قررنا أن يسلم له المزارع ثلث أو ربع المحصول. وكل ما يزيد على ذلك، يصبح ملكا له. وقد دفعهم الحرص والطمع من أجل الحصول على كسب وفير إلى بذل الكثير من الجهد والاجتهاد فى باب التعمير والتشييد. وعندما تنسهر الزراعة ستين أو ثلاث سنوات، وتستقيم أمورهم عندئذ يعود ربع المحصول إلى الخزانة، [ص ٥٥٢] وذلك على النحو المثبت فى تعهداتهم. كذلك راجت العملة النقدية.

ومن جملة الذين استغلوا النفوذ، كان هناك بعض الحكام ممن يسرون على نهج الأقوام السابقين، ويتبعون بعض الأساليب الملتوية التى ورد ذكرها فى عدة مواضع. وقد اعتادوا

ذلك، ولم يكونوا يفكرون مطلقاً في وجوب تسديد أموال الديوان. وكانوا يعتبرونها ملكاً خاصاً لهم لا يمتاز عنهم فيها أحد مطلقاً. وفي أول سنة بددوا تلك الأموال. وفي النهاية عندما طولبوا بالسداد لم يبق هناك شيء قط لا من الربيع ولا من الأصل. وقد انصرف تفكيرهم في أنه إذا كان لزاماً عليهم أن يسددوا شيئاً ولو اسمياً مما عليهم، فإنهم يعتبرونه من نفقات الثيران والبذور^(١) [ص ٥٥٥].

والخلاصة أنهم كانوا ينتحلون الأعذار عن التقصص والحسبان بسبب حدوث الأزمات السماوية والأرضية. ولكن أكثر هذه الأعذار لم تكن تقبل منهم، وصور كل ما كان يملك هؤلاء من أملاك ومتاع وبقيت طائفة منهم تحت الحراسة. وكان للبعض الآخر أدوات وبذور. وقد حققوا لأنفسهم ربعا وفائدة. وهذه الفئات لا زالت باقية وقائمة. وقد استراح بذلك كثير من الناس من الرعايا وغيرهم، وشغلوا بالعمارة والزراعة. وكانت تلك المواضيع هي التي جرت العادة بإمدادها بالبذور. ولكن قوى النفوذ كانوا قد أتلّفوها بالحيل أو بسوء التدبير ثم باعوها.

وقبل هذا لم يحاول أحد تدرك هذا الحلل. لذلك أمر السلطان بأن تسلم البذور من جديد للزراع جميعاً. ولهذا السبب زاد الدخل في بغداد وشرائز عن خمسمائة ألف دينار على الأموال المقننة. ولقد أثمرت تلك البذور مرة أخرى. كما تحقق للرعايا أضعاف مضاعفة من تلك الفوائد، وقوى شأنهم، وظهر العمران في كل مكان وعم الرخص. ولما كان السلطان يمنح الجنود الإقطاعيات عمر كثير من المواضيع بهذه الوسائل. وقد وقر في ذهنهم أنه إذا لم تكن هذه الإقطاعيات موجودة، فإنه كان ينبغي منح ولايات عديدة وأملاك كثيرة وقد ظل باقياً كثير منها حتى الآن تحت تصرف الديوان، ويصل إليهم ربعها. (يقول المؤرخ رشيد الدين): إني لم أر ولم أسمع مطلقاً أن أحداً في أي عهد، قام بمثل هذا التدبير الحسن، ولم تكن لديه الرغبة والتفكير في إقامة مثل هذه العمارات، وفعل هذه الخيرات.

(١) حاشية مطولة تستغرق صفحات ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤.

(٢) الانتقال هنا من صفحة ٥٥٢ إلى صفحة ٥٥٥ بسبب الحاشية الطويلة التي احتلت بقية صفحة ٥٥٢ وصفتها ٥٥٣، ٥٥٤. وهذه الحاشية ترجمت ووضعت عقب ترجمة نص تاريخ غازان بأكمله.

وخصوص الدواب والطيور التي أمر بتسليمها لكل شخص قرر أن تجرى أيضاً على هذه القاعدة، أى أنها تعادل ثلث الإنتاج، لتحقيق لهم فائدة من ذلك وليوفروا لهم ثروة، وتكون الدواب والطيور ولكافة الناس فى حماية تلك الدواب والطيور الخاصة بالسلطان. وبذلك لا يستطيعون أن يمدوا أيديهم إليها مطلقاً، ولا يمكن لأحد أن يمنعهم من ممارسة حقوقهم فى المواطن والبقاع. ومع هذا كان للديوان أيضاً فائدة من هذا الوضع. وعندما تصل الرايات السلطانية إلى إحدى الولايات، ويلزم توفير بعض الدواب للباذارية وغيرهم. قرر أيضاً أنه لا ينبغي أن تؤخذ الحمير والخيول من الرعايا. وكذلك الحال إذا ما دعا الأمر إلى توفير الطيور والحمام لإطعام الحيوانات أو لاستعمالها فى المطبخ فإنها تعد لازمة لخاصة الديوان. وكان حال هذه القضية مثل حال قضية الوسطاء، فرفضت بذلك عادة الاستيلاء [ص ٥٥٦] على الحمير. وقبل هذا كان كل من أراد شيئاً، يستولى عليه دون حياء. وإذا كانت هناك ضرورة فإنهم يتداركون الأمر من الديوان عن طريق هؤلاء الوسطاء، ولا يمكن شرح ذلك، ويكفى أنهم كل سنة، كانوا يستولون على عدد من الحمير يقتضيونها من الرعايا والتجار وغيرهم. وكان الفلاحون دائماً فى ذهول وحيرة خوفاً على دوابهم. وكان بعض الصيادين يأخذون الدواب نهائياً ولا يردونها، ويتخلف بعضها فى الطريق وبذلك، فينتج عن ذلك انصراف الفلاحين عن الزراعة والفلاحة.

وحيث إن سلطان الإسلام منع البازدارية من الاستيلاء على الحمام والدجاج من الناس وأباح لهم أخذها من طيور الخاصة، أصدر قراراً بوجوب تطبيق الأحكام والقوانين على الأمور الصغيرة. وبالضرورة تجرى هذه الأحكام أيضاً على الأعمال الكبيرة. ثم يقول: إننا إذا لم نستطع منع الصيادين من الاستيلاء على الحمام، فإنه يكون من ائمال أن نقدر على منعهم من الاستيلاء على الأغنام. ويكون أكثر تعذراً إذا ما حاولنا منعهم من الاستيلاء على الأبقار.

وعلى هذا النحو أصدر السلطان مرسوماً يقضى بالآى يلقى الصيادون شباكهم بتأثا حيثما يوجد الحمام. وفى الحقيقة للسلطان فى حق الناس الكثير من أمثال تلك التدابير الحسنة والشفقة الوفيرة. يبدو ذلك واضحاً فى اهتمامه بمنع شر الظالمين والقضاء على فساد المفسدين، وفى مراعاته مثل هذه النكات الدقيقة الصغيرة.

بكل هذا يتحقق ويتضح كمال حسن الأخلاق والسيرة الحسنة والعدل والإنصاف لهذا
السلطان الراعى العدل أبقاء الله أبد الدهر ولا شك أن أهل العالم فيما بعد سوف
يتعجبون من هذه الحالات.

فليستجب الله الدعاء الذى يطلقه كافة الخلق ليلا ونهارا بعز وإقبال دولة هذا السلطان.

الحكاية السابعة والثلاثون

فى ترتيب الشئون المتعلقة بتعمير الأراضى البور

لا يتغنى على من تتبع التواريخ الصحيحة، وسلك الطريق المعقول، أنه لم تكن البلاد مطلقاً أكثر غراباً مما كانت عليه خلال هذه السنوات خصوصاً فى المواضع التى وصلت إليها جيوش المغول؛ [ص ٥٥٧] إذ إنه منذ ابتداء ظهور آدم حتى قيام چنګيز خان وذريته لم يتيسر لأى ملك مثل هذه المملكة الفسيحة التى سخروها، وجعلوها تحت تصرفهم، ولم يقتل أحد فى العالم من الخلق مثلما قتل هؤلاء.

وإن ما قيل عن الإسكندر إنه قد استولى على بلاد كثيرة، فهو خبر غير صحيح؛ فقد كان يفتح البلاد، ثم يرذل عنها ولا يقيم فيها. وعندما يبلغ الناس ذبوع صيته، كانوا يسارعون إلى الخضوع له والدخول فى طاعته، وذلك لهيبته وصلابته. وكانت مدة عمره ستاً وثلاثين سنة. وفى السنة الرابعة والعشرين من عمره استولى على ملك إيران، وقتل دارا^(١). بعد ذلك أخضع العالم مدة اثنتى عشرة سنة. وعند عودته توفى بالقرب من بابل. وقد استولى على بلاد كثيرة خلال فترة الاثنتى عشرة سنة، لكن لأنه كان دموياً على السير دائماً، ولا يتوقف، كان الناس يثرون عليه مرة أخرى بعد رحيله. وحيث إنه لم يكن له ابن وذرية لم يبق الملك فى أسرته، وآل الأمر من بعده إلى ملوك الطوائف كما سوف يأتى شرح تلك الحكايات فى تاريخه.

(١) هذه الرواية تتفق مع ما ذكره للمسعودى إذ يقول: لما قتل الإسكندر بن قليس "دارا" بن دارا، تغلب كل رئيس ناحية على ناحيته، وكاتبهم الإسكندر فمنهم فارس ونيبط وعرب. وكان مراد الإسكندر من ذلك نشيت كلمتهم وغريمهم، وغلبة كل رئيس منهم على الصقع الذى هو به فيعتمد نظام الملك والانقياد إلى ملك واحد يجمع كلمتهم ليرجع إليه الأمر (مروج الذهب، تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد، ج ١، ص ٢٣٤، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م).

ولما نظرى فيذكر أن الإسكندر حارب دارا وهزمه. فلما رأى ذلك رجلان من حرسه قتلاً لنبالاً المخطوة عند الإسكندر إلا أنه أمر بضرب رقابهما وصلبهما، وأن ينادى عليهما: هذا جزاء من اجترأ على ملكه، وغش أهل بلده. (تاريخ الرسل والملوك، الجزء الأول، تحقيق "محمد أبو الفضل إبراهيم"، الطبعة الرابعة، دار المعارف ص ٥٧٤ - ٥٧٧، القاهرة ١٩٧٩ م).

أما وضع چنگيز خان فقد كان على تقيضه؛ إذ إنه فتح البلاد، وسخر العباد بشأن وحذر، فبقى جميعهم مطيعين ومنقادين له. ثم حافظ على هذا الملك أبناؤه وذريته وأخضعوه لمشيئتهم. وكما هو معروف استولوا على ثلاثين مملكة أخرى بالإضافة إلى ما كان قد استولى عليه چنگيز خان. وعندما استولوا على الولايات والمدن العظيمة ذات الطول والعرض، قتلوا كثيرا من الخلق، بحيث إنه لم يبق منهم أحد إلا نادرا. وهذه المدن من قبيل بلخ وشورغان وطالقان ومرو وسرخس وهراة وتركستان والرى وهمذان وقم وأصفهان ومراغه وأردبيل وبردع وگتجه وبغداد والموصل وإربيل، وأكثر الولايات التي ترتبط بهذه المواضع. أما بعض الولايات التي كانت تعتبر ثغورا، وصارت طريقا لعبور الجنود الكثيرين فقد قضى على أهلها قضاء مبرما، أو أنهم هربوا. وقد بقيت هذه الأماكن خرابا مثل ولايات ابغورستان والولايات الأخرى التي صارت حدا فاصلا بين الخاقان وقابدو. وكذلك بعض الولايات الواقعة بين دريند وشروان وبعض أقاليم أبلستان وديار بكر [ص ٥٥٨] مثل حران وروحه وسروج والركة، ومدن كثيرة على جاني القرات كلها صارت خربة وغير صالحة. وكذلك ما دمر من بلاد تقع بين الولايات الأخرى، ونتيجة للقتل والسفك مثل خرائب بغداد وآدرينجان وغيرهما في تركستان وبلاد إيران والروم من المدن والقرى المخربة مما هو ماثل أمام الناس. وكل هذا يزيد عما يمكن حصره.

وصفة القول أنهم إذا أرادوا القياس عن طريق النسبة فإنه لن يكون العمران في الممالك واحدا من عشرة، والباقي كله خراب. ولم يكن أحد في هذه العهود يفكر في بند التعمير وهو أمر نادر إن شرع البعض في تعمير أحد المواضع إرضاء لأهوائهم مثل هولاكو خان وآباقاخان وأرغون خان وگيخاتو خان، فإنهم عندما أرادوا تشييد عدة قصور في الاتاغ وأرمية وسقورلوق وسجاس وخوجان وزنجان وسراي المنصورية في أران، وتعمير تلك الأماكن، أو أنهم ينشئون سوقا أو مدينة ويعمرونها، أو يجرون فيها نهرا من الماء، فإنه نتيجة لهذا صارت ولايات كثيرة أكثر خرابا مما كانت عليه رغم ما أنفق عليها من أموال بغير حساب. كما نزع عن الولايات الأخرى رعايا كثيرين دفعة واحدة. وقد خرجوا منها مجبرين، ولم يعمروا واحد من تلك الأماكن. ولم يقف الأمر عند هذا الحد كما نشاهد. بل إنه إذا ضمت تلك العمارة فإنه يظهر إلى جانبها ارتفاع نسبة الدمار الذي يلحق بالولايات.

ثم أراد الحق تعالى أن يكون إحياء الملك وتقوية دين الإسلام بواسطة الوجود المبارك لسلطان الإسلام غازان خان خلد الله ملكه وفي الأزل جعل الحق تعالى على يديه تحقيق الخير العميم وإنجاز العمل العظيم. وقد أعلى بحمد الله ومنه شئون الإسلام على النحو الذي أوردنا شرحه. وأما ما يتعلق بشئون العمارات والخيرات بصفة خاصة، فقد سجلناها على حدة على النحو الذي مر ذكره. وكذلك أخبار ضبط أمور المملكة ورعاية الرعية ونشر العدل والإنصاف حسب ما بيناه. ولا بد أن السبب الأكبر لعمران الولايات يمكن أن يكون نتيجة لتلك الأمور، كما أننا نعاين ونشاهد في المدن التي صارت غربة أنه لم يكن في كل عشرة منازل خمسة منها مسكونة. [ص ٥٥٩] وهذه أيضا غربت رغم أنها كانت عامرة.

والآن يبين عدل السلطان الشامل بشيد في كل سنة، وفي كل مدينة ما يزيد على الألف منزل. فالدار التي كانت تقوم بمائة دينار، تساوى الآن ألف دينار وزيادة. ولقد شرحنا هذه الأمور في الفصول السابقة.

وأما حال الأماكن الخربة فلم يكن أحد يميل إلى تعميرها، ولا تنافر لشخص قط القدرة على التعمير من ماله الخاص بنسبة واحد من ألف من تلك الخرائب. فتدارك السلطان تلك الأوضاع برأيه الصائب وحسن تدبيره، فكان أن أحضر الأمراء والوزراء وأركان الدولة، وقال لهم: إن هذه الولايات الخربة والقرى الفاحلة، والتي كانت ملكا لأبائنا هي الآن ملك لنا، ولها سمة أملاك الدولة والخاصة، وبعضها ملك للناس. ومنذ عهد هولاءكو خان إلى الآن لم ينل أحد منها من الثمار أو دائقا من المال. ولو أراد أحد أن يعمرها بدون إذن، فإنها تنتزع منه بعد تحمل المشتقات الكثيرة والنفقات الباهظة. وعلى هذا لا يقدم الناس على تعمير تلك الأماكن. وإذن فلم لا نعد خطة لتعمير هذه الخرائب؟ بحيث تصل حصة معينة إلى الديوان مما يخص أملاك الدولة والخاصة، ونخصص حصة للمالك مما يعتبر ملكية خاصة. وكذلك نعطي حصة للديوان وللأشخاص الذين يقومون بالتعمير بحيث تكون لهم عوناً بصفة دائمة ومدخراً صالحاً لأولادهم وأحفادهم، ويكون لهم في ذلك كسب موفور، ويقبلون على عملهم بصورة أتم وأفضل.

وهم إذا ما وجدوا فى الزراعة فوائد كثيرة، فإنهم يتجنبون مشاعب التجارة وتحمل مشقات السفر والمعاملات الأخرى، ويميلون دفعة واحدة إلى التعمير والزراعة، ذلك أن جمهور الناس يحرون وراء ما فيه نفعهم وكسبهم. فلو نفذت الخطة على هذا النحو فسوف تعمر أكثر الخرائب فى زمن قصير. وإنما يتيسر تعمير مثل هذه الخرائب بقوة جميع أهل العالم وتضافرهم. ومحال أن تعمر هذا الطريق. وعندما تعمر تلك الأراضى البور ترخص الغلال، ويتيسر الحصول على المؤن الكثيرة عند مسير الجيوش للقيام بمهام ضرورية [ص ٥٦٠] فى المناطق الشائخة للثغور، وتتدفق الأموال أيضاً على الخزنة، ويعود من جديد التقدم والازدهار على أصحاب الأراضى والملاك، وينعم الرعايا بالاستقرار والرخاء ويحصل لنا الأجر والثواب كاملين، ويبقى ذكرنا الحسَن مؤبداً، ومخلداً. فتعجب جميع الحاضرين وظلوا متحيرين من هذه الأفكار الصائبة والكلام اللطيف. وبعد أن أجمعوا على التناء والمدح، قالوا: إنه لم يفكر شخص آخر فى العالم فى طريقة خير من هذه الطريقة وفى تدبير أنهد من هذا التدبير. فأتت تُعمر ما خربه أبائوك. وإن الفرق بين هذه المرتبة وتلك للعلوم ومحقق عقلاً وعرفاً وشرعاً. فأتت تحيى ما أماته الآخرون بصورة مطلقة. وإن هذا القدر من الكلام فيه الكفاية. فماذا نقول أزيد من هذا؟

بعد ذلك أمر السلطان بكتابة الشروط والمراسيم. وبناء على هذا قرر أن ما كان قديماً البوار من أملاك الدولة، وما لم يكن مزروعاً من القرى والمزارع وقت جلوسه المبارك، تعتبر جهلتها من الأراضى البور، وأمر بأن تكتب الشروط وتختتم بختم الدولة الذهبى، وتنص على أن كل شخص يرغب فى امتلاك تلك الأراضى وتعميرها عليه أن يراعى الأقسام الثلاثة الآتية:

القسم الأول:

ما كان موجوداً به الماء والنهر، ولا يستلزم زيادة فى النفقات والجهد، أو أنه يزرع بواسطة مياه الأمطار، وليس فى حاجة إلى القنوات والأنهار والسدود. هذه الأراضى عندما يشرعون فى تعميرها لا يعطون الديوان شيئاً قط فى السنة الأولى من زراعتها. أما فى السنة الثانية فيدفعون داتين مما هو مقرر من الحقوق الديوانية على أن تحسب لهم أربعة دوائق جزاء سعيهم وكدهم. وأما فى السنة الثالثة فيدفعون أربعة دوائق ونصف من حقوق

الديوان كالمعتاد فى كل ولاية، وما يزيد ذلك فهو حق المزارع. وكذلك ما فيه من ربح يكون كله ملكا له. [ص ٥٦١].

القسم الثانى:

ما يكون إعماراه من النوع المتوسط، وإصلاح الأنهار، واستخراج الماء منها قليل التكاليف، وشروطه على نحو ما ذكر، إلا أن المزارع يسلم الديوان أربعة دوانق من الرسوم المقررة.

القسم الثالث:

ما يكون إعماراه صعبا وعسيرا. وينبغى أن يقام سد على نهره وما تكون فئاته خربة. وينبغى إعادة تعميرها. وذلك القسم أيضا تطبق عليه الشروط المذكورة. ولكن على الشخص الذى يصلح أرضا من ذلك النوع أن يسدد نصفًا من حقوق الديوان، ويكون له النصف الباقي تقديرا لجهوده. وقد اشترط السلطان أن تؤدى حصة الرسوم هذه باسم الخراج.

وكل شخص يقوم بإصلاح تلك الأراضى، تصير ملكا له، وتبقى له على الدوام، ثم تتول إلى أولاده من بعده. وإذا أراد أن يبيعها لشخص آخر، فإنه يجوز ذلك. وفى هذه الحالة يأخذ الديوان الخراج المقرر من المشتري. واشترط أن كل أرض بور لا تستمد ماءها من نهر خاص بأرض عامرة، ما دام المالك لتلك الأرض لا يريد أن يعطى غيره الماء، حتى لا يقع نزاع بهذا السبب.

بعد ذلك صرح السلطان قائلا: لما كنا قد أبطلنا الحيازة والمقاسمة، فإنه ينبغى أن تقدر وتعين حصة الديوان أيضا على الأراضى البور فى كل ولاية حسبما يحدد الخبيراء، وتسدد باسم الخراج. ولا يكون للمغتصبين والظالمين سلطة الاستيلاء والمشاركة والإتقال على الرعايا. وبهذا يقضى نهائيا على تلك المشقات. وحيث إن رقعة ممالك السلطان خلد ملكه عظيمة وممتدة وفسيحة، ففكر فى أنه إذا كان على كل راغب يريد أن يأتى إلى المخيم كى يأخذ الوثيقة المبين بها الشروط، فإن كثيرين من هؤلاء الناس لا يقدمون على ذلك بسبب بعد المسافة وتحمل النفقات، وبعض منهم بسبب العجز وعدم القدرة على السفر، وبعضهم لا يعرف ما فى ذلك من فائدة فيحجم عن الذهاب. لكل هذا أمر

السلطان بتعيين واحد أو اثنين من كبار الشخصيات الثقات، وسلموهما وثائق الشروط وعيّن لهما السلطان نموذجاً وقاعدة يسيران عليهما، وأذن لهما في أن يعطيا كل راغب نسخة من تلك الشروط على أن تكتب على ظهرها صورة مرسوم الوثيقة. وبذلك يكون ذلك الحكم مؤيداً ومخلداً ولا يكون لأى مخلوق اعتراض على ذلك حتى ينفذ ذلك العمل بسهولة في كل ولاية.

وحيث إنهم باشرُوا الأعمال بموجب هذه التعليمات، توطدت هذه القاعدة، وسار هذا الأمر نحو الغاية المرسومة، [ص ٥٦٢] وكانت له صفة الدوام والاستمرار. وقد سموا ذلك الديوان (ديوان التخليص). وحتى هذا الوقت أعطى نواب ذلك الديوان الناس كثيراً من سجلات الشروط، فتوافر العمران، وصار في ازدياد يوماً بعد يوم.

أما ما يخص أملاك الناس، فكل ما كان قريباً من العمران، قرر السلطان أن كل شخص يريد تعميره، عليه أن يتشاور مع صاحبه. وأما ما كان قديم البوار من الأراضي، فإنه يقدم على تعميره دون استشارة. وإذا ما ظهر مالك الأرض، وتحددت ملكيته لها شاماً عن طريق الشرع والشهرة، فإنه يت في أمرها كما لو كانت عامرة. لكن مقدار ما يسدده من الرسوم، هو ما نص عليه في القسم المختص بالديوان، وعليه أن يدفع للمالك نصف المبلغ المقرر، والنصف الآخر للديوان. وتلك الضوابط إنما تطبق على الولاية التي كانت قبل هذا وحتى الآن حكراً، وكان يدفع للديوان عشر شئها. أما الولاية التي كانت في الأصل خالية من القيود، ولم يكن عليها رسوم وغير خاضعة لنظام الحكر، فإنها تسلم للمالك بأكملها. وليس للمالك أن يعترض لأنها تكون في حكم من عمر الأراضي الديوانية، فهي باقية ومخلدة.

أما المواضع الخربة التي تقع في مناطق المغول، وقاموا بتعميرها بأنفسهم، فإنه يطبق عليها ما شرحناه في القسمين: الخاص والديوان.

لكن السلطان أضاف قائلاً: حيث إن المغول هم الغالبون لن يؤدوا قطعاً حقوق الفلاحين في الولايات، ولن يقوموا بتعمير هذه المواضع سواء جاءت في عداد الأماكن الأخرى أم لم تأت، ولن يسمحوا لأى شخص من الفلاحين بطلبهم بأى حق من الحقوق بل إنهم سوف يعهدون بتعميرها إلى أسراهم وعبيدهم. وكذلك التازيك فإنهم لا يعمرونها

بواسطة الفلاحين الذين ورد ذكرهم فى موضع آخر. وإذا لم يأت الفلاحون المدونة
أسماءهم فى القائمة إلى موضع من المواضع، فإنه يجوز جمعهم. وطبقا لهذا القرار أصدر
سجلات الشروط الموثقة. ونحن لم نذكر أكثرها مراعاة للاختصار، وهى مذكورة بأكملها
فى قوائم الشروط [ص ٥٦٣] والجميع مشغولون فى كل البلاد فى وقتنا هذا بتعمير
الأراضى، والعمران فى ازدياد يوما بعد يوم. وبهذه الإصلاحات يشتد أزر كثير من الناس
ويزدهر بذلك شأن (دهوان التخليص) ازدهارا كبيرا وتزداد محاصيل الأراضى كل عام.
وعلى هذا سوف تقل الخرائب فى أسرع وقت.

كذلك أمر السلطان بأن تسجل فى السجلات كل الأراضى البور فى كل ولاية، ثم
يؤتى بها إلى الديوان؛ حتى إذا سلمت للناس، يمكن عرضها كل عامين للتأكد من أنها قد
عمرت بأكملها، أو أن بعضها قد بقى دون تعمير. وإذا ما موه أحد النواب، وحاول إفساد
الأموار، وأخفى بعض الأراضى البور، واغتصبها لنفسه أو أنه شارك أحدا، ولم ينص فى
السجلات على نصيب الديوان، فإنه يكتشف أمره نتيجة المراجعة وإعادة العرض.
ليوصل الحق تعالى ثواب هذه الخيرات إلى عهد السلطان المبارك بمنه وكرمه.

الحكاية الثامنة والثلاثون

صدور الفرمان بإقامة دور خاصة للرسل فى البلاد ومنع الشحن والحكام من النزول فى منازل الناس

قبل هذا كان ينزل دائما فى كل مدينة فى منازل الرعايا والملاك ما يزيد على مائة أو مائتين من الرسل. وكذلك الحال عندما كان يصل الواقفون من غير الرسل إلى إحدى المدن، فإن الشحن والحكام ينزلونهم فى بيوت الناس بدافع الصداقة والمعرفة. وإذا ما وصل الرسل، فإن مهمة الأدلاء أن يصحبوهم إلى بيوت الناس قائلين لأصحابها: إن هؤلاء الرسل ينزلون ضيوفا عندكم. وفى مقابل ذلك كانوا يأخذون شيئا. وفى ذلك اليوم يستعرضون ما لا يقل عن مائتى منزل. وعاقبة الأمر ينزلونهم فى منازل الأشخاص المتضايقين منهم كى يتشاهم الآخرون. وكانوا يأخذون للرسل من بيوت الناس السجاجيد وملابس النوم وأدوات المطبخ. وأكثر هذه الأدوات كان يستولى عليها إما الرسل وأتباعهم وإما الأدلاء بحجة أن الرسل قد استولوا عليها ولم يردوها. وإذا أعيد بعضها [ص ٥٦٤] فأية قيمة لها بعد أن ظل الرسل يستعملونها مدة طويلة. وكان كل حاكم يذهب إلى إحدى الولايات يسلب ما لا يقل عن مائة منزل. وكل هؤلاء الرسل كانوا ينزلون فى منازل الملاك والرعايا. وقد علم مؤلف هذا الكتاب أنه عندما عزل تغاى بن يسودر من شحنة يزد، فإن أعوانه وقت مغادرتهم المدينة احتاطوا للأمر، واحتل أتباعهم سبعمائة وبضعا من المنازل. وبالضرورة كانت دائما أحسن المنازل تلك التى اتخذوها مقرا لنزول الرسل والشحن. وقد ترتب على هذا أن أحدا لم يكن يقدم على بناء منزل من المنازل. وهؤلاء الذين شيدوا بيوتا حولوها إلى مقابر، وأطلقوا عليها اسم أربطة أو مدارس. ولكن لم يجد هذا فتىلا. كذلك استغنى كثير من الناس عن استعمال أبواب منازلهم، واتخذوا لهم ممرات شائكة تحت الأرض حتى تكون سرا مجهولا. وكانوا أيضا يشقون الجدران، وينزلون منها. كما أن الرسل كانوا يسلمون دوابهم للأدلاء، وهؤلاء يرسلون أشخاصا لهدم أسوار حدائق الناس، ثم يسوقون إليها الدواب. وفى اليوم الذى يغادر فيه الرسول المنزل، كانوا يملئون آخر محله، وما ذلك إلا لأن الرسل كانوا دائما يصلون تباعا، ولا ينقطعون. وحيثما ينزل رسول فى إحدى

المحلات، كان السكان هناك يقعون فى عذاب ومشقة إذ إن غلمان هؤلاء الرسل وخدمهم يدخلون منازل الجيران عن طريق أسطحها، ويستولون على الأشياء التى يرونها، ويرشقون حمامهم وطيورهم بسهامهم. وكثيرا ما كانت هذه السهام تصيب أطفالهم. وكانوا يستولون على كل ما يجدونه من المأكولات والمشروبات وأصناف علف الدواب مما يمتلكه أى مخلوق. وبسبب ذلك يتعرض الناس للمتاعب والمشقات. ومهما كانوا يصرخون ويتوحدون، لم يصل صباحهم إلى أى من الأمراء والوزراء والحكام.

وذات يوم قدم إلى الديوان رجل هرم من الأعيان من ذوى الشرف والهمة، وشرع يقول: أيها الأمراء والوزراء والحكام: "هل تسيغون أن أكون رجلا هرماء، ولى زوجة شابة وأولادى مسافرون. وقد ترك كل منهم زوجة شابة حسناء. كما أن لى بنات. وهما هم الرسل قد نزلوا فى منزلى، وجميعهم شباب قوى نشيط [ص ٥٦٥] يتصفون بجمال الوجه. وقد مضى عليهم زمن يقيمون عندى فيشاهدنهم أولئك النسوة، ولن يستطعن أن يقنعن بى وبأولادى المسافرين. وحيث إننا فى دار واحدة مع هؤلاء الرسل، لا أستطيع مراقبتهم ليلا ونهارا. وكما أرى فإن أغلب الناس معرضون لهذا الوضع. وحيث إن الأمور تجري على هذا النمط، فإنه لعدة سنوات أخرى لن يوجد طفل شرعى فى هذه المدينة، وسيكونون جميعا أبناء أتراك مخلطين.

ولقد ذكرت عدة حكايات فى هذا الصدد على سبيل التمثيل، ففى عهد أحد سلاطين السلاجقة، كان السلطان مقيما على تخوم نيسابور وكان الأمراء والأثراك ينزلون فى دور الناس، ليس على هذه الشاكلة التى تحدث فى هذه الأيام. وذات يوم نزل تركى فى أحد المنازل، وكانت زوجة رب الأسرة عروسا جميلة وعفيفة، وفى أول عهدها بالزواج، فطمع فيها التركى، وأراد أن يتلذذ بحجة لإخراج الزوج من الدار حتى يخلو له الجوى، فعرف الرجل قصد التركى، ولم يغادر منزله. فأخذ التركى يضرب الرجل قائلا: "سر بجوادى وارو ظمأه. ولم يكن الزوج يستطيع أن يخلص زوجته، ولم تعد هناك حيلة يلجأ إليها. وأخيرا قال لزوجته: "أنا سوف أبقي فى المنزل. اذهبي أنت بالجواد إلى شاطئ النهر لتسقيه. وجريا على عادة العروس فى الأيام الأولى من حياتها الزوجية، كانت ترتدى ثيابا أنيقة، وازدانت أحسن زينة. وتصادف أن السلطان كان يمر، فوقع نظره على تلك المرأة، فاستدعاها وسألها

قائلا: كيف أنك امرأة حديثة العرس، وتقودين الجواد كى تسقيه؟ أجابت المرأة: بسبب جورك وظلمك أنت أيها السلطان، فتعجب من قولها وسألها عن السبب، فأعادت عليه شرح قصتها. فآثر ذلك الكلام، وثارت غيظه بسبب تلك الحالة، وأمر على الفور بالآ ينزل أى مخلوق منهم منزلا على الحدود هناك [ص ٥٦٦]. ولهذا السبب أقاموا شاذباخ التابعة لنيسابور التى أصبحت مدينة فى هذا الزمان. كان ذلك الشيخ يتحدث عن تلك الخن وهو يبكى دون أن يؤثر ذلك فى الأمراء والوزراء قط.

وقصارى القول أنه عندما كان سلطان الإسلام يدبر شئون الممالك كان أول قرار له فيما يتعلق بموضوع الرسل هو أنه أمر بالآ يرسل رسول واحد من كل مائة أو مائتين من الرسل والأتباع الذين كانوا من قبل يذهبون عبثا إلى الولايات إلا إذا كان إفقاده لتسريف مصالح الملك الضرورية، وأن يذهب لأداء هذه المهمة الرسل العدامون وسعاة البريد الذين لا يرون قرية ولا مدينة، ويكون توقفهم فقط لطعام يتناولونه على عجل، أو لركوب جواد آخر، أو لقضاء حاجة. وإذا دعت الضرورة إلى إيفاد أحد الرسل لتحصيل الأموال - وهذا نادرا ما يحدث - فإنه أمر بتشديد دور خاصة لضيافة الرسل كى ينزلوا فيها فى المدن. وقد زودت هذه الدور بالفراش وملابس النوم، وكل ما يحتاج إليه. كذلك خصصت مبالغ من الأموال تنفق دائما على هذه الدور وتعميرها. وأصدر أيضا مرسوما يقضى بأن يقيم الحكام لأنفسهم ولأتباعهم منازل خاصة بهم، أو يستأجرونها.

وبحمد الله ومنه زالت تلك المتاعب، واستراح الناس، ونسوا ذلك العذاب وتلك المشقات، ولم يجرؤ أى وسيط على أن يطلب من أحد رغيفا واحدا من الخبز أو منا من التبن. وبهذا قضى قضاء مبرما على اسم الوسطاء. ونتيجة لهدوء البال ورفاهية الخاطر شيد الناس قصورا رائعة، وخططوا لها الإيوانات وشغلوا بالتعمير وإقامة الحدائق الغناء. وقطعا لم يجرؤ أى مخلوق على أن يدخل دابته فى حدائق الناس. والدار التى كان ثمنها قبل هذا مائة دينار، صارت تباع الآن بألف دينار. أما جمهور الغالبيين من السكان الذين كانوا قد نزحوا عن أوطانهم منذ أكثر من خمسين سنة، وكانوا ينتقلون مشردين من مدينة إلى أخرى، فإنهم جميعا قد أخذوا يعودون بمحض إرادتهم إلى مدنهم وديارهم القديمة، [ص ٥٦٧]

وألستهم تلهج بالدعاء لدولة سلطان الإسلام بإخلاص تام من حميم قلوبهم.

فليستجب الله دعاءهم.

الحكاية التاسعة والثلاثون

فى منع المكارين والجمالين والسعاة من إيذاء الناس

قبل هذا كان كل رجل شريف أو سيد يريد الذهاب إلى السوق لتبادل المنافع أو للإستحمام، يلتف حوله عدد من المكارين قائلين له: "ينبغى أن تعطينا مالا كثيرا تنفقه اليوم على عشيقاتنا وسقانتنا ومطربينا وخبزنا ولحمنا وحوائجنا ولوازمنا الأخرى. فأنت عليك أن تدفع الثمن". فإذا لم يعطهم أو اعطى لهم، يادروه بالسفاهة والوقاحة. وتكون عاقبة الأمر إما أن يأخذوا منه مالا، وإما أن يضربوه ضربا مبرحا. وكثيرا ما كان هذا الرجل المسكين لا يملك مالا، فيضطر إلى الاقتراض. وبذلك يخسر ماله وعرضه وكرامته، ولا يستطيع مغادرة السوق.

وكان هؤلاء الصعاليك يقفون على مفترق الطرق أفواجا أفواجا. ومن استطاع من الضحايا الخلاص من فوج، وقع فى يد فوج آخر. وكان الحال يجرى على هذا المثال. فإذا ما وصل إلى طائفة الجمالين، وجد نفس السلوك، وكذلك الحال إذا ما وصل إلى فريق الرسل والسعاة، فإنه يجد منهم أسوأ مما وجد من الآخرين. وكثيرا ما تصادف أن شخصا واحدا يقع فى يوم ما فريسة لجميع هذه الطوائف؛ لأنهم احترقوا هذا العمل [ص ٥٦٨] وكان هؤلاء يقفون مترصدين صيدهم. كما كانوا جميعا على صلة بالخواتين والأمراء الأنجال والأمراء. وإذا كان لأحد القدرة على مقاومتهم والتغلب عليهم فإنه لم يكن يرى من المصلحة منازعتهم ومجاہدتهم؛ لأن هؤلاء الكبار كانوا يتضايقون ويفكرون فى إيجاد مناصب تتيح لهؤلاء المكارين والجمالين والسعاة ممارسة هذه الأساليب وهم قادرون على ذلك. وكانوا يزيتون الدواب فى أيام الأعياد ومناسبات التوروز والحفلات وأمثال ذلك. ثم يذهبون فوجا فوجا إلى منازل العظماء. فإذا ظهر لهم رب البيت، فإنهم كانوا يأخذون منه بالخاص كل ما يطلبون. وكانوا يتلفظون بألفاظ غاية فى الوقاحة والمهذبان، ويكيلون له الشتائم والسباب حتى يحصلوا منه على مطالب أكثر. وبالضرورة كانوا يسليون كرامة الناس كما يستولون على الأشياء التى تخصهم. وإذا لم يكن رب البيت حاضرا، أو أنه اختفى خوفا منهم، فإنهم يرهنون كل ما يملكونه بمبالغ كبيرة لدى السكارى المدمنين

أو أنهم يأخذونها بالإلحاح والإصرار. وفي بعض البلاد كان هناك رسل كثيرون وغللمان وضباط بحيث إنه في الواقع وحقيقة الأمر كان كل واحد من الرعايا يقابله اثنان من هؤلاء.

وأنا عبد الدولة ومؤلف هذا الكتاب أذكر أنه في سنة ١٢٩١هـ/١٨٧٤م كان اللعين علي خواجه بن عمر شاه السمرقندي حاكما على ولاية يزد، فذهب إلى قرية تدعى فيروزآباد من أكبر القرى هناك والتي بسبب ارتفاع أبنيتها وفخامتها يمكن الاستفادة منها واستغلالها. ورغم ما بذله هذا الحاكم من جهد خلال ثلاثة أيام كاملة لم يستطع أن يجد شخصا قط من الرؤساء. وقد رابط في القرية سبعة عشر محصلا من محصلي الخوالات والسندات. وأخيرا اعتقلوا من الصحراء أحد الحراس واثنين من الرعايا، وأحضروهم إلى القرية مقيدين بالحبال، وصاروا يضربونهم كي يحضروا أشخاصا آخرين ليزودوهم بالأطعمة الكافية. وقطعا لم يتيسر لهم هذا.

كذلك كان ينبغي توفير العلف والمؤن والشراب والمعشوقات لمجموع هؤلاء المحصلين وأتباعهم. وقياسا على هذه التصرفات كيف يمكن الوقوف على الأنواع الأخرى من المظالم التي كانت تقع على كاهل الرعايا؟!

كذلك ينبغي التفكير في أن البدع العديدة والرسوم السيئة إذا تعود عليها الناس الأشرار على مر الأيام، فكيف يمكن تداركها في زمن قصير؟! خصوصا أن المراسيم قد أرسلت إلى كل الأطراف في كل مكان لاستمالة الرعايا ومنع بعض هذه المظالم عنهم. ولكن لم ينفذ هذا بأى وجه من الوجوه، ويش الخلق جميعا من تنفيذ ذلك.

[ص ٥٥٣] أما في هذا الوقت الذي حل فيه العهد المبارك لسلطان الإسلام خلد الله سلطانه، وأدام عدله وإحسانه - فإنه يكون تفكيره المبارك منصبا على ما هو محض خير ومستهدفا العدل. فبذل كل همته كي يتدارك الخلل الذي تطرق إلى شئون المملكة، وعمل على أن يقضى قضاء مبرما على البدع والمفاسد، وسعى في أن يكون الناس دائما في راحة وطمأنينة. وفي هذا الصدد صرح قائلا: "إن فوائد محصول العمر الإنساني في الدنيا هي تحقيق هذه الأمور".

ولقد تعهد السلطان غازان خان بأن يبدى فى هذا الشأن سعيًا جدياً واجتهاداً تاماً فعمل على تدارك هذه العيوب فى البلد الذى يدفع الضرائب وقال فى هذا الشأن: إنه فى الوقت الذى عدل فيه عن اتباع نصوص الياسا وتطرق للخلل التام إليها، ينبغى المبادرة بإصلاح تلك الأوضاع، والبدء بمعالجة الأمور الصغيرة، حتى يعلم الخلق أنه ما دامت المؤاخضة والمساءلة تجرى على الأمور الصغيرة وتوقع العقوبة على المقصرين، تكون هذه العقوبة بالضرورة أضعاف ذلك فى الأمور الكبيرة، فيكفون أيديهم عن ذلك مرغمين. وكان يقول أيضاً: "حيث إن الإحاطة بكل عمل تقتضى الوقوف على أصله ومكوناته، تصير كل جزئياته داخلة فيه. ولو يشغل الناس بإصلاح جزئياته واحدة فواحدة، فيصلحون واحدة ثم يصلحون الأخرى، فإنه يخلت مرة أخرى، ولا يمكن ضبطه. كذلك صرح قائلاً: إن القوم الذين تعودوا هذا الأسلوب مدة طويلة، وصار مألوفاً عندهم لن يستطيع منعهم من ذلك الأمر مرة واحدة، ويكون إقلاعهم عنه أمراً صعباً للغاية. كذلك الولاة والحكام قد أصموا أذانهم فى هذه السنوات، ولم يحاولوا الإصلاح، بل شقوا على الرعايا، فراحوا يزيدون عليهم الأعباء ويأخذون منهم الضرائب، ولا يعطون الديوان شيئاً. ثم يحاكمون هؤلاء الرعايا المساكين كل سنة، فيضطر هؤلاء إلى تقديم الرشاوى للخلاص منهم، ويسردون عدة حكايات عن كل ما يحدث لهم. وإذا قتل منهم أيضاً عدة أشخاص، فإن الآخرين يتصورون أن المسألة حدثت بمحض الصدفة، وأن الشخص الفلانى لم يهتم بهم. وإلا إذا كان هناك حرص على المال والحفاظة عليه، فإنه كان ينبغى أن تطبق هذه القاعدة على الطوائف الأخرى.

وقصارى القول أننا إذا عاقبنا بعضاً من هذه الجماعة، فإن ذلك لن يكون ممكناً؛ إذ إن الآخرين يسلكون نفس السلوك، ولن يكفوا أيديهم عن الظلم والتعدي. وهكذا يبقى الرعايا فى عذاب، ولن يصل مال قط إلى الخزانة. وإذن فالصلحة تقتضى بأن نفكر فى طريقة نكف بها أيدي حكام الولايات نهائياً عن التصرف فى الأموال وتيديدها، وحتى لا يجدوا قطعاً أى سبب يفتح طريق الاعتداء؛ فيكون مثلهم مثل الثعلب الذى قال: "سوف أستطيع الخلاص من الكلب بألف حيلة. ولكن من المستحسن ألا أراه أنا وهو لا يرانى". وإذن فالأفضل فى هذه القضية أيضاً ألا يستطيع الولاة أن يكتبوا حوالة حتى ولو بدانت واحد. ثم أمر بأن يسير إلى كل بلد كاتب جلد يكتب بالتفصيل كل ما يضمه ذلك البلد

من قرى واحدة فواحدة. وبموجب الحصر السابق تُحدد الضرائب عليهم، ولا تكون خاضعة للخصم والتجزئة. وهكذا يعمل على أن يكون الرعايا مرفهين مطمئنين. كذلك أمر بأن تفحص كل أملاك الخاصة والأوقاف والملاك الذين احتفظوا بملكيتهم مدة ثلاثين سنة بلا منازع، وأن تكتب موضحة بأسماء المحصلين. ثم يثبت ذلك في سجلات القانون حتى إذا فقدت أيضا حجة لأحد الأشخاص؛ أو أن شخصا يريد أن يستولى عليها، فإنه يرجع إلى هذا السجل، ويتم التصرف بموجب القانون المثبت في السجل. وبذلك لا يبقى مجال للتلبس والتعدي.

وعلى هذا سار الكتاب إلى البلاد حسب تلك الأوامر. وعلى الرغم من أن الناس الثقات المستقيمين قليلو الوجود، فإنهم سعوا بقدر الإمكان في تسجيل قوانين البلد في سجلات خاصة ثم إحضارها إلينا.

بعد ذلك أمر بالآلا يكتب على الإطلاق أى ملك أو وال أو كاتب حوالة أو سندا على ورقة من الأوراق. [ص ٥٥٤]. وإذا حررت حوالة فإنه يعلم الحاكم الذى أعطى التصريح. كما تقطع يد الكاتب الذى كتبها حتى يراه الكتاب الآخرون فيتعظون ويعتبرون. ثم عين لكل بلد كاتباً يلزم الديوان الكبير، وعليه أن يكتب فى أوائل كل عام المبالغ التى دخلت ذلك البلد، وذلك بمقتضى القانون، ويكتب ذلك بالتحديد والتفصيل فى كل قرية، ويؤشر على هذا السجل نواب الديوان الكبير، ثم يوثق بختم الدولة الذهبى ويرسل إلى البلد حتى يسلم الرعايا ما عليهم على قسطين مع نصف العشر ورسم الخزانة وذلك عن طريق المحصل الذى عين فى كل بلد. وهذا المحصل يعطى أصحاب الولايات بعضاً من المال نقداً بمقتضى الحوالة المختومة بالختم الذهبى، ثم يرسل الباقي إلى الخزانة العامة، ويسلم الخزانة هذه المبالغ بالإضافة إلى الرسم المقرر. وإذا حصل - أحيانا - أحد المحصلين أو الرؤساء مبلغاً أكبر فإن عليه أن يسلم الخزانة نصف دينار كرسوم للخزانة عن كل مائة دينار وعشرة دوايق، وإلا فإن على المحصلين أن يحضروا المبالغ التى حصلوها ويودعوها مع رسم الخزانة لدى الخزانة.

وأمر كذلك بأنه عندما يحصل مبلغ نقدى من الرعايا فى البلاد، لن يسمح مطلقاً بأى وجه من الوجوه أن يسلموا الخزانة شيئاً من البضائع العينية ولو بقدر دينار واحد. وإلا فإن

على الشخص الذى يحضر بضائع عينية أن يحملها إلى السوق ويبيعها، ثم يودع فى الخزانة مالا نقديا. ويراعى أن تدفع المبالغ نقدا للمرتبات والمعدات والتفقات التى يجرى العمل بها فى كل مكان، ولا يقصر المسئولون فى دائق واحد حتى يزيد الخلق جميعا من دعائهم للدولة طالت أيامها.

وبواسطة الحوالات المفصلة والمختومة بالختم الذهبى، والتى تعمل من هنا إلى البلاد صار جميع الرعايا فى الأماكن المختلفة مطلعين على المبالغ المقررة عليهم، وهم يعرفون جيدا أنه لا ينبغي أن يدفعوا دائقا واحدا زيادة عن المطلوب. وأيضا لديهم رسالة رجال القانون الموضح بها المبالغ التى عليهم وكيفية سدادها.

ولما نفذ هذا القرار المسجل، ظن ملك رود أور من أعمال همدان أنه من قبيل الأحكام السابقة التى صدرت ولم تنفذ، فصرح لأحد الكتاب بأن يكتب - مع إيقاف التنفيذ - عدة حوالات على إحدى الولايات فصدر الحكم بقتله، وبقطع يد الكاتب الذى حرر الحوالات. فلما علم الكاتب بذلك القرار لاذ بالفرار. وبعد ثلاث سنوات توفى فى الموضع الذى هرب إليه. كذلك قبض بعد مدة على أحد الكتاب فى نهاوند وقطعت يده. وفى همدان كتب أحد البقالين من الأثرياء حوالة على شريكه بمنين من السماق^(١)، فقبض عليه، وصدر القرار بقتله. وبمزيد من الشفاعة، خففت عنه عقوبة الإعدام، وضرب مائة وعشرين عصا، ودفع ألف دينار غرامة جزاء جرمه.

وقريبا من هذا الوقت، كانوا يجلبون للحضرة فيلة من الهند. فلما وصلوا إلى همدان حل الشتاء، ولم يكن يوجد علف، فقال الحكام هناك: ينبغي أن نحصل على العلف من الحدائق. فلما بلغ هذا الكلام السمع الأشرف للسلطان، قال: إننا دائما نخطأ للأمر، ونعد فى حسابنا ما يلزم من العلف والمؤن للفيلة، فكيف تؤخذ من حدائق الناس؟! ولكننا نتجاوز هذه المرة. أما إذا أقدم المسئولون بعد ذلك على مثل هذا التصرف فسوف نعاقبهم.

وصفوة القول أنه خلال هذه السنوات لم يكن هناك مجال ولن يكون لأى مخلوق أن يكتب فى حوالة شئ من واحد من التين. وبهذا سد نهائيا طريق تحرير الحوالات. وقد علم

(١) حب يوضع فى بعض الأطعمة ليكسبها حوضة.

فى العام الماضى أنه لما لم يكن فى مقدور الحكام أن يزيدوا شيئاً على المبلغ المقرر، صار
الرؤساء وعمد القرى يلتزمون بسداد الزيادة، ويقسمونها فيما بينهم.
وهكذا عندما يعلم كل واحد من الرعايا المبلغ المقرر عليه، لا يعطى شيئاً زيادة عن
المطلوب. كذلك لا يستطيعون مطالبة الغريب والأشخاص الآخرين الذين لم ترد أسماؤهم
فى الكشف.

النصوص الإضافية

(النص الأول)

حكاية مسير الأمير نوروز إلى تركستان لدى قيودوخان

[ص ٥٧٧] عبر نوروز مع نفر ضئيل من المطرودين نهر جيحون عن طريق بدخشان

وصمم على المسير إلى الأمير قايدو^(١) بن قاشين بن اوغتكاي قآن وقال لنفسه: "إن الراجل لا يصير خبيراً ومجرباً ما لم يسافر ويرحل". وعندما وصل نوروز إلى حضرة الأمير قايدو أظهر له الصدق والطاعة والإخلاص. ولما سأله قايدو عن سبب جلأته عن وطنه المألوف وترك مسكنه المعروف وعن الباعث على قدومه ووصوله إلى هنا، أجاب قائلاً: "إن أمنيته ورغبتى ودعائى إلى الله أنسا العبد المخلص والمحب دون إكراه هى أن أتشرف وأسعد بمشاهدة صاحب البلاط الملكي وطلعة غرته الميمونة. وحمدا لله ومنه فإن آثار الرفعة وعلو الشأن وأخبار رعاية الرعية وآيات السياسة والكماسة وذكر العظمة وصيت الملك لهذا البلاط العالى القدر قد طبق الأفاق". ثم شرح أحواله دون تردد ودهشة وخشية، وختتم كلامه قائلاً: "إن علام الغيوب مطلع وعليم بأننى برئ من الذنب والخيانة اللذين اتهمت بهما أكثر من براءة الذنب من دم يوسف. كما أنتى أظهر من صفاء السماء.

(بيت من الشعر الفارسي ترجمته:)

لم يجر على لسانى ولم يمر بخاطرى

ولم تكن قسط هذه نيتى أنا العبد

(١) يكتب أيضاً قيودوخان، وهو ابن قاشى بن اوغتكاي قآن. روى فى معسكر چنگيز خان، وبعد وفاة جده اوغتكاي لازم منگو قآن وبهذه كان يلزم أربع بوكا، وسعى فى إجلأته على عرش الخانية، فلما خضع أربع بوكا لأخيه قوبلاى قآن وأطاع أمره، استشر قايدو خوفاً من قوبلاى، فدار عليه، وطمى وبلى، وارثكب عدة عائلات. وقد عمر دهر طوبلاى إلى أن تولى متأثراً بمرامه فى إحدى المراكب التى خاضها ضد تيمور قآن حفيد قوبلاى قآن (انظر جامع التواريخ: تاريخ خلفاء چنگيز خان من اوغتكاي قآن إلى تيمور قآن، الترجمة العربية، ص ٣٢١-٣٢٢ رحلات ماركوبولو، ترجمها إلى الإنجليزية ونشرها ولسم مارسدن، وترجمها إلى العربية عبد العزيز توفيق جلود، ص ٣٥١، ٣٥٢، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧م).

عندئذ قال قايبدو: "إذن ما سبب الانهزام والفرار والاضطراب؟" أجاب نوروز: حقاً إنها مثل أسطورة الثعلب الذى كان يفر هارباً مسرعاً. فسأله ابن آوى عن سبب انهزامه. فأجاب الثعلب: إن الملك قد يكون غيباً ساذجاً كالحمار. فقال ابن آوى: حيث إنك لست حماراً فلماذا تهرب؟ قال: يا صاحبي إلى أن يثبت أنني لست حماراً، لا بد أن يصينني كثير من الجراح المؤلمة القاسية. [ص ٥٧٨] فأعجب قايبدو بهذه القصة إعجاباً شديداً، وشمله برعايته الثامة وأجلسه إلى جانبه، وقدم له كل ما يلزم للإقامة والتكريم.

وهكذا ظل نوروز حائراً مدة ثلاثة أعوام متتالية فى إقليم تركستان كالحمار فى الوحل والحرباء فى الماء. وكان يرجئ أيامه التى لا نهاية لها. ولما كان مجبولاً على العناد والكبرياء، لم يكن ينسجم فى غربته ووحشته وكرهته مع أمراء قايبدو وخواصه جرباً على قاعدة الغرباء والضيوف. والسبب فى ذلك أن نوروز عاش ثلاثين سنة كاملة وسط ممالك إيران، ولقب ديار خراسان فى هناء ونعيم وحرمة وتعظيم فى دولة خانات المغول. وكان الطي والنشر والقبض والبسط والحل والعقد فى الإقليمين الثالث والرابع فى قبضة والده أرغون آقا^(١). وكان قد ترك له الشيء الكثير من المتاع والأموال والعقود والتقود والخواشى والمواشى التى لا حصر لها.

لكل هذا رغم زوال الحرمة والحشمة وضياع الأملاك والأسباب والجللاء عن الأهل والديار، لم يعد يحتمل صولة أمراء قايبدو وسطوتهم. وهم أيضاً لم يكونوا يسلكون معه طريق العزة والحرمة، وجادة الوفاق والرفاق. ورغم وجود كل هذا لم يحط أحد من قدره، بل ظل يعيش موفراً ومعظماً حتى مل طول الإقامة وسامة البقاء؛ فاستأذن فى العودة.

(١) هو من قبيلة لوبرات وأبوه تايغو الذى كان أميراً لألف جندي وتعد قبيلة لوبرات من أشهر قبائل المغول. تولى أرغون حكم إيران من قبل خاقانات المغول قبل مجيئه هولاًكو خان، فقام بمهمته خير قيام، وألقى تقدمته موقفين أكفاه كان منهم المؤرخ عطا ملك الجوينى. قام أرغون بعدة إصلاحات، وعفف الضرائب عن كاهل الرعايا وشعروا فى عهده بالأمن والأمان. وأثناء قيامه بمهام عمله تعرض لحملات مفرضة من قبل الحاقدين الحاسدين الظالمين فى منصبه، ولكنه كان يترهم الحجة ويتصر عليهم. وهكذا استمر يزدى واجبه إلى أن قدم هولاًكو بمسلته على إيران فاستقبله أروع استقبال، وإقام له سرداقاً فخماً منسوجاً بخيوط الذهب. وصار واحداً من أخلص أبنائه. تحدث عن أرغون آقا المؤرخ عطا ملك الجوينى فى صفحات عديدة ومنفردة من كتابه تاريخ جهانگشاى (انظر ترجمة الدكتور محمد التونجى فى الكتاب، المجلد الثانى، حلب ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م).

وبعد أن شمله قابدو بعطفه ورعايته، سَيرَ لمساعدته ثلاثين ألف فارس مع الأميرين النجلين أبوكان وأركتيمور والأميرين يساور وكوبك وغيرهم، وذلك بقصد الذهاب إلى ديار خراسان وقمع أعداء نوروز. ثم أوعز أيضًا إلى الجيوش التي تقيم في منطقة نهر جيحون بتقديم المساعدة له. كذلك أرسل مع نوروز جنودًا بقيادة ابنه ساريان وكانوا يعضون الشتاء والصيف على ضفاف نهر جيحون، وفي بادغيس وشبرغان بعد ذلك سار نوروز في الطليعة.

إسلام غازان وكيف تم ذلك

[ص: ٦٠٤] كان غازان المبارك النظر، الميمون المقدم يتشاور مع الأمراء في تدبير القضاء على الأعداء وقهرهم وقمعهم، وبأية وسيلة يمكن ذلك حتى يصير الخصم قريباً للوارث ومقضيّاً عليه بالفناء. وكان كل أمير يبدل بدلوله في هذا الشأن بقدر وسعه وطاعته. وبمحكم أن الأمير نوروز سبق أن قدّم هدية لغازان - إجلالاً وتعظيماً - عرض على رأى السلطان ملجأ العالم قاتلاً:

(شعر فارسي، ترجمته)

هكذا قال: أيها الملك السعيد المقدم
يعدلك يصير الجو ربيعاً في شهر "ردى"^(١)
قلّبتك دائماً موقفاً في العالم
وليكن هذا العالم مثلي عبداً مطيعاً لك

لقد أثر عن علماء الإسلام والمتجمين وأرباب التقويم أنه سوف يظهر خلال سنة ستمائة وتسعين هجرية (١٢٩١م) سلطان عظيم يكون ظهيراً للدين الإسلامي، فيصير الإسلام - بفضل رعايته وعنايته - ناضراً مزدهراً بعد أن كان مندرساً. وبسبب عدل هذا السلطان في ملكه تصير الشاه آمنة ومستريحة من بطش الذئب، ويتخلص الغزال من جور الفهد. ولشمول إنصافه تسلم الصعوبة^(٢) الضعيفة من صلابة الصقر، وينجو (القبج)^(٣) من شوكته ومهابته ويظل التاج وعرش الملك لسنوات عديدة في مكانهما اللائق بهما. وأحياناً كان يحول بخاطر العبد أن يكون ذلك المعامل هو غازان خان إذ أن أمارات هذه العلامات ومخائل هذه الشمائل تبدو في صورة الحال وصفحة آثار الجبين المبين للأمر النجل المانع الدر.

(١) دى: الشهر العاشر في السنة الإيرانية. فيه يشتد البرد، وهو يقابل شهر ديسمبر وأحياناً من شهر يناير في السنة الميلادية.

(٢) الصعوبة والصعوبة واحد، وهو طائر صغير أحمر الرأس.

(٣) (القبج) الحجل، معرب كيك (انظر كتاب الألفاظ الفارسية المعربة، تأليف السيد آذى شير، ص ١٢٣، بيروت ١٩٠٨).

وإنه لظاهر وواضح أنه لو تقلد الأمير النجل قلادة الإسلام، والتزم عقائد الإيمان وطرائقه، فلا بد وأن يكون ممثلاً لأولى الأمر فى عهده فيمنح رعاياه المسلمين - الذين ظلوا قابعين فى حضيض المذلّة وهبوط الوبال - نشو الإيمان وضاء الرعاية؛ حتى يتيسر لهم بعد ذلك نصر الموالى وقهر الأعداء عن طريق نشر الدين وبسط العدل بعد بذل الطاعة التى لا مفر منها، والشئ تكون فى الأعماق فرض عين، بل عين فرض. ويصير جميع المسلمين مريدين ومحبين. وبسبب صدقه وإخلاص همته وتوجه القلوب إليه [ص ٦٠٥] ينصره الحق سبحانه وتعالى. وإن الدين الإسلامى الذى اندرس وانطوى بسبب تغلب كفار التار واستيلاء الظالمين والفاستقن لبحيا ييمن تقوية الأمير النجل.

وحيث إن الحق سبحانه وتعالى كان قد زين وأثار فى الأزل قلب الأمير النجل بنور التوحيد، وصارت ذاته الشريفة مخزن أسرار القدس وحاملة المعرفة، وطلع عليه صبح السعادة الأبدية، ورفع عن بصيرته غشاوة العيوب والريب - أثر فى قلبه المبارك كلام نوروز المعقول، وتفتحت زهرة قلبه لحديته، وظهرت "يد موسى البيضاء من جيب الغيب"، وأزال عن عينه وأذنه حجاب الظلمة وغطاء الغفلة، واختار النور بدلاً من الظلمة، فقال: إن حديث هذا الداعية وشعشة هذا الباحث كانا نصب عيني وضميرى إذ كيف يقتضى العقل أن يسجد رجل عاقل لجماد مصنوع موضوع على الأرض ولا يتوسل إليه مباشرة، بل يستمد الهمة من شخص آخر يرمز إليه بهذا الصنم. وإن الخضوع أمام جماد وشروط لثمة ومراسم تقييله لأمر مستكف.

وإذن فعبادة الأصنام والسجود للأوثان كلاهما أمر فى غاية الضلالة والجهالة ومادة للاحتقار والاستهزاء. وإن الدين الإسلامى هو زبدة جملة الأديان وخلاصة التواميس الإلهية؛ لكن العلائق والعوائق المتواترة والمتوالية كانت حائلة دون هداية نور الإيمان. وحيثما يوجد الماء قريباً لا تدعو الحاجة إلى جبل طويل.

وهكذا صار اقتراح نوروز مسموعاً ومقبولاً. ثم طلب إحضار قطعة اللعل التى كان قد أودعها خزائنه. وفى اليوم الرابع من شعبان سنة أربع وتسعين وستمائة (١٢٩٤م)، فى جوسق كان يوجد فيه عرش أرغون "بمرغزار لار دوماند" أعدوا حفلاً كبيراً. ثم اغتسل الأمير النجل وفق الشريعة الإسلامية، ولبس ملابس نظيفة. بعد ذلك صعد فوق قصر مرتفع

ووقف على درجة العرش، مظهرًا الخضوع لحضرة الربى. ثم لقنه كلمة الشهادة الشيخ "صدر الدين إبراهيم" خلف صدق الشيخ صدر الدين حمويه - رحمه الله - . وهكذا أخذ غازان بعزم صادق ينظم من صميم قلبه الصادق كلمة الإخلاص. وقد ردد عدة مرات كلمة التوحيد بلفظ التكبير.

(بيت من الشعر الفارسي ترجمته)

رفع ذلك الأمير النجل إصبغه
فذكره بوحدانية الله

وقد أسلم معه جميع الأمراء والجنود، وعددهم يقرب من "مائة ألف" (١) مشرك متمرد. ورغم أن اللامات (بخشيان) قد علموه أيام الصبا وزمان الطفولة عبادة الأصنام وتقديس الأوثان، وكان ثابتا وراسخا في هذه العقيدة فإنه عندما دخل في الدين الإسلامي، أصفى بأذن العقل وسمع الرضا إلى أمة الإسلام والدين الخنيف، فاستقر في سكينته صدره. وكان في الإخلاص [ص ٦٠٦] أصدق من أوبس وسلمان، وصار الجمع مشغولين بهذه الأفراح والمسرات الكثيرة وإقامة الحفلات والمآدب. وكان كل الأمم من الترك والعجم ينثرون على عرشه المبارك الدراهم والدنانير وتفاصيل الجواهر وريغائب النفائس. وكانوا ينشدون.

(شعر فارسي ترجمته)

ليظل باقيا باقيا في ملكك على الاستقرار والدوام...
المال والخال والزمن والقال والأصل والنسل والحظ والعرش
ولييق المال الوافر والخال الحسن والقال السعيد والسنة المباركة
وليسلم للأصل - ثلاثين نسلا - الحظ الباسم والعرش المطاع

ثم وقف الأمراء والقواد (نوبان) والأئمة والمشايخ. واقتداء بسلطان الإسلام، وباعتقاد صادق مبرما من شوائب الكدر ومصفى من الرياء، دخلت - في دين الإسلام أفواجا - طوائف التتار من الأطراف والنواحي والبوادي والضواحي؛ من الكافر والكافرة ابتداء من سن السابعة إلى سن السبعين، وذلك بدافع الرغبة ومحض الاختيار، وشرفوا بتشريف هداية

(١) يذكر المؤرخ عبد الله الشيرازي للقلب بوصاف الحضرة في كتابه "تاريخ وصاف" ص ٣١٧ طبع بمباي أن من أسلم من المغول يريد على معنى كلف مشرك.

نور الإيمان، ليظل توالدهم وتتأسلهم مؤمنين ومؤمنات حتى تُفْخَ الصور. وصار اعتقاد
الموحدين بإعجاز أمة أحمد وإظهار دين محمد عليه الصلاة والسلام أكثر تهيداً. كما صار
صدق إخلاص المؤمنين أكثر تأكيداً.

وفى ذلك اليوم أمر جماعة الأئمة والمشايع والسادات بالإدراوات والإنعامات والمربيات
والمناصب. كذلك بذل النذور والصدقات في حق الفقراء والمساكين. ثم توجه إلى قبور
الأولياء ومزارات "الأبدال"^(١). وكان يطلب بتضرع وابتهال من - حضرة ذى الجلال -
القوة للانتقام من الأعداء ودفع الحساد. كذلك أنشأ الخوانق والقبور.

بعد ذلك سَيرَ - بهذه البشري - العدائين وسعاة البريد إلى أطراف البلاد وأرجائها
وأغائها. وإن حلاوة هذه السعادة التي هي أصل الحياة وثمرتها شجرة التوفيق الخالدة باقية.
وهكذا أوصل هذا النبا إلى سكان الآفاق. فتوجه إلى حضرة غازان من أطراف العراق
وغراسان المشايخ والأئمة في غرض تام. ثم استقبل شهر رمضان ركن الصيام بدلاً من
الأصنام، وكل ليلة كان الخلق الكثيرون من التازيك والترک والأمصار يتناولون طعام
الإفطار على بساط سماطه.

وهكذا فإن عروة جبل الدين المتين التي كانت قد وجدت الانقصاص والانصرام عادت
إلى التنظيم والقوة، وصارت همة غازان مقصورة على تأسيس قواعد الدين وتهيد مباني
اليقين، وتقوية أساس الشرع ورعاية قوانين الأصل والفرع. وكانت همته باعثة على التزام
طريق الورع ونهمته متجهة إلى العفة والتقوى.

جعل الله سبحانه وتعالى الوجود المبارك لسلطان الإسلام غازان خان - في طوفان
الطوايق والحدثان - [ص ٦٠٧] كفيلاً لمصالح العباد ونجاحهم وسبباً لأمن الخلق وأمانتهم

(١) الأبدال جمع بدل. وعند التصوف أن الحق تعالى جعل الأرض سبعة أقاليم واختار لكل إقليم من عباده الصالحين ولياً
فيه يسمى "بدلاً" ليحفظه. ويقال إنهم صور روحانية محضة يدون فيها. وهم أولياء إذا مات أحدهم خلفه غيره
فكان بدلاً منه. كما أن حجاب قلعة الخوارج مرفوع عنهم. ولذلك يدون في شكول مختلفة متباينة، وهم
معروفون باستقصاء الورع وتصحيح الإرادة وسلامة الصدر للخلق والصحة لهم. (انظر دكتور حسين مجيب
النصري: المعجم الفارسي العربي الجامع، ص ٢٧، القاهرة ١٩٨٢) دكتور سيد جعفر سجادي: فرهنگ لغات
واصطلاحات وتعبيرات عرفاني، چاپ دوم، ص ٩، تهران ١٣٥٤ هـ.ش).

حتى تصان آلاف النفوس الطاهرة من أذى العذاب والخوف من مغالب التار الكفار؛ فلا
جرم أن صار صيت أهام معدلته وسمعة سوق مكرمه طنين آذان العالم.
وصفوة القول أنه بعد ذلك صارت طاعته واجبة ولازمه على ملوك الإسلام وسلطانيتهم
بموجب قوله تعالى: ﴿... وأولى الأمر منكم﴾^(١).

(نست الترجمة بحمد الله وفضله)

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم، فإن تنازعتم في شئ،
فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تزعمون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ (سورة النساء الآية ٥٩).

قائمة المراجع أولاً: المراجع العربية

ابن الأثير الجزري (على بن أحمد أبي الكرم):

- الكامل في التاريخ، تحقيق الشيخ عبد الوهاب النجار، القاهرة ١٣٤٨
١٣٥٨ هـ = ١٩٢٩ - ١٩٣٩ م.

ابن إياس الحنفى (محمد بن أحمد):

- بدائع الزهور فى وقائع الدهور، الجزء الأول القسم الأول، تحقيق
الدكتور محمد مصطفى، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر):

- تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنه: حوادث وتراجم (٦٧٨ ٧٠٨ هـ/
١٢٧٩ - ١٣٠٨ م)، حققه دكتور محمد أمين وراجعته دكتور
سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٧٦ م.

ابن حجر العسقلانى (الحافظ شهاب الدين أحمد بن على بن محمد
بن على بن أحمد):

- الدرر الكامنة، نشر دار الجيل، نسخة مصورة من طبعة دائرة
المعارف بجيدر الدكن، بيروت ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م.

ابن زيد آل محمود (عبد الله) الشيخ:

- قضية تحديّد الصداق، قطر الدوحة ١٩٧٦ م.

ابن شاکر الکتبی (فخر الدین محمد بن أحمد):

- فوات الوفيات، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥١ م.

ابن العبري (غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الطيب الملطى):

- تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٩٥٨ م.

ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى):

- مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار. دولة المماليك الأولى (٧٠٠ هـ / ١٣٠١ - ١٣٤٩ م): دراسة وتحقيق دوروتيا كراثولسكى ترجم التمهييد المطول عن الألمانية الدكتور رضوان السيد، الطبعة الأولى، الناشر المركز الثقافى للبحوث، بيروت ١٤٠٧ هـ ١٩٨٦ م.
- ابن القوطى (كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن تاج الدين أحمد):
- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة (٦٤٢ - ٧٢٣ هـ / ١٢٤٤ - ١٣٢٣ م)، وقف على تصحيحه والتعليق عليه مصطفى جواد، بغداد ١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م.

أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل):

- المختصر فى أخبار البشر (تاريخ أبى الفداء) نشر مكتبة المثنى، القاهرة بدون تاريخ.
- تقويم البلدان، تصحيح رينود مدرس العربية والبارون ماك كوكين ديسلان، باريس ١٨٤٠ م.

إدريس (محمد محمود):

- رسوم السلاجقة ونظمهم الاجتماعية، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٣ م
- أرنولد (سير توماس):
- الدعوة إلى الإسلام، ترجمه إلى العربية الدكتور حسن إبراهيم وآخرون الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٧ م.
- الإصطخرى (ابن إسحق إبراهيم بن محمد الفارسى المعروف بالكرخى):
- المسالك والممالك، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحينى، مراجعة محمد شفيق غربال، القاهرة ١٣٨١ هـ ١٩٦١ م.

بارتولد (فاسيلي فلاديميروفيتش):

- تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان
راجعه إبراهيم صبرى، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة
١٩٥٨م.

- تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، الطبعة الثالثة، الناشر دار
المعارف بمصر، القاهرة ١٩٥٨م.

- تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، نقله عن الروسية صلاح
الدين عثمان هاشم، الناشر قسم التراث العربى بالمجلس الوطنى للثقافة
والفنون والآداب، الكويت ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

بدر (مصطفى طه) دكتور:

- مغول إيران بين المسيحية والإسلام، القاهرة بدون تاريخ.

البديسى (شرف خان):

- شرفنامه. ألّفه بالفارسية شرف خان البديسى، ترجمه إلى العربية، محمد
على عونى، راجعه وقدم له يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٦٢م.

براون (إدوارد جرانفيل):

- تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى، نقله إلى العربية
الدكتور إبراهيم أمين الشواربى، القاهرة ١٣٧٣هـ ١٩٥٤م.

بروكلمان (كارل):

- تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية الدكتور نبيه أمين فارس
ومنى البعلبكي، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٤٩م.

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر):

- الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الجزء الأول، الطبعة
الثالثة، بيروت ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م.

الجراحى (إسماعيل بن محمد العجلونى) الشيخ المفسر:

- كشف الحفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، الجزء الثانى، دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٣٥٢هـ.ش.
جرجى زيدان:

- تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الثالث، القاهرة ١٩٣١م.

جمال الدين (محمد السعيد) دكتور:

- علاء الدين عطا ملك الجوينى حاكم العراق بعد انقضاء الخلافة العباسية الطبعة الأولى، القاهرة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.
جنيد شرازى (معين الدين أبو القاسم):

- شد الإزار فى حط الأوزار عن زوار المزار، بتصحيح وتحشية محمد قزوينى وعباس إقبال، طهران ١٣٢٨هـ.ش.
جنى (فليب): دكتور

- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمه الدكتور جمال الهازجى أشرف على مراجعته وتحريره الدكتور جبرائيل جبور، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٢م.

الحميرى (محمد عبد المنعم):

- الروض المعطار فى خبر الأقطار، حققه إحسان عباس، الطبعة الثانية بيروت ١٩٨٠م.

خصباك (جعفر حسين) دكتور:

- العراق فى عهد الإيلخانيين ٦٥٦ - ٧٣٦هـ / ١٢٥٨ - ١٣٣٥م:
الفتح الإدارة الأحوال الاقتصادية الأحوال الاجتماعية، بغداد ١٩٦٨م.

خليل أدهم:

- تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، نقله عن التركية الدكتور أحمد السعيد سليمان، الناشر دار المعارف، القاهرة ١٩٧٢م.

الدوادار (بيرس):

- التحفة المملوكية فى الدولة التركية: تاريخ دولة المماليك البحرية فى الفترة من ٦٤٨ ٧١١هجرية، تحقيق دكتور عبد الحميد صالح حمدان، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

- زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، الجزء التاسع، تحقيق الدكتورة زبيدة محمد عطا، المملكة العربية السعودية، بدون تاريخ.

- مختار الأخبار: تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، تحقيق دكتور عبد الحميد صالح حمدان، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

الدوادارى (أبو بكر عبد الله بن أيك):

- كنز الدرر وجامع الغرر، وهو الدرر الفاخر فى سيرة الملك الناصر تحقيق هانس روبرت رويمر، القاهرة ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م.

ديماند (م.س):

- الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم الدكتور أحمد فكرى، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٨٢م.

رشيد الدين (فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير بن موفق الدولة):

- جامع التواريخ، تاريخ المغول المجلد الثانى الجزء الأول: تاريخ هولاكو مع مقدمة كاترمير، نقله عن الفارسية إلى العربية الأستاذ محمد صادق نشأت والدكتور محمد موسى هنداوى والدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد، وترجم مقدمة كاترمير عن الفرنسية الدكتور محمد

محمد القصاص، القاهرة ١٩٦٠م.

- جامع التواريخ، تاريخ المغول، المجلد الثاني، الجزء الثاني: تاريخ أبناء هولاكو خان من آباخان إلى كجيكاتوخان، نقله عن الفارسية إلى العربية الأستاذ محمد صادق نشأت والدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد القاهرة ١٩٦٠م.

- جامع التواريخ، تاريخ خلفاء چنگيز خان من أوكتاي قآن إلى تيمور قآن، نقله عن الفارسية إلى العربية الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد الناشر دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٣م.

زكي محمد حسن (دكتور):

- التصوير في الإسلام عند الفرس، الناشر دار التراث العربي، بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.

- فنون الإسلام، الناشر دار التراث العربي، بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.

- الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي، الناشر دار التراث العربي، بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.

- التصوير وأعلام المصورين في الإسلام، مقالة نشرت في هدية المقتطف السنوية بعنوان "نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية، القاهرة ١٩٤٨م.

السباعي محمد السباعي (دكتور):

- عطا ملك الجويني وكتابه جهانگشا، القاهرة ١٤١٢ هـ - ١٩٩١م.

ستيفن رنسيان:

- تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الثالث، ترجمة الدكتور السيد الباز العربي، الجزء الثالث، بيروت ١٩٦٩م.

شولو (برتولد):

- العالم الإسلامي في العصر المغولي، نقله إلى العربية خالد أسعد عيسى راجعه وقدم له سهيل زكار، الطبعة الأولى، دمشق ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م.

الصياد (فؤاد عبد المعطى) دكتور:

- مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني، الطبعة الأولى
القاهرة ١٣٨٦هـ ١٩٦٧م.

- المغول فى التاريخ (من چنگيز خان إلى هولاكو خان)، القاهرة
١٩٧٥م.

- الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين (أسرة هولاكو خان)، منشورات
مركز الوثائق والدراسات الإنسانية بجامعة قطر، الدوحة ١٤٠٧هـ
١٩٨٧م.

- النوروز وأثره فى الأدب العربى من منشورات جامعة بيروت العربية
بيروت ١٩٧٢م.

الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير):

- تاريخ الرسل والملوك: الجزء الأول، تحقيق "محمد أبو الفضل إبراهيم"
الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.

العبود (نافع توفيق) دكتور:

- الدولة الخوارزمية: نشأتها علاقاتها مع الدول الإسلامية نظمها
العسكرية والإدارية ٤٩٠ هـ/٦٢٨هـ / ١٠٩٧ - ١٢٣١م، بغداد
١٩٧٨م.

العزاوى (عباس):

- تاريخ العراق بين احتلالين، الجزء الأول، حكومة المغول، بغداد
١٣٥٢هـ ١٩٣٥م.

- التعريف بالمؤرخين فى عهد المغول والتركمان (٦٠١هـ / ١٢٣٤م إلى
٩٤١هـ / ١٣٥٤م)، بغداد ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م.

عطا ملك الجويني:

- تاريخ فاتح العالم (جانگشای)، نقله عن الفارسية وقارنه بالنسخة
الإنكليزية الدكتور محمد التوحي، المجلدان الأول والثاني، الطبعة
الأولى، حلب ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.

على إبراهيم حسن (دكتور):

- دراسات في تاريخ الممالك البحرية، وفي عصر الناصر محمد بوجه
خاص، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٤٨ م.

القزاز (محمد صالح) دكتور:

- الحياة السياسية في عهد السيطرة المغولية، النجف ١٣٩٠ هـ
١٩٧٠ م.

القزويني (زكريا بن محمد بن محمود):

- آثار البلاد وأخبار العباد، نشر دار صادر، بيروت ١٣٠٨ هـ
١٩٦٠ م.

القلقشندي (أبو العباس أحمد):

- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة ١٣٣٣ هـ ١٩١٤ م.
كراتشكوفسكي (اغناطيوس يوليانوفتش):

- تاريخ الأدب الجغرافي العربي: القسم الأول، نقله إلى اللغة العربية
صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة ١٩٦٣ م، والقسم الثاني نقله نفس
المترجم، القاهرة ١٩٦٥ م.

كرافولسكي (دوروتيا):

- العرب وإيران: دراسات في التاريخ والأدب من المنظور الأيديولوجي
ترجمة الدكتور رضوان السيد، الطبعة الأولى، دار المنتخب العربي
للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م.

لسترايج (كى):

- بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية، وأضاف إليه تعليقات بلدانية وتاريخية وأثرية، ووضع فهرسه: بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

ماركو پولو:

- رحلات ماركو پولو، ترجمها إلى الإنجليزية ونشرها "وليم مارسدن" ترجمها إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد، الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧م.

الملاوردى (أبو الحسن بن محمد بن حبيب البصرى):

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- المجتمع العربى، تأليف مجموعة من أساتذة كلية الآداب بجامعة عين شمس، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٦م.

محمود نجيب حسنى (دكتور):

- الموجز فى قانون العقوبات: القسم الخاص، القاهرة ١٩٩٣م.
- المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على):
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد الطبعة الثالثة، القاهرة ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م.

المقرئى (تقى الدين أحمد على):

- الخطط المقرئية المسماة المواعظ والاعتبار، طبع بمطبعة الساحل الجنوبى، الشياح، بيروت ١٩٥٩م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر وتحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٣٥٣ - ١٣٥٨هـ / ١٩٣٤ - ١٩٣٩م.

- المؤرخ الإيراني الكبير غياث الدين خواندمير كما يبدو فى كتابه دستور الوزراء، تأليف وترجمة وتعليق الدكتور حربى أمين سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠م.

النسوى (نور الدين محمد بن أحمد بن علي بن محمد المنشى):

- سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي
القاهرة ١٩٥٣م.

نظام الملك الطوسي (خواجه):

- سياستنامه أو سير الملوك، ترجمة الدكتور يوسف حسين بكار، الطبعة
الثانية دولة قطر، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

نيندهام (جوزيف):

- موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين، ترجمة محمد غريب جوده
الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٩٥م.

هارولد لام:

- چنگيز خان وجحافل المغول، ترجمة متري أمين، مراجعة وتقديم
الدكتور زكي نجيب محمود، القاهرة ١٩٦٢م.

هنتس فالتر:

- المكاييل والأوزان الإسلامية، وما يعادلها في النظام المتري، ترجمه عن
الألمانية الدكتور كامل العسيلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان
١٩٧٠م:

ياقوت الحموي:

- معجم البلدان، نشر دار صادر، بيروت ١٣٧٦هـ ١٩٧٦م.

ثانيا: المراجع الفارسية

اقبال (عباس):

- تاريخ مفصل ایران استیلاى مغول تا اعلان مشروطیت، جلد اول: از
حملة چنگیز تا تشکیل دولت تیموری، طهران ۱۳۱۲ هـ.ش.

- مقالة بعنوان: "چاو چاپ اسکناس" نشرت ضمن مجموعة
مقالات عباس اقبال آشتیانی: شامل یکصد و یک مقاله بامقدمه
و تصحیح دکتر محمد دبیر سیاقی، تهران ۱۳۵۰ هـ.ش.

اقبال یغمائی:

- بسطام و بایزید بسطامی، تهران ۱۳۱۷ هـ.ش.

پارتولد:

- تذکرة جغرافیای تاریخی ایران، ترجمه حمزه سردادور (طالب زاده)
طهران ۱۳۰۸ هـ.ش.

پراون (ادوارد):

- از سعدی تاجامی: تاریخ ادبی ایران از نیمه قرن هفتم تا آخر قرن نهم
هجری: عصر استیلاى مغول و تاتار، ترجمه و حواشی بقلم علی أصغر
حکمت، تهران ۱۳۲۷ شمسی = ۱۹۴۸ میلادی.

بیانی (شیرین: اسلامی ندوشن):

- دین و دولت در ایران عهد مغول، جلد دوم: حکومت ایلخانی: نبرد
میان دوفرنگ، چاپ اول، تهران ۱۳۷۱ هـ.ش.

پطروشفسکی:

- کشاورزی و مناسبات ارضی در ایران عهد مغول، ترجمه کریم
کشاورز، تهران ۲۵۳۵ شاهنشاهی.

پیکولو سکایا (ن.و) و آخرون:

- تاریخ ایران از دوران باستان تا پایان سده هجدهم میلادی، ترجمه کریم کشاورز، تهران ۱۳۵۴ ه.ش.

جروسیه:

- امپراطوری صحرانوردان، ترجمه عبدالحسین میکده، چاپ سوم تهران ۱۳۶۸ ه.ش.

جوزجانی (أبو عمرو منهاج الدین عثمان بن سراج الدین، معروف به منهاج سراج):

- طبقات ناصری (ألف فی الفترة ما بین ۶۵۷ - ۶۵۸ هـ) تحقیق عبدالحی حبیبی قندهاری، کابل ۱۳۴۳ ه.ش.

الجوبی (علاء الدین عطا ملک بن یاء الدین محمد):

- تاریخ جهانگشای (ألف ما بین سنة ۶۵۰ - ۶۵۸ هـ) نشر وتصحیح محمد بن عبد الوهاب القزوينی، لیدن ۱۳۲۹ / ۱۳۵۵ هـ / ۱۹۱۱ م. ۱۹۳۷.

حافظ آبرو:

- ذیل جامع التواریخ رشیدی (ألف سنة ۸۳۳ هـ / ۱۴۲۹ م شامل وقایع ۷۰۳ - ۷۸۱ هجری قمری)، باهتمام دکتر خانابا بیانی، تهران ۱۳۵۰ ه.ش.

خواندمیر (غیاث الدین محمد بن همام):

- حبیب السیر فی أخبار أفراد البشر (ألف سنة ۹۳۰ هـ / ۱۴۲۳ م چاپ أول، تهران ۱۳۳۳ ه.ش. چاپ دوم عکسی، تهران ۱۳۵۳ ه.ش.

- رجال حبیب السیر: از حمله مغول تا مرگ شاه اسماعیل اول، گگرد آورده عبدالحسین نوائی، بامقدمه و سه فهرست، طهران ۱۳۲۴ ه.ش.

- رشید الدین فضل الله بن عماد الدوله أبی الخیر بن موفق الدوله همدانی:
- تاریخ مبارک غازانی (داستان غازان خان) بسعی و اهتمام أقل العباد "کارل یان"، هرتفورد از بلاد انگلستان سنة ۱۳۵۸ هجری مطابق سنة ۱۹۴۰ مسیحی.
- جامع التواریخ، جلد دوم در تاریخ پادشاهان مغول از اوگتای قاآن تا تیمور قاآن، نشر و تحقیق ادگار بلوشیه، لیدن ۱۳۲۹هـ/۱۹۱۱م.
- جامع التواریخ: مغول ایران، جلد سوم، متن علمی و انتقادی فارسی بسعی و اهتمام عبد الکرم علی اوغلی علی زاده، نشر معهد الدراسات الشرقية بآذربيجان السوفیة، باکو ۱۹۵۷م.
- جامع التواریخ، جلد اول از آغاز پیدایش قبایل مغول تا پایان دوره تیمور قاآن، نشر و تحقیق بهمن کریمی، طهران ۱۳۲۸هـ.ش.
- جامع التواریخ رشید الدین فضل الله همدانی، به تصحیح و تحشیة محمد روشن مصطفی موسوی، جلد اول، تهران ۱۳۷۳هـ.ش.
- جامع التواریخ: قسمت اسماعیلیان و فاطمیان و نزاریان و داعیان و رفیقان، بکوشش محمد تقی دانش پژوه و محمد مدرسی (زنجانی) بنگاه ترجمه و نشر کتاب، چاپ دوم، تهران ۲۵۳۶ شاهنشاهی.
- تاریخ افرنج بافصلی از جامع التواریخ، با مقدمه و حواشی و فهرس بکوشش محمد دبیر سیاقی، مدخل کارل یان، تهران ۱۳۳۹هـ.ش = ۱۹۶۰م.
- جامع التواریخ، جلد ۲، جزء ۵: ذکر تاریخ آل سلجوق، بسعی و اهتمام احمد آتش، انقره ۱۹۶۰م.
- مکاتبات رشیدی، بسعی و اهتمام و تصحیح أقل العباد محمد شفیع، بإضافة حواشی و فهرس، لاهور ۱۳۶۴هـ ۱۹۴۵م.

- وقفنامه ربع رشیدی: الوقفية الرشيدية بخط الواقف فی بیان شرائط
أمور الوقف والمصارف. اثر رشید الدین فضل الله بن ابی الخیر بن
عالی الممدانی مشتهر برشید الطیب، جاب عکسی از روی نسخه
أصل، زیر نظر مجتبی مینوی ایرج افشار، سلسله انتشارات انجمن
آثار ملی، شماره ۸۷، تهران ۱۳۵۰ ه.ش.

زاده (هاشم رجب) دکتر:

- آئین کشور داری در عهد وزارت رشید الدین فضل الله همدانی،
تهران ۲۵۳۵ شاهنشاهی:

ستوده (منوچهر):

- قلاع اسماعیلیه در رشته کوههای البرز، تهران ۱۳۴۵ ه.ش.

شبانکاری (محمد بن علی بن محمد):

- مجمع الأنساب به تصحیح میر هاشم محدث، تهران ۱۳۶۳ ه.ش.

شپولر (برتولد):

— تاریخ مغول در ایران: سیاست، حکومت و فرهنگ ایلخانان، ترجمه

دکتر محمود آفتاب، تهران ۱۳۵۱ ه.ش.

صفا (ذبیح الله) دکتر:

- خلاصه تاریخ سیاسی و اجتماعی و فرهنگی ایران تا پایان عهد صفوی

تهران ۲۵۳۶ شاهنشاهی.

القاشانی (أبو القاسم عبد الله بن محمد)

- تاریخ اولجایتو (پادشاه سعید غیاث الدین اولجایتو سلطان

محمد - طیب الله مرقد - به اهتمام مهین همیلی، بنکاه ترجمه و نشر

کتاب، تهران ۱۳۴۸ ه.ش.

لوی (حبیب)

- تاریخ یهود ایران، نشر کتابفروشی بروخیم، تهران ۱۳۳۹ شمسی =

۱۹۶۰ میلادی.

- مجموعه خطابه های تحقیقی درباره رشید الدین فضل الله همدانی که در مجلس علمی مربوط به او از ۱۱ تا ۱۶ آبان ۱۳۴۸ ه.ش در دانشگاه های تهران و تبریز خوانده شده است، طهران ۱۳۵۰ ه.ش. نجوائی (محمد بن هندوشاه):

- دستور الکاتب فی تعیین المراتب، جزء اول از جلد یکم، نشر و تحقیق عبد الکرم علی اوغلی زاده، مسکو ۱۹۶۴ م. نصیر الدین طوسی (خواجه):

- تنسوخ نامه ابلخانی، بامقدمه و تعلیقات مدرس رضوی، تهران ۱۳۴۸ ه.ش.

وصاف (ادیب شرف الدین عبد الله بن فضل الله شیرازی الملقب بوصاف الحضرة):

- تاریخ وصاف، طبع بمبای، ۱۲۶۹ ه.

- تحریر تاریخ وصاف، به قلم عبد المحمد آیتی، انتشارات بنیاد فرهنگ ایران، تهران ۱۳۴۶ ه.ش.

ثالثاً: المراجع الأوربية

Arberry:

- Classical Persian Literature on Rashid Al Din, London 1958.

Barthold.W.

- Mir Islama, St Petersburg, 1912.

Berthold Spuler:

- Die Mongolen in Iran, Leipzig, 1939.
- The Cambridge History of Iran. Vol 5, The Saljug and Mongol Periods, edited by J.Boyle, Cambridge 1968.

M. Le Baron:

- Histoire Des Mongols depuis Tchinguiz-khan Jusqu' à Timour Bey ou Tamerlan, Paris, 1824.
- Encyclopaedia Judaica, Vol 13, Second Printing, Jerusalem, 1973.

Grousset Ren:

- L'Empire des Steppes. Paris, 1948.

Howorth H.H:

- History of the Mongols. London, 1875.
- Proceedings of the Colloquim On Rashid Al Din Fadlallah: Tehran, Tabriz, II - 16 Aban 1348 (27 November 1969), Tehran 1971.
- Rashid al Din,s Knowledge of Europe, by Karl Jpan.
- Rashid al Din Fazl Allah and India, by k. A Nizami.

Walter J. Fischel:

- Jews in Economic and political Life of Mediaeval Islam,
Royal Asiatic Society Monographs, Vol. XXII, London, 1937.

فهرس الموضوعات

صفحة

٧

مقدمة

الدراسة

١٧

أولاً: رشيد الدين وكتابه جامع التواريخ

التعريف برشيد الدين المؤرخ

تأليف كتاب جامع التواريخ

أقسام هذا الكتاب

أهميته

٣٢

ثانياً: رشيد الدين وتاريخ غازان خان

الأقسام الرئيسية الثلاثة التي اشتمل عليها هذا التاريخ

٣٤

القسم الأول

نشأة غازان وتربيته تعيينه حاكماً على خراسان اعتناقه

الإسلام

توليه العرش واتخاذ الإسلام ديناً رسمياً للدولة النتائج

التي ترتبت على ذلك تدليل المؤرخ على صحة إسلام

غازان

٣٨

القسم الثاني

التاريخ السياسي للفترة التي حكم فيها غازان

موقفه من نوروز الحملات التي شنّها على الشام

٤٧

القسم الثالث

الإصلاحات التي قام بها غازان خان بوحى من إسلامه

وإخلاصه لعقيدته

الترجمة

٧٧ تاريخ غازان خان بن أرغون خان بن آباخان بن هولاكو
خان بن تولوي خان بن چنگيز خان
وهو يشتمل على ثلاثة أقسام:

٧٨ القسم الأول من تاريخ غازان خان:

فى تقرير نسبه العظيم، وذكر أحواله منذ الوقت المبارك
لولادته حتى زمان جلوس والده أرغون خان على عرش
السلطنة، وذكر زوجاته وأبنائه وجدول شعبهم الشريفة

٨٧ القسم الثانى من تاريخ غازان خان:

فى مقدمة جلوسه المبارك، وصورة العرش والخواتين
والأمراء الأغبال والأمراء عند جلوسه على عرش السلطنة
وتاريخ زمان حكمه، والحروب التى قام بها، والفتوحات
التي تسرت له

مقدمة جلوسه المبارك منذ أن عهد إليه والده أرغون خان
بأن يكون نائبا عنه فى حكم خراسان إلى وقت تغلبه على
باينلو

وهذا القسم يشتمل على عدة حكايات:

١٠٢ - حكاية حاله فى خراسان بعد وفاة أبيه أرغون خان حتى
وقت مسيره إلى ناحية آذربيجان فى عهد كيخاتو ثم
عودته من تبريز إلى خراسان

١٠٦ - حكاية توجه غازان إلى ناحية آلتاغ قاصدا مقابلة
گيخاتو وعودته من تبريز وهزيمة نوروز وفتح نيسابور

١١٠ - حكاية خضوع نوروز ومثوله مرة أخرى أمام غازان
والاحتفال بهذه المناسبة وتقديم الهدايا

- ١١٣ - حكاية توجه غازان من ناحية خراسان إلى عراق العجم وعمارته بايدو في منطقة "هشترود" و"قربان شيره"
- ١٢١ - حكاية انشراح الصدر المبارك لسلطان الإسلام غازان خان بنور الإيمان، واعتناقه الإسلام هو والأمراء بحضور ابن الشيخ صدر الدين حمويه الجويني دامت بركته
- ١٢٥ - حكاية توجه الرايات المباركة لسلطان الإسلام غازان خان للقاء بايدو للمرة الثانية، وخضوع أمرائه
- ١٣٠ - حكاية الشروع في ترتيب شئون الجيش والبلاد، وذلك عقب الجلوس المبارك لسلطان الإسلام
- ١٣٢ - حكاية نمرود "سوكا" و"بارولا" ووضوح ذلك وتوجه الجيش للقضاء عليهما ومآل تلك الحال
- ١٣٦ - حكاية أحوال "نورين آقا" وموقف الأمير نوروز منه وبدء اختلال أمور نوروز
- ١٣٩ - حكاية توجه الرايات السلطانية إلى بغداد وإعدام "أفراسياب لير" و"جمال الدين الدستجرداني ومولانا عز الدين مظفر الشيرازي وولادة الأمير النجل "اوجلجاي"
- ١٤٢ - حكاية حال "قيصر" غلام الأمير نوروز، وقتل أبناء نوروز وإخوته، والقضاء على نفوذه نهائياً، وقتله في هراة
- ١٤٩ - حكاية ارتفاع منزلة صدر الدين الزنجاني، وازدهار شأنه بعد قتل الأمير نوروز، ووصول الرايات السلطانية من آلتاغ إلى تبريز، وتشيد القبة العالية في "شم تبريز"
- ١٥١ - حكاية اختلال أحوال صدر الدين الزنجاني وإعدامه

- ١٥٥ - حكاية توجه الرايات السلطانية من دار الملك تبريز إلى
مشتى بغداد وتفويض منصب الوزارة إلى الخواجة سعد
الدين، ووصول خبر نمرود "سولاميش" ومسير الجيش
لإخضاعه
- ١٥٩ - حكاية توجه سلطان الإسلام إلى الشام ومصر، ومحاربة
المصريين وهزيمتهم، وفتح بلاد الشام
- ١٦٧ - حكاية توجه سلطان الإسلام إلى الشام ومصر للمرة
الثانية
- ١٧٠ - حكاية تكريم الخواجة سعد الدين صاحب الديوان
وإعدام حاسديه
- ١٧٢ - حكاية توجه سلطان الإسلام غازان خان إلى ناحية
"آلاتاغ" ثم تحركه من هناك عن طريق نخجوان إلى مشتى
"أران"، ووصول الرسل الذين كانوا قد أوفدوا إلى مصر
- ١٧٤ - حكاية الحفل العام الذى أقامه سلطان الإسلام فى المخيم
الذهبي بموضع بستان أوجان، وختم القرآن هناك
والإنعام العام
- ١٧٧ - حكاية توجه الرايات السلطانية من مدينة الإسلام
"أوجان" إلى بغداد، وشرح الأحوال التى حدثت فى
الطريق، ثم الوصول إلى واسط والحلة، والتصميم على
السير إلى الشام
- ١٨٤ - حكاية وصول قتلغشاه نويان للقاء جيش مصر، ثم
رجوعه من هناك، وعودة الرايات السلطانية إلى أوجان
- ١٨٦ - حكاية محاكمة الأمراء والجنود الذين عادوا من الشام، ثم
عقد مجلس الشورى (القوريلتاي) بموضع أوجان وتشرف
الأمراء بقاء غازان

- ١٨٧ - حكاية إصابة سلطان الإسلام بالرمد، ووصول الأمراء الأنجال من خراسان، ثم توجه الرايات السلطانية إلى بغداد، ونزولها في "هولان موران"
- ١٨٩ - حكاية اعتكاف سلطان الإسلام في مشفى "هولان مران" وظهور "الأفرنك" وشرده، وإعدام جماعة المثيرين للفتنة
- ١٩١ - حكاية إقامة الحفل في مخيم "ايلتوزميش خاتون" للاحتفال بعيد ميلاد الأمير النجل "أبى يزيد"، وخروج سلطان الإسلام من معتكفه الأربعيني (جهله)
- ١٩٢ - حكاية تكريم الحواجه سعد الدين صاحب الديوان لما أبداه من إخلاص في قضية "الأفرنك"
- حكاية وفاة "كرمون خاتون"، ونقل جثمانها إلى تبريز والكلمات العديدة الحكيمة التي تفوه بها سلطان الإسلام في شئون الخلق والحياة

١٩٩ القسم الثالث من تاريخ غازان خان:

- في أخلاقه الحميدة وسيره المستحسنة، وآثار عدله وإحسانه وخبراته وميراثه وفنون آدابه وأفضل عاداته وكلماته التي صرح بها في كل وقت، يحتاج الأمر فيه إلى تحقيق وتدقيق والحكم الرصينة والقوانين النافذة المتضمنة رعاية مصالح كافة الخلق، والتي نفذها في كل شأن من الشئون، ونوادير الحكايات والأحوال مما لم يذكر في القسمين السابقين. وهذه يتضمنها موضوعان: أحدهما تم تبويه وتسجيله وهو عبارة عن أربعين حكاية وثانيهما يحرر حسب القضايا والحوادث المختلفة والمتفرقة
- ٢٠٢ الحكاية الأولى - في فنون كمالات وعلوم سلطان الإسلام خلد ملكه ومعرفته الصناعات المختلفة، ووقوفه على أسرارها

- ٢١١ الحكاية الثانية فى عفة سلطان الإسلام وعصمته
- ٢١٢ الحكاية الثالثة فى فصاحة سلطان الإسلام وبلاغته،
وحسن سؤاله وجوابه للقرىب والبعىد والترك
والتأزىك
- ٢١٤ الحكاية الرابعة فى صبر سلطان الإسلام وثباته وصدق
عهده وميثاقه
- ٢١٨ الحكاية الخامسة فى أن كل كلمة تجرى على اللسان
المبارك لسلطان الإسلام تكون دقيقة
وقصيدة
- ٢١٩ الحكاية السادسة فى بذل سلطان الإسلام وعطائه وجوده
وسخائه على وجه مستحسن قائم على
المعرفة
- ٢٢٥ الحكاية السابعة فى إبطال الديانة البوذية وتخريب معابد
البوذىين وتعظيم كل الأصنام
- ٢٢٧ الحكاية الثامنة فى عجة سلطان الإسلام لأسرة الرسول
عليه السلام
- ٢٢٨ الحكاية التاسعة فى شجاعة سلطان الإسلام وإعداد الجيش
للقتال، والمثابرة والثبات فى الحروب
- ٢٣٣ الحكاية العاشرة فى إثناء سلطان الإسلام النصيح إلى
القضاة والمشايخ والزهاد وأهل العلم
والتقوى
- ٢٣٦ الحكاية الحادية عشرة فى منع سلطان الإسلام الجنود
وغيرهم من التفوه بكلمات الكفر
- ٢٣٨ الحكاية الثانية عشرة فى ميل سلطان الإسلام إلى التعمير
وحث الناس على ذلك

- ٢٤٣ الحكاية الثالثة عشرة في أبواب البر التي أنشأها وأحدثها
سلطان الإسلام في تبريز وهمذان
والولايات الأخرى، والأوقاف التي أوقفها
عليها، والترتيبات التي أعدها لذلك
- ٢٥٣ الحكاية الرابعة عشرة في القضاء على التزوير والدعوى
الباطلة ومنع خيانة الخائنين والمارقين
- نص المرسوم الخاص بتفويض القضاء
 - نص المرسوم الخاص بعدم النظر في
القضايا التي مضى عليها ثلاثون سنة
وذلك بالشروط المقررة في هذا الشأن
 - نص الوثيقة المكتوبة على ظهر المرسوم
 - نص المرسوم الخاص بإثبات ملكية البائع
قبل البيع
 - نص المرسوم بخصوص تأكيد الأحكام
السابقة وتسهيل الشروط اللاحقة
- ٢٧٣ الحكاية الخامسة عشرة في إتلاف القبالات غير القانونية
وإبطال الحجج البالية
- ٢٨٠ الحكاية السادسة عشرة في إبطال الحكر والاستيلاء بغير
الحق على ملك الغير والقضاء على أنواع
المصادرات
- نص المرسوم الخاص بتحويل مقررات
الولايات التي كتبها الدهوان الأعلى
بالتفصيل، ومنع حكام الولايات منعا
باتا من تحرير الحوالات

- ٣٠٦ الحكاية السابعة عشرة فى المحافظة على الرعايا ورعايتهم
ودفع الظلم عنهم
- ٣٠٨ الحكاية الثامنة عشرة فى إبطال دواب البريد، وعدم إفساد
الرسل وكف أذاهم عن الخلق
- ٣١٥ الحكاية التاسعة عشرة فى القضاء على اللصوص وقطاع
الطرق وتخليص الناس منهم
- ٣١٩ الحكاية العشرون فى تخليص عيار الذهب والفضة من
الغش بطريقة فريدة لم تكن موجودة من
قبل على الإطلاق، ولم يكن من الممكن أن
يكون هناك ما هو أفضل منها
- ٣٢٤ الحكاية الحادية والعشرون فى تعديل أوزان الذهب
والفضة والأحمال والمقاييس والمكاييل وغير
ذلك
- ٣٢٩ الحكاية الثانية والعشرون فى ضبط الأمور المتعلقة بشئون
المراسيم والهايزات التى تمنح للناس
- ٣٣٤ الحكاية الثالثة والعشرون فى تدبير الشئون الخاصة
باسترداد المراسيم والهايزات المكررة التى
كانت موجودة فى أيدي الناس
- ٣٣٨ الحكاية الرابعة والعشرون فى منح جنود المغول
الإقطاعات فى مختلف المواضع من كل
ولاية
- ٣٤٧ الحكاية الخامسة والعشرون بخصوص كيفية إعداد جيش
خاص للسلطان
- ٣٥٠ الحكاية السادسة والعشرون فى تحریم التعامل بالربا والغبن
الفاحش

- ٣٦١ الحكاية السابعة والعشرون فى منع المغالة فى دفع مهور
الزواج
- ٣٦٣ الحكاية الثامنة والعشرون فى إقامة المساجد والحمامات
فى جميع القرى التى تضمها البلاد
- ٣٦٤ الحكاية التاسعة والعشرون فى منع الخلق من احتساء الخمر
- ٣٦٦ الحكاية الثلاثون فى إعداد الطعام الخاص والشراب
للمخيم المعظم
- ٣٧٠ الحكاية الواحدة والثلاثون فى إعداد النفقات الخاصة
بطعام الخواتين والمعسكرات
- ٣٧٢ الحكاية الثانية والثلاثون فى ضبط شئون الخزانة وترتيب
مهامها ومصالحها
- ٣٧٦ الحكاية الثالثة والثلاثون فى ترتيب شئون المؤسسات
العسكرية ومصانع الأسلحة
- ٣٨٠ الحكاية الرابعة والثلاثون فى ترتيب شئون دواب الخاقان
- ٣٨٢ الحكاية الخامسة والثلاثون فى ترتيب الشئون المتعلقة
بالبصايد ومروضى الفهود
- ٣٨٧ الحكاية السادسة والثلاثون فى ترتيب شئون كل الممالك
(الإصلاح الزراعى)
- ٣٩١ الحكاية السابعة والثلاثون فى إعداد الشئون الخاصة بتعمير
الأراضى البور (تابع الإصلاح الزراعى)
- ٣٩٨ الحكاية الثامنة والثلاثون بشأن صدور المرسوم المتعلق
بإقامة دور فى الممالك خاصة بالرسول،
ومنع الشحن والحكام من النزول فى
بيوت الناس
- ٤٠١ الحكاية التاسعة والثلاثون فى منع المكارين والجمالين
والسعاة من إيذاء الناس

- ٤٠٤ الحكاية الأربعون في منع إجبار الجوارى على الإقامة في
دور البغاء

النصوص الإضافية

- ٤١٠ النص الأول حكاية مسير الأمير نوروز إلى تركستان لدى
قيدوخان
- ٤١٤ النص الثاني حكاية اعتناق غازان الإسلام، وكيف تم
ذلك

- ٤١٩ قائمة المراجع

دار النشر للطباعة والإخراج الفني
٢ - شارع فلسطين شجيرة الخضراء
الرقم البريدي - ١١٢٣١

هذه ترجمة كاملة لتاريخ غازان خان الذى يكون
قسطاً مهماً من كتاب جامع التواريخ. تأليف، رشيد
الدين فضل الله الهمداني، مؤرخ المغول الكبير
والكاتب الموسوعى الذى أحاط علمه بكثير من أنواع
المعارف والثقافات. ولكن شهرته كمؤرخ كانت تأتي فى
المقدمة دائماً.

وتبرز أهمية الكتاب فيما نقرؤه عن المغول فى
الأحداث التى كان يعايشها المؤرخ؛ فقد عاصر هذا
المؤرخ دولة المغول فى أبيض قراىتها. وشاهد حصار
بغداد وفتحها على يد هولاكو خان. والتحق بخدمة
أعظم سلاطين الإيلخانيين وبلغ أسمى المراتب فى
عهد غازان وأولجايتو وفترة من حكم أبى سعيد بهادر
خان، ولعب دوراً هاماً فى سياسة دولة المغول وإدارتها.
فإذا جاء هذا المؤرخ وأرخ لهذه الفترة، فإنه يؤرخ
لأحداث كان يعاشرها ويشهد لها بعينى رأسه، ويصفها
وصف المثقف الخبير بشئون الحياة. كذلك استطاع
الاطلاع على الوثائق المكتوبة والإفادة منها. وهذه
ميزة كبيرة لم تتوافر لغيره ممن كتبوا عن تاريخ
المغول من السابقين أو المعاصرين له.

Bibliotheca Alexandrina



0413741

ISBN 977-5875-70-6



90000



9 789775 875709